شركة دار
رسالة البيان
للنشر والتوزيع
١٥

مجالس التذكير

فصول إيمانية تربوية

أ.د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل
الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

مؤسسة مفاتح العلم الوقفية

طبع الكتاب بدعم من
مؤسسة مفاتح العلم الوقفية

مجالس التذكير

فصول إيمانية تربوية

مجالس التذكير

فُصُولٌ إيمانيّةٌ تربويّةٌ

تأليف

أ. د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل

الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم

مؤسسة مفاتيح العلم الوقفية

شركة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

طبع الكتاب بدعم من مؤسسة مفاتح العلم الوقفية

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء مشفوع بأكاليل المحبة والإجلال

إلى من أمرني ربي بشكرهما..

وقرن حقه بحقهما..

إلى من أُمرتُ أن أقول في دعائي:

﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

إلى والديّ الكريمين..

أهدي هذا الكتاب، فهو بعض غرسكما.

ابنكما: عمر

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالمجالس الطيبة التي تجمع المسلمين كثيرة، في مساجدهم وبيوتهم ومدارسهم واستراحاتهم، ويحرص كثيرون على عمارتها بالنافع المفيد، بقراءة فصل من كتاب، أو موضوع نافع.

والملاحظ أن كثيراً من هذه الكتب لا يمكن الفراغ من فصولها أو إكمال مواضيعها في مجلس قصير، فربما سمع الشخص في مجلس اليوم موضوعاً مرتبطا بمجلس سابق أو لاحق، فيصعب عليه الربط بينها لو كان مستمراً في الحضور، فكيف إذا تخلل ذلك غياب أو نحوه؟

ومن هنا جاءت فكرة هذا الكتاب - الذي اقترحه بعض الإخوة الكرام - بحيث يشتمل كل مجلسٍ منه على فكرة مستقلة، وموضوع واحد، لا يتعلق بما قبله ولا بما بعده من المجالس، يمكن للإمام في مسجده، أو الوالد في بيته، أو المربي في محضنه، أو المعلم في مدرسته أن يقرأ منه، ويخرج بفكرة مكتملة في حدودها في مجلس واحد، ينتقل في هذه المجالس بين آية يهتدي بها، أو حديث شريف يضيء له الطريق، أو موعظةٍ ترقق القلب من صحابي أو مفسّر، أو خاطرةٍ تُشيدُ بقيمة إيجابية، أو تعالج سلوكاً سلبياً.

وقد سميته «**مجالس التذكير**»، انتقيت مادته من مجموعة من كتبي التي سبق نشرها[1]، مع تهذيبها وإعادة صياغتها بما يلائم طبيعة هذه المجالس، مع مراعاة قصر الوقت عند قراءته في المسجد أو البيت أو المدرسة، وقد أخليته من المجالس ذات الصبغة الموسمية كرمضان والحج؛ لكثرة ما كتب في هذا الباب.

إن هذا الانفتاح الثقافي الذي ألقى بظلاله على المجتمعات ليحتّم علينا بيانَ مواضع الاهتداء بنور الوحيين، وعدمِ الاكتفاء بسرد الحديث سرداً دون بيان مواضع العبرة منه، وتنزيله على واقع الناس؛ ليقفوا عملياً على ما يُشَخّصُ الداء، ويصفُ الدواء لمشاكلهم، ويصحّحُ أخطاءهم، ويُعزّزُ الإيجابيات لديهم، ويبينُ المنهجَ الأمثلَ في التعامل مع نوازل الحياة.

أسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يتقبله، وأنا شاكرٌ سلفاً لكل من أمدّني برأي أو مشورة أو نصيحة.

وكتبه
أ. د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل
جوال وتليجرام: ٠٥٥٥١٥٤٤٩١
في ٢/ ٦/ ١٤٣٩هـ الموافق ١٨/ ٢/ ٢٠١٨م
Omar1427@gmail.com

(١) ككتاب قواعد قرآنية، وقواعد نبوية، ومواعظ الصحابة ومواعظ المفسرين، ومرافئ، وغيرها.

المجلس الأول
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾

هكذا قال مَنْ أنزل هذا القرآن على نبيه ﷺ، وهذه الآية ترسم قاعدة قرآنية عظيمة، تجعل المؤمن يزداد يقينًا بهذا القرآن، وأنه الكتاب الوحيد الذي يصلح لكل زمان ومكان.

وتأمل كيف قال الله: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾، ولم يقل: للطرق القويمة، بل جاءت الكلمة بأفعل التفضيل: ﴿أَقْوَمُ﴾، لتنبه المسلم على أنه لو وجدت طريقة قويمة وطريقة أقوم، فإنك ستجد القرآن قد دلّ على الأقوم، فلا مجال للاستدراك على طريقته، ولا عجب، فإنه تنزيل من حكيم حميد.

لقد أدرك سلفنا الصالح عمق دلالة هذه الآية الكريمة، فهذا أحد أئمة التابعين - قتادة رحمه الله - يجلّي شيئا من معانيها فيقول: «إن القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم: فأما داؤكم فالذنوب والخطايا، وأما دواؤكم فالاستغفار»[(١)].

وهذا العلامة الشنقيطي رحمه الله يكتب ستين صفحة في تفسيره لهذه الآية الكريمة، تحدث فيها عن نماذج عالجها القرآن، وهَدْيِه لأقومِ الطرق في حلِّها، صدّرها بقوله: «وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق، وأعدلِها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع

---

(١) الدر المنثور: (٥/ ٢٤٥).

القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة، ولكننا - إن شاء الله تعالى - سنذكر جملًا وافرة في جهات مختلفة كثيرة من هدي القرآن للطريق التي هي أقوم...» ثم سرد جملة من المسائل العقدية والعبادية والاجتماعية.

إنها - أيها المؤمنون - آية تقطع الطريق على المنهزمين من المسلمين، وعلى الزنادقة، الذين يظنون - لجهلهم - أن هذا القرآن إنما هو كتاب رقائق ومواعظ، ويعالج قضايا محدودة من الأحكام! أما القضايا الكبرى، كقضايا السياسة، والعلاقات الدولية، ونحوها، فإن القرآن ليس فيه ما يشفي في علاج هذه القضايا!!

وهذا الكلام - فضلًا عن خطورته شرعا - فإنه سوء أدب مع الله! ذلك أن ربنا حين أنزل القرآن يعلمُ أن العباد سيُقبلون على متغيرات كثيرة، وانفتاح، وعلاقات، ومستجدات، فلم يتركهم هملًا، بل حفظ لهم هذا القرآن ليرجعوا إلى هداياته، وحفظ لهم سنة نبيه ﷺ؛ لتكون شارحةً لما أجمل من قواعد القرآن، بل وجعل في السنة أحكامًا مستقلة، فمن أراد الهداية وجدها فيهما، ومن كان في عينيه عشى، أو في قلبه عمى، فلْيَتَّهم نفسه، ولا يرمين نصوص الوحي بالنقص والقصور.

المجلس الثاني

إنما الأعمال بالنيات[(١)]

هذا حديث عظيم يمثّل قاعدة من أعظم قواعد الإسلام.. هذه القاعدة العظيمة تعيش مع الإنسان في حركاته وسكناته.

ولما كان قبول العمل هو الغاية التي شمّر لها المشمرون، وكان الإخلاصُ أحد ركني قبول العمل؛ كانت العناية به من أهم المهمات، والحذرُ من ذهابها أو ضعفها من أوجب الواجبات، فلا شيء أعلى ولا أحلى من الإخلاص وثمراته، ولا شيء أخوف على المؤمن من حبوط العمل إما كلياً أو جزئياً!

فحريٌّ بالعبد أن يستحضر هذا الحديث في أعماله كلها؛ ويجاهد نفسه على أن تكون لله وحده، وطلباً لمرضاته، واتقاء لسخطه، وأن يروّض نفسه على عدم الالتفات للخلق، ولا يرجو نفعهم أو مدحهم، فإن حصل شيء من ذلك - دون قصد - لم يضره، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن[(٢)].

ببركة الإخلاص صرف الله الفاحشة عن يوسف عليه الصلاة والسلام.

وببركة الإخلاص غفر الله لامرأةٍ بغيٍّ سقت كلباً[(٣)] لا ترجو إلا ربها تعالى!

---

(١) البخاري ح(١)، ومسلم ح(١٩٠٧) بلفظ: «إنما الأعمال بالنية».

(٢) بهجة قلوب الأبرار: ص٦.

(٣) صحيح مسلم ح(٢٢٤٥).

وفي مقابل ذلك تأمل تلك الأفعال الكبيرة كيف فسدت بسبب سوء النية، وذلك لما سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، أو حمية، أو ليُرى مقامُه في صف القتال «أيّ ذلك في سبيل الله؟» فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[1].

لا يوجد في حياتنا عمل - مهما كانت منزلته - إلا ويرتبط بهذه القاعدة العظيمة: «إنما الأعمال بالنيات»، ومن ذلك: الإحسان إلى الخلق بالمال أو القول أو الفعل؛ فإن ذلك كله جميل وعظيم، وإذا اقترنت به نية صالحة كان ثوابه أعظم، كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ١١٤].

وفي البخاري عنه ﷺ: «**من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّاها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله**»[2] فانظر كيف جعل النية الصالحة سبباً قوياً للرزق وأداء الله عنه، وجعل النية السيئة سبباً للتلف والإتلاف!

وكذلك «مَن قصدَ بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية **الاستعانةَ بذلك على القيام** بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات، واستصحَب هذه النية الصالحة في أكله وشربه، ونومه وراحته ومكاسبه؛ **انقلبت عاداته عبادات**، وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أموراً لا يحتسبها ولا تخطر له على بال، ومن فاتته هذه النية الصالحة - لجهله أو تهاونه - فقد فاته خير كثير جداً»[3].

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وفيما نأتي ونذر.

---

(١) البخاري: (١٢٣)، مسلم: (١٩٠٤).
(٢) البخاري ح(٢٢٥٧).
(٣) ينظر: «بهجة قلوب الأبرار»: (ص: ٢٧).

المجلس الثالث

أبو بكر الصديق ﷺ واللسان

عن أسلم العدوي - مولى عمر بن الخطاب - قال: رأيتُ أبا بكر ﷺ آخذاً بلسانه يقول: «هذا أَوْرَدَني الموارِد»[١].

الله أكبر! هذا كلامُ الصديق عن لسانه، فماذا نقول نحن؟! ولك أن تتصور ما الكلمات التي خشي منها أبو بكر؟ وما الكلام الذي جعله يقول مثل هذا الكلام؟!

إنها خشيةُ الله، التي جعلته يفكِّر في كلامٍ مباحٍ قاله ولا حاجةَ له، أو قال كلاماً في غير موضعه اجتهاداً وتأوُّلاً!

أمَا والله.. إننا لأحق بهذه الكلمة من الصديق ﷺ! ونحن الذين نتكلم أكثر مما نعمل، وقلّ أن نسلم من الغيبة، فإن سلِمْنا منها لم نَسلَم من استماعها والسكوتِ عنها!

إن فتنة القول اليوم لم تعد مقصورةً على كلمةٍ يلقيها الإنسان في مجلس يحضره خمسة أو عشرة، بل اتسعت دائرتها لتصل إلى الآلاف بل الملايين في وقت قصير عبر وسائل التواصل التي حملها الناس معهم في أجهزتهم الكفيّة! وإذا انتشرت فما أصعبَ أن يصححها الإنسان!

(١) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ٩٠).

فهل نعي معشر المسلمين بعد هذه الموعظة من أبي بكر الصديق أهمية ضبط كلماتنا وعباراتنا؟

وخير من ذلك قول نبينا ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق»[1]، وقد بوّب عليه البخاري في صحيحه: باب حفظ اللسان.

ويكفي ردعاً للمسلم الذي لا يبالي أن يكذب وينشر - رغبةً في السبق دون تثبت - قوله ﷺ في حديث الرؤيا الطويل الذي رواه البخاري: «أما الذي رأيته يُشَقُّ شِدْقُه وهو جانب الفم، فكذّابٌ يحدث بالكذبة، فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيصنع به إلى يوم القيامة»[2] أي أنه كلما رجع شدقه، شّقّ مرةً أخرى، عياذا بالله.

اللهم اكفنا شر ألسنتنا، واجعلنا ممن لا يتكلم إلا بخير.

(١) البخاري (٦٤٧٧)، مسلم (٢٩٨٨).
(٢) البخاري ح(١٣٨٦).

المجلس الرابع
وقفة مع سورة التكاثر

علّق القرطبي رحمه الله في تفسيره على سورة التكاثر فقال:

(قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين.

فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير.

وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول... فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات.

وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف

على الأجداث فقط، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة - ونعوذ بالله من ذلك - بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت...

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضي من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب.

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه.

وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله.

وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه)[1] انتهى كلامه رحمه الله.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ١١٧).

المجلس الخامس
يا قارئ الفاتحة.. هل فهمتَ الرسالة؟

لا يستريب اثنان أن موضوع التشبه بالكفار قد اتسعت دائرته في عصرنا بشكل لم يسبق له نظير، ولذلك أسبابه التي لا تخفى، ولعل **الانفتاح الإعلامي** - بشتى وسائله - يأتي على رأس القائمة.. وليس المراد من هذا الحديث تلمسُ أسباب انتشار هذه الظاهرة، بل المراد التنبيه إلى علاج رباني عظيم لهذه الظاهرة، ألا وهو تدبر سورة الفاتحة، التي هي السبع المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيه نبينا ﷺ.

ذلك أن نصف هذه السورة ذهب في تقرير مسألة الاستقلال، والعزة بهذا الدين، والحذر من التشبه بالأُمَّتين الكتابيتين - اللتين ذكرهما النبي ﷺ في حديثه الآنف الذكر - فكيف بغيرهما من الأمم التي لا كتاب لها، وليس لها من الأحكام التي تميزت بها الأمم الكتابية! وذلك في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فأنت ترى كيف أمرنا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل بهذا الدعاء العظيم، وهو الهداية للصراط المستقيم، الذي سار عليه: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩]، وتأكد بالبراءة من طريق الأمة اليهودية التي غضب عليها لتركها العمل بالعلم، وبالبراءة من طريق الأمة النصرانية التي عبدت الله تعالى على غير هدى ولا كتاب منير.

إن تدبر هذه السورة ليجتث شجرةَ التشبه من أصلها، لكن هل الذين يتشبهون بأعداء الله تعالى يُدركون ويتدبرون ما يقرأون؟! لو كانوا كذلك لما رضوا بتنكّب صراط خُلّص عباده وأوليائه من الأنبياء والرسل، لينزلوا دركاتٍ إلى التشبه بعُبّاد الصليب، ومعتقدي التثليث، الذين نسبوا إلى الله تعالى العظائم.

وبما تقدم، ينفتح للمتدبر سرٌّ من أسرار هذه السورة العظيمة، التي أمرنا بقراءتها في كل ركعة، فهل نرى أثرها على حياتنا جميعاً، وعلى إخواننا وأخواتنا من الذين رضوا لأنفسهم بالدون حين تشبهوا بالكفار؟!

إن هذه السورة، لمن أقصر الطرق لعلاج هذه المشكلة التي تقلق المؤمن والغيور على أمته، وهي من خير ما يُذكّرُ به المتشبهون بالكفار.

فيا قارئ سورة الفاتحة.. هل فهمتَ هذه الرسالة جيداً؟

اللهم ارزقنا الاعتزاز بديننا، وأعذنا من التشبه بمن تكره من أعداء الملة والدين يا رب العالمين.

المجلس السادس

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾

الإنسان - كما يقال - مدني بطبعه، وكثرةُ تعاملاته اليومية تحتم عليه الاتصال بطوائف من الناس، مختلفي الأفهام والأخلاق، يسمع الحسن وغيره، ويرى ما يستثيره؛ فتأتي هذه القاعدة لتضبط علاقته اللفظية.

فقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] جاءت في سياق أمر بني إسرائيل بجملة من الأوامر، وهي في سورة مدنية - وهي سورة البقرة - وقال قبل ذلك في سورة مكية - وهي سورة الإسراء - أمرًا عامًا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣] إذًا فنحن أمام أوامر محكمة، ولا يستثنى منها شيء إلا في حال مجادلة أهل الكتاب كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦].

إننا نحتاج إلى هذه القاعدة بكثرة، خاصةً وأننا في حياتنا نتعامل مع أصناف مختلفة من البشر، فيهم المسلم وفيهم الكافر، وفيهم الصالح والطالح، وفيهم الصغير والكبير، بل ونحتاجها للتعامل مع أخص الناس بنا: الوالدان، والزوج والزوجة والأولاد، بل ونحتاجها للتعامل بها مع من تحت أيدينا من الخدم ومن في حكمهم.

وأنت - أيها المؤمن - إذا قلَّبت القرآن؛ وجدتَ أحوالًا نص عليها القرآن كتطبيق عملي لهذه القاعدة، فمثلًا:

١ - مع الوالدين: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ فأمر بعدم النهر، وأمر بضده وهو القول الكريم، الذي لا تعنيف فيه.

٢ - عند مخاطبة السائل المحتاج: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

٣ - عندما يبتلى الإنسان بأناس قلّ نصيبهم من الأدب، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: أنهم يقابلون الجهلَ والسفه بالإعراض عنهم، أو بالقول الطيب، ليس عجزاً منهم عن الرد، ولكن يحفظون وقتهم وجهدهم عن الاشتغال بهذا.

إن مما يُؤسف عليه أن يرى الإنسان تقصيراً في تطبيق هذه القاعدة في واقع أمة القرآن، وذلك في أحوال كثيرة منها:

- **في التعامل مع غير المسلمين:** وحُقَّ لقارئ القرآن أن يتساءل: ألسنا - نحن المسلمين - أولى بتطبيق هذه القاعدة من النصارى الذين يحرصون على القول الحسن؛ من أجل كسب الناس إلى دينهم الذي نسخه الله بالإسلام؟ أفليس أهلُ الإسلام أحق بتطبيق هذه القاعدة، من أجل كسب الخلق إلى هذا الدين العظيم الذي ارتضاه الله لعباده؟
- في التعامل مع الوالدين.
- في التعامل مع الطرف الآخر في الحياة الزوجية.
- مع الأولاد.
- وأخيراً، مع العمالة والخدم.

اللهم ألهمنا السداد في القول والعمل.

المجلس السابع

من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد[١]

هذا الحديث قاعدة عظيمة جامعة، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ وهو صريح في رد كل البدع والمخترعات»[٢] في الدين، «وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها، كما أنّ حديث: «الأعمال بالنيَّات» - كما تقدم -: ميزان للأعمال في باطِنها»[٣].

وهذه القاعدة تدل بمنطوقها ومفهومها على معانٍ جليلة:

أما منطوقها: فإنها تدل على أن كل بدعة أُحدثت في الدين، سواء كانت من البدع القولية الكلامية أو من البدع العملية، فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبُعدها عن الدين.

وأما مفهوم هذه القاعدة: فإن من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله - وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب - فعمله مقبول، وسعيه مشكور.

ويستدل بهذه القاعدة على أمور، منها:

أولاً: كل عبادة فُعلت على وجهٍ منهي عنه فإنها فاسدة؛ لأنه ليس عليها أمر الشارع[٤].

---

(١) البخاري ح(٢٥٥٠)، مسلم ح(١٧١٨). ومعنى: «فهو ردّ» أي: مردود عليه، وغير مقبول منه.
(٢) شرح النووي على مسلم: (١٢/ ١٦).
(٣) جامع العلوم والحكم: (ص٥٩).
(٤) ينظر: بهجة قلوب الأبرار(ص: ١٧).

ثانياً: أن قوله: «في أمرنا» دليل على أن المحدثات في الأمور الدنيوية غير داخلة في حدّ البدعة، بل هي من الأمور المباحة في أصلها، ولهذا قبل النبي ﷺ رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه في حفر الخندق، وأحدث الفاروق رضي الله عنه ديوان الجند الذي تسجل فيه أسماؤهم، واتفق السلف على جواز كتابة الحديث - بعد اختلاف قديم ثم انقرض - من أجل حفظ السنة والشريعة بعامة، إلى غير ذلك من الوقائع التي لا تكاد تحصر.

ومن تأمل في الإحداث في الدين وجد أنه ينطوي على مفاسد كثيرة، منها: أن في الابتداع في الدين نوعاً من الاستدراك على صاحب الشرع؛ الذي أكمل الدين بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وليس بعد الكمال إلا النقص، ولله در الإمام مالك يوم قال: ومن أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ﷺ خان الدين! لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً[١].

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام قولاً قطع به كل استثناء يتوهمه أحدٌ في هذا الباب، كما في الصحيح من حديث جابر: «**كل بدعة ضلالة**»[٢].

وفي شؤم الابتداع يقول حسان بن عطية: «ما أحدث قوم بدعة في دينهم؛ إلا نزع الله من سنتهم مثلها، ثم لم يعدها إليهم إلى يوم القيامة»[٣]، والآثار في هذا الباب كثيرة[٤].

ومن تأمل في واقع بعض المجتمعات الإسلامية التي فشت فيها بعض البدع تيقن هذه الحقيقة، فحين يفشو التوسل المحرم أو الشركي يضعف التوحيد، وحين تنتشر الأذكار المبتدعة تختفي الأذكار الشرعية، وهكذا، والله المستعان.

---

(١) أخرجه ابن حزم في «إحكام الأحكام» (٦/ ٢٢٥).
(٢) مسلم (٨٦٧).
(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٤).
(٥) رواه الدارمي في سننه رقم (٩٨).
(٤) ينظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٣٢) وما بعدها.

المجلس الثامن
الصلاة على فراش الموت

لما طُعِنَ الفاروق ﷺ طعنته تلك الليلة، والتي مات منها بعدُ، جعل يُغمى عليه، فدخل عليه المسور بن مخرمة وابن عباس - رضي الله عنهما - حين بزغ الفجر، فتحيّروا: كيف ينبهونه للصلاة إن كان به رمق وقدرة عليها: فقالوا: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة! فقالوا: الصلاةَ يا أمير المؤمنين قد صُلِّيَتْ، فانتبه! وقال: «**نعم.. الصلاة، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**» قال: **فصلى، وإن جرحه يثعب دما**[١].

إنك وأنتَ تقرأ هذه الوصية العمرية بالصلاة وهو يحتضر، ويستقبل الآخرة ويودع الدنيا؛ لتتذكر وصيةَ إمامِه ونبيه ﷺ الذي كان يوصي بالصلاة وهو يجود بنفسه: «الصلاة الصلاة! وما ملكت أيمانكم»[٢]! وكان ﷺ وهو يغالب المرضَ، ويُغمى عليه ثم يَفيق ولا يبدأ بغير ذلكم السؤال: «أصلى الناس؟» ثم يُغمى عليه ثم يفيق، ثم يعي السؤال: «أصلى الناس؟»[٣].

وهاهو الفاروق يعيد السيرة، وينتهج ذات الخط! فيعظنا قولاً وعملاً: «لا حظَّ في الإسلام لمن تَرَكَ الصلاةَ» وأما موعظته العملية فحين صلى والجرح يثعب دماً!

---

(١) موطأ مالك رقم (٥١)، «السنة» للخلال (٤/ ١٤٨)، واللفظ له.
(٢) مسند أحمد ح(١٢١٦٩)، مستدرك الحاكم ح(٤٣٨٨).
(٣) البخاري ح(٦٨٧)، مسلم ح(٤١٨).

إن هذا الموقف ليُهدى للذين يقصِّرون في الصلاة لأدنى سبب، أو يُصِرُّون على تركها - عياذاً بالله -! وأيُّ دِينٍ يبقى إذا سقط ركنُه؟!

وتأمل في قول الراوي: إنكم لن تفزعوه بشيء مثل الصلاة إن كانت به حياة!

لقد عرفوا منزلة الصلاة في نفس الفاروق، وعرفوا أنه لن يترك الجواب - مهما اشتد وجعه - وهو يقدر، ما دام الموضوع متعلقا بالصلاة! وبعض الناس ينام ملء عينيه، والمسجد بجانبه، والعافيةُ تسري في جسده، ويُوقظ للصلاة، فيؤثر النوم على أمر الله! بل ربما وبّخ من يوقظه! وشتان بين الموقفين. اللهم املأ قلوبنا تعظيما لهذه الصلاة، واجعلنا من أهلها حقا.

المجلس التاسع
وقفة مع أول آيات سورة هود

علّق العلامة الشنقيطي رحمه الله على قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود:٦ – ٨] فقال رحمه الله:

«اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظاً أكبر، ولا زاجراً أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون.

وضربَ العلماءُ لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلاً؛ ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتّالا للرجال، سفّاكاً للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلماً، وسيافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دماً، وحول هذا الملك الذي هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحداً من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا! بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم خوفاً من بطش ذلك الملك.

ولا شك - ولله المثل الأعلى - أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علماً، وأعظم مراقبة، وأشد بطشاً، وأعظم نكالا وعقوبة من ذلك الملك، وحماه في أرضه محارمه. فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي لان قلبه، وخشي الله تعالى، وأحسن عمله لله جل وعلا.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى، أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها، هي: أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العلم، كما قال تعالى في هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المآء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧] الآية، وقال في المُلْكِ: ﴿الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العزيز الغفور﴾ [الملك:٢].

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خلق من أجلها هي أن يبتلي، أي: يختبر: بإحسان العمل فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النَّبي ﷺ عن هذا، ليعلمه لأصحاب النَّبي ﷺ، فقال: «أخبرني عن الإحسان»، أي وهو الذي خلق لأجل الاختبار فيه، فبين النَّبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) انتهى كلامه.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٩).

المجلس العاشر
قبل اتخاذ القرار

كثيراً ما تمر بأحدنا مواقفُ فرحٍ أو حزن، تتحرك معها العاطفةُ بقرارٍ يترجم اللحظةَ التي مررنا بها في ذلك الموقف، حتى إذا هدأت سَوْرةُ تلك اللحظة؛ بدأ الشخصُ يعيد حساباته في ذلك القرار الذي اتخذه، أو الكلمة التي أطلقها.

قد تكون تلك الكلمة نذْراً شاقاً كلّف به نفسَه! أو قرارَ طلاقٍ لم يُدْرَس، أو موافقةً على مهمة عملٍ لم يتأملها صاحبُها، أو رضىً بالارتباط بشريك العمر في الزواج، في ألوان وصورٍ من القرارات التي تتكرر في حياتنا.

وقد يتناقش صديقان في مسألة ما؛ فترتفع الأصوات، ويكثر اللغط، فيقرر أحدُهما اتخاذ قرار المفاصلة والمقاطعة، ودفن مشروع الصداقة في مقبرة الجدال والخصام!

وفي مجال العمل: قد يقع نقاش بين العامل وصاحب العمل، أو بين الموظف ومديره؛ فترتفع اللهجة، وتعلو لغة الغضب، فيقرر أحدهما - في نفس المجلس - قراراً آنياً؛ إما بفصل العامل من صاحب العمل، أو يطلب الموظف الاستقالة أو الانتقال إلى موقع آخر، ثم عند هدوء سَورة الغضب، يندم أحدُ الطرفين.

وفي مقام الفرح: قد يحلف أحدُهم أو ينذر نذراً شاقاً ليَفعلنّ كذا وكذا، فإذا ذهبت السكرة، وحضرت الفكرة؛ بدأ يطرق أبواب المفتين ليجد مخرجاً من هذا النذر الذي عقده في لحظة فرح، وقد يعقده - أيضاً - في لحظة يأس من شفاء مرضه، أو انكشاف غمته!

لقد ذمّت العربُ العجلة، وكانت تكنيها «أم الندامات»، «فعليك بالأناة؛ فإنك على إيقاع ما أنت مُوقِعه أقدر منك على ردّ ما قد أوقعتَه»[1]، «والرافق لا يكاد يُسبَق، كما أن العَجِلَ لا يكاد يُلحق: فالعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يَفهم، ويحمد قبل أن يجرّب، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعَجِل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة»[2].

وهذا كله فيما لا يحتاج إلى قرار عاجل لا يحتمل التأخير، مع أهمية الاستشارة والاستخارة في كل الأحوال.

وإذا تأنى العبدُ، ودرس قرارَه، واستشار ثم استخار؛ فلا ريب أنه لن يندم مستقبلاً مهما كانت النتائج التي آل إليها الأمر؛ لأنه فعل ما بوسعه، والله الموفق.

---

(١) الرسائل الأدبية للجاحظ (ص: ٣٣٤).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٢١٦).

المجلس الحادي عشر
﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾

هذه الآية تمثل قاعدة عظيمة لها أثرٌ بالغ في حياة الإنسان المسلم، حين يهتدي بها، فهي وثيقة الصلة بأحد أصول الإيمان العظيمة: ألا وهو: **الإيمان بالقضاء والقدر**.

وقد وردت هذه الآية في سياق الكلام على فرض الجهاد في سبيل الله تعالى، وجاء نحوها في سورة النساء - في سياق الحديث عن إمساك الزوجة مع كراهية البقاء معها لكن يمسكها خوفا على مصالح الأولاد -: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

والآية تدل على أن الإنسان قد يقع له شيء من الأقدار المؤلمة، التي تكرهها نفسه، فربما جزع، أو أصابه الحزن، وظن أن ذلك المقدور هو الضربة القاضية على آماله وحياته، فإذا بذلك المقدور يصبح خيرًا على الإنسان من حيث لا يدري.

والعكس صحيح: كم من إنسان سعى في شيءٍ ظاهره خيرٌ، واستمات في سبيل الحصول عليه، وبذل الغالي والنفيس من أجل الوصول إليه، فإذا بالأمر يأتي على عكس ما يريد.

ولو قلبنا قصص القرآن، وصفحات التاريخ، أو نظرنا في الواقع؛ لوجدنا من ذلك عبرًا وشواهدَ كثيرة، لعلنا نُذَكِّر ببعض منها، عسى أن يكون في ذلك سلوةً لكل

محزون، وعبرةً لكل مهموم:

١ - **قصة إلقاء أم موسى لولدها في البحر**: فأنت إذا تأملتَ وجدتَ أنه لا أَكْرَه لأمٍّ موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة، وآثاره الطيبة في مستقبل الأيام، وهذا ما تعبر عنه خاتمة هذه القاعدة: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢ - قصة يوسف عليه الصلاة والسلام: تجد أن هذه الآية منطبقة تمام الانطباق على ما جرى له ولأبيه يعقوب عليهما الصلاة والسلام.

٣ - ومن السُنّة: لما مات زوجُ أمِّ سلمة: قالت أم سلمة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، إلا أخلف الله له خيرًا منها**»، قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ؟ ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ![1].

وهكذا المؤمنة يجب عليها أن لا تختصر سعادتها، أو تحصرها في باب واحد من أبواب الحياة، نعم: الحزن العارض هذا شيء لم يسلم منه ولا الأنبياء والمرسلون! إنما الذي لا ينبغي: هو اختصار الحياة أو السعادة في موقفٍ واحد، أو ربطها بشخص مهما كان موقعه من القلب.

اللهم املأ قلوبنا رضى عنك، ودبّرنا على ما تحب وترضى.

---

(١) مسلم ح(٩١٨).

المجلس الثاني عشر
الدين النصيحة[١]

تأتي هذه القاعدة النبوية العظيمة في سياق ينبئ عن أهميتها، حين كررها النبي ﷺ ثلاث مرات فقال: «**الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة**»[٢] وهو أسلوب يلقي في رُوع السامع أهميةً أكبر، وإلا فكل حديثه ﷺ مهم، إلا أن هذا التكرار يشي بمزيد من الاهتمام والتنبيه للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله - ظاهره وباطنه - منحصر في النصيحة؛ وهي: القيام التام بهذه الحقوق الخمسة: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**».

فالنصيحة لله: الاعتراف بوحدانية الله، وتفرده بصفات الكمال على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، والقيام بعبوديته ظاهراً وباطناً، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاستغفار الدائم[٣].

وأما النصيحة لكتاب الله: فبحفظه وتدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه، والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

---

(١) وممن نصّ على كونها من جوامع الكلم: الشاطبي في (الموافقات: ٢/ ٣١٧).
(٢) مسلم ح(٥٥)، وفي لفظ النسائي ح(٤١٩٧) وغيره: «إنما الدين النصيحة» بلفظ الحصر.
(٣) قال عبدالعزيز بن رفيع: قال الحواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام: ما النصح لله؟ قال: أن تبدأ بحق الله قبل حق الناس، وإن عرض لك أمران أحدهما لله تعالى والآخر للدنيا؛ بدأت بحق الله تعالى. جامع العلوم والحكم: (ص٧٩).

وأما النصيحة للرسول: فهي الإيمان به ومحبته، وتقديمه فيها على النفس والمال والولد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين - وهم ولاتهم، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة -: فباعتقاد ولايتهم، والسمع والطاعة لهم، وحث الناس على ذلك، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس، وإلى القيام بواجبهم.

وأما النصيحة لعامة المسلمين: فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، ويسعى في ذلك بحسب الإمكان؛ فإن من أحبَّ شيئاً سعى له واجتهد في تحقيقه وتكميله[1].

وإذا تقررت أهمية النصيحة ومنزلتها في الدين، وشمول معناها؛ فمن التوفيق للعبد أن يسلك في نصحه السبيل الأوفق، مراعياً في ذلك الحكمة: زماناً، ومكاناً، وحالاً.

ومن المهم - لتكون النصيحة مؤثرة ونافعة - أن يستحضر الناصح صدق النية، ونفع المنصوح، لا التشفي أو الفرح بالخطأ، قال الإمام الشافعي رحمه الله: ما ناظرت أحداً إلا على النصيحة.

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار (ص: ١٩).
«قال الإمام الحافظ ابن رجب: ومن النصح الواجب أن لا يرضى بمعصية العاصي ويحب طاعة من أطاع الله ورسوله.
قلت: ولو كان هو العاصي يجب عليه كراهية المعصية.
وهذا معنى قول بعضهم: (يجب على من بيده الكأس أن ينكر على الجلاس)». غذاء الألباب: (١/ ٣٥).

إن من المحزن أن يرى المؤمن في واقع كثيرٍ من المسلمين خرقاً كثيراً لمضمون هذه القاعدة! ومن ذلك:

١ - في البيوع، وعموم المعاملات.

٢ - في الأمور الاجتماعية، وخاصة ما يخص الزواج، فكم حصل بسبب الإخلال بهذا الأصل العظيم «الدين النصيحة» من مآسٍ وآلام تجرعها أحد الطرفين، بسبب المجاملة التي تحمل على كتم العيوب، وعدم النصح في الخاطب أو المخطوبة!

٣ - الموظفون في الدوائر الحكومية، فيقع من عدد غير قليل تقصير، وعدم نصح في أداء الوظيفة، وهم الذين ائتمنوا عليها من قبل الحكومة.

٤ - مُلاّكُ بعض القنوات الفضائية التي تبث من المواد المفسدة للدين والأخلاق، وتستورد ما أنتجه الغرب وتبثه بين المسلمين!

اللهم اجعلنا من عبادك المتناصحين لك وفيك.

المجلس الثالث عشر
التؤدة في الأمور

يقول الفاروق عمر رضي الله عنه: «التَّؤدةُ في كُلِّ شيءٍ خيرٌ إلا ما كان مِن أمرِ الآخرة»[١].

هذا تصحيحٌ من الفاروق رضي الله عنه لمفهومٍ قد يختلط على بعض الناس، ذلك أن العرب اتفقت على ذم العجلة مِن حيث الجملة، وكانت العربُ تكنيها أمّ النّدامات، ولهم في ذلك الحكم المنثورة، والأشعار المشهورة، إلا أن هذا المفهوم - كما يقول الفاروق - لا ينبغي أن يُجرى على أمر الآخرة، بل العجلة - أي المبادرة إليه - محمودة ومطلوبة؛ لأن الإنسان لا يدري متى ينقطع أجَلُه، فعليه أن يبادر ولا يتعجل.

فإذا حانت فرصةٌ للتعبد، والإكثار من أبواب الخير؛ فلا تَحسُن الأناةُ هنا، بل تُذَم، فإن الله تعالى يقول في أكثر من آية: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومن الصور التي ذكر العلماءُ أن الأناة فيها مذمومة: التوبةُ، وقضاءُ الدَّين، وإكرامُ الضيف، وتجهيزُ الميت، فهي من الأمور التي تُستحب فيها المبادرةُ والاستعجال في تنفيذها على الوجه الشرعي.

ومما يلحق بذلك: محاسبةُ النفس، فلا ينبغي للراجي ربّه والآخرة أن يتوانى في محاسبتها، بل يبادر، كما قال الفاروق رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا،

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٩٨).

وزنوا أنفسَكم قبل أن تُوزنوا؛ فإن أهون عليكم في الحساب غداً أن تُحاسبوا أنفسَكم، وتَزيَّنوا للعَرْض الأكبر، يوم تُعرَضون لا تخفى منكم خافية»[1].

كم قرَع المتأنُّون في شأن الآخرة سِنَّ الندم! وهاهو القرآن يعبِّر عن هذه الصورة في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ...﴾[الزمر: ٥٣ - ٥٤] **إلى قوله سبحانه:** ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[الزمر: ٥٦].

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٩٩).

المجلس الرابع عشر
وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ...﴾

علق ابن القيم رحمه الله: على هذه الآية بقوله: (وإذا نسي العبد نفسه، أعرض عن مصالحها ونسيها، واشتغل عنها، فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان، أو ماشية، أو غير ذلك، مما صلاحه وفلاحه بتعاهده، والقيام عليه، فأهمله ونسيه، واشتغل عنه بغيره، وضيع مصالحه، فإنه يفسد ولابد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه، وهلاكها، وشقائها إذا أهملها ونسيها، واشتغل عن مصالحها، وعطل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان!.

وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً، فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القُطُوعِ، والخيبة، والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى، واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن ينزله منزلة حياته - التي لا غنى له عنها - و منزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه، وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكِنّ في شدة الشتاء، والسموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب، وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟! هذا هلاك لا بد منه، وقد يعقبه صلاح

لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦] انتهى.

المجلس
١٥

المجلس الخامس عشر
ما بيننا لم يَبلُغ ديننا

تَذْكُرُ كتب السِّيَر أنه وقع بين سعد بن أبي وقاص وبين خالد بن الوليد رضي الله عنهما كلامٌ، يقع مثلُه بين الإخوة عادةً، فأراد رجلٌ أن يسب خالد بن الوليد عند سعد! فقال له سعدٌ - واعظاً بقوله وفعله: «مه![١] إن ما بيننا لم يبلغ ديننا»[٢].

إنها نفوس الكبار، التي لا تسمح لأحد أن يصطاد في الماء العكر! ولا تسمح - أيضاً - بتضخيم الأخطاء، ولا ترضى بنقل الخصومة الشخصية وجعلها خصومةً دينية.

وهذا الموقف من سعد رضي الله عنه يشبه موقفاً وقع للإمام أحمد بن حنبل ، فقد كان أحد المحدثين - ويُكْنى أبا كريب - يقع فيه، فدخل مرةً بعضُ طلبة الحديث على الإمام أحمد؛ فقال: مِن أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتبوا عنه؛ فإنه شيخ صالح، فقلنا: إنه يطعن عليك! قال: فأي شيء حيلتي؟! شيخ صالح قد بُلي بي![٣]

إنه نفس المبدأ الذي اختطه سعد رضي الله عنه فالإمام أحمد لم يرض بنقل الخلاف الشخصي وجعلِه خلافاً دينياً يوالي عليه ويعادي عليه، بل يجعل الاختلاف الذي مَردُّهُ وجهة نظر، أو لغير ذلك من الأسباب؛ يجعله في خانة، والاختلاف الذي سببه دينيٌّ وشرعي في خانة أخرى.

---

(١) هي كلمة زجر، والمراد بها هنا: اسكت.

(٢) صفة الصفوة (١/ ١٣٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١/ ٣١٧).

وهذه المسألة مما تختلط فيها الأوراق عند بعض الناس، وهو عدم التفريق بين الخلاف الشخصي، والخلاف الديني، وهو صورةٌ من صور فَقْدِ ميزان الإنصاف والعدل.

لقد كان بإمكان سعد وأحمد رحمهما الله أن يستثمرا ذينك الموقفين للنيل ممن تكلم فيهما، ووضعه في مقام الانتصار للدين؛ ليكتسب صفةَ الشرعية! وحاشاهما من ذلك.

إن من علامة كِبَرِ النفوس وسموّها؛ تعاليها عن حظوظ النفس، وفرز الخصومات الشخصية عن الاختلاف الذي سببه ديني وعقدي.

إن المتابِع لما يُقال ويُكتب في الشبكة العالمية سيجد أن كثيراً من الفجوة المصطنعة بين الكبار ليست حقيقية، وإنما هي فجوة يسيرة ضخّمها الأتباع، بينما لو التقى المتبوعون لم يكن بينهم إلا الود والاحترام، وتبادل النصيحة بالأسلوب الشرعي.

إننا في زمن اشتدت فيه الحاجةُ لرأب الصدْع بين صفوف أهل الإسلام، خاصةً أولئك الذين نذروا أنفسهم لنفع الخلق، وأن يتنبهوا لأعواد الثقاب التي تُلقى بين الفينة وأختها بينهم وبين إخوانهم من أهل العلم؛ فإن في المبادرة حسماً لمادة الفرقة والشر، وحفاظاً على وحدة الصف، وليبرهنوا للناس أن الخلاف بين العلماء خلاف في الأفهام والعقول، وليس خلافاً في القلوب والنفوس.

المجلس السادس عشر
﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾

هذه آية تُشَكِّل قاعدة من قواعد السلوك الإنساني بين الناس.

وهذه الآية جاءت في سياق آيات الطلاق في سورة البقرة، **ومعناها باختصار**: أن الله تعالى يأمر من جمعتهم علاقة من أقوى العلاقات الإنسانية - وهي علاقة الزواج - أن لا ينسوا في غمرة التأثر بهذا الفراق والانفصال ما بينهم من سابق العشرة، والمعاملة.

وهذه الآية جاءت بعد التوجيه بالعفو: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧] كلُّ ذلك لزيادة الترغيب في العفو والتفضل الدنيوي.

إن العلاقة الزوجية - غالباً - لا تخلو من جوانب مشرقة، ومن وقفات وفاء من الزوجين لبعضهما، فإذا قُدّر وآل هذا العقد إلى حل عقدته بالطلاق؛ فإن هذا لا يعني نسيان ما كان بين الزوجين من مواقف الفضل والوفاء، ولئن تفارقت الأبدان، فإن الجانب الخلقي يبقى ولا يذهبه مثل هذه الأحوال العارضة.

وإذا تعارف الناس الفضل بينهم سهُل على المخطئ أن يعترف بخطئه، وسهل على مَنْ له الحق أن يعفو، بخلاف ما إذا أصبحوا لا يتنازلون عن حقوق ذواتهم!

ولو تم تطبيق هذه القاعدة بين الأزواج، وبين كل من تجمعنا بهم رابطة أو علاقة من العلاقات لكانت الحياة أجمل!

لقد ضرب بعض الأزواج أروع الأمثلة في الوفاء، وحفظ العشرة، سواء لمن حصل بينهم وبين أزواجهم فراق بالطلاق، أو بالوفاة، ومِنْ هؤلاء رجل معاصر، رجلٌ طلّقَ زوجته - التي له منها أولاد - فما كان منه إلا أسكنها في الدور العلوي مع أولاده الذين بقوا عندها، وسكن هو في الدور الأرضي، وصار يسدد فواتير الاتصالات والكهرباء ويقوم - تفضلًا لا وجوبا - بالنفقة على مطلقته، حتى إن كثيرًا ممن حوله من سكان الحي لا يدرون أنه مطلق! وهذا مثال عزيز، لكني أذكره لأبين أن في الناس خيرًا.

ومن صور تطبيقات هذه القاعدة في حياتنا اليومية:

١ - **علاقة العمل**: سواء كان حكوميًّا أو خاصًّا، أو تجاريًّا، فقد تجمعنا بأحد من الناس علاقة عمل، وقد تقتضي الظروف أن يحصل الاستغناء عن أحد الموظفين، أو انتقال أحد الأطراف إلى مكان عمل آخر، فلا ينبغي أن يُنسى الفضل بين الطرفين.

٢ - **ومن ذلك**: الوفاء للمعلمين الذين درّسوا الشخص، وحفظُ أثرهم الحسن في نفس المتعلم.

٣ - **ومن ذلك**: مع الجيران الذين جمعتهم سنوات من الجيرة، وقد ينتقل أحدهم إلى حي آخر أو مدينة أخرى.

نسأل الله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق والأعمال؛ لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يعيذنا من سيئها؛ لا يعيذ منها إلا هو سبحانه.

المجلس السابع عشر
الحلال بيّن والحرام بيّن

هذه قاعدة نبوية محكمة، وردت في ثنايا حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول - وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه -: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بين**، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِك حِمى، ألا وإن حِمى الله محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[١].

إن لهذه القاعدة النبوية المحكمة دلالات مهمة، نحتاجها في واقعنا العلمي والعملي، أذكر منها بإيجاز:

أولاً: ما ضابط الحلال البيّن؟ وما ضابط الحرام البين؟ وما ضابط المشتبه؟

قال أهل العلم:

الحلال البيّن: هو الذي لا يختلف العلماء في حلّه اختلافاً معتبراً، كحِلِّ الماء والخبز والنكاح والبيع والشراء، واللباس، ونحو ذلك.

(١) البخاري ح(٥٢)، مسلم ح(١٥٩٩) واللفظ له.

وأما الحرام البين: فهو الذي لا تختلف كلمة العلماء في تحريمه اختلافاً معتبراً، كتحريم الخمر، والزنا، والربا، والميسر، والميتة، وقطيعة الرحم، وترك الصلاة، ومنع الزكاة ونحو ذلك.

وأما المشتبه: فهو الذي يقع فيه خلاف معتبر بين العلماء في حله وحرمته، أو يكون فيه شبهة معتبرة شرعاً في حلّه وحرمته، كما يقع في بعض المكاسب التي يتعاطها الناس.

ثالثاً: في قوله ﷺ: «وبينهما مشتبهات» ينبغي أن يُعْلم أن هذا الاشتباه ليس في أصل الدليل الشرعي، بل هو بالنسبة إلى الناظر في الأدلّة - وهو العالم المجتهد - وإلا فلا يمكن أن يوجد حكم شرعيٌ يشتبه على جميع العلماء! إذ هذا خلاف البيان الذي ذكره الله في قوله سبحانه عن نبيه ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل - ٤٤]، «وإنما تشتبه على بعض الناس دون بعض»[(١)].

رابعاً: قوله ﷺ - في حق ترك المشتبهات -: «**فقد استبرأ لدينه وعرضه**» دليل بل أصلٌ كبير في طلب البراءة للدين والعِرض، الذي قد يلحقه طعنٌ فيهما بسبب تقحّمه لموارد الشُبه!

تأمل ماذا صنع نبيك ﷺ حينما أراد أن يرجع زوجته صفية رضي الله عنها إلى بيتها - حين زارته في معتكفه - ورآه رجلان فأسرعا؟ قال: «على رسلكما إنها صفية»! مع أنه ﷺ معصوم، لكنه عللّ هذا للرجلين بقوله: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً» أو قال: «شيئاً»[(٢)]، فهذا تطبيق عملي للاستبراء للعرض.

---

(١) ينظر: معالم السنن (٣/ ٥٦).

(٢) مسلم ح(٥٨٠٨).

خامساً: ضابط الورع هو ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«الورع المشروع هو: الورع عما قد تخاف عاقبته؛ وهو ما يُعلم تحريمه، وما يشك في تحريمه وليس في تركه مفسدة أعظم من فعله...**وتمام «الورع»**: أن يعلم الإنسانُ خيرَ الخيرين وشرَّ الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها...» إلخ.[1]

خامساً: ما الحكمة من الوصية بترك المشتبهات وهي ليست حراماً محضاً؟

والجواب: «لأن مَنْ لم يُعرف باجتناب الشبهات لم يسلّم لقول من يطعن فيه، وفي هذا إشارة إلى المحافظة على أمور الدين، ومراعاة المروءة»[2].

فتبين بما سبق أن «هذا الحديث أصلٌ فى القول بحماية الذرائع»[3].

اللهم إنا نسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً، ورزقا طيباً لا شبهة فيه.

---

(١) مجموع الفتاوى(١٠/ ٥١١).

(٢) فتح الباري: (١/ ١٢٧) باختصار.

(٣) شرح صحيح البخاري: (١/ ١١٧) لابن بطال.

المجلس الثامن عشر
من أساليب تربية القلب على السعادة

يقول الفاروق رضي الله عنه: **«ما أبالي على أيِّ حالٍ أصبحتُ! على ما أُحِب، أم على ما أَكرَه؛ ذلك بأني لا أدري الخِيرة فيما أُحِب أم فيما أَكره»**[1].

يا له من درس عميق! نحتاج أن ندرِّب أنفسَنا على تعلُّمه، وتربيةِ قلوبنا على العيش معه.

ما أكثر ما تقع لنا أحداث على المستوى الفردي أو الجماعي، نرى في ظاهرها الشر، وتكون الخيرة فيها! وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقوله عز وجل: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

لقد كثُرت المنغصّات في حياة الناس، وتنوعت المكدرات، ويبقى كلامُ الله، وكلام رسوله، ثم مواعظ أصحابه بلسماً شافياً، نداوي به جراحَ الحياة.

ومن تأمل بعين العقل وجد أنه لا سبيل له إلا هذا، فإن الحزن لا يحيي ميّتا، والجزعُ لا يردُّ مفقودا!

---

(١) الزهد لأبي داود (ص: ١٠٨).

ومن أيقن أن خيرة الله خيرٌ من خيرة العبد لنفسه، وأنه لا يوجد على ظهر سالم من البلاء= دخل جنة الرضى في الدينا قبل دخول جنة الآخرة، وخفّ عليه الأسى، وتلك لعمر الله من أعظم الثمرات العملية للإيمان بالقضاء والقدر.

أما مَنْ نظر إلى هذه الابتلاءات بعين الجزع، وصار يفتح ملفات الماضي المحزنة بين وقت وآخر، فإنه إنما يجدد آلامه، وينكأُ جراحه، ولا يجني سوى الهمّ والحزن، اللذان استعاذ منه النبي ﷺ في أدعية كثيرة.

إن كلّ من تراهم العين ممن حولك، أو تقرأ لهم أو تسمع منهم، من مشاهير ومغمورين، مهمومين ومسرورين، كلهم لا يخرجون عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، لكن الفرق بينهم هو في التكيّف مع هذا الكبد، وتلك الهموم.

لنتأمل في هذا الموقف الذي وقع لزيد بن صوحان رحمه الله، فقد أصيبت يدُه في بعضِ فتوح العراق، فتبسّم والدماء تشخب، فقال له رجل من قومه: ما هذا موضع تبسم! فقال زيد: «أَلَمٌ حلَّ هوّنه ثوابُ اللهِ عليه، أفأُرْدِفُهُ بأَلَمِ الجزعِ الذي لا جدوى فيه، ولا دَرِيْكَة لفائتٍ معه؟ وفي تبسمي عزِيَّةٌ لبعض المؤتسين من المؤمنين». فقال الرجل: أنت أعلم بالله مني[1].

اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن، ومن العجز والكسل.

---

(١) «الصبر والثواب عليه» لابن أبي الدنيا (ص: ٧١).

قال العلامة السعدي معلقا على هذه الآية (أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان والعمل الصالح - لهم جنات الفردوس...

فجنة الفردوس نزل، وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل وأكبر، وأعظم من هذه الضيافة؟! المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيه الأنفس. وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة،. والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة، وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التنعم بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم، فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها وأكملها»، وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب.

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علما حقيقيا يصل إلى قلوبهم، لطارت إليه قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليه زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليه دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتا تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفدت فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) انتهى[١].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٤٨٨).

المجلس العشرون
فتوى في المجلس النبوي

دعونا نتصور أننا الآن معاً في مجلس النبي ﷺ، وجاءه سائل يسأله عن مسألةٍ ما، فأجابه: افعل، أو: لا تفعل! أتُرى هذا السائل يستفصل: يا رسول الله! هل هذا واجب أم مستحب؟ يا رسول الله! أهو محرم أم مكروه؟ هل هذا الذنب كبيرة أم صغيرة؟

أقول وبكل اطمئنان: لن تجد هذا محفوظاً في تاريخ أسئلة الصحابة، بل أنت واجدٌ منهم السؤال الذي يكشف ما قد يكون غامضاً فقط؛ حتى يقع منهم الامتثالُ موقعه المطلوب، ولعل قصةَ أَمْرِه للثلاثة الذين خُلِّفوا، حين قال رسولُ رسولِ الله ﷺ لكل واحدٍ منهم: «إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتَك»[1]، قال أحدُهم: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها،...الحديث! لعل في هذه القصة أوضح الدلالة على ما سبق.

وليس هذا هو الموقف الوحيد، بل ثمة مئات الأمثلة التي تؤكد هذه الحقيقة الدقيقة، ضرب الصحابةُ فيها المثلَ الأعلى والأعجب في التسليم والطاعة.

واللافت للنظر أن الصحابة - رضوان الله عليهم - على مختلف مستوياتهم في العلم وطول الصحبة؛لم يُنقل عنهم - فيما أعلم - ذلك الاستفصال الذي نجده عند أهل عصرنا، بل كانوا ينفذون مباشرةً! وهذا - لعمر الله - سرٌّ من أسرار تميّزهم وعلوّ

(١) البخاري ح(٤٤١٨)، مسلم ح(٢٧٦٩).

شأنهم وجلالة قدْرهم، فهم - في مقام الامتثال - لا يَسألون سؤال الذي يريد التخفّف من العمل، بل يسألون سؤال الراغب في العمل والامتثال.

إننا - ونحن في زمنٍ اتسعت فيه دائرة التواصل، واختلاف الفتاوى والمفتين على الناس - بحاجة إلى غرس هذا الأصل العظيم، وهو: تعظيمُ شعائرِ الله، وتربيةُ الأجيال على هذا المعنى العظيم، الذي يختصر كثيراً من السبل في صلاح القلب وتوطينِه على فعل الطاعة وترك المعصية.

وهذا كلّه - كما هو ظاهر - ليس دعوةً إلى ترك التفقّه في معرفة الأحكام التكليفية! بل هو دعوة إلى تعظيم الأمر والنهي.

إن السؤال عن الحكم - وإن كان يُحمد للسائل من جهة التثبّت في معرفة الحكم، إلا أنه - يُذم من جهة عدم تعظيم الأمر والنهي، وإن لم يترتب عليه إثم بفعله إن لم يكن محرَّماً، أو تركه إن لم يكن واجباً.

وإن من إجلال الله تعالى وتعظيم شرعه: أن يوطِّن الإنسانُ نفسَه على ترك جميع المناهي: المحرمة والمكروهة، وفِعل ما استطاع من الأوامر: الواجبة والمستحبة، مستحضراً قوله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

اللهم ارزقنا تعظيم أمرك ونهيك، ويسّر لنا طاعتك، وارزقنا التلذذ بها، والحمد لله رب العالمين.

المجلس الواحد والعشرون
﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾

هذه قاعدة من قواعد التعامل مع النفس وتزكيتها، ووسيلة من وسائل علاجها من أدوائها، فإن الله تعالى قد أقسم أحد عشر قسمًا في سورة الشمس على هذا المعنى العظيم، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

ومعنى القاعدة باختصار: أن الإنسان وإن حاول أن يجادل عن أفعاله أو أقواله التي يعلم من نفسه بطلانها أو خطأها، واعتذر عن نفسه باعتذارات، فهو يعرف تمامًا ما قاله وفعله، ولو حاول أن يستر نفسه أمام الناس، أو يلقي الاعتذارات، فلا أحد أبصر ولا أعرف بما في نفسه - بعد الله - من نفسه.

ولهذه القاعدة القرآنية مجالات كثيرة في واقعنا العام والخاص، أذكر بعضها؛ لعلنا أن نفيد منها في تقويم أخطائنا، وتصحيح ما ندّ من سلوكنا، فمن ذلك:

أولاً: في تعامل بعض الناس مع نصوص الشرع: فبعضهم قد يبلغه نصٌّ واضح من القرآن أو السنة الصحيحة، ولا إشكال فيه، ولم يختلف العلماء في دلالته على إيجاب أو تحريم، ومع هذا يقع في نفسه حرجٌ! ويحاول أن يجد مخرجاً له من تطبيق ما دلَّت عليه الآية أو الحديث؛ لأنه لم يوافق هواه!

وهذا التحايل لا ينفع الإنسان ولا ينجيه عند الله، وشأن المؤمن أن يكون كما قال ربنا تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ثانياً: في مجال التعامل مع النفس: ذلك أن بعض الناس عنده شغف - عياذًا بالله - بتتبع أخطاء الناس وعيوبهم، مع غفلة عن عيوب نفسه، وهذا من علامات الخذلان، كما قال بعض العلماء: إذا رأيتم الرجل موكلًا بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه؛ فاعلموا أنه قد مُكِرَ بِهِ.

ثالثاً: من دلالات هذه القاعدة الشريفة: أن يسعى المرء إلى التفتيش عن عيوبه، وأن يسعى في التخلص منها قدر الطاقة، فإن هذا نوع من جهاد النفس المحمود.

ومن أشرف مجالات تطبيق هذه القاعدة: أن يوفَّق الإنسان إلى الاعتراف بالذنب والخطأ، فإن هذا مقام الأنبياء والصديقين والصالحين، ومن ذلك: قول الأبوين - آدم وحواء - حين أكلا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولما قتل موسى عليه السلام القطبي، ندم، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]

أسأل الله تعالى أن يبصرنا بعيوبنا، وأن يقينا شرها.

المجلس الثاني والعشرون
من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين(١)

من المعلوم أن الفِقه في معناه اللغوي: هو الْفَهم، وفي عُرْفِ الفقهاء: العلم بِالأحْكَامِ الشَّرْعِيَّة الفرعية، مَن أدلتها التفصيلية بالاستدلال.

ولا شك أن المراد به هنا المعنى اللغوي؛ ليتناول فهم كل علم من علوم الدّين.

إن دلالة هذه القاعدة النبوية على فضل الفقه في الدين بيّنة ظاهرة، وماذا يرجو المؤمن إلا أن يكون ممن أراد الله بهم خيراً! فتلك سعادة الدنيا والآخرة.

ومما دلّت عليه هذه القاعدة النبوية بمفهومها: أن من لم يتفقه في الدين لم يرد الله به خيراً، ولكن مما ينبغي إيضاحه هنا أن الفقه في الدين على نوعين:

النوع الأول: نوعٌ لا يعذر أحدٌ بتركه، وهو الذي لا تصح عبادته ولا معاملته إلا به، فهذا من الفقه الواجب تعلمه على كل مسلم.

والنوع الثاني: وهو التفقه الذي يكون زائداً على هذا، وهو فرض كفاية، ويدخل فيه: تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها، فمن أراد الله به خيراً فقهه في هذه الأمور ووفقه لها، ومن وُفّق لذلك فقد وُفق لخير عظيم.

(١) البخاري ح(٣١١٦)، مسلم ح(١٠٣٧) واللفظ له.

إن أوجه الخيرية التي أشار إليها النبي ﷺ في حديثه هذا كثيرة، منها ما يلي:

١ - نيله بركة هذا الحديث، وأنه ممن أراد الله به خيراً.

٢ - أنه يعبد الله على بصيرة في كل ما يأتي ويذر.

٣ - نيله الثواب العظيم في تعليم الخلق، وتبصيرهم بدينهم - إن هو زكّى علمه بالتعليم والبلاغ - فإن كل مَنْ يَعبُد الله على بصيرةٍ بسببه فهو شريك في الأجر، كما أن له بركة ما جاء من الأحاديث والآثار في فضل معلم الناس الخير.

٤ - أن المتفقه في الدين وارث من ورثة النبي ﷺ؛ فإن «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وإنما وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[1].

٥ - أن قوله ﷺ: «خيراً» في قوله: «من يرد الله به خيراً» جاءت نكرةً في سياق الشرط؛ ليشمل القليل والكثير، ومن أغراض التنكير في اللغة: التعظيم؛ وهو كذلك ههنا.

وخلاصة ما سبق أمران:

- أن الفقه في الدين أعم من أن يخص بالفقه في الأحكام الخاصة بالحلال والحرام.
- أن الفقه لا يقف عند حدِّ المعرفة العلمية، بل نص السلف - في مواضع كثيرة - على دخول العمل، والخشية من الله، والتوازن في عرض الدين، وأن ذلك كلّه من سمات الفقيه، ومن قصّر في شيء من ذلك فقد نقص فقهه بحسبه.

ولهذا لما قال رجل للحسن البصري رحمه الله وقد راجعه في مسألة: يا أبا سعيد! ما سمعت أحداً من الفقهاء يقول هذا! قال: «وهل رأيت فقيها بعينيك! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود ح(٣٦٤١)، والترمذي ح(٢٦٨٢) وأحمد ح(٢١٧١٥)، وسنده حسن.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: (٧/ ١٨٦).

ومع هذا الفضل العظيم الذي حوته هذه القاعدة النبوية: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» والخيرِ الوفير الذي أعده الله لأهل الفقه في دينه العاملين؛ إلا إنك تجد انصرافاً عجيباً - من قبل كثير من أبناء المسلمين - عن تعلم العلوم الشرعية والتفقه فيها!

اللهم فقهنا في الدين، وعلمنا التأويل، وزدنا علماً، وانفعنا بما علمتنا.

المجلس الثالث والعشرون
مداخلُ السوء

من جميل ما يؤثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قوله: «**مَنْ يَدْخُلْ مُدْخَلَ السُّوءِ يُتَّهَمْ**»(١).

هذه كلمة بليغة من مواعظ الفاروق ﷺ، ينبغي أن ينتبه الإنسانُ لها، وأن يحذر العاقلُ مِن ورود الأماكنِ أو المواضعِ أو إلقاءِ المقالاتِ والكتاباتِ التي تَجلب التهمةَ له في دينه؛ ذلك أن الناس ليس لهم إلا الظاهر في أحكامهم، فعلى الإنسانِ ألا يطالبهم بغير ذلك، وإذا كان هذا مطلوباً ممن عُرِف عنه الصلاحُ في دينه، والعلمُ؛ فكيف بمَن دونه!

وانظر إلى هدي النبي ﷺ في هذا الباب تجِد عجباً، فإنه لما أراد أن يُوصِل زوجتَه أمَ المؤمنين صفيةَ ﷺ من معتكفه إلى بيته، مرّ به رجلان فأسرعا، فقال ﷺ: «على رِسلِكما، إنها صفيةُ بنتُ حُيَيْ» فقالا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري مِن الإنسان مجرى الدم، وإني خشيتُ أن يَقذف في قلوبِكما شراً» أو قال: «شيئاً»(٢)، فإذا كان هذا رسول الله ﷺ فما الظن بمن دونه!

---

(١) الزهد لابن أبي عاصم (ص: ٥١).
(٢) البخاري ح(٣٢٨١)، مسلم ح(٢١٧٥).

علّق الإمامُ الشافعيُ على ذلك بقوله: «إنما قال لهما ذلك؛ لأنه خاف عليهما الكفرَ إن ظنّا به التُّهمةَ، فبادر إلى إعلامِهما نصيحةً لهما، قبل أن يقذف الشيطانُ في نفوسهما شيئاً يَهلكان به»[(١)].

ولتوضيح صلةِ موعظة الفاروق بهذا الحديث العظيم، يقول ابن دقيق العيد رحمه الله: «**وهذا متأكدٌ في حق العلماء ومن يُقتَدى به، فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلاً يوجب سوءَ الظن بهم**، وإن كان لهم فيه مَخلَص؛ لأن ذلك سببٌ إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، ومن ثَم قال بعضُ العلماء: ينبغي للحاكم أن يُبين للمحكوم عليه وجهَ الحكم إذا كان خافياً؛ نفياً للتهمة، ومن هنا يظهر خطأُ من يتظاهر بمظاهر السوء ويعتذر بأنه يجرِّب بذلك على نفسه! وقد عَظُم البلاءُ بهذا الصنف»[(٢)] اهـ.

ويقول ابن الجوزي رحمه الله: «ومَنْ له نَفْسٌ، لا يقف في مقام تهمة، لئلا يُظَنَّ به، فأما مَنْ لا يهمه إن شُهِرَ بين الناس، ولا يؤلمه ذكر الناس له بالسوء، فذاك في عداد البهائم»[(٣)].

ويتأكد التحوط من الإنسان ما استطاع في هذا العصر الذي صار بعض الناس مغرما بنقل كل ما يشاهد، دون تقدير للعواقب أو نظر في الملابسات التي تحيط بوجود الشخص في هذا المكان أو ذاك، والله خيرٌ حافظا وهو أرحم الراحمين.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٤/ ٢٨٠).
(٢) المصدر السابق.
(٣) صيد الخاطر (ص: ٣١٣) بتصرف.

المجلس الرابع والعشرون
وقفة مع صفات عباد الرحمن التي ختمت بها سورة الفرقان

قال العلامة السعدي في تعليقه على الآيات التي ذكرت فيها صفات عباد الرحمن في آخر سورة الفرقان:

(وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفنا من هممهم وعلو مرتبتهم أنهم لا تقر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم؛ لأن نفعه يعود عليهم؛ ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم فقالوا: «هَبْ لَنَا» بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين؛ لأن صلاح من ذكر يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم...

ولهذا، لما كانت هممهم ومطالبهم عالية كان الجزاء من جنس العمل فجازاهم بالمنازل العاليات فقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٥٧] أي: المنازل الرفيعة والمساكن الأنيقة الجامعة لكل ما يُشتهى وتَلذّه الأعين، وذلك بسبب صبرهم نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٣٢] ولهذا قال هنا: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥] من ربهم ومن ملائكته الكرام ومن بعضهم على بعض ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب من النفقات والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى - والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروأتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم، وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة».

ولله، فضل الله عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

ولله، منة الله على عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم» انتهى[1].

---

(١) تفسير السعدي (ص: ٥٨٧).

المجلس الخامس والعشرون

الغبن في التوكل(١)

لا يختلف اثنان على أن التوكل على الله(٢) من أجلّ العبادات القلبية، بل هو نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، «فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة»(٣).

والحديث عن التوكل يطول، وليس المراد الكلام عنه في هذا المقام، بل الغرض: الإشارة إلى معنيين دقيقين في هذه العبادة العظيمة، قد يغفل عنهما بعضُ الناس:

المعنى الأول: أن من الناس من يستحضر التوكل في أمورٍ يسيرة، وينساه أو يتركه في أمور كبيرة، ومنهم من يستحضره في أمر دنياه فقط؛ كالرزق والشفاء والزواج والولد، دون أمور الآخرة، ومنهم يكون توكّله مقتصراً على خاصّة نفسه، دون نفع الخلق، وقد نبّه على هذه المعاني الدقيقة ابنُ القيم رحمه الله(٤)، ومما قاله في هذا الصدد: «**فأفضل التوكل**: التوكل في الواجب - أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس - وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض،

---

(١) المراد بالغبن: النقص.

(٢) ومن أوضح التعريفات له: «هو الاعتماد على الله تعالى في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به، وفعل الأسباب المأذون فيها» ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٨٧).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف»[1].

المعنى الثاني: مع عِلْمِ أكثر المسلمين بأهمية التوكل على الله في حياته، إلا أنه ربما عزب عن بال بعضهم استحضار هذه العبادة؛ بسبب كثرة ما يسمع من مديحٍ وإطراء، أو لشدة انغماسه في الحياة المادية، أو لكثرة ما يَرى من ترادف النِّعم في الدين والدنيا؛ ولذا كان من الدعاء النبوي المأثور الذي ينبغي للمسلم أن يقوله طرفي النهار: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين»[2].

ومما ينبغي للإنسان - مهما وقع في قلبه من رغبة في الطاعة - أن تكون هذه العبادة العظيمة حاضرة في قلبه قبل عبادته وأثناءها، وفي كل وقت وحين، وأن يعلم أنه لولا توفيق الله له ما استطاع أن ينطق بتسبيحه، وأنه لولا توفيق الله لما اهتدى أحد.

وتأمل في ربط الشريعة هذا المعنى بقلوب أتباعها في مواضع، **منها**: قول الحوقلة عندما ينادي المنادي: حي على الصلاة، حي على الفلاح! فيقولها حتى ولو كان جالساً في المسجد حين نودي للصلاة!

إن قيام التوكل على الله عند الملمات قدرٌ مشترك بين المسلمين، لكن يحصل التفاوت بينهم في استحضار هذه العبادة في حال الرخاء، لما سبق ذكره من أسباب، والموفَّق من وفّقه الله ليكون قلبه معموراً بهذه العبادة أينما حلّ، وحيثما يمّم وجهه - عابداً أم داعياً - فاللهم أعذنا من الغبن في ذكرك وشكرك وعبادتك.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٤).

(٢) سنن أبي داود ح(٥٠٩٠)، وصححه ابن حبان ح(٩٧٠).

المجلس السادس والعشرون
﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾

هذه قاعدة من قواعد العدل الإلهي، جاءت في سياق قصة موسى مع فرعون وسحرته: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴿٦١﴾﴾ [طه: ٥٩ - ٦١].

والافتراء يطلق على معانٍ منها: الكذب، والشرك، والظلم، وقد جاء القرآن بهذه المعاني الثلاث، وكلها تدور على الفساد والإفساد.

والآية تقرر سنة من سنن الله في أهل الافتراء، وهي أنه يخيبهم، ولا يهديهم، وإذا تأملتَ هذه القاعدة وما دلَّت عليه وجدتَ في الواقع - وللأسف - من له منها نصيب وافر، ومن ذلك:

١ - الكذب والافتراء على الله، بالقول عليه بغير علم بأي صورة من الصور، ومن هؤلاء المفترين: الذين يفتون بغير علم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

٢ - ما يفعله بعض الوضاعين للحديث - في قديم الزمان وحديثه - من الكذب على النبي ﷺ ويشاركهم في الإثم: من ينقلون هذا الكذب مع علمهم أنهم مكذوب

على النبي ﷺ! إما لغرض الترغيب والترهيب، أو لأغراض أخرى! والدين قد أكمله الله تعالى، فلا يحتاج إلى حديث موضوع ومختلق.

٣ - ومن صور الافتراء: ما يقع من بعضهم مِن ظلم وبغي على إخوانهم المسلمين، بسبب الحسد - عياذًا بالله منه - أو الطمع في شيء من حطام الدنيا، أو لغير ذلك من الأسباب، ويَعْظُمُ الخطب حينما يُلبِسُ بعضُ الناس صنيعه لبوسَ الدين؛ ليبرر بذلك فعلته في الوشاية بفلان، والتحذير من فلان بغيًا وعدوانًا.

وفي القصص القديمة والمعاصرة في هذا الباب عبرة عظيمةٌ، قصصٌ تدمي القلب، وتفتت الكبد؛ بسبب ما ذاقوه من عاقبة افترائهم وظلمهم لغيرهم، منها قصة أستاذة جامعية ومطلقة مرتين - تحدثت عن قصتها مع الظلم قبل بضع سنين - فتقول: بعد طلاقي الثاني قررتُ الزواج بأحد أقاربي الذي كان ينعم بحياة هادئة مع زوجته وأولاده، حيث اتفقت مع ابن خالتي - الذي كان يحب زوجة هذا الرجل - اتفقنا على اتهامها بخيانة زوجها! وبدأنا في إطلاق الشائعات بين الأقارب، ومع مرور الوقت نجحنا، فتدهورت حياة الزوجين وانتهت بالطلاق!

وبعد مضي سنة تزوجت المرأةُ - التي طُلقت بسبب الشائعات - برجل آخر ذي منصب، أما الرجل فتزوج امرأة غيري! فلم أحصل - مع ابن خالتي - على هدفنا المنشود، ولكنا حصلنا على نتيجة ظلمنا؛ حيث أُصِبت بسرطان الدم! وأما ابن خالتي فقد مات حَرقًا مع الشاهد الثاني؛ بالتماس كهربائي بعد ثلاث سنوات من القضية.

اللهم أعذنا من الافتراء عليك وعلى عبادك، والحمد لله رب العالمين.

المجلس السابع والعشرون
ما نقصت صدقةٌ مِن مال[١]

لقد جبلت النفوس على حب المال، وللشيطان - عند إرادة الإنفاق والبذل - حضوره، كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فتأتي نصوص الشريعة لتملأ القلب يقيناً ورغبةً فيما عند الله، كما في هذه القاعدة النبوية، وكما في تتمة الآية السابقة: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وحقيقة ذلك ببساطة: أن الصدقة والإنفاق في وجوه الخير عموماً لا تنقص المال من كل وجه؛ لأنه لو فرض أنه نقص من جهة فقد زاد من جهات أُخر؛ فإن الصدقة تبارك المال وتنميه، وتدفع عنه الآفات، وتفتح للمتصدق من أبواب الرزق وأسباب الزيادة أموراً ما تفتح على غيره، فهل يقابل ذلك النقصُ بعضَ هذه الثمرات الجليلة؟!

إن الزيادة التي تحصل ببذل الصدقة قد تكون كمية وقد تكون كيفية:

فالكمية: بأن يفتح الله لك باباً من أبواب الرزق لم تخطر في بالك، أو يخفف الله عنك دَيناً بتسخير الله للدائن[٢].

---

(١) مسلم ح(٢٥٨٨).

(٢) يحدثني أحد الشباب فيقول: تصدقت ذات صباح بـ(٣٠٠ ريال) فلم تغب شمس ذلك اليوم إلا وشخص كنت استندت منه (٣٠٠٠ ريال) يتصل بي ويقول: يا فلان، اعتبر دينك قد انتهى وسُدّد! فسبحان الله الذي يعد ويعود بالفضل، وصلى الله وسلم على من قال: «ما نقصت صدقة من مال».

وأما الكيفية: فبأن ينزل الله البركة فيما بقي من مالك؛ فيحفظه، ويكفيك لقضاء أمورك، ولا يسلط عليه ما يستنفقه.

بل إن صدقتك قد تكون سبباً لأن يدفع الله عنك ألواناً من المصائب والأدواء.

نقل الذهبي رحمه الله: في «السير» أن رجلاً سأل ابن المبارك رحمه الله: عن قرحة خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع!

فقال له: اذهب، فاحفر بئراً في مكان يحتاج الناس فيه إلى الماء؛ فإني أرجو أن ينبع هناك عين، ويمسك عنك الدم؛ ففعل الرجل فبرأ[1].

ألا وإن من أعظم ثمرات الصدقة المعنوية: أنها تكفر الخطيئات والسيئات، قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وكما تتناول هذه القاعدة النبوية المال أصالةً؛ فالواقع يشهد بتناولها لمن آتاه الله علماً فبلّغه الناس، فهو - كما قال ابن القيم -: «يتَنَاوَل نَفَقَة العلم إما بِلَفْظِهِ وإِمَّا بتنبيهه وإشارته وفحواه...»[2].

وليُعلم أنه لا تقف الصدقة عند هذا، فكما أن صدقة المال لا تُنقص منه شيئاً بل تزيده وتنميه؛ فكذلك «تبسمك في وجه أخيك صدقة لك - وهو لا ينقص منك شيئاً -! وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة - وهو لا ينقص منك شيئاً -! وإرشادك الرجل في أرض الضلالة لك صدقة - وهو لا ينقص منك شيئاً -! وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة - وهو لا ينقص منك شيئاً -! وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة - وهو لا ينقص منك شيئاً -! وإفراغك من

---

(١) سير أعلام النبلاء: (٨/ ٤٠٧).

(٢) مفتاح دار السعادة: (١/ ١٢٨) بتصرف يسير.

دلوك في دلو أخيك لك صدقة - وهو لا ينقص منك شيئاً -!»(١).

يـرى البخيلُ سبيلَ المـال واحـدةً

إن الجـــواد يــرى في مـالـه سُبُـلا

اللهم قنا شح أنفسنا، واجعلنا للمعروف من الباذلين، وللخير من المتصدقين، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

---

(١) سنن الترمذي: (١٩٥٦) عن أبي ذر، قال الترمذي: هذا حدِيثٌ حسنٌ غريبٌ.

المجلس

٢٨

المجلس الثامن والعشرون
قلوب لا تشبع من القرآن

روي عن أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه موعظة تعكس لنا شيئاً من حياة عثمان مع أشرف كتاب نزل من السماء، حيث يقول رضي الله عنه: «**لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعَتْ مِنْ كَلامِ اللَّهِ عز وجل**»(١).

إنها موعظة بليغةٌ، تَصِف الداء الذي حال بين كثير من الناس وبين عدم انتفاعهم بالقرآن، إنها أمراض القلوب: مِن الرياء، والحسد، والحقد، وغيرها مِن الأدواء التي تَحُول بين المرء وبين الانتفاع الحق مِن الكتاب الحق.

إن القلب كالوعاء، إذا امتلأ بشيء ازدحم به، فإذا امتلأ بهذه الأدواء ضعف أثرُ القرآنِ عليه، إلا أن يقرأ بقصد علاجها وشفائها، فهذا من أعظم مقاصد نزول القرآن، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

إن تعبير عثمان رضي الله عنه بقوله: (ما شبعتْ) تعبير دقيق ومعبِّر، ففي القلب جوعٌ لا يسدّه شيء كما يَسدُّه التعلقُ بالقرآن، تلاوة وسماعاً وتدبراً، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه؟ وهو غاية المطلوب؟

لقد عبّر عثمانُ رضي الله عنه عن حبه لكلام ربه، وعدم شبعه منه بقوله: «مَا أُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إِلَّا أَنْظُرُ فِي كَلَامِ اللَّهِ عز وجل» وفي لفظ: «إلى عهدِ الله» يَعْنِي: الْقِرَاءَةَ فِي

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٠٦).

المُصْحَفِ[1]. يقول هذا وهو خليفة المسلمين، الذي اتسعت في عهده الفتوح جداً! فأين الذين تمضي عليهم الأيام والليالي وما فتحوا صفحةً من المصحف وهم لم يرتبطوا بأدنى مسؤولية!

وليس هذا فحسب، بل تجد يمضي الساعات الطويلة مع جهازه الكفي، والتنقل في مواقع التواصل، فإذا ما قيل له لماذا لا تختم مرةً أو مرتين كل شهر، أجابك بأنه مشغول ولا وقت لديه!

والله إن من الغبن البيّن أن يفتح الإنسان صحيفة عمله يوم القيامة أن ساعات بقائه مع كلام البشر أكثر بأضعاف من كلام رب البشر؟ مع عظيم الفرق بين ثواب الحرف الذي يقرؤه من كلام الله، هذا إن سلم من كون ما يقرأ أو يشاهد فيه محاذير ومخالفات!

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدري، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

---

(١) فضائل عثمان بن عفان لعبدالله بن أحمد (ص: ١١٥).

المجلس التاسع والعشرون

وقفة مع قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور رحمه الله: في تفسير هذه الآية:

(وكون أقرب الناس للإنسان يفرّ منهم يقتضي هولَ ذلك اليوم بحيث إذا رأى ما يحل من العذاب بأقرب الناس إليه توهم أن الفرار منه يُنْجِيه من الوقوع في مثله، إذ قد علم أنه كان مماثلاً لهم فيما ارتكبوه من الأعمال، فذكرت هنا أصنافٌ من القرابة، فإن القرابة آصرة تكون لها في النفس معزة وحرص على سلامة صاحبها وكرامته. والألف يحدث في النفس حرصاً على الملازمة والمقارنة. وكلا هذين الوجدانين يصد صاحبه عن المفارقة فما ظنك بهول يغْشَى على هذين الوجدانين فلا يَترك لهما مجالاً في النفس.

ورتبت أصناف القرابة في الآية حسب الصعود من الصنف إلى من هو أقوى منه تدرجاً في تهويل ذلك اليوم.

فابتدئ بالأخ لشدة اتصاله بأخيه من زمن الصبا فينشأ بذلك إلف بينهما يستمر طول الحياة، ثم ارتُقي من الأخ إلى الأبوين وهما أشد قرباً لابْنيهما، وقدمت الأم في الذكر لأن إلْفَ ابنها بها أقوى منه بأبيه وللرعي على الفاصلة، وانتقل إلى الزوجة والبنين وهما مُجتمع عائلة الإنسان وأشد الناس قرباً به وملازمة.

وأطنب بتعداد هؤلاء الأقرباء دون أن يقال: يوم يفر المرء من أقرب قرابته مثلاً لإحضار صورة الهول في نفس السامع.

وكل من هؤلاء القرابة إذا قدرتَه هو الفارّ كان مَن ذُكر معه مفروراً منه، إلا قولَه: ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ لظهور أن معناه: والمرأةِ من صاحبها، ففيه اكتفاء، وإنما ذُكرتْ بوصف الصاحبة الدال على القرب والملازمة دون وصف الزوج لأن المرأة قد تكون غير حسنة العشرة لزوجها فلا يكون فراره منها كناية عن شدة الهول فذكر بوصف الصاحبة.

والأقرب أن هذا فرار المؤمن من قرابته المشركين خشية أن يؤاخذ بتبعتهم إذ بَقوا على الكفر.

وتعليق جار الأقرباء بفعل: ﴿يَفِرُّ الْمَرْءُ﴾ يقتضي أنهم قد وقعوا في عذاب يخشون تعديه إلى من يتصل بهم.

وقد اجتمع في قوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى آخره أبلغ ما يفيد هول ذلك اليوم بحيث لا يترك هوله للمرء بقية من رشده فإن نفس الفرار للخائف مسبة فيما تعارفوه لدلالته على جبن صاحبه وهم يتعيرون بالجبن وكونَه يترك أعز الأعزة عليه مسبة عظمى)[1] انتهى.

---

(١) «التحرير والتنوير» (٣٠/ ١١٩).

المجلس الثلاثون
القولُ عند المَعْتَبَة

حين يحدِّثك أحدٌ عن قصته مع عظيم؛ فستجد أنك تُنصت له، فكيف إذا كان هذا العظيم الذي يحدثك عنه هو سيد ولد آدم! ليجلّي لك في حديثه صورةً مِن صور عظمة أخلاق هذا النبي الكريم ﷺ؟! فلا بد أن تُنصت!

لنستمع لأنس رضي الله عنه - الذي خدمَ النبي ﷺ عشر سنين - وهو يقول: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا لعاناً، ولا سباباً، كان يقول لأحدنا عند المعْتَبَة - أي: عند اللوم -: «ما لَهُ تَرِبَ جبينُه!»[1].

ويقول - أيضاً -: خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعتَ؟ ولا: ألا صنعتَ؟[2]

فتأمل! هذا خادم، وصغير السن، فقد بدأ خدمة النبي ﷺ حين كان عمره عشر سنين، وكلاهما - صغر السن والخدمة - مظنةُ الخطأ المتكرر، ومع هذا فلا يسمع منه أنسٌ طيلة السنوات العشر ولا كلمة (أُفٍّ)! بل كان يقول - إذا وُجد ما يوجب العتب -: «ما لَهُ تَرِبَ جبينُه!»، ومن كان كذلك فهو أبعد ما يكون عن اللعن والسبّ صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) البخاري ح(٦٠٣١).
(٢) البخاري ح(٦٠٣٨).

إنه هديٌ نبوي عظيم ومنهجٌ في التعامل مع من تربطنا بهم علاقات اجتماعية، وصداقات قوية؛ في توقّي العتاب ما استطعنا، فإن وُجِد سببُه فليكن برفقٍ ولين.

ومن المعلوم أن العلاقات الاجتماعية - على اختلاف مستوياتها - لا تخلو من مواقف يقع فيها الخطأ الذي هو صفة ملازمة للبشر - كإخلاف موعد، أو تقصير في حق، أو تخلف عن مناسبةٍ لا ينبغي من مثله تركُها، ونحو ذلك - وهذا القدر مفهوم ومعلوم، لكن الإشكال في طريقة التعامل مع هذا الخطأ!

فكم من علاقاتٍ قديمة، وعِشْرةٍ طويلةٍ؛ هدَمَها سوءُ تعبير، أو كلمةٌ جارحة! جعلت ترميم العلاقة - بعد ذلك - صعباً، وإن عادت ففي الجدار شرخٌ كان يمكن تفاديه لو تلمّسنا الهدي النبوي في المعالجة الاستباقية لكيفية التعامل مع هذا النوع من المواقف، فكيف كان هديه ﷺ؟

وقبل أن تبدأ قصة العتاب، فمن الجميل أن نتذكر أموراً:

أولها: أن الكمال في الصداقة - مهما بلغت في العمق والقوة - لا تخلو من شيء يوجب العتاب، فلو هجر الصديقُ صديقَه لهفوةٍ بدرت منه؛ فلن يبقى له صديق:

ولستَ بمستبْقٍ أخاً لا تلمُّه
على شعثٍ، أيُّ الرجال المهذبُ؟!

«وإذا كان الصفح عن الزلات من أفضل خصال الحمد؛ فأحق الناس بأن تتغاضى عن هفواتهم رجالٌ عرفتَ منهم المودة، ولم يقم لديك شاهدٌ على أنهم صَرفوا قلوبَهم عنها»[1].

(١) الصداقة، ضمن موسوعة مؤلفات العلامة محمد الخضر حسين (٤/ ١٨٥٧).

وما زال التغافل - فيما لا يترتب عليه مفسدة - من شيَم الكِرام، قيل للإمام أحمد: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال: «العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل»[1].

ثانيها: أن نحاول الإجابة عن بعض الأسئلة قبل بدء العتاب: متى أعاتب؟ وكيف؟ وماذا بعد العتاب؟

والله الموفق.

(١) الآداب الشرعية (٢/ ٢٠).

المجلس الواحد والثلاثون
﴿والصُّلْحُ خَيْر﴾

هذه قاعدة من قواعد بناء المجتمع، وإصلاحه، وتدارك أي سبب لتفككه.

وقد وردت هذه القاعدة في سياق الحديث عما قد يقع بين الأزواج من أحوال قد تؤدي إلى الاختلاف والتفرق، وأن الصلح بينهما على أي شيء يرضيانه خير من تفرقهما.

«فإذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي: تَرفُّعه عنها، وعدمَ رغبتِه فيها وإعراضه عنها، فالأحسن - في هذه الحالة - أن يصلحا بينهما صلحًا؛ بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها على وجه تبقى مع زوجها: إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة أو الكسوة أو المسكن، أو القسم بأن تُسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها أو لضرتها. فإذا اتفقا على هذه الحالة فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨]»[١].

ويمكن القول: إن جميع الآيات التي ورد فيها ذكر الإصلاح بين الناس هي من التفسير العملي لهذه القاعدة القرآنية المتينة.

ومن تأمل القرآن، وجد سعة هذه القاعدة من جهة التطبيق، فبالإضافة إلى ما سبق ذِكره - من الإصلاح بين الأزواج - فإننا نجد في القرآن حثًا على الإصلاح بين الفئتين

(١) تفسير السعدي ص(٢٠٦).

المقتتلتين، ونجده يثني ثناء ظاهرًا على الساعين في الإصلاح بين الناس: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ولأهمية هذا الموضوع - أعني الإصلاح -: أجازت الشريعة أخذ الزكاة لمن غرم بسبب الإصلاح بين الناس.

لذ، فمن المهم - لنستفيد من هذه القاعدة القرآنية - أن نسعى لتوسيع مفهومها في حياتنا العملية، وأصدق شاهد على ذلك سيرة نبينا ﷺ الذي طبق هذه القاعدة في حياته، وهل كانت حياته إلا صلاحًا وإصلاحا! ومن أمثلة ذلك:

١ - أنه ﷺ حينما كبرت زوجه أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ووقع في نفسه أن يفارقها، فكانت تلك المرأة عاقلة رشيدة؛ فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، **فقبِل ذلك منها**، وأبقاها على ذلك.

٢ - خرج مرة ﷺ إلى أهل قباء، لما أُخْبِرَ أنهم اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فقال: **«اذهبوا بنا نصلح بينهم»**[1].

ومن قلّب كتب السِّيَر؛ وجد نماذج مشرقة لجهود فردية في الإصلاح بين الناس على مستويات شتى، ولعل مما يبشر بخيرٍ: ما نراه من لجان «إصلاح ذات البين»، فهي ترجمة عملية لهذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨]، فهنيئًا لمن جعله الله من خيار الناس، الساعين في الإصلاح بينهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) البخاري ح(٢٥٤٧).

المجلس الثاني والثلاثون
الأرواح جنود مجنّدة[(١)]

هذه القاعدة تنبّه على حكمةٍ من حِكم الله في خلقه؛ وهو التشاكل والتماثل في الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخَيِّرَ من الناس يحنّ إلى شكله، والشرير نظير ذلك يميل إلى نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبِلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت[(٢)].

«وقد استقرت حكمة الله ﷻ في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذاب الشيء إلى مُوافِقِه ومُجَانِسه بالطبع، وهروبه من مخالفه ونفرته عنه بالطبع، فسِرّ التمازج والاتصال في العالم العلوي والسفلي إنما هو التناسب والتشاكل والتوافق، وسِرّ التباين والانفصال إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمثل إلى مثله مائل وإليه صائر، والضد عن ضده هارب وعنه نافر»[(٣)].

أما الآيات الدالة على معنى هذه القاعدة النبوية فكثيرة، ومن أظهرها وأوضحها:

١ - قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، وبمثل هذه الآية والقاعدة النبوية التي نحن بصدد

---

(١) مسلم ح(٢٦٣٨)، وينظر: البخاري ح(٣٣٣٦).
(٢) فتح الباري: (٦/ ٣٦٩).
(٣) الطب النبوي لابن القيم: (١/ ٢٠٢).

الحديث عنها؛ يوقن المؤمن أن الله تعالى لم يختر لنبيه ﷺ من زوجات وأصحاب إلا الطيبات من النساء، والطيبين من الرجال؛ إذْ هو ﷺ سيد الطيبين المطيبين، فمن زعم أن في زوجاته أو أصحابه من ليس كذلك فقد كذّب الله في خبره، وكذب رسوله ﷺ أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، وقوله تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ [الصافات: ٢٢] أي أشباههم وأضرابهم، يقول الفاروق رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾: «الضُرباء: كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله...»[1].

ومن جميل ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا تسل أحداً عن وُدّه لك، وانظر ما في نفسك له؛ فإن في نفسه مثل ذلك[2].

أما إن سألت عن الأثر العملي لهذه القاعدة في حياتنا! فقد أجاب ابن الجوزي: عن هذا حيث يقول: «ويستفاد من هذا الحديث: أن الإنسان إذا وجد من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح؛ فينبغي أن يبحث عن المقتضي لذلك ليسعى في إزالته، حتى يتخلص من الوصف المذموم، وكذلك القول في عكسه»[3]اهـ.

«وعلماء التربية والأخلاق يعدون الصحبة والمعاشرة ركناً من أركان اقتباس كلٍّ من الصاحبَين من الآخر؛ فيحثون على صحبة الأخيار، ويحذرون من صحبة الأشرار، كما قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

(١) تفسير الطبري: (٢٤/ ١٤٢).
(٢) الاستذكار: (٨/ ٤٥٠).
(٣) فتح الباري: (٦/ ٣٧٠).

«وقيل: الْأَخ نسيب الْجِسْم، وَالصديق نسيب الرّوح، وَقيل: انْظُر من تصاحب؛ فقلّ نواة طرحت مَعَ حَصَاة إِلَا أشبهتها»[1].

اللهم ارزقنا إخوة فيك يدلونا على الخير، ويوصوننا بالحق والصبر، وجنبنا وأهلنا وأولادنا رفقاء الشر والفساد.

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير: (١/ ١٦٨).

المجلس الثالث والثلاثون

ابتلاء السرائر

يروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ عَمَلًا إِلَّا كَسَاهُ اللَّهُ عز وجل رِدَاءَ عَمَلِهِ**»(١).

ويُروى عنه أنه قال: «**ما أَسَرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه**»(٢).

وقال مَرةً رضي الله عنه: «**لو أن عبداً دخَل بيتاً في جوف بيتٍ فأدمَن هناك عملاً أوشك الناسُ أن يتحدثوا به، وما مِن عاملٍ يعمل إلا كساه اللهُ رداءَ عمَلِه؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر**»(٣).

إن فيما ذَكرَه أميرُ المؤمنين عثمان رضي الله عنه - في موعظته - إرشاداً لنا أن نتقي الله في سرائرنا، وأن نعامل الله بالصدق وليس غيره، إذ لا نجاة مع الله في الدنيا والآخرة إلا به، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩] وفي المقابل؛ فإن المرء إن حاول أن يُخفي شيئاً خلافَ سريرته، فإن الله تعالى يظهرها ولا بد، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال عثمان رضي الله عنه.

---

(١) فضائل عثمان بن عفان لعبدالله بن أحمد (ص: ١١٦).

(٢) تنظر: الآداب الشرعية ١/ ١٣٦.

(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك والزهد لنعيم بن حماد (٢/ ١٧).

وتأملْ ما حكاه الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فهذا المنافق يجتهد في كتمان نفاقه، فأخبر الله أنه سيُظهر أمرَهم في لحن قولهم، وكذلك المؤمنُ الذي يجتهد في كتمان إيمانه - كمؤمن آل فرعن، وامرأة فرعون - سيُظهِر إيمانَه على لسانه عند المخالفين الذين يخالفهم، فويل للمنافقين، وبشرى للصادقين.

ومن الدواء لعلاج الخلل في شأن السريرة؛ ما ذكره سلمانُ رضي الله عنه قال: «إذا أسأتَ سيئةً في سريرة فأحسن حسنة في سريرة، وإذا أسأتَ سيئةً في علانية فأحسِن حسنةً في علانية، لكي تكون هذه بهذه»[1].

اللهم اجعلنا ممن صدقوا في السرّ والعلن، وصلح وظاهرهم وباطنهم.

---

(١) التوبة لابن أبي الدنيا: (١٢١).

وقفة مع قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: في تفسيره:

«القطران: هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته، والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع في اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون، منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار، حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل، وهي القمص؛ لتجتمع عليهم الأربع: لذعُ القطران، وحرقتُه، وإسراعُ النار في جلودهم، واللونُ الوحش، ونتنُ الريح، على أن التفاوت بين القطرانين، كالتفاوت بين النارين.

وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره، وكأن ما عندنا منه إلا الأسامي والمسميات، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه) انتهى [(١)].

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٥٦٧).

المجلس الخامس والثلاثون
آلام من نوع آخر

الألم معنى غير محبب للنفوس، لكن مَن نَظَر في بعض المواقف التي حفظتها كتبُ السُنّة وكتب التراجم؛ وجد أن الألم يمكن أن ينتقل إلى معنى شريف، وحالةٍ يرجى لصاحبها المكانة العالية عند مولاه.

يصور لنا القرآن مشهداً من مشاهد الألم الذي يعتصر القلوب على فوات طاعةٍ أهلُها فيها معذورون، إنهم الذين جاءوا في ساعة العُسرة، راغبين في أن يحملهم النبي ﷺ على أي دابة! لكن الحال لم تكن لتُسعف بشيء من ذلك، فأسعفت دموعهم بالتعبير عما يختلج في نفوسهم: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢]!

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله! ما كدت أصلي العصر، حتى كادت الشمس تغرب، قال النبي ﷺ: «والله ما صليتها...»الحديث.[1]

تأمل في هذا المشهد الذي يوضح لك الألم والحزن الذي اعتصر قلبه، والذي ترجمه الفاروق رضي الله عنه بسبّ الكفّار الذين تسببوا في تأخير الصلاة عن وقتها[2]، مع أن

---

(١) البخاري ح(٥٩٦) مسلم ح(٦٣١).
(٢) لم تكن صلاة الخوف شرعت حينئذ.

عمر لم يكن إلا في شغل شاغل، وجهدٍ وجهادٍ في معركة وصف علاّم الغيوب حال أهلها بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، فيا تُرى ما الذي يحدث لمن يؤخّرون الصلاة عن وقتها والشغل الشاغل لهم دون هذا بمراحل! هذا إن سلم من محذور شرعي!

ويأخذ الألم والتحسر صورةً أخرى، فثمة ألمٌ شريف الغاية، حسنُ العاقبة، وهو التألم على الوقوع في المعصية، والتحسر على ارتكاب الذنب، وفي قصة الغامدية رضي الله عنها نموذج ناصع على ذلك!

إنك لتعجب من استمرار جذوة الألم في قلب الغامدية مدةً تقارب ثلاث سنواتٍ - وهي مدة الحمل والفطام - وهي تعلم أن عاقبة هذا الاعتراف الموتُ رجماً!

جاءت هذه المرأة التائبة النادمة، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردّني؟ لعلك أن تردّني كما رددتَ ماعزاً، فوالله إني لحبلى! قال: «إمّا لا، فاذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت أتته بالصبي في خِرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه»، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين... الحديث[(١)].

وثمة أسئلة تتبادر هنا: على ماذا نبكي نحن؟ وما الذي يوجب هذه الحال؟ ولماذا لا نجد هذه الحال الإيمانية - إلا من رحم الله - ونحن الذين نخطئ كثيراً؟! هي دعوة لمراجعة اهتماماتنا التي تنزل معها دموعنا، أو تعتصر لأجلها قلوبنا.

---

(١) مسلم ح(١٦٩٥).

المجلس السادس والثلاثون
﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾

هذه آية كريمة تمثل قاعدة من قواعد التعامل الإنساني، ذكرها الله في سياق الحديث عن أصناف المعتذرين عن غزوة تبوك، ومَن هو المعذور وغير المعذور؟

وهذه القاعدة تدل بعمومها على أن الأصل: سلامة المسلم من أن يُلزَم بأي تكليف سوى تكليف الشرع.

ومن التطبيقات العملية لهذه القاعدة: ما يقع في حياتنا من مواقف كثيرة يُفْتَحُ فيها باب الإحسان، وتتاح لآخَرين أن يحسنوا إلى غيرهم فيبادروا بتقديم خدمةٍ ما، وأول هؤلاء هم أهل بيت الإنسان: من زوجة أو زوج أو ولد! فمن المؤسف أن يخالف البعض هداية هذه القاعدة القرآنية، فيُلحقوا غيرهم اللوم والعتاب الشديد، مع أنهم محسنون متبرعون، فيساهمون - شعروا أم لم يشعروا - في إغلاق باب الإحسان، أو تضييق دائرته بين العباد.

لنتأمل هذا المشهد الذي يتكرر كثيراً في حياتنا: يجتهد أحد الناس في محاولة إتقان عملٍ دعوي، أو اجتماعي، أو عائلي، ويبذل جهده، وربما ماله، وهو في هذه الأثناء يطلب من غيره أن يساعده ويعينه على العمل فلا يجد أحدًا، فيبدأ وحده، ويجتهد ويثابر ليُنجح العمل، ويُظهره بالمظهر المشرِّف، فإذا جاءت ساعة الاستفادة من هذا العمل، وظهرت بعضُ الثغرات، وبعضُ النقص الذي لا يسلم منه عمل

البشر، فإذا به - بدلًا من أن يُقابَل بالشكر والتقدير، مع التنبيه على الأخطاء بأسلوب لطيف - يُقابَل بعاصفة من اللوم والعتاب!، مع أن هذا الشخص قد يكون استنجد بغيره للمساعدة فلم يُنجَد، فواصل العمل وحده، فلما حانت ساعة قطاف الثمرة، لم يجد إلا اللوم والعتاب! بسبب قلة حيلته، وضعف قدرته، أليس هذا من أحق الناس بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]؟!

وأمثال هذه الصورة تتكرر في مواقف أخرى؛ في البيت، في المدرسة، في المؤسسة، وفي الشركة، وفي الدائرة الحكومية، وفي العمل الإعلامي، مع العلماء والدعاة والمحتسبين، وغيرهم! فما أحوجنا إلى استشعار هذه القاعدة، وطريقة التعامل مع أوهام أو أخطاء المحسنين؛ لكي لا ينقطع باب الإحسان.

وما سبق التنبيه عليه لا يعني - بلا ريب - التنبيهَ على الأخطاء، أو التذكيرَ بمواضع الصواب التي كان يفترض أن يُنبه عليها، لكن المهم أن يكون ذلك بأسلوب يحفظ جهد المحسن، ولا يفوّت فرصة التنبيه على الخطأ؛ ليرتقي العمل، ويزداد جودة وجمالًا.

ومما لا يدخل تحت هذه القاعدة: حين يلتزم الإنسان بشيءٍ ما، ثم يتخلى عنه بحجة أنه محسن! فإن هذا من الفهم المغلوط لهذه القاعدة القرآنية، فالإنسان قبل أن يلتزم بوعدٍ لطرف آخر؛ فهو في دائرة الإحسان، لكن إن التزم بتنفيذ شيءٍ، والقيام به، فقد انتقل إلى دائرة الوجوب الذي يستحق صاحبه الحساب والعتاب، والله الموفق لكل خير.

المجلس السابع والثلاثون
إنما الطاعة في المعروف(١)

هذه قاعدة عظيمة، وهي عامة في كل من تجب طاعته - من الولاة، والوالدين، والزوج، وغيرهم - فإن الشارع أمر بطاعة هؤلاء، وطاعة كلٍّ واحد منهم إنما تكون بحسب حاله، وبما يقتضيه العُرف؛ وهذا من عظمة هذا الدين، فإنك تجده في الأمور التي يصعب ضبطها بسبب اختلاف الأحوال أو الأزمان أو الأشخاص يَرُدّ الناس إلى العرف والعادة، كما هو الحال في البر والصلة، والعدل والإحسان العام؛ فكلها تقيّد بهذا القيد.

ولبيان هذه القاعدة نتحدث هنا عن مسائل:

أولها: أن من أَمَر منهم بمعصية الله - وهذا يشمل: فعل المحرم وترك الواجب - فإنه لا طاعة له، ولهذا أجمع العلماء على أن من أَمَر بمنكر لا تلزم طاعته؛ قال الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقد فقه هذا المعنى أمراء العدل، ومنهم عمر بن عبدالعزيز رحمه الله حيث قال في أول خطبة له بعد توليه الخلافة: «أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

ثانيها: أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة، ونافلة من النوافل؛ فإن طاعتهم تقدم؛ لأن ترك النفل ليس بمعصية، فمثلاً لو نهى زوجته عن صيام النفل لمصلحته،

---

(١) البخاري: (٧١٤٥)، ومسلم: (١٨٤٠).

أو حج النفل، أو أمر الوالي الشرعي بأمر من أمور السياسة وهذا الأمر يترتب عليه ترك واجب؛ وجب تقديم طاعته لأنها واجبة، وإن ترتب عليه ترك المستحب.

وأُأَكِّد ههنا على أن ذلك **في حالة التعارض**، أما إذا لم يكن ثمة تعارض، بل أمكن طاعتهم مع فعل النافلة فإنه لا طاعة لهم في النهي عن النفل.

ثالثها: من المسائل التي يبتلى بها بعض الأزواج:

أن تأمره أمه بطلاق زوجته لغير سبب شرعي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : فيمن تأمره أمه بطلاق امرأته: «لا يحل له أن يطلقها، بل عليه أن يبرها وليس تطليق امرأته من برها»[1].

ومن المسائل التي يبتلى بها بعض الناس: ما سئل عنه الإمام أحمد: من قبل أحد طلاب العلم، حيث يقول: إني أطلب العلم، وإن أمي تمنعني من ذلك، تريد حتى أشتغل في التجارة، قال: لي دارها وأرضها، ولا تدع الطلب[2].

رابعها: من دلالات هذه القاعدة: أن هذه الطاعة - كغيرها من أوامر الشرع - منوطة بالاستطاعة؛ فإنه إذا كانت الأوامر الواجبة بأصل الشرع معلقة بهذا القيد فكذلك طاعة هؤلاء، الذين طاعتهم تبع لطاعة الله، وقد جاءت نصوص تصرّح بهذا القيد في بعض هذه المواضع الخطيرة، كما في الصحيحين من حديث ابن عمر: كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، يقول لنا: «فيما استطعتم»[3]، وفي شأن بيعة النساء، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢].

اللهم ألهمنا طاعتك واتباع أمرك، وطاعة من وليتهم علينا بالمعروف.

---

(١) الآداب الشرعية: (١ / ٤٤٧).
(٢) الآداب الشرعية: (٢/ ٣٥).
(٣) البخاري ح(٧٢٠٢)واللفظ له، مسلم ح(١٨٦٧).

المجلس الثامن والثلاثون
من لانت كلمته وجبت محبته

يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: «**من لانتْ كلمتُه، وجبتْ محبتُه**»[١].

هذه جملةٌ مختصرة شواهد الواقع عليها هذا أكثر من أن تُحصَر!

وإن أحقَّ من ينبغي عليهم مراعاةُ هذا المعنى والسعي إليه: الدعاةُ إلى الله تعالى؛ ذلك أن الرفقَ في الخطاب، واجتنابَ الكلماتِ الجافية، له أثره القويُّ في تأليفِ القلوبِ، وإصغاءِ الأسماعِ لما يريد المتكلمُ قولَه؛ ولهذا أمرَ اللهُ تعالى موسى وأخاه هارون - حين بعثهما إلى أشد طغاة الأرض - بلين الكلام؛ وعلَّل ذلك لهما فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤].

وإذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] فمن الواعظون بَعدَه؟ ومَنْ بَعدَ الصحابة موعوظين؟!

نعم، قد يُحْتَاجُ إلى الشدة في بعض المواضع، لكن المؤكَّد أنها استثناء، وليست أصلاً.

---

(١) العقد الفريد: (٢/ ١٣٨).

وفيما يخص لينَ الكلام، وأثرَه على محبةِ الناس؛ فإن أولى الناسِ بلين الكلام هم: الوالدان، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ويلي الوالدين: الزوجةُ والأولاد، ومَن لهم حقٌّ على الإنسان - كمشايخه ومعلميه - ثم كبار السن وعموم الناس، وكلّ هؤلاء يشملهم قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وفي قراءة سَبعية: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ [البقرة: ٨٣] فشمل ذلك: حسنَ اللفظ، وحسنَ الأداء.

وعموم هذه الآية لا يستثني أحداً، حتى ولو كان عاملاً عندك، بل ولو كافراً، إلا من استثنى الله من المجادلين بالباطل ظلماً، فمن ظنّ أن القسوة والغلظة لا تؤثّر في القبول لمجرد أن القول حقٌّ فقد وهم، ويتأكد الحرص على هذا المعنى الذي نبّه عليه عليّ ﷺ في مواقع التواصل التي لا تنقل إلا الحروف ولا تلتقي فيه العين بالعين، فإن قسمات الوجوه أو سماع الصوت لها أثر بالغ في نقل ما لا تنقله الحروف الصامتة.

اللهم اجعلنا ممن لانت كلمته، ونشرت بين الناس محبته.

المجلس التاسع والثلاثون
وقفة مع قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله: «هذه الآية الكريمة تحكي مشكلة استشكلها أصحاب النَّبي ﷺ، فأفتى الله جل وعلا فيها، وبين السبب في ذلك بفتوى سماوية تتلى في كتابه جلَّ وعلا؛ وذلك أنه لما وقع ما وقع بالمسلمين يوم أحد: فقتل عم رسول الله ﷺ، وابن عمته، ومثل بهما، وقتل غيرهما من المهاجرين، وقتل سبعون رجلاً من الأنصار، وجرح ﷺ، وشُقَّت شفته، وكسرت رباعيته، وشج ﷺ= استشكل المسلمون ذلك وقالوا: كيف يدال منا المشركون؟ ونحن على الحق وهم على الباطل؟! فأنزل الله قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال بينه تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأمر وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماوية بيان واضح؛ لأن سبب تسليط الكفار على المسلمين هو فشل المسلمين، وتنازعهم في الأمر، وعصيانهم أمره ﷺ، وإرادة بعضهم الدنيا مقدماً لها على أمر الرسول ﷺ، **ومن عرف أصل الداء، عرف الدواء**، كما لا يخفى» انتهى[1].

(١) أضواء البيان (٣/ ٤١٢) بتصرف يسير، وقارن بكتاب «العذب النمير» (٥/ ٨٤).

المجلس الأربعون
أنا صريح

اعتاد بعض الناس أن يُوجّه خطابه القاسي لمن يخطئون، وحين يعاتب على أسلوبه هذا يقول: أنا صريح! ليس عندي شيء أخفيه! والرجل قد أخطأ في كذا وكذا، ومَنْ يستحقُ التوبيخ واجهته به!

هذا الموقف يتكرر أحياناً في بعض المجالس، وقد شاهدتُ مثله مراراً، والغالب أن من يفعله يرى نفسَه فوق مَن خاطبه!

والسؤال لذلك «الصريح»: ماذا لو أن أباه، أو من له سُلطة عليه؛ واجهه بما يكره - وهو مخطئ - كما فعل بهذا المسكين؟!

لنقارن بين هذا الموقف، وبين موقف وقعت لنبينا ﷺ، منها: ما حدثتنا عنه عائشة رضي الله عنها: أنه استأذن على النبي ﷺ رجلٌ فقال: «ائذنوا له، فبئس ابن العشيرة - أو بئس أخو العشيرة -» فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلت له: يا رسول الله! قلتَ ما قلتَ، ثم ألنت له في القول؟ فقال: «أيْ عائشة! إن شر الناس منزلة عند الله من تركه - أو وَدَعه - الناسُ اتقاء فحشه»[1].

بوّب عليه البخاري قائلاً: (باب من لم يواجه الناس بالعتاب) وقال في موضع

(١) البخاري ح(٦١٣١)، مسلم ح(٢٥٩١).

آخر: (باب المداراة مع الناس)[1].

والسؤال: لماذا لم يواجه النبي ﷺ هذا بما يكره؟ ألم يكن قادراً - وهو الإمام الأعظم - أن يوبخه ويؤدبه؟ بلى! لكنه الخُلق العظيم، إذ ليس من المروءة ولا من الشجاعة توبيخ المخطئين ومواجهتهم بما يكرهون وهم وحدهم، فضلاً عن كونهم أمام الناس!

إن مداراة الناس فنٌّ، وفرصةٌ لكسب القلوب، وتقليل المسافات بينها، وإلا فخسارة الناس سهلةٌ يُحسنها كلُّ أحد! لا يحتاج معها المرء إلا إلى لسانٍ فاحش، وخلقٍ بذيء، أما الذي لا يقدر عليه إلا كرام الناس: فهو الصبر على أذاهم، ومحاولة كسبهم قدر المستطاع، واحتمال نَزَقهم.

في علاقاتنا الاجتماعية، وصِلاتنا الدعوية؛ قد يَبْدر ما يوجب العتاب، أو التنبيه على الخطأ، وهذا مقبول إذا كان بقدر معقول، ويحقق المقصود من النصيحة، لكن الذي ينبغي أن يُحرص عليه: الأسلوبُ الذي يحقق المراد؛ بتصحيحِ الخطأ، وتأليفِ القلوب، وأن يغض الإنسان الطرف ما استطاع عن الهفوات، خاصة فيما لا يترتب عليه ضرر عام، ولا بد من صحبة الناس على هذا الأساس، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ - وهو في مكة -: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

إن الصراحة والمواجهة التي توغر الصدور، وتفصم عرى المودة، وتزيد الإحن، وتقطع الصلات؛ صراحةٌ مذمومة، وهي إلى الحماقة أقرب، وإنما تُحمد الصراحة إذا كانت في مقابل المداهنة على حساب الدين، وبيانِ الحق، أما في شأن العلاقات والصِلات الاجتماعية؛ فالعاقل من حرص على استدامتها بالتودد إلى الناس كما

(١) البخاري ح(٦١٣١). قال ابن الجوزي: وقول أبي الدرداء هذا ليس فيه موافقة على محرم ولا في كلام، وإنما فيه طلاقة الوجه خاصة للمصلحة، كما في لآداب الشرعية (١/ ٥٠).

سبق، يقول الحسن البصري رحمه الله: «التودد إلى الناس نصف العقل»[1].

وقيل لعبد الملك بن مروان: ما أَفدتَ في ملكك هذا؟ قال: مودة الرجال[2].

والله الموفق.

---

(١) مداراة الناس. لابن أبي الدنيا (ص: ٥٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ١٨١).

المجلس الواحد والأربعون

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، تؤسس لمبدأ من أشرف المبادئ، وهو مبدأ العدل.

ومعنى هذه القاعدة باختصار: أن المكلفين إنما يجازون بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وأنه لا يحمل أحدٌ خطيئة أحد، ما لم يكن سببًا فيها، وهذا من كمال عدل الله تبارك وتعالى وحكمته.

ومن تأملَ كلام العلماء فسيرى عجبًا من كثرة الاستدلال بهذه القاعدة في مواطن كثيرة! فكم من رأي نقَضَه فقيهٌ بهذه الآية! وكم مسألة عقدية صار الصواب فيها مع المستدل بهذه الآية! والمقام ليس مقام عرض لهذه المسائل، بل المقصود التنبيه على عظيم موقعها.

وفي الناس مَن طبق هذه القاعدة: فتراه لا يؤاخذ إلا من أخطأ أو تسبب في الخطأ، ولا يُوسِّع دائرة اللوم على من ليس له صلة بالخطأ؛ بحجة القرابة أو الصداقة أو الزمالة ما لم يتبين خلاف ذلك، وفي المقابل: ففي واقع الناس من يأخذ المحسنين أو البُرءاء بذنب المسيئين.

وههنا صورةٌ تتكرر في بيوت بعض الناس:

يعود الرجلُ من عمله متعبًا، فيدخل البيت فيجد ما لا يعجبه من بعض أطفاله - إما من إتلاف تحفة، أو تحطيم زجاجة - أو يرى ما لا يعجبه من قِبَلِ زوجته

- كتأخرها في إعداد الطعام، أو عدم إتقانه كالعادة، أو غير ذلك من الأمور التي قد تستثير بعض الناس - فإذا افترضنا أن هذه المواقف مما تستثير الغضب، أو أن هناك خطأً يستحق التنبيه، أو التوبيخ، فما ذنب بقية الأولاد الذين لم يشاركوا في كسر تلك التحفة - مثلًا -؟! وما ذنب الأولاد أن يَصُبَّ عليهم جام غضبه إذا قصرت الزوجة في شيء من أمر الطعام؟! وما ذنب الزوجة - مثلًا - حينما يكون المخطئ هم الأولاد؟! ومثله يقال في علاقة المعلم والمعلمة مع طلابهم، أو المسئول في عمله، بحيث لا ينقلوا مشاكلهم إلى أماكن عملهم، فيكون من تحت أيديهم من الطلاب والطالبات أو الموظفين ضحية لمشاكل ليس لهم علاقة بها!!

هنا يستحضر المؤمن أمورًا، من أهمها: أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ فإن هذا خيرٌ وأحسن تأويلًا، وأقرب إلى العدل والقسط الذي قامت عليه السماوات والأرض، والله أعلم.

المجلس الثاني والأربعون

لا ضرر ولا ضرار[(١)]

هذه قاعدةٌ من القواعد الجليلة الجامعة لكل خير، الناهية عن كل شر؛ لهذا يعتبرها الفقهاء من أهم قواعد الدين، حتى قال أبو داود رحمه الله: «الفقه يدور على خمسة أحاديث - ومنها حديث -: «**ولا ضرر ولا ضرار**»»[(٢)]، قال ابن عبد البر: «وهو لفظ عام متصرف **في أكثر أمور الدنيا**، ولا يكاد أن يحاط بوصفه، إلا أن الفقهاء ينزعون به في أشياء مختلفة»[(٣)].

فجدير بالمسلم أن يتعلم هذه القاعدة، ويعرف ما تيسر له من تطبيقاتها؛ ليفيد منها في حياته العلمية والعملية.

وثمة سؤال يُطْرحُ ههنا: ما معنى الضرر والضرار المنفيين ههنا؟ وهل هما شيء واحد أم بينهما فرق؟

---

(١) قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: عن سند هذا الحديث: «وقد ذكر الشيخ رحمه الله - يعني النووي - أن بعض طرقه تُقَوّى ببعض، وهو كما قال، وقد استدل الإمام أحمد بهذا الحديث، وقال أبو عمرو بن الصلاح: هذا الحديث أسنده الدارقطني من وجوه، ومجموعها يقوّي الحديث ويحسّنه، وقد تقبله جماهير أهل العلم، واحتجوا به، وقول أبي داود: إنه من الأحاديث التي يدور الفقه عليها؛ يُشعِر بكونه غير ضعيف، والله أعلم» جامع العلوم والحكم: (٢/ ٢١٠).

(٢) هي: «الأعمال بالنيات»، «والحلال بين»، «ولا ضرر ولا ضرار»، «وما نهيتكم عنه فانتهوا وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم».

(٣) الاستذكار: (٧/ ١٩١).

والجواب: أن من أهل العلم من قال: إنه لا فرق بينهما.

ومنهم - وهو الأشهر وعليه الأكثر - أن بينهما فرقاً: فقيل: إن الضرر هو الاسم، والضرار الفعل، فالمعنى: أن الضرر نفسه منتف في الشرع، وإدخال الضرر بغير حق كذلك.

وقيل: الضرر: أن يدخل على غيره ضرراً بما ينتفع هو به، والضرار: أن يدخل على غيره ضرراً بلا منفعة له به.

وقيل: الضرر أن يضر بمن لا يضره - أي يقع الضرر منه ابتداءً -، وأما الضرار: فبأن يضر بمن قد أضر به على وجه غير جائز.

وبكل حال فالنبي ﷺ إنما نفى الضرر والضرار بغير حق[١].

وأما إذا فعل **الضرر** المستحق للحاجة إليه والانتفاع به - لا لقصد الإضرار - فليس بمضار.

فأما إدخالُ **الضرر** على أحدٍ بحق - إمَّا لكونه تعدَّى حدودَ الله، فيعاقَبُ بقدر جريمته، أو كونه ظلَمَ غيره، فيطلب المظلومُ مقابلتَه بالعدلِ - فهذا غير مرادٍ قطعاً.

ومن تأمل في الواقع؛ فإنه سيجد صوراً من خرق هذه القاعدة «لا ضرر ولا ضرار»، ولعلنا نذكر بعض هذه الصور، ليتوقاها من وقع فيها، ويحذر من الوقوع فيها من سلمه الله منها:

١ - **الإضرار بالوصية**: وهذه الصورة مما نص القرآن على النهي عنها، قال الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً﴾ [النساء: ١٢] قال الحبر ابن عباس رضي الله عنهما: **الإضرار في الوصية من الكبائر**، ثم تلا هذه الآية.

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٢١٢).

٢ - ومن صور الإضرار التي يقع فيها بعض الناس: الرجعة في النكاح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١]، فدل ذلك على أن من كان قصده بالرجعة المضارة، فإنه آثم بذلك.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا العدل في أقوالنا وأفعالنا، وأن يجنبنا الظلم دقيقه وجليله.

المجلس الثالث والأربعون

الحلمُ على السفهاء

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**حِلمُك على السَّفيهِ يُكثِّر أنصارَك عليه**»[١].

ومعنى هذه الكلمة من أبي الحسن رضي الله عنه: أن الإنسان قد يبتلى بسفيهٍ يرمي كلاماً يجرح، أو يتصرف تصرفاً يُؤذي، فإن قابلَه الإنسانُ بسَفَهٍ فقد نزل إلى مستواه، وإن سكتَ عنه وأعرض تولى الناسُ الدفاعَ عنه، والانتصارَ له، وهذا من ثمار التخلق بأخلاق عباد الرحمن الذين لا يكتفون بالسكوت عما يَلقونه مِن السَّفَه، بل يرتقون درجةً أعظم، وهي مقابلة السفه بالقول الليّن، والخطاب السديد! كما قال الله عنهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

إن مقابلةَ السفيهِ بمثل قوله، وإن جاز شرعاً؛ إلا أنه ليس مِن درجات الكمال، بل الأَولى الإعراض عنهم؛ لأنهم - لسفههم - يَظنونَ أن إجابتهم على سفههم نوعٌ مِن الاعتبار لهم، ولهذا يَجمُل بالعاقل أن يتحاشى هذا، على حدِّ قولِ الأول:

يُخاطِبُني السفيهُ بكلِّ قبحٍ
فأكرَهُ أن أكونَ له مجيباً

(١) العقد الفريد: (٢/ ١٣٨).

يــزيــدُ ســفــاهــةً وأزيـــــدُ حِــلــمـاً
كــعُـــودٍ زادَهُ الإحــــــراقُ طيباً

وهذا النوع من السفهاء، لئن كان الإنسانُ لا يلقاهم في الزمن السابق إلا لِماماً، فإنه اليوم يَلقاهم كلَّ يوم بل بالساعات! من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، وهذا شيءٌ معروفٌ ومجرّبٌ لمن له أدنى مشاركةٍ في هذه المواقع، ولا دواءَ أحسنَ مِن الإعراضِ عنهم.

وهذا موقف عملي وقع للإمام مالك: لبعض الشعراء بما لا يوافقه، فقال: يا أبا عبدالله، أتظن الأمير لم يكن يعرف هذا القضاء الذي قضيته؟! قال: بلى! قال: إنما أرسلنا إليك لتصلح بيننا فلم تفعل، بالله لأقطّعَنَّ جلدك هجاءً!

فقال له الإمام مالك: إنما وصفتَ نفسك بالسفه والدناءة! وهما اللذان لا يعجز عنهما أي أحد، فإن استطعتَ أن تأتي الذي تنقطع دونه الرقاب فافعل: الكرم والمروءة![1]، وصدق مالك، وصدق أبو الحسن رضي الله عنه: «حِلمُك على السَّفيهِ يُكثِّر أنصارَك عليه».

---

(١) انظر: ترتيب المدارك (١/ ٥٩).

المجلس الرابع والأربعون
وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾

يقول العلامة الشنقيطي رحمه الله: متحدثاً مشكلة اختلاف القلوب في ضوء هذه الآية، وكيف بيّن القرآن داءها ودواءها:

«**اختلاف القلوب** هو أعظم الأسباب في القضاء على كيان الأمة الإسلامية؛ لاستلزامه الفشل، وذهاب القوة والدولة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

فترى المجتمع الإسلامي اليوم في أقطار الدنيا يضمر بعضهم لبعض العداوة والبغضاء، وإن جامل بعضهم بعضاً فإنه لا يخفى على أحد أنها مجاملة، وأن ما تنطوي عليه الضمائر مخالف لذلك.

وقد بين تعالى في سورة «الحشر» أن سبب هذا الداء الذي عَمت به البلوى إنما هو ضعف العقل. قال تعالى ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى﴾ [الحشر:١٤] ثم ذكر العلة لكون قلوبهم شتى بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤]. ولا شك أن داء ضعف العقل الذي يصيبه فيضعفه عن إدارك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار، والحسن من القبيح، لا دواء له إلا إنارته بنور الوحي. لأن نور الوحي يحيا به من كان ميتاً ويضيء الطريق للمتمسِّك به. فيريه الحق حقاً والباطل باطلاً، والنافع نافعاً، والضار ضاراً. قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ

نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، وقال تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور﴾ [البقرة:٢٥٧] ومَنْ أُخْرِجَ من الظلمات إلى النور أَبْصَرَ الحقَّ؛ لأن ذلك النور يكشف له عن الحقائق فيريه الحق حقاً، والباطل باطلاً، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً على وَجْهِهِ أهدى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الأعمى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ﴾ [فاطر:١٩ - ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الإيمان يكسب الإنسان حياة بدلاً من الموت الذي كان فيه، ونوراً بدلاً من الظلمات التي كان فيها.

وهذا النور عظيم يكشف الحقائق كشفاً عظيماً، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيِمٌ﴾ [النور:٣٥]، والعلم عند الله تعالى» انتهى كلامه[١].

---

(١) أضواء البيان (٣/ ٥٣) باختصار يسير.

المجلس الخامس والأربعون

المبادرون

المتأمل في سِيَر العظماء والمؤثّرين في العالم سيجد أن مِن أبرز سماتهم، ومفاتيح تأثيرهم في مجتمعاتهم هو: روح المبادرة، والسبق إلى تحمل مسؤوليةٍ، أو القيام بعمل يقتضيه الحال، من غير أن ينتظر الإنسان أن يُنادَى، أو يُدعَى من قِبَل الآخرين إلى فعل هذا الأمر أو ذاك، بل يجد مِن نفسه دافعاً وحافزاً.

ومن قرأ القرآن بتدبر وتأمل لاح له حفاوةُ القرآن بهذا المعنى الشريف، ومن ذلك:

مبادرة موسى عليه الصلاة والسلام في قضاء حاجة المرأتين في سقي الماء لهما دون أن يضطرهما إلى أن تطلُبا منه ذلك، وهكذا هم العظماء والمؤثرون.

وفي قصة يوسف ألوان من المبادرة! منها: مبادرته بدعوة السجناء، مع أنهم لم يطلبوا منه إلا تفسير الرؤى، ومبادرته بالعفو عن إخوته، والصفح عنهم، وعدم تذكيرهم بخطأهم، إلى غير ذلك من صور المبادرة الإيجابية في حياته عليه الصلاة والسلام.

أما إذا قَلّبت سيرةَ نبينا وإمامنا محمد ﷺ فإنك واجدٌ عجباً! فمنذ أن وَطئت قدماه أرضَ المدينة النبوية؛ قام بعِدة مبادرات مهمة، منها: عقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وبناء المسجد؛ ليكون مكاناً يربي فيه أصحابَه، ويفتيهم ويقضي بينهم، إلى غير ذلك من الوظائف العظيمة التي حفل بها ذلك المسجد المبارك.

وأما حياة السلف ففيها من العجائب الشيء الكثير، وأكتفي من ذلك بالإشارة إلى مبادرة الإمام البخاري إلى التأليف في الصحيح المجرد من الأحاديث الضعيفة، ثم تبعه المصنِّفون في هذا الباب.

والمقصود من هذه الأمثلة: أن يسعى الإنسانُ للانطلاق والتأثير في أي مجالٍ يحسنه ويتقنه، ويبدع فيه؛ فالأمة بحاجة إلى جهود جميع أبنائها، وقد شبعت من الغثائية التي طفحت على جميع المستويات بلا استثناء!

إن من المؤلم أن ترى شاباً آتاه الله قدرات، وطاقات، ومواهب، وأمَّته تنتظر منه الكثير، فإذا به يرضى بالدون والدعة، ويتفنن في تضييع الوقت وقتله هنا وهناك، ويُعرض عن المشاركة - مع كثرة الإلحاح عليه - في نفع أمته، ومجتمعه، ووطنه؛ هرباً من النقد! أو خوفاً من الفشل!

اقرأ في سير العظماء، وعلى رأسهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصحابة ﭭ، وغيرهم من المؤثرين في أممهم؛ فستجد في سيرهم عجباً، وفي أخبارهم عبراً.

ولنتذكر جيداً أن الذي لا يُخطئ هو الذي لا يعمل! فلندع الكسل جانباً، ولنكن مبادرين، حتى نكون مؤثِّرين ونافعين، ولنتأمل جيداً وصف الله لطائفة مؤثرة نافعة في أمتها، في قوله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤].

المجلس السادس والأربعون
﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾

هذه قاعدة قرآنية تدل على أثر من آثار كمال علم الله وحكمته وقدرته في خلقه، كيف لا وهو القائل سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، **وقد تفرع على ذلك**: اختلاف بين الذكر والأنثى في جملة من الأحكام الشرعية - وإن كانا في الأصل سواء -، وهذا الاختلاف راجع إلى مراعاة طبيعة المرأة من حيث خلقتها، وتركيبها العقلي والنفسي، وغير ذلك من صور الاختلاف التي لا ينكرها العقلاء والمنصفون من أي دين.

ومن توّهم أنهما سواء فقد أبطل دلالة النصوص الشرعية على ذلك، أما القرآن فإن هذه الآية صريحة في التفريق، وأما السنة: فقد لعنَ النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال(١)، فلو كانا متساويين لكان اللعنُ باطلًا.

ولنتأمل شيئًا من حِكَمِ الله تعالى في التفريق بين الذكر والأنثى في بعض الأحكام الشرعية، ومن ذلك:

١ - **التفريق في الميراث**: فالرجل هو الذي يكدح ويتعب في تحصيل الرزق، وهو الذي يطلب منه دفع الميراث، والمشاركة في دفع الدية، فالذكر مترقب دومًا للنقص من ماله، بعكس الأنثى فهي دومًا تترقب الزيادة في مالها، فهي التي يدفع لها المهر، ويُنْفقُ عليها.

---

(١) البخاري ح(٥٨٨٥) من حديث ابن عباس.

٢ - **التفريق في الشهادة**: في بعض أبواب الفقه - وليست كلها كما يتوهم البعض - ومن ذلك ما نصّت عليه آية الدين، وغيرها. وهذا التفريق - لمن تأمله - هو عينُ العدل، «فالمرأة ليس من شأنها - عادة - الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية - التي هي شغلها - فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل» انتهى.

ولا يظنن أحدٌ أن في ذلك انتقاصًا لقدرها، بل هو تنزيهٌ لها عن ترك مهمتها الأساسية في التربية والقرار في البيت، إلى مهمة أقل شأنًا وسموًا، وهي ممارسة التجارة والمعاملات المالية!

٣ - **ومن ذلك**: إعفاء النساء من الجهاد، وإيجابه على الرجال.

إذا تبين هذا؛ فسيظهر لك خطأُ كلمةٍ راجت على كثير من الناس، وهي كلمة «**المساواة**» حين يتحدثون عن موضوع المرأة، **والصواب** أن يعبر عن ذلك **بالعدل**؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، ولم يقل: يأمر **بالمساواة! لأن في كلمة المساواة إجمالًا ولبسًا بخلاف العدل**، فإنها كلمة واضحة بينة صريحة في أن المراد أن يعطى كل ذي حق حقه، إذْ دلالة **العدل** تقتضي أن يتولى الرجل ما يناسبه من أعمال، وأن تتولى المرأة ما يناسبها من أعمال، بينما كلمة مساواة: تعني أن يعمل كلٌّ من الجنسين في أعمال الآخر! وهذا عين المضادة للفطرة التي فطر الله عليها كلًّا من الرجل والمرأة!

المجلس السابع والأربعون
الكذب يهدي إلى الفجور(١)

الكذب كما هو مشهور: هو الإخبار بالشيء على ما ليس هو عليه في الواقع، ولكن ينبغي أن يقيّد ذلك بمخالفته قدراً أو شرعا؛ لأن الله تعالى اشترط في الشهادة على الرمي بالزنا أربعة شهود، فلو جاء ثلاثة وشهدوا بأنهم رأوا فلاناً يزني - ولم يأتوا برابع - فإنهم عند الله كاذبون، ولو كانوا ثلاثة، وأخبروا بما رأوا حقيقةً! كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

وأما الفجور، فأصله: الميل عن القصد، أو الميل عن الاستقامة، وقيل: الانبعاث في المعاصي(٢).

وكما أن الكذب يدعو إلى الفجور الذي هو جامع للشر؛ فكذلك الصدق يدعو إلى البر، الذي «هو: جامع الخيرات؛ من اكتساب الحسنات، واجتناب السيئات، ويطلق على العمل الخالص الدائم المستمر معه إلى الموت»(٣).

لقد كان عبدالله بن مسعود يقول: لا يزال العبدُ يكذب وتنكت في قلبه نكتةٌ سوداء، حتى يَسوَدّ قلبُه؛ فيكتب عند الله من الكاذبين(٤).

---

(١) البخاري ح(٥٧٤٣)، مسلم ح(٢٦٠٧).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٦٠)
(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧/ ٣٠٢٩).
(٤) المنتقى شرح الموطأ: (٧/ ٣١٤)بتصرف.

ولقد كان الكذب من أقبح الخلال التي يُعيّر بها الإنسان في الجاهلية، ولم يزده الإسلام إلا تأكيداً على قبحه وخسته، فصار من الكبائر المتفق عليها.

إن في قوله ﷺ: «**إن الكذب يهدي إلى الفجور**» لدلالةً على أن الكاذب لا يزال يتردّى في دركات الفجور حتى تهوي به في النار.

وإن أشد أنواع الكذب وأعظمها جرماً: تلك التي يُكذبُ فيها على الله ورسوله، ثم ما يتعلق بأكل حقوق الناس بالباطل، فإن اقترنت بها اليمين، فتلك هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم، ثم تغمسه في النار والعياذ بالله! ولقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**من حلف على يمينِ صبرٍ**[1] **يقتطع بها مالَ امرئٍ مسلم هو فيها فاجر؛ لقي الله وهو عليه غضبان**»[2].

كما أن الكذب يتضاعف جرمُه بحسب ما يؤدي إليه؛ فالكذب في المعاملات أشد من الكذب في مجرد الإخبار التي لا يتعدّى ضررها، والكذب في باب الأعراض ليس كالكذب في باب الأموال، وحَسْب الكاذب في بيعه أن تمحق بركة بيعه، كما في الصحيحين: «**البيِّعان بالخيار مالم يتفرقا، فإن صدقا وبيّنا بُورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما**»[3].

وما ترتب على الكذب في البيع والشراء؛ فإنه من أكل المال بالباطل.

ما أقبح الكذب المذموم قائله
وأحسن الصدق عند الله والناس

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/ ٣٠٩): قوله: «على يمينِ صبرٍ» في معناها قولان: أحدهما: أن يصبر نفسه: أي يحبسها على اليمين الكاذبة غير مبال بها! والثاني: أن يكون معنى الصبر الجرأة، من قوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] أي يجترئ بتلك اليمين على هتك دينه.

(٢) البخاري ح(٤٥٤٩)، مسلم ح(١٣٨).

(٣) البخاري ح(٢٠٧٩)، مسلم ح(١٥٣٢).

وسبحان الله! إن الإنسان ليرى تأويل هذا في هذا الزمن بالذات! فبضغطة زر تنتشر المعلومة، وفي لحظات يسيرة تبلغ الآفاق! على صفحات الشبكة العالمية، فماذا تنشر؟! قبل أن تضغط على زر النشر اقرأ جيداً ما الذي تريد نشره من الأخبار، أو المعلومات، فإن كان صدقاً فلله الحمد، وإن كان كذباً سيبلغ الآفاق؛ فقد سمعتَ ما حدثك به الصادق المصدوق ﷺ!

اللهم ارزقنا الصدق في القول والعمل، وباعد بيننا وبين الكذب كما باعدت بين المشرق والمغرب.

المجلس الثامن والأربعون
حصنٌ من الندامة

يقول عليٌّ ﷺ: «المشاورةُ حِصنٌ مِن الندامةِ وأمْنٌ عن الملامَةِ»(١).

هذه كلمة من مجرّب، وهي ثمرةُ تجاربَ طويلةٍ عاشها عليٌ ﷺ بنفسه، وقبل ذلك مع أستاذه ومُعلِّمِه الأول ﷺ.

إن الاستشارةَ أمارةٌ على عقلِ المستشير؛ ذلك أن الرّأيَ الفَذّ ربّما زلّ، والعقلَ الفرد ربّما ضلّ - كما يقول بعض العلماء -.

وقد قال بعضُ السّلفِ: مِن حقّ العاقلِ أن يُضِيفَ إلى رأيِهِ آراءَ العلماء، ويجمعَ إلى عقله عقولَ الحكماء.

وقال بعضهم: «الاستشارةُ عينُ الهداية، وقد خاطرَ مَن استغنى برأيه»(٢).

وشواهدُ الحال - فضلاً عن شواهد السنة - تؤكِّدُ أهميةَ الاستشارة، وتتأكد أهميتُها كلَّما عَظُمَ الأمرُ الذي سيُقدِم عليه الشخصُ، وتتأكدُ أكثر وأكثر حين يتعلقُ الأمرُ بجماعةٍ من الناس أو بالأمة!

إن مما يُؤسَف عليه: أن ترى بعضَ الناس - وخاصة الشباب - ربما أقدَمَ على أمورٍ مهمةٍ ومصيريةٍ في حياته دون استشارة أو استخارة! يحمِلُه على ذلك التَّعجُلُ

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة: (ص٢١٠).
(٢) أدب الدنيا والدين (ص: ٣٠٠).

وضعفُ الإدراك للمآلات، مع تبرير بحسن القصد وسلامة النية! وهذا غلطٌ عظيم، غالباً يقع معه الندمُ، ولكن بعد فواتِ الأوان حيث يتعذَّرُ الاستدراك!

ولو كان أحدٌ مِن الخلق يستغني عن الاستشارة لاستغنى عنها المؤيدُ بالوحي ﷺ، الذي قال الله له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال الحسن البصريّ وغيره: ما أمر اللهُ تعالى نبيَّه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيِهم، وإنّما أراد أن يعلّمَهم ما في المشاورة مِن الفضل، ولتقتدي به أمّتُه مِن بعده.(١)

وهكذا كان ﷺ يَفعل، ومَن تأمَّلَ السيرةَ وجَدَ كيف طبّقها ﷺ عملياً، بل كان له مِن خاصةِ أصحابِه - كالخلفاء الأربعة - من يستشيرهم ويراجعهم.

إذا بلغَ الـرّأيُ المشـورةَ فاستَعِن
بـرأيٍ نصيحٍ أو نصيحَةِ حـازم
ولا تجعل الشّـورى عليك غضاضة
فـإنّ الخـوافي قـوّةٌ لـلـقَـوادِمِ

ويؤكد عليٌّ ؓ في موعظته هذه على فائدة أخرى من فوائد الاستشارة، وهي: أنها أبعد عن الملامة؛ ملامةِ الشخص لنفسه، أو ملامةِ الناسِ له، ولسانُ حالِه يقول: قد استشرتُ الخلق، واستخرتُ الخالق، وهذا غايةُ وسعي!

وأَعرِف من أهل العلم المعاصرين - وهو في عَشر السبعين متّع الله بحياته على حسن عمل - من لا يُقدِم على أي خطوة في حياته العلمية والدعوية إلا وقد استشار، وقال لي مرةً: لم أندم يوماً في حياتي على قرارٍ اتخذتُه ولو جاءَ الأمرُ على خلافِ مرادي؛ لأنني لا أُقدِمُ إلا بعد استخارة واستشارة، وهذا غاية ما في وسعي.

---

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٠).

المجلس التاسع والأربعون
وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

قال العلامة الشوكاني رحمه الله:

«قوله: ﴿وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءهُم﴾ [البقرة: ١٢٠] إلى آخر الآية، فيه من التهديد العظيم، والزجر البليغ ما تقشعرّ له الجلود، وترجف منه الأفئدة!

وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة الغراء، والملة الشريفة من رسول الله ﷺ - الذي هو سيد ولد آدم - يوجب عليه أن يكون - وحاشاه - من الظالمين، فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام، وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية، ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة، لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم، أو الجاه لديهم إن كان لهم في الناس دولة، أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل، بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب، كما يشبه الماءُ الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة؛ وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشدّ على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، فإن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام، ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين، ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضدّ لما

هنالك، فلا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شنعة إلى شنعة، حتى يسلخوه من الدين، ويخرجوه منه، وهو يظنّ أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم، هذا إن كان في عداد المقصرين، ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق، والباطل كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه، وصار نقمة على عباد الله، ومصيبة صبها الله على المقصرين؛ لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى حق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله، فيكون عليه إثمه، وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة، نسأل الله اللطف، والسلامة، والهداية)[1] انتهى.

---

(١) «فتح القدير» (١/ ١٥٤).

المجلس الخمسون
(المثبِّطون)

في واقعنا الاجتماعي طاقاتٌ كثيرة وكبيرة، بعضُها يُكتشف مبكراً، وبعضها يموت وتموت معه طاقته، وإذا تأملتَ في أسباب ذلك؛ وجدتَ التثبيط، والتحطيم النفسي من بعض الناس الذين يعيش بينهم ذلك الشخص مِن أكثر الأسباب تأثيراً.

طرحَ أحد المشاهير في موقع التواصل الشهير (تويتر) سؤالاً لمتابعيه: هل سبق أن حاولتَ المبادرة لعمل إيجابي، فسمعتَ من يثبطك؟ وهل تأثرتَ بكلامه، أم مضيتَ في مبادرتك؟

كثير من الإجابات كانت إيجابية، وفي الوقت ذاته فعدد غير قليل منها يوحي بأثر الكلمة المثبِّطة، إلا أن الجميل في بعض إجابات المتابعين، أنهم جعلوا كلمة التثبيط وقوداً ينطلقون به لتحقيق ما عزموا عليه من عمل نافع وبنّاء، حتى قال بعضهم: لم تزدني الكلمةُ إلا إصراراً على المضي؛ لأثبت لهم أن فكرتي ناجحة، ومبادرتي يمكن تحقيقها.

هذه الإجابات الموفّقة تُذكّرُ بموقف رائع لابنِ عباس رضي الله عنه حين كان في صباه المبكِّر، الذي لقي تثبيطاً من صاحبٍ له، لكنه لم يلتفت إليه، وهذا خبره مع صاحبه: «لما توفي رسول الله ﷺ، قلت لرجل من الأنصار: يا فلان! هلم فلنسأل أصحابَ النبي ﷺ؛ فإنهم اليوم كثير»، فقال: واعجباً لك يا ابن عباس! أترى الناس يحتاجون

إليك، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ مَن ترى؟ فتركَ ذلك[1]، وأقبلتُ على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجل فآتيه وهو قائل[2]، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريحُ على وجهي الترابَ، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث.

قال: فبقي الرجلُ حتى رآني، وقد اجتمع الناسُ علَي، فقال: «كان هذا الفتى أعقل مني»[3].

كم هو رائع أن يتكرر هذا الموقف مع من يثبطنا للمضي قُدُماً فيما نقصد إليه من مشاريع علمية أو عملية، وأن لا يثنينا عن ذلك كلمة أو موقف.

إن التثبيط الذي يسمعه الإنسانُ، لا يقتصر على مشروع علمي أو دعوي، أو تجاري، أو غير ذلك من المشاريع؛ **بل يمتد ليشمل أموراً، منها**: التثبيط عن التوبة، وعن المساهمة في المشاريع النافعة.

ومع التأكيد على ما سبق؛ فإن العبدَ لا يصح أبداً أن يعتمد على ما في قلبه من قوة الداعي والباعث على العمل، بل لا بد أن يستحضر عبادة التوكل، والتبرؤ من حول النفس وقوَّتها، مع بذل الأسباب التي تُعين على تحقيق النجاح في مشروعه، وسيرى ما يَسرُّه بعون الله.

---

(١) أي: ترك طلب العلم.
(٢) أي: نائم نومة القيلولة.
(٣) سنن الدارمي ح(٥٩٠).

المجلس الواحد والخمسون

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية تشع منها بوارق الأمل؛ فالنصر كلمةٌ تعشقها النفوس، وتسعى لها كل الدول، وهي غاية تختلف الأمم في وسائل تحقيقه، وإن اتفقت في جملةٍ منها.

والسؤال الأهم: ما معنى نصر الله؟ وكيف يتحقق؟

والجواب على ذلك: أن نصره يكون بنصرة دينه، ونصرة نبيه ﷺ في حياته، ونصرة سنته بعد مماته، وتتمةُ الآيةِ التي وردت هذه القاعدة في سياقها تكشفُ حقيقة النصر الذي يحبه الله ويريده، بل هو النصر الكفيلُ باستمرار التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

فمتى ما علم الله من أي أمة من الأمم أو دولة من الدول أنها ستقيم هذه الأصول الأربعة من أصول التمكين؛ أمدّها الله بتوفيقه، وعونه وإن تكالبت عليها الأمم، وفي سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين، ومن سار سيرتهم أصدق الشواهد وأوضحها.

أما إذا علم الله من أحوالهم أنهم إذا عادوا إلى الأرض ومُكِّنوا فيها لم يقيموا الصلاة، ولم يؤتوا الزكاة، ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، فإن الله تعالى يكلهم إلى أنفسهم، ويسلط عليهم عدوهم، أو يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي التاريخ عبرة! إن انتصار اليهود على هؤلاء أقرب؛ فهم أهل كتاب ودين

وإن كانوا قتلةً مجرمين.

إن من يقرأ القرآن الكريم بأدنى تأمل، سيجد الحديث فيه ظاهرًا وبيِّنًا عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة في مواطن متفرقة، وهي تحكي مواقف وقعتْ لأشرف جيش عرفته الدنيا، قائده محمد رسول الله ﷺ وجنوده الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ففي غزوة أحد تساءل الصحابة عن سبب الهزيمة؟ فجاء الجواب من السماء: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وفي حديث القرآن عن غزوة بدر - في سورة الأنفال - تصريح بأهم أسباب النصر وأخطر أسباب الهزيمة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٦، ٤٧].

وقد يتساءل بعضنا: أين النصر اليوم عن المسلمين؟ المسلمون في بلدان كثيرة مضطهدون مهزومون، يعيشون ضعفًا ويذوقون عجزًا!

والجواب: هو بنصر دين الله، والاستقامة على أمره، واتباع السنة، والصبر على ذلك، فإن الفرَجَ مع الكرْبِ، وإن مع العسر يسراً، يصاحب ذلك تفاؤل بالنصر وعدم قنوط ويأس، والله المستعان.

المجلس الثاني والخمسون
(من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده)[1]

«من سن في الإسلام سنة حسنة» أي: أتى بطريقة مرضية يشهد لها أصل من أصول الدين «فاتُّبع عليها»[2]، كما في سنن الترمذي[3].

ومن السنة الحسنة: «العمل بما ثبت كونه سنة، والحديث مطابق لقوله في الحديث الآخر: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي» الحديث إلى قوله: «ومن ابتدع بدعة ضلالة»، فجعل مقابل تلك السنة الابتداع، فظهر أن السنة الحسنة ليست بمبتدعة»[4].

ومن لطائف تفسير السلف المتعلق بهذا المعنى، قول عبدالله بن مسعود في آية: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ [الانفطار: ٥] قال: ﴿ما قدّمت﴾ من سنة صالحة يعمل بها من بعده؛ فله أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً وما ﴿أَخَّرَتْ﴾ من سنة سيئة يعمل بها بعده؛ فإن عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن

(١) مسلم(١٠١٧) عن المنذر بن جرير عن أبيه.
(٢) تحفة الأحوذي: (٧/ ٣٦٥).
(٣) الترمذي: (٢٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٤) انظر: الاعتصام: (١/ ٢٣٥).

يَنقص من أوزارهم شيئاً»[١].

إن لهذه القاعدة النبوية العظيمة آثاراً عملية ينبغي أن يُرى أثرها على المؤمن حين يسمعها، فمن ذلك:

١ - أن هذا الكلام دعوة إلى التنافس في الخير، والتسابق في افتتاح مشروعاته النافعة.

٢ - ومما يدخل في طي هذه القاعدة: ما أشار إليه المنذري رحمه الله بقوله: «ونَسْخُ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو كتبه أو عمل به ما بقي خطه، وناسخُ ما فيه إثم: عليه وزره ووزر ما عمل به ما بقي خطه»[٢].

٣ - **نستفيد كذلك من هذه القاعدة:** فضل الصحابة رضوان الله عليهم «لأنهم سنوا سنن الخير، وافتتحوا أبوابه، ولاشك في أنهم الذين سنوا جميع السنن، وسابقوا إلى المكارم، ولو عدت مكارِمُهُم وحصرت لملأت أسفارًا، ولظلت الأعينُ بمطالعتها حيارى»[٣] فرضي الله عنهم وأرضاهم.

٤ - التحذير من البدع في الدين، وهذا أصل متفق عليه بين علماء الملة.

وأنت إذا تأملتَ أيها المؤمن هذا، وجدت أن سدّ باب الابتداع في الدين، وإباحته في أمر الدنيا من مظاهر عظمة هذه الشريعة، وبيانُ ذلك: أنه لو فُتِحَ الباب لكل من أراد أو لكل فرقة وطائفة أن تبتدع في الدين ما ليس منه لتمزقت الأمة وتفرقت، ولوقع

---

(١) التمهيد: (٢٤/ ٣٣٠).

(٢) فيض القدير: (١/ ٤٣٨).

وفي «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٦٢): «بشرى عظيمة لمن نسخ علما نافعا، وهي أنه يكون له أجره وأجر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به، وإنذار عظيم لمن نسخ علماً فيه إثم، وهو أن عليه وزره، ووزر من قرأه، أو نسخه، أو عمل به بعده، ما بقي خطه والعمل به».

(٣) المفهم: (٣/ ١٣٠).

نقيض مقصود الشريعة من الاجتماع والاعتصام بالوحي، تأمل هذه الآية، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

٥ - **ومن دلالات هذه القاعدة النبوية الجليلة:** أن الوسائل لها أحكام المقاصد، سواء كان ذلك في الشأن الديني أو الدنيوي.

المجلس الثالث والخمسون
خمس كلمات (١/ ٢)

وعظ أمير المؤمنين، الإمام الفصيح، أبو الحسن علي بن أبي طالب ﷺ الناس يوماً فقال:

«خُذُوا مِني هذه الكلماتِ الخمس؛ فإنَّكم - والله - لو رَكبتُم المُطيَّ حتى تُنْصِبُوها ما أدركتم مِثلَهن:

لا يَرجُوَنَّ عبدٌ الا ربَّه، ولا يَخافنَّ إلا ذنبَه، ولا يَستحي إذا سُئِل عما لا يَعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحي أن يَتعلَّم إذا لم يَعلَم، وأن الصَّبرَ مِن الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِن الجسدِ، لا خيرَ في جسدٍ لا رأسَ له»[1].

خمسُ كلماتٍ عليها أثارة من النبوة:

أولها: تذكيرُ العبد بالتعلق بمن بيده مقاليدُ السماوات والأرض، وأَزِمّة الأمور، فإليه المنتهى والرغبةُ، ولا حول ولا قوة إلا به. ولكأنك - وأنتَ تقرأ هذه الوصية - تتذكر وصيةَ النبي ﷺ لابن عباس ﷺ حين أردفه النبيُّ ﷺ معه على حمار، وأوصاه بجملةٍ من الوصايا، والتي منها: «واعلم أن الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا

(١) الإيمان للعدني (ص: ٨٥).

بشيء قد كتبَه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف»[1].

وثاني هذه الكلمات: «ولا يخافنّ عبدالا ذنبه»، فإن الله تعالى علّق لحوقَ الآفات والمصائب بهذا، فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ولقد فَقِه هذا المعنى أكابرُ سلف هذه الأمة، ومِن أجمع ما رأيتُه من كلامهم في التعبير عن هذه الحقيقة، قول عمر بن عبدالعزيز رحمه الله:، حين كتب إلى بعضِ عماله: «عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك؛ فإن تقوى الله أفضل العُدّة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء مِن عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوّتهم، فإن لا ننصر عليهم بمقتنا لا نغلبهم بقوّتنا، ولا تكونُنَّ لعداوة أحدٍ من الناس أحذَرَ منكم لذنوبكم، ولا أشدَّ تعاهداً منكم لذنوبكم»[2] اهـ.

---

(١) رواه الترمذي ح(٢٥١٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٣٠٣).

المجلس الرابع والخمسون
خمس كلمات (٢/٢)

كنا في المجلس السابق وقفنا مع كلمتين من مواعظ أمير المؤمنين علي ﷺ، حين وعظ الناس يوما فقال: «**خُذُوا مِني هذه الكلماتِ الخمس، وفيها: ولا يَستحي إذا سُئِل عما لا يَعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحي أن يَتعلَّم إذا لم يَعلَم، وأن الصَّبرَ مِن الإيمانِ بمنزلةِ الرأسِ مِن الجسدِ، لا خيرَ في جسدٍ لا رأسَ له**»(١).

ونستكمل في هذا المجلس التعليق على الجمل الثلاث الباقية من هذه الموعظة البليغة:

قال ﷺ: «**ولا يستحي إذا سئل عما لا يَعلم أن يقول: لا أعلم**».

هذه سنةٌ ملائكية؛ فإن الملائكة حين سألهم الله وكانوا لا يعلمون قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ولا أجِد في بيان هذه الجملة خيراً مِن ذكر بعض ما روي عن الإمام مالكٍ:، كما في القصة المشهورة التي رواها عبدالرحمن بن مهدي يقول: كنا عند مالك بن أنس، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبدالله جئتك من مسيرة ستة أشهر حملني أهل بلدي مسألة أسألك عنها، قال: فسل فسأله الرجل عن مسألة فقال «لا أُحسِنها» قال: فبُهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء! قال: فأي شيء أقول لأهل بلدتي إذا رجعت لهم؟

(١) الإيمان للعدني (ص: ٨٥).

قال: «تقول لهم: قال مالك: لا أُحسِن»(١).

فليعتبر طلبة العلم بهذا، وأين منهم من هو في درجة مالك رحمه الله؟ والذي ما زاده هذا المسلك في قول (لا أدري) إلا رفعةً ومكانةً في الأمة.

وأما الجملة الرابعة من موعظته، فهي قوله: «ولا يستحي أن يتعلم إذا لم يعلم».

وصدق رضي الله عنه، وكم منع الحياء من أناس أن يتعلموا، إما خوفاً من الغلط، أو حذار أن يجلسوا عند من هو أصغر منهم سنّاً، أو أقلّ وجاهة اجتماعية.

ولهؤلاء الذين حالَ بينهم وبين التعلم ما سبق أو غيره أذكِّرهم بموقف وقع للبضعة النبوية، الملقب بزين العابدين: علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والذي عاش حياته في المدينة، وكان سيداً من سادات الناس، وموضع الإجلال والتقدير، فكان يتخطى حِلَقَ قومِه من قريش، حتى يأتي زيدَ بنَ أسلم - وهو مولى من الموالي لكنه عالمٌ كبير - فيجلس عنده، فقال: «**إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه**»(٢). الله أكبر! يا للعلم والعقل! لم يلتفت لِلُّغة المستعلية على العلم، ولا المنطق الذي يثير غبار الجاهلية، فيجيب بهذه الكلمة التي عليها أثارة من النبوة: «**إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه**».

وأما الكلمة الخامسة: «وأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، لا خير في جسد لا رأس له»(٣).

نعم.. إنه الصبر! «فإذا استحكمت الأزمات وتعقدت حبالها، وترادفت الضوائق وطال ليلُها؛ فالصبرُ وحدَه هو الذي يُشِع للمسلم النورَ العاصمَ من التخبط، والهدايةَ

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٣٨).
(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ١٣٨).
(٣) الإيمان للعدني (ص: ٨٥).

الواقية مِن القنوط»[1].

إنه الصبر الذي تكرر الحديثُ عنه في القرآن في أكثر مِن تسعين موضعاً.

ومن المحزن أن يظن بعضُ الناس أن الوصية بالصبر - عند انغلاق الأمور - وصيةُ عاجز!

عجباً! أَوَ تكون الوصيةُ بوصية الله ورسوله وصية عاجز؟! بل هي وصية ناصح، خاصةً أن عدداً من المصائب والمشاكل لا يمكن تجاوز أثرها إلا بالصبر، وإلا فماذا يصنع من يفجعُ بوفاة حبيب؟ هل ثمة إلا الصبر؟ أو مَن يبتلى بِتَلف مالٍ؟ هل ثمة إلا الصبر؟[2].

---

(١) خلق المسلم (١١٧).

(٢) ينظر: القاعدة الثامنة عشرة من كتاب «قواعد نبوية» للكاتب.

المجلس

٥٥

المجلس الخامس والخمسون
وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾

قال الإمام أبو عبدالله القرطبي رحمه الله:

«فما أحق من عَلِمَ كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، فإنه حُمِّلَ أعباءَ الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

أَلَا وإن الحجة على من علمه فأغفله، أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً، كان القرآن حجة عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله ﷺ: «**القرآن حجة لك أو عليك**» خرجه مسلم.

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه، أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ثم تحدث رحمه الله عما يعين على تدبره وفهمه، فقال:

فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين،... فهو من نور ذاته جل وعز، ولولا أنه - سبحانه - جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله، ليتدبروه وليعتبروا به، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته، يقول - تعالى جده - وقوله الحق: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فأين قوة القلوب من قوة الجبال؟! ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم، فضلا منه ورحمة؟!

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حق تدبره، ويقوم بقسطه، ويفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فانه أهل التقوى وأهل المغفرة»[1].

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» ١/ ٦ - ٩، ط.الرسالة، بتصرف واختصار يسيرين، وقد جعلتُ عنوان الوقفة متعلقًا بالآية؛ كونها مناسبة لتعليقه رحمه الله، وإلا فكلامه هذا كان في مقدمة تفسيره كما جرت الإحالة إليه.

المجلس السادس والخمسون
(بشائر النصر لهذه الأمة)

في ظل الأحداث التي تمر بها الأمة؛ تبرز لغةُ اليأس عند بعض أفرادها حيناً، ولغة الحزن حيناً آخر.

ولا ريب أن الحزن العارض لا تنفك عنه النفوس، كيف وقد مرّ بسيد المرسلين، المؤيَّد بالوحي من رب العالمين ﷺ!

لكن المتأمل في الآيات التي تدور حول هذا المعنى؛ يجد سرعةً ظاهرةً في دفع هذه الخواطر والمشاعر بأساليب متنوعة، وليس ذِكر الآيات في هذا المعنى مراداً لنا في هذه الأسطر، بل المراد هو الاستفادة من المنهج القرآني، والمنهج النبوي في بثّ روح الفأل، ودفع غوائلِ اليأس، ومشاعرِ الحزن، التي إذا سيطرت على الإنسان أقعدته، ولم تدفعه للعمل الإيجابي المثمر.

إن الأمة - مع ما تعيشه من آلام - إلا أن في واقعها بشائر كثيرة، مقارنة بما كانت عليه في القرن الماضي.

ومن المبشرات: السنن الإلهية، ومن هذه السنن التي تبشِّر بأن النصر للإسلام: إهلاك الظالمين: يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]، ويقول جل وعلا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا

﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١] والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهي تبشر المسلم أن أَمَدَ الظالمين لن يطول، وما أكثر صور الظلم في عصرنا هذا! فكيف إذا جُمع مع الظلم الكفر بالله! إن ما تمارسه بعضُ الدول العظمى من ظلم عظيم، وتسلط مقيت على الشعوب المستضعفة، فيموت بسبب هذه الدعاوى ملايين الأبرياء، وتُقصف عشرات المدن والقرى المدنية ظلماً؛ لا ينطلي على السذَّج من الناس، فكيف بعقلائهم!

وثمة مبشرات من أرض الواقع، لكن قبل الإشارة إلى بعضها، ينبغي أن نستصحب - في أذهاننا - الحالة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية في القرنين الماضيين، والتي بلغت فيهما أحوال المسلمين من الضعف العقدي، والعلمي، والسياسي، والعسكري، والاقتصادي، والاجتماعي؛ مبلغاً لم يُعرف في زمن مضى، وأما اليوم فالأمور أحسن منها بكثير في كثير من بلاد الإسلام، ومن ذلك: انتشار الحجاب ليس في بلاد الإسلام فحسب؛ بل في بلاد الكفر، وكذلك إقبال الشباب المسلم على التدين بمعناه العام، مقارنة بأحوالهم قبل نصف قرن من الآن، ومن رأى الحرمين الشريفين - خاصة في رمضان - رأى ما يبهج النفس، وإقبالُ فئام من الناس على سنّة الاعتكاف من دلائل ذلك أيضًا.

ومن المبشرات: ارتفاع الوعي عند كثير من فئات الأمة، وهذا وحده مؤشر ممتاز، يبعث على الفأل.

ومن المبشرات: المبشرات العقدية: ففي الوقت الذي كانت كثير من العقائد الفاسدة منتشرة ومُطبِقة في العالم الإسلامي، نجد اليوم - بحمد الله تعالى - انتشاراً واسعاً للعقيدة السلفية الصحيحة التي تمثل معتقد أهل السنة والجماعة، وهاهي كتب ومواد أهل السنة المسموعة والمرئية تنتشر في أصقاع الأرض، وتُترجم إلى عدة لغات، وتُنشر عبر الإنترنت.

ومن المبشرات: المبشرات العلمية: يظهر في هذا الخير العظيم المتمثل في انتشار حلق تحفيظ القرآن وتدبره، والعناية بالسنة: حفظاً ونشراً وشرحاً، وانتشار دروس العلم المتنوعة.

ومن المبشرات: المبشرات الدعوية، وهي كثيرة، منها: الإقبال الكبير على الإسلام في جميع أنحاء العالم، والأرقام أكبر شاهد على ذلك.

والمبشرات أكثر من هذا.. لكن ذكرنا بعضها لعلها تكون سبباً في وأد لغة اليأس، واختفاء نبرة الحزن الدائمة، وأن تكون هذه المبشرات شاحذة للهمم، والسير على المنهج النبوي في الفأل الذي يدفع إلى العمل على إصلاح النفوس والمجتمعات، حتى يأتي العبدَ أمرُ الله وهو على ذلك، غير منتظر تحقق النتائج في حياته، بل يسعى ليساهم في بناءٍ عظيم بأكبر عدد ممكن من اللبِنات.

المجلس السابع والخمسون
﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، يتعين إبرازها للناس، خصوصًا في هذا الزمن الذي راجت فيه سوق السحرة والمشعوذين[(١)].

ونفيُ الفلاحِ عن الساحر دليل على كفره - عياذاً بالله - كما دل القرآن على ذلك في آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

كمْ هي الآيات التي تحدثت عن السحر والسحرة في كتاب الله تعالى، وأخبرتْ عن ضلالهم، وخسارتهم في الدنيا والآخرة! ومع هذا فيتعجب المؤمن كثيرًا؛ من رواج سوق السحر والسحرة في بلاد الإسلام!

ليس العجب من وجود ساحر أو ساحرة، أو مِنْ ساحر يسعى لكسب الأموال بأي طريق! لكن العجب من أمة تقرأ القرآن وما فيه من آيات صريحة واضحة في التحذير من السحر وأهله، وبيان سوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، ومع ذلك يقفون زرافاتٍ ووحدانًا أمام عتبات أولئك السحرة المجرمين!! سواء أمام بيوتهم، أم على شاشات قنوات السحر والشعوذة، والتي راجت سوقها منذ فترة من الزمن! يلتمسون منهم التسبب في إيقاع الضر بأحد أو إزالته عن آخر، وكأن هؤلاء لم يقرؤوا قول الله

---

(١) وهذه القاعدة جاءت ضمن قصة موسى مع سحرة فرعون، وجاءت في موضع آخر في نفس القصة في سورة يونس: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [يونس: ٧٧].

تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ونحن موقنون أنه لولا تكاثر الناس على هؤلاء السحرة لما راجت سوقهم، وانتشر باطلهم!

إن مرور الإنسان بحالة مرضية صعبة، أو حالة نفسية شديدة، لا يبيح له بحال أن يذهب للسحرة! والله تعالى أرحم وأحكم من أن يحرم عليهم إتيان السحرة، ولا ينزل لهم دواء لما ابتلوا به! كما قال النبي ﷺ: «**لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز و جل**»(١).

ولعظيم ضرر السحر، فقد حرمته جميع الشرائع، ومن أيقن بأن الساحر لا يفلح حيثُ أتى، وأيقن بأنه لا يفلح الساحرون، دفعه هذا إلى أمورٍ، من أهمها:

١ - البعد عن إتيانهم، والحذر من التفكير في ممارسة شيء من أنواع السحر، مهما كان المبرر.

٢- إنْ ضعُفتْ النفس لحظة، وزين الشيطان لها شيئًا من هذه الأفعال المنكرة، فليبادر بالتوبة، وليقلع عن هذا العمل الباطل.

إن يقين المؤمن بأن الساحر لا يفلح حيث أتى لمما يقوي عبادة التوكل عنده، وعدم الخوف من إرهاب هذا الصنف الحقير من الناس.

ومما يحسن تأمله والتفكرُ فيه: أن هؤلاء السحرة رغم ما يملكون من الأموال، وما يعيشونه من سكرة التفات الناس إليهم، إلا أنهم من أتعس الناس حياةً، وأخبثهم نفوسًا، ولا عجب! فمن سلّم قياده للشياطين، وكفر برب العالمين، كيف يسعد أم كيف يفلح؟!

---

(١) مسلم ح(٢٢٠٤) عن جابر.

المجلس الثامن والخمسون
(كل مسكر خمر، وكل خمر حرام)[١]

هذه قاعدة عظيمة، بل هي أصل من الأصول في باب الأشربة، والتي تؤكد حماية الشريعة لأحد الضروريات الخمس، وهو العقل، ذلكم الهبة الربانية العظيمة لهذا الإنسان، وهذه الخمس هي: الدين، العرض، المال، العقل، النفس.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فلفظ الخمر عام في كل مسكر، فإخراج بعض الأشربة المسكرة عن شمول اسم الخمر لها؛ تقصيرٌ به وهضم لعمومه، بل الحق ما قاله صاحب الشرع: كل مسكر خمر»[٢].

ومن أول ما يُذكر في علل النهي عنها ما ذكره محرِّم هذه الخمرة علينا، وهو ربنا العليم الخبير فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وأنت إذا تأملت هذه العلة وجدتها في جميع المسكرات والمخدرات؛ فوجب طرد الحكم في الجميع، فكل ما صد عن الصلاة وعن ذكر الله عز وجل فهو داخل في هذا الحكم.

---

(١) البخاري ح(٢٣٩)، مسلم ح(٥٣٣٩)، واللفظ له، وفي لفظ آخر له أيضاً: «وكل مسكر حرام».
(٢) إعلام الموقعين: (١/ ١٦٨).

إن المقام لا يحتمل سرد ما وقفتُ عليه من المفاسد التي تجرها وتسببها هذه الخمرة وما يلحق بها من مخدرات ومسكرات، إلا أنه يمكن القول بأن هذه المفاسد تنقسم إلى قسمين: **مفاسد دينية، ومفاسد دنيوية:**

أما المفاسد الدينية: فقد جاء النص عليها في الآية الآنفة الذكر، وأي خير في عملٍ يصد الإنسان عن الصلة بربه، فإن الصلاة والذكر هما الحبل الذي يتعلق به المؤمن، ويتصل به مع ربه!

ومن المفاسد الدينية التي نصت عليها الآية: إيقاع العداوة والبغضاء بين أهلها.

وأما مفاسدها الدنيوية: فشيء لا يكاد يحصر، سواء من الناحية الطبية، أو الاقتصادية، أو الاجتماعية!

أما مضرتها الصحية: فقد أجمع عليها الأطباء؛ لأنهم وجدوها سبباً في كثير من الأمراض الخطيرة على الكبد، والجهاز الهضمي، والعصبي، وغير ذلك مما هو مفصّل في مواضعه.

وأما على الصعيد الاقتصادي، فأرقام كبيرة مزعجة تقرؤها إذا ما قررت أن تخوض في المشاكل الاقتصادية والخسائر التي تعود على الدول بسبب هذه المشكلة الدولية!

أما المشاكل الاجتماعية للخمر فحدِّث ولا حرج، ففي دراسة اجتماعية حديثة عن المجتمع الأمريكي ظهر أن الطلاق بين الزوجين الذي يعاني أحدهما من شرب الخمر يزيد ٣ أضعاف احتمالات الطلاق العادي.

وبالجملة، فلو لم يكن في الخمر إلا ذهاب العقل لكفى سبباً للتحريم! فكيف يشرب ما يزيل عقله! فيكون أضحوكةً للصبيان، ويتصرف تصرف المجانين؟!

وبعد: فإن من أشد الآثار التي تجعل المؤمن يخاف من شربها في الدنيا أن يُحرم من التلذذ بها في الآخرة، ففي سياق هذه القاعدة النبوية التي نحن بصدد الحديث عنها، يختم النبي ﷺ هذه القاعدة محذرا ومنذراً من يفكر في شربها فقال - كما في الصحيحين -: «**ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب؛ لم يشربها في الآخرة**»[1].

(١) مسلم ح(٢٠٠٣).

يقول العلامة الشنقيطي:

«اعلم أن كُلاًّ من الآمر والمأمور يجب عليه اتباع الحق المأمور به، وقد دلت السنة الصحيحة على «أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله أنه حمار من حمر جهنم يجر أمعاءه فيها».

وقد دل القرآن العظيم على أن المأمور المعرض عن التذكرة حمار - أيضاً -.

أما السنة المذكورة فقوله ﷺ: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون: أي فلان ما أصابك، ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»، أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

ومعنى تندلق أقتابه: تتدلى أمعاؤه، أعاذنا الله والمسلمين من كل سوء، وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بي رجالا تُقْرَضُ شِفَاهُهُم بِمَقَارِيضَ مِن

نار كلما قُرِضَتْ رجعت فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خُطَبَاء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون» أخرجه الإمام أحمد، وغيره.

واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد - الذي ذكرنا من اندلاق الأمعاء في النار، وقرض الشفاه بمقاريض النار، ليس على الأمر بالمعروف، وإنما هو على ارتكابه المنكر عالماً بذلك، ينصح الناس عنه، فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح، ولا طالح، والوعيد على المعصية، لا على الأمر بالمعروف، لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير...

وأما الآية الدالة على أن المعرض عن التذكير كالحمار أيضاً، فهي قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١] والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فيجب على المذكر - بالكسر - والمذكر - بالفتح - أن يعملا بمقتضى التذكرة، وأن يتحفظا من عدم المبالاة بها، لئلا يكونا حمارين من حمر جهنم»[1] انتهى.

---

(١) أضواء البيان (١/ ٤٦٣).

المجلس الستون
(إرادةُ سِتِّيني تهزِم سيجارة)

في رمضان من الرمضانات الفائتة، وفي طريقه إلى المسجد عَقِب الإفطار؛ أشعل أبو محمد سيجارته التي فارقها عند السحور.. وحين اقترب مِن عتبة المسجد، نازعته نفسُه الطيبة - التي شُحنت مروءةً -: أأدخل وفي فمي رائحةٌ تُؤذي المصلين الصائمين؟ أم أرجع حتى لا أُؤذيهم؟ فأذيةُ المسلم جريمةٌ، فكيف بها في بيت الله!

لحظَتَها حَلَفَ أبو محمد ألا يُدخن غيرَ ما دَخّن، فقد أمضى أربعين عاماً مع هذا «الخبيث»، وفيها ما يكفي لقطع العلاقة، فقد دخل أبو محمد مُعترك المنايا - ما بين الستين والسبعين -، وقال لنفسه بصدق: قبّح اللهُ سيجارةً تُؤخرني أو تَحوْل بيني وبين الدخول إلى بيت الله!

هذا الحوارُ بين أبي محمد وبين نفسه لم يَدُم أكثر من دقيقة، لكنه كان حواراً انتصرت فيه الإرادةُ المتحلية بالإيمان، والتفكيرِ السليم، على هوى النفس المخادع، والشهوةِ المهينة.

لم يكن حُكْمُ التدخين ولا ضرَرُه خافياً على أبي محمد، لكن لم تأت اللحظةُ التي تُخْتَبر إرادتُه وإيمانُه ومروءتُه مع هذه «الخبيثة» كما أتت الآن.

هذه الفرصة، وتلك الدقيقة الحوارية التي لم تَخْل من تحدٍّ، لا تتهيأ بالضرورة لكل مُدخِّن، لكن المؤكّد أن إجراءَ حوارٍ مع النفس من الآن، يَحْضُرُ فيه العقلُ

والدينُ، والتأملُ في هذه العادة السيئة؛ كافٍ - بإذن الله - للوصول إلى ذات النتيجة التي وصل إليها أبو محمد.

ربما يَحسُن أن تُذكَر الأرقامُ المخيفةُ عن ضحايا التدخين عالمياً إذا كان المخاطَب كافراً، لكن المسلم الحقّ لا يقلقه شيءٌ أعظم من الخوفِ من معصية الله تعالى، الذي وهبه هذا المال، واستخلفه عليه، وكيفيةِ الحفاظ على هذا البدن الذي استودعه الله عليه، والتفكرُ في آثار هذا السلوك المشِين على العبادة وعلى النفس والأهل!

إن الإيمانَ الذي دفع أبا محمد لإصدار قرارِ تَرْك التدخين في أقل من دقيقة؛ موجودٌ مثلُه عند كثير من المسلمين، لكنها الغفلةُ، والاستغراقُ في العادة الذي يحجب عن التأمل والنظر في عواقب هذه العادة السيئة، دينياً ودنيوياً.

ماذا لو استشعر المدخِّن: أنه بالتدخين يُكدِّر على إخوانِه المصلين؟ وأنه بتدخينه يؤذي ملائكةَ الرحمن التي تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، كما في الحديث الصحيح[1].

وماذا لو استشعر خطرَه على صحته ونفسه؟ وأذاه لأهله ومَن حوله؟ وأثرَه في سوء تربية أبنائه؟

ماذا لو جمع المدخِّنُ عدد السجائر التي دخنَها خلال سنة فقط؟ فلو كان معدّل ما يدخنه يومياً خمسَ سجائر؛ فهذا يعني أنه يدخن نحواً من (١٨٠٠) سيجارة سنوياً!

إنها دعوة - لإخواني المدخنين - للحوار مع النفس والعقل، عند عتبة البيت، أو العمل، أو المسجد، أو في أي مكان، راجياً ألا ينتظروا بلوغ الستين!

---

(١) مسلم ح(٥٦٤).

المجلس الواحد والستون
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾

هذه قاعدة من قواعد ضبط موازين تقييم الناس، وتصحيح النظرة الجاهلية في تقييمهم.

ولن يتبين موقع هذه الآية الكريمة في نفسك إلا إذا استعرضتَ في ذهنك شيئًا من الموازين التي كان يتعامل بها عرب الجاهلية في نظرتهم لغيرهم، سواءٌ كانوا من قبائل أخرى أقل منهم درجة في النسب، أو في نظرتهم للأعاجم، أو في تعاملهم مع العبيد والموالي!

لقد كان نبينا ﷺ حريصاً على تربية أصحابه على هذه القاعدة، وكرر ذلك بعدة أساليب بيانية وعملية، ومن ذلك:

- أنه في فتح مكة، حين أمر بلالًا بالصعود فوق الكعبة ليؤذن، في مشهد ما ظنّ بعض الذين أسلموا حديثاً فضلاً عن كفار قريش أن يعيشوا ليرى عبداً حبشياً فوق رؤوسهم، مُقَدّماً عليهم عند صفوة الخلق ﷺ!
- وفي يوم الفتح أيضاً يدخل ﷺ الكعبةَ ويصلي فيها، ولم يدخل معه إلا أسامة بن زيد - مولاه ابن مولاه - وبلالاً الحبشيَّ، وعثمان بنَ طلحة، المسئولَ عن مفتاح الكعبة![1].

---

(١) والحديث في الصحيحين من حديث ابن عمر: البخاري ح(٢٨٢٦)، ومسلم ح(١٣٢٩).

فأي برهان عملي على إذابة المعايير الجاهلية أكبر من هذا؟ مع أن في الحضور من هو أفضل من بلال وأسامة، كالخلفاء الأربعة، وبقية العشرة المبشرين!

- **وموقفٌ ثالث له ﷺ**: ففي حجة الوداع، وبينما الناس مستعدون للنفير من عرفة، وإذا بالأبصار ترمق دابته ﷺ، ويتساءلون: مَنْ سيحظى بشرف الارتداف معه ﷺ؟ فلم يرعْهُم إلا وأسامة - ذلك الغلام الأسود، مولاه وابن مولاه - يركب خلفه ﷺ والناس ينظرون! وكأنما يقول لهم: هل سمعتم قولي في خطبة عرفة: «**إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع**»؟ فهذا تطبيقه العملي.

إن من عظمة هذا الدين أنه لم يربط منزلة الإنسان عند الله بشيء لا اختيار له فيه، كالنسب أو الجمال أو الغنى والفقر، وأمثالها من المعايير، بل ربطها بمعيار هو في مقدوره، إنها التقوى.

وإن مما يؤسف عليه - في واقعنا المعاصر - وجود أمثلة كثيرة مخالفة لهذه القاعدة الشريفة تمثلت بصور من عودة العصبية الجاهلية للقبيلة، والتي لم تتوقف عند حد التعارف بين أفراد القبيلة الواحدة فحسب، ولم تتوقف عند التمادح المباح، بل تجاوزت ذلك إلى الموالاة المفرطة للقبيلة، وربما تجاوز هذا إلى التلويح بنبز القبائل الأخرى أو أهل المدن الأخرى، فليتق الله من يسمع ويقرأ قول ربه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] من التفاخر المذموم، وليعلم المؤمن أن: «من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه».

المجلس الثاني والستون
(مَن بطّأ به عملُه لم يسرع به نَسَبُه)[١]

ما أجلها من قاعدة وأسماها! يسكن العدل في سكونها، ويتربع القسط على عرشها!

لا محاباة ولا طبقية ولا مجاملة في هذا الدين العظيم الذي يربي في أتباعه رضاعة العزة والكرامة بشيء يقدرون عليه، ومن كسبهم وجِدّهم، لا بشيء آخر لا طاقة لهم به.

وبيان هذا: أن الإنسان لا يحاسَب ولا يُمدح ولا يُذم على ما لا اختيار له فيه - كنَسَبه، ولونه، وجماله، ومكانه، والزمان الذي يعيش فيه، ونحو هذه المعاني - بل يمدح ويذم على قوله وعمله؛ فذاك مَن كَسْبِه!

ولا ريب أن النسب الشريف من نعمة الله على العبد إذا اقترن بالتقوى، إلا أنه لم يجعل لها الشرع اعتباراً في التفاضل مطلقاً، إلا ما اتصل بنسب النبي ﷺ، فإن الشريعة «علقت بالنسب أحكاماً: ككون الخلافة من قريش، وكون ذوي القربى لهم الخمس، وتحريم الصدقة على آل محمد ﷺ ونحو ذلك؛ لأن النسب الفاضل مظنة أن يكون أهله أفضل من غيرهم»[٢].

---

(١) مسلم ح(٢٦٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣١).

ولقد قرّر النبي ﷺ أن كل امرءٍ سيحاسب على عمله لا على نسبه بوسائل عدّة، ورسّخه في أوقاتٍ متفاوتة، وبأساليب متنوعة، من ذلك:

١ - أنه أول ما أُنزِلَ عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيْرَتَكَ الأَقْرَبِيْنَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يا معشر قريش! اشترُوا أنفسَكم من اللهِ؛ لا أُغني عنكم من اللهِ شيئاً، يا بني عبدالمطلب! لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبدالمطلب! لا أُغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمّة رسول الله! لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد! سليني ما شئتِ، لا أغني عنكِ من الله شيئاً»[(١)].

٢ - وفي فتح مكة، أمر النبي ﷺ بلالاً أن يصعد فوق الكعبة ليرفع الأذان، في مشهد ما ظنّ بعض مُسْلِمةِ الفتح أن يعيش ليرى هذا العبد الحبشي يقف كهذا الموقف! ولكنه الإسلام، والهدي النبوي الذي يربي بالفعل والقول.

وإذا تأملتَ القرآن وجدتَه يصدّق هذه القاعدة النبوية؛ ففي القرآن سورة كاملة في ذمِّ عمّ النبي ﷺ أبي لهب تُتلى إلى يوم القيامة، ويقرأها الصبيان في أول محفوظاتهم، وفي مقابل ذلك، فالصحابي الوحيد الذي ذُكر اسمه في القرآن هو زيد بن حارثة، مولاه وحِبه، فأي برهان أعظم من ذلك على تقرير هذه القاعدة!

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا ليس في كتاب الله آية واحدة يمدح فيها أحداً بنسبه، ولا يذم أحداً بنسبه؛ وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان»[(٢)].

وثمّة نوع من الأنساب يقع فيه التفاخر من بعض الناس، وهو النسب المعنوي، فمِن الناس مَن قد يفاخر بأن أباه كان عالماً، أو وزيراً، أو أميراً، أو حاكماً، وهو قليل

---

(١) البخاري ح(٤٧٧١)، مسلم ح(٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وروي أيضاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في الصحيح.
(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢٣٠).

الحظ من الديانة والأخلاق، وماذا يغني عنه ذلك؟! والأجدر بهذا المتفاخر أن يكون عصامياً لا عظامياً، أي: يجتهد أن يكون كعصام الذي سوّد نفسه بنفسه، بسبب علو همته - بعد توفيق الله - ولا يكون عظامياً يفاخر بالآباء.

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، وارفعنا في الدنيا والآخرة.

المجلس الثالث والستون
(للسلامة من التهلكة)

يقول الصحابي الجليل أبو عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنه: «**التَّهلُكةُ هي: أنْ يُذنِبَ العَبدُ ذَنْباً ثم لا يَعمَل بَعدَه خَيراً حتى يَهْلَك**»[١]!

هذه موعظة، وضّحها في موضع آخر فقال: «ألا رُب مُبيِّض لثيابه مدنِّس لدينه، ألا رُب مُكرِمٍ لنفسه وهو لها مُهين، **ألا بادروا السيئاتِ القديمات بالحسنات الحديثات**، فلو أن أحدَكم أخطأَ ما بينه وبين السماءِ والأرضِ ثم عمل حسنةً لعَلَت فوقَ سيئاته حتى تَقهَرهُن»[٢].

هذا الكلام من أبي عبيدة رضي الله عنه من فقهه، فإن الله تعالى لما تكرّم على عباده بمضاعفة الحسنات، وأن السيئة لا تكون إلا واحدةً فقط؛ صار الهالك حقّاً هو مَن غلبتْ سيئاتُه حسناتِه، كما روى النبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى - في حديث مضاعفة الحسنات والجزاء بالسيئات واحدة - قال: «**ولا يَهلِك على الله إلا هالكٌ**»[٣].

إنه ليس منا أَحدٌ إلا وهو عُرضةٌ للخطأ والذنب، ولكن الشأن في المبادرة إلى محو الذنب بالسيئة، كما في الحديث: «**وأَتبِع السيئةَ الحسنةَ تمحُها**»[٤]، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٣١٩).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥١).
(٣) مسلم ح(١٣١) عن ابن عباس. وأصل الحديث في الصحيحين.
(٤) الترمذي ح(١٩٨٧)، وقد رجح الدارقطني إرساله، وانظر تعليق ابن رجب عليه في «الجامع» ح(١٨).

إن من توفيق الله تعالى لعبده أن يبادر بالصالحات عند الوقوع في السيئات.

وإن من رحمة الله تعالى أن شرع لعباده جملةً مِن المكفرات، ففي الصحيح عنه ﷺ: «الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر»(١).

وفي سياق الثناء على أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢] قال ابن عباس رضي الله عنهما: يدفعون بالصالحِ من العملِ السيئَ من العمل»(٢).

وقال الحسن البصري: «استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئاً أَذْهَبَ بسيئةٍ قديمةٍ مِن حسنةٍ حديثة، وأنا أجد تصديقَ ذلك في كتاب الله: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾(٣).

ولعل قصةَ توبةِ القاتل الذي قتَل تسعةً وتسعين نفساً نموذجٌ تطبيقي لهذا، فإنه لما قَتَل وتاب؛ بادر إلى مفارقة مكان السوء وقرية السوء، فأخذته ملائكةُ الرحمة؛ لأنه جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله.(٤)

فإلى كلِّ من أسرف على نفسه، وقنّطه الشيطانُ مِن رحمةِ ربه: لا تَيأَسَنّ ولا تَقنطَنَّ، فهذا رجل قَتَل تسعةً وتسعين نفساً، فلما صحّت توبتُه؛ رَحِمَه ربُّه ومولاه، مع أنه لم يعمل خيراً قط من أعمال الجوارح، سوى هجرته من بلد السوء إلى بلد الخير، أفلا تحرك فيك هذه القصةُ الرغبةَ في هَجْرِ المعاصي، والإقبال على من لا سعادة ولا أُنس إلا بالإقبال عليه؟!

---

(١) مسلم ح(٢٣٣).
(٢) تفسير البغوي: (٤/ ٣١٣).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٨/ ٢٧٩).
(٤) البخاري ح(٣٢٨٣)، ومسلم ح(٢٧٦٦).

المجلس الرابع والستون
وقفة مع قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

قال العلامة السعدي رحمه الله:

«والتذكير نوعان:

تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول، فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع، فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في المأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه، من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون بذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ٩، ١١].

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئًا، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم»[1].

---

(١) تفسير السعدي: (٩٦٦).

المجلس الخامس والستون
(منعشات الروح)

في مجلسٍ من المجالسِ العابقةِ بأنفاسه ﷺ؛ جاءته هديةٌ، يبدو من خلال قراءة كلام الراوي أنها غريبة وعزيزة، لقد كانت عبارة عن ثوبِ حرير! يقول الراوي: فجعلنا نلمسه، ونتعجب منه! لِمَ؟ إنهم الصحابة الذين تدثّر أغلبُهم ألبسةَ الفقر وشظفَ العيش.. فمِن أين لهم مثل هذه؟ فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من هذا؟» قلنا: نعم، قال: «والذي نفس محمد بيده إن مناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا»[1].

هكذا يربي ﷺ صحابتَه على التعلُّق بالآخرة، ويهتبل الفرص، ويغتنم المواقف للتذكير بها، والذي يورث تذكرُها والتعلقُ بها الزهدَ في الدنيا، ذلك الزهدُ الذي لا يُقْعِدُ عن عمارتها، بل يسير وفق المنهج القرآني: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

إن هذا المنهج النبوي في التعليق بالآخرة؛ يُنعِش الروحَ التي تَنصب وتَتعب وهي تتطلع إلى بهرج الدنيا ومتاعها الزائل، تطلعاً يملأ القلبَ حسرةً على فوات ما يراه مما يتنعّم به أهلُ الملك والثراء الفاحش.

ويكفي في تصور خطورةِ الانغماس في الدنيا تدبُّرُ هذه الآية العظيمة: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

(١) البخاري ح(٣٢٤٩) من حديث البراء، وفي مسلم ح(٢٤٦٩) من حديث أنس. رضي الله عنهما.

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما الأثر الملموس للانغماس فيها فلا يحتاج لاستدلال كثير؛ فيكفي من آثاره: الغفلة عن الآخرة، وتشتت القلب وقسوته، وما يتبع ذلك من رِقّةٍ في الدين، وأمراض قلبية مهلكة؛ كالشحّ والكذب، والاستهانة بالمكاسب المحرمة، وغير ذلك.

ولأجل ذلك كان النبي ﷺ يغتنم كلَّ فرصة مناسبة ليقرر هذه الحقيقة، ومن ذلك: أنه دخل السوق مرةً، فمرّ بجدْيٍ أَسَكَّ - أي: صغير الأذنين أو مقطوعهما - ميّت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيُّكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه، لأنه أسكّ، فكيف وهو ميت؟! فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»(١).

فانظر كيف استعمل النبيُّ المربي ﷺ لأمته الحرير مرةً - وهو أنعم ما يكون - والجديَ الأسكّ مرةً أخرى - وهو شيء تنفر النفوس عنه -، كيف استخدمها وسيلةً إيضاحية؛ لغرس القيمة التربوية، وذلك ما أدركته التربية الحديثة لاحقاً من أثر هذه الوسائل في ترسيخ المعاني!

فما أجدر الآباء والمربين أن يسلكوا هذا المنهج مع مَنْ تحت أيديهم من الأبناء والنشء، خاصة في عصرٍ أضحتْ وسائلُ الإعلام التقليدي والجديد تضخُّ من البرامج والأفلام والدعايات ما يُصادِم هذه القيم الشرعية المتوازنة، بل صارت تُعَظِّمُ الدنيا في العين والقلب.

---

(١) مسلم ح(٢٩٥٧).

المجلس السادس والستون
﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾

هذه آية كريمة تُوقِفُ العبدَ على شيءٍ من عظمة الله تعالى في خلقه وحِكمته في شرعه، وتُوقف العبد على قصوره في علمه، وهي آية جاءت في سياق آيات الفرائض في صدر سورة النساء، والمعنى أن الإنسان لا يدري أي الأصول أو الفروع من الآباء والأبناء أقرب نفعا له في الدنيا والآخرة.

لقد كان أهل الجاهلية يقسمون الميراث بموازين غير منضبطة، فتارة يراعون حاجة الأبوين، وتارة حاجة الأبناء، وتارة يتوسطون، فجاء الشرع المطهر ليلغي تلك الاجتهادات، فتولى الله قسمة المواريث بنفسه.

ولو أردنا أن نطبق هذه القاعدة القرآنية على واقعنا؛ فإننا سنستفيد منها في تصحيح بعض ما يقع منا من أخطاء في بعض تصوراتنا ومواقفنا الاجتماعية، فمن ذلك:

١ - أن بعض الآباء قد تكون ذريته من البنات فقط؛ فيضيق لذلك صدره، ويغتم لهذا الابتلاء، فتأتي هذه القاعدة لتسكب في قلبه اليقين والرضا، وكم من بنتٍ كانت أنفع لوالديها من عددٍ من الأبناء! والواقع شاهدٌ بذلك.

أعرفُ رجلًا لما كبرت سِنه، كان أولاده بعيدون عنه في طلب الرزق، فلم يجد هذا الوالد - الذي خارت قواه، وضعفت بُنيته - أكثر حنوًا ورعاية من ابنته الوحيدة التي قامت بحقه خير قيام من جهة النفقة، والرعاية الصحية.

ومن المؤسف أن نسمع ونقرأ عن أناسٍ رزقوا عددًا من البنات، يتذمرون بل قد يهددون زوجاتهم إن هُنّ ولدنَ لهم إناثًا! وكأن الأمر بأيديهن، وهذا من الجهل - في الحقيقة - إذ كيف يلام إنسان على أمر لا طاقة له به؟

ومما يحسن بمن رزق بالبنات أن يتذكر الأحاديث الواردة في فضل من عال البنات ورباهن حتى يبلغن.

والسؤال - لمن تضجر من كون ذريته بناتٍ فقط ـ: هبْ أنك ضجرت، وتذمرت، فهل هذا سينجب لك ذكورًا؟

٢ - في هذه القاعدة القرآنية سلوة لمن ابتلوا بأولاد من ذوي الاحتياجات الخاصة، سواء كانت إعاقتهم سمعيةً أو بصريةً أو عقليةً أو بدنية، فيقال لهم: والله إنكم لا تدرون أي أولادكم أقرب لكم نفعًا! فقد يكون هذا المعاق أقرب لكم نفعًا في الدنيا قبل الآخرة!

أما في الدنيا: فكم فتحت هذه الابتلاءات لوالِدَي هؤلاء المعاقين من لذة التعلق بالله، ومناجاته، ورجائه الفرج!

وكم ربّت هذه الابتلاءات في نفوس والِدَي المعاقين من معاني الصبر والاحتمال ما لم تكن تحصل لهم لولا هذه الابتلاءات! وكم... وكم...!!

وأما في الآخرة: فلعل أمثال هذه الابتلاءات بهؤلاء المعاقين تكون سببًا في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالهم! وصدق الله: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١].

المجلس السابع والستون
(البِر حسن الخلق)(١)

هذه القاعدة العظيمة، من القواعد التي جمعت الخير فأوعت؛ فسبحان من ألهم نبيه جوامع الكلم هذه!

فما البر؟!

أصل البِر، هو: «التوسع في فعل الخير، يقال: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسّع في طاعته، فالبر من اللّه: الثواب، ومن العبد: الطاعة، وقد يستعمل في الصدق وحسن الخلق؛ لأنهما من الخير المتوسع فيه»(٢).

والذي يلفت النظر في هذه القاعدة العظيمة: كيف يجمع النبي ﷺ ذاك البر الواسع الأطراف في حسن الخلق؟ والذي يظهر لأول وهلة أنه إنما هو شعبة من شعب البر؟

ولكن عند التأمل: نرى أن حسن الخلق هنا يعم أمرين اثنين يجمعان الدين كله! وهما:

١ - حُسْنُ الخُلق مع الله تعالى، ولا يتحقق حسن الخلق معه سبحانه إلا بتحقيق أركان الإسلام والإيمان.

٢ - ثم حُسْنُ الخُلق مع خَلق الله تعالى، يدخل في هذا كل مخلوقات الله تعالى، من إنس وجن وحيوان وجماد - كبيوت الله تعالى -.

---

(١) مسلم ح(٢٥٥٣).

(٢) تفسير الخازن: (١/ ٢٦٨).

بهذا نعلم السر الذي جعل النبي ﷺ يجمع البر الواسع في حسن الخلق، ولأن الخُلق إنما سمي خُلقاً؛ لأنه يصير كالخِلقة في صاحبه»[(١)].

يقول عليّ رضي الله عنه: «حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتّوسعة على العيال»[(٢)].

ويقول الحسن البصري رحمه الله: «حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل النّدى، وكفّ الأذى»[(٣)].

أما ما يقطفه صاحب الخلق الحسن - مع الله ومع الناس - من ثمرات فلا تسَلْ:

- فلقد «ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**».
- إن بحسن الخلُق يدرك المؤمن درجة الصائم والقائم، وصاحبه أحب الناس إلى الله، وأقربهم من النبيين مجلساً، وحسن الخلق هو أثقل ما يوضع في الميزان.

وههنا سؤال يطرح نفسه: كيف أُحصّل حسن الخلق هذا؟ فيقال:

«حسن الخلق تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخالق، فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً، **وتارة يحصل بالاكتساب**، وذلك بالرياضة - وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب -»[(٤)].

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، واجعل هوانا تبعاً لما جاء به نبيك ﷺ.

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية: (٢/ ٣٠١).
(٢) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٣).
(٣) إحياء علوم الدين: (٣/ ٥٢).
(٤) مختصر منهاج القاصدين: (١٢٢).

المجلس الثامن والستون
(نفوسُ الأجواد)

قال طلحة بن عبيدالله ﷺ: «**إنَّا لنَجِدُ بأمْوالِنا ما يَجِد البُخَلاء، لكنَّنا نتَصَبَّر**»[١].

هذه كلمة قالها من كانت سيرته العملية ترجمةً للسخاء الذي جُبل عليه، وترجمةً حيةً لمعنى الجود والبذل، يقول قبيصةُ بنُ جابر: «صحِبتُ طلحةَ فما رأيتُ رجلاً أعطى لجزيل مالٍ عن غير مسألةٍ منه»[٢].

«وكان ﷺ لا يدع أحداً مِن بني تَيم عائلاً إلا كفاه مؤونتَه ومؤونَةَ عياله، وزَوَّج أَيَامَاهُم، وأخدم عائِلَهم، وقضى دين غارِمِهم»[٣].

ومُرَادُ طلحة ﷺ بقوله: «إنَّا لنَجِدُ بأمْوالِنا ما يَجِد البُخَلاء، لكنَّنا نتَصَبَّر»، أن حُبَّ المال قد فُطِرت عليه القلوبُ، وجُبلت عليه النفوسُ، لكن الفرق بين البخيل والكريم، وبين الجواد والممسك؛ هو الصبرُ، ومعرفةُ حقيقةِ المال، وأنه غادٍ رائح، وأن المال الباقي في الحقيقة هو ما أنفقه العبدُ لا ما حبَسَه، كما قال النبي ﷺ - فيما رواه البخاري عن ابن مسعود ﷺ -: «**أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ**»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين(٣/ ٢٥٥).
(٢) معجم الصحابة للبغوي(٣/ ٤١١).
(٣) الطبقات الكبرى (٣/ ١٦٦).
(٤) البخاري ح(٦٤٤٢).

إن من تأمل في حديث القرآن عن المال وحقيقته، وأنه أمانة استخلفنا عليها، هو من الله وإليه، وأن ما يبذله الإنسان هنا سيجده - إن صدقت نيته - أوفر ما يكون الجزاء عند الله، من تأمل هذا كله= وجدَ دافعيةً للجود والبذل والعطاء، والهرب من صفة البخل، فلنتأمل مثلاً تسمية القرآن ما ينفقه اليوم ابتغاء وجه الله: تقديماً للنفس، فهل سمعت بأحسن من هذا التحفيز؟ أنت حين ترخي يدك للبذل، فإنما تنفع نفسك لا غيرك: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

إن الألم الذي يجده البخيل في إخراج ديناره ودرهمه، يجد الأجواد أضعافه من اللذة والسرور والبذل، وفي هذا تذكر قصة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، حين قرأ عنده بعض القُرّاء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [الحديد: ٢٤]، فقال: والله! لولا أن المال حصن للسلطان، ودِعامةٌ للدين والدنيا، وعزهما وزينتهما ما بت ليلة واحدة وأنا أحرز منه دينارا ولا درهما؛ لما أجد لبذل المال من اللذاذة، ولما أعلم في إعطائه من جزيل المثوبة»[1] انتهى.

والحديث عن الجود وأهله، وفضلهم ملأ كتب السنة والأدب والتواريخ، وما أحسن ما قال ابن عباس: «سادة الناس: في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء»[2].

اللهم قنا شح أنفسنا، وألهمنا رشدنا.

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٤٧٠).
(٢) «شعب الإيمان» (١٣/ ٣١٨).

المجلس التاسع والستون
وقفة مع قوله تعالى ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾

قال العلامة الطاهر ابن عاشور:

«ومقصد الإسلام من الأمر ببر الوالدين وبصلة الرحم ينحل إلى مقصدين:

أحدهما: نفساني وهو تربية نفوس الأمة على الاعتراف بالجميل لصانعه، وهو الشكر، تخلقاً بأخلاق الباري تعالى في اسمه الشكور، فكما أمر بشكر الله على نعمة الخلق والرزق أمر بشكر الوالدين على نعمة الإيجاد الصوري ونعمة التربية والرحمة.

وفي الأمر بشكر الفضائل تنويه بها وتنبيه على المنافسة في إسدائها.

والمقصد الثاني عمراني، وهو أن تكون أواصر العائلة قوية العُرى مشدودة الوثوق فأمر بما يحقق ذلك الوثوق بين أفراد العائلة، وهو حسن المعاشرة ليربي في نفوسهم من التحاب والتواد ما يقوم مقام عاطفة الأمومة الغريزية في الأم، ثم عاطفة الأبوة المنبعثة عن إحساسٍ بعضه غريزي ضعيف وبعضه عقلي قوي حتى أن أثر ذلك الإحساس ليساوي بمجموعه أثر عاطفة الأم الغريزية أو يفوقها في حالة كبر الابن. ثم وزع الإسلام ما دعا إليه من ذلك بين بقية مراتب القرابة على حسب الدنو في القرب النسبي بما شرعه من صلة الرحم، وقد عزز الله قابلية الانسياق إلى تلك الشرعة في النفوس...

وفي هذا التكوين لأواصر القرابة صلاح عظيم للأمة تظهر آثاره في مواساة بعضهم بعضاً، وفي اتحاد بعضهم مع بعض، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وزاده الإسلام توثيقاً بما في تضاعيف الشريعة من تأكيد شد أواصر القرابة أكثر مما حاوله كل دين سلف[١].

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٥٩ - ٦٠ بتصرف يسير.

المجلس السبعون
(منامات)

الرؤى والمنامات من آيات الله في هذا الخلق، والناس في التعامل معها طرفان ووسط، ويحسن بالمسلم أن يتعلم المنهج الصحيح في التعامل مع المنامات، والذي يمكن تلخيصه في الأمور التالية:

أولاً: أن الرؤى فيها مبشِّرات ومحذِّرات، يراها الإنسان أو تُرى له، وكم نفع اللهُ بها في الحذر من شرّ، أو إدخال سرور، وما قصة يوسف عليه الصلاة والسلام إلا نموذج قرآني واضح، وأما السنة فهي متواترة في هذا الأمر.

ثانياً: أن السلف الصالح رحمهم الله كانوا يَرون وتُرى منامات ظاهرها الثناء عليهم، والمدح لهم، ومع هذا فقد اشتهرت عنهم تلك الكلمة الخالدة: «الرؤيا تَسُر المؤمن ولا تَغرّه».

ومن تلك المواقف التي تدل على عمق علمهم بل وخوفهم من الاستغراق في أمثال هذه المنامات: ما ذكره الذهبي في ترجمة سفيان الثوري أنه كان إذا قيل له: إنه رؤي في المنام، يقول: أنا أَعرَف بنفسي من أصحاب المنامات. يقصد: عندي من التقصير ما يمنعني من الاغترار بأمثال هذه المنامات.

ثالثاً: ألا يَعْرِضَ هذه المنامات إلا على ناصح حاذق في التعبير، فإن التعبير نوعٌ من الفتوى، وهي جزء من دِين العبد، فلينظر من يسأل عن دينه؟!

رابعاً: من المتفق عليه بين أهل العلم أن المنامات لا مدخل لها في التشريع، فلا يجوز أن يبني إنسانٌ حكماً شرعياً، أو يتعبد لله بعملٍ ما بناءً على رؤيا.

وهذا - لمن تأمل - من عظمة هذه الشريعة، حيث جعلتْ مصادر التلقي منحصرة في الوحيين، وإلا لادّعى أناسٌ تشريعات يومية، ولتشتت الأمة! إذْ كلٌّ يدعي تشريعاً هو أولى باتباعه.

خامساً: من الخطورة بمكان أن يكون لهذه المنامات أثرها السيئ على ظنٍّ في التعبير وقع في نفس الرائي، كما لو رأى في المنام أن فلاناً أصابه بعين، أو أنه يريد به ضرراً، ونحو ذلك من المنامات، فإن للتعبير أصولاً وطرائق لا تجري على ظواهر المنامات في كثير من الأحيان، والأصل: الحكم على ما هو كائن في أرض الواقع لا المنامات.

والإنسان مع استبشاره بأمثال هذه الرؤى التي ظاهرها الخير؛ فإنه لا يعوِّل عليها، بل يوقن أن العمدة - بعد رحمة الله - على موافقة العمل للسنة ظاهراً وباطناً.

إن الرؤيا حقٌّ، والمناماتُ تحمل كثيراً من الصدق، ولكننا نفقد التوازن الشرعي والعقلي حينما يستغرق تفكيرنا ما يحصل في المنامات أكثرَ من استغراقه في اليقظة!

المجلس الواحد والسبعون
﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾

هذه الآية الكريمة - التي جاءت في سياق الحِجَاج مع المشركين من سورة القصص - تمثلُ قاعدةً من قواعد التسليم والانقياد لأوامر الله ورسوله، والانقياد لحكم الشريعة، والتي يوضح ابنُ القيم معناها فيقول: «فما هو إلا الهوى أو الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤] «فمن ترك استجابته إذا ظهرت له سنة، وعَدَلَ عنها إلى خلافها؛ فقد اتبع هواه»[1].

إن الحاجة إلى التذكير بهذه القاعدة القرآنية العظيمة من الأهمية بمكان، خصوصًا في هذا العصر الذي كثرت فيه الأهواء، وتنوعت فيه المشارب في التعامل مع النصوص الشرعية بدعاوى كثيرة.

لقد أتى على الناس زمانٌ لا يحتاج الشخص ليمتثل الأمر أو يترك النهي إلا أن يقال له: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، فيتمثل وينصاع، ويندر أن تجد من يناقش مناقشة المتملص من الحكم الشرعي، أما اليوم - وقد انفتحت على الناس أبواب كثيرة يتلقون منها المعلومات - فقد سمعوا أقوالًا متنوعة في المسائل الفقهية، وليست هذه هي المشكلة - فالخلاف قديمٌ جدًا، ولا يمكن إلغاؤه، **إلا أن المشكلة** أن بعض الناس وجد في بعض تلك الأقوال - التي قد تكون شاذةً فقيها - فرصةً للأخذ

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٥٢٦).

بها؛ بحجة أنه قد وجد في هذه المسألة قولًا يقول بالإباحة! ضاربًا عُرض الحائط بالقول الآخر الذي يكاد يكون إجماعًا أو شبه إجماع من السلف الصالح على تحريم هذا الفعل أو ذاك القول!

وهنا يَحْسُنُ أن يُذَكّرُ هذا الصنف من الناس بقول الله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

ومَنْ تأملَ كلمةَ الهوى في القرآن الكريم، وجدها لم تُذكر إلا على سبيل الذم! ولهذا حذر الله نبيًا من خيرة أنبيائه من هذا الداء القلبي الخطير فقال: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ... الآية﴾ [ص: ٢٦]! فمن يأمن على نفسه من الهوى بعد ذلك؟

وفرق كبير بين مَنْ يقلد عالماً موثوقا بعلمه وورعه، فيتبعه فيما يرخص فيه ويشدد، وبين من يتتبع رخص العلماء ليصل إلى مبتغاه وهواه، فإن هذا مما أجمع العلماء على ذمّه، ولهذا من المأثور عن السلف في هذا المقام: لو أن رجلًا أخذ برخص الفقهاء من عدة مذاهب في مسائل متنوعة، لاجتمع فيه شرٌّ عظيم، ولأصبح دينه مرقعًا ورقيقًا!

وليتذكر المؤمن جيدًا - وهو يسلك مسلك تتبع الرخص - أنه إنما يفعل ما يفعل، ويترك ما يترك ديانةً لله، وقيامًا بواجب العبودية لهذا الرب العظيم، فكيف يرضى العبد أن يتعامل مع ربه بدين **شعاره الهوى**؟

المجلس الثاني والسبعون
(إنما الناس كالإبل المائة)

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة، **والمعنى**: أن المتميز ومن يصلح للقيادة والتأثير نادر في الناس مع كثرة عددهم، ومع كثرة من يدعي ذلك أيضاً، وهذا كحال الإبل في كثرتها، ومع ذلك فالنجائب والرواحل فيهن قلائل.

وأنت تلحظ هذه البلاغة العجيبة، والاختصار المذهل لهذا المعنى العظيم، في هذه العبارات القليلة، ولا غرو! فهو ﷺ أفصح من تكلم بالضاد.

ومن وجوه الإعجاز البلاغي في هذه القاعدة: أنها ربطت المعنى بأمرٍ خفي؛ لأن انتقال الذهن من معنى الإبل إلى الناس إنما يكون باعتبار المعنى المشهور في الإبل، وهو: كثرة الأكل، وقلة الفهم، مع كِبَر الأعضاء وطولها، أو هو الصبر والجَلَد على العمل، أما عزة وجود الكامل، مع كثرة أفراد جنسه فهو معنى بعيدٌ عن الخاطر؛ مما يستدعي تأملاً ونظراً في هذا المعنى العميق، وهو - أيضاً - مما تعرفه العرب من حياتها العامة، إذ كانت الإبل أكثر وسائل التنقل استعمالاً في ذلك الوقت، وإلى وقت قريب[1].

ومن تأمل القرآن الكريم؛ وجد آيات عديدة تؤكد هذا المعنى العام، ففي عشرات الآيات نجد الحديث عن أكثرية الضالين، وأكثرية الذين لا يُعْمِلون

(١) ينظر: المنهاج الواضح للبلاغة (٣/ ٣٢٣).

عقولهم فيما ينفعهم، وقلة الشاكرين، فتأمل هذه الآيات: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ثم هاهنا وقفات عدة:

الوقفة الأولى: أن على الدعاة والمربين الاعتناء بالعناصر الفاعلة المتميزة؛ إذ هم قليل في الناس، عزيزٌ وجودهم، وأثر استجابتهم للدعوة لا يقاس بأثر غيرهم، ويشهد لذلك ما رواه الترمذي مرفوعاً: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب»(١).

الوقفة الثانية: حين يدرك الداعية والمربي هذا المعنى يدعوه ذلك لأن يكون واقعياً فيما يطلبه من الناس وينتظره منهم.

الوقفة الثالثة: حين نرى صورة واقعية من أحد من الناس؛ فلا يسوغ أن نتخذها نموذجاً نقارن الآخرين به، وننتظر منهم أن يصلوا إلى ما يصل إليه.

ومن الصور الشائعة في ذلك: ما يصنعه بعض الآباء مع أبنائه، أو بعض المعلمين مع طلابه، حين يعجب بأحدهم فينتظر من الآخرين أن يكونوا مثله، وأن يصلوا إلى ما وصل إليه!

---

(١) الترمذي ح(٣٦٨١)، وأحمد ح(٥٦٩٦)، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر»، وصححه ابن حبان، وحسنه الزركشي في «التذكرة»: (ص: ١٧٦). والذي يظهر لي أن في سنده غرابة - كما قال الترمذي -؛ لأنه من حديث خارجة بن عبدالله الأنصاري، وهو صدوق له أوهام، ولم أقف على من تابعه عن نافع، والله أعلم.

الوقفة الرابعة: ليس معيار الاختلاف بين الناس قاصراً على القدرات العقلية والذهنية وحدها؛ فهم يتفاوتون في تحملهم للأعباء، وفي جديتهم، وفي تضخيمهم للمخاطر، وفي قدراتهم النفسية...إلى آخر هذه العوامل، وهي كلها مما لا بد من أخذه في الاعتبار.

الوقفة الخامسة: إدراك هذا المعنى يجعل المسلم عالي الهمة، متطلعاً للمزيد، ينظر في العلم والصلاح إلى من هو فوقه، ولا ينظر إلى من هو دونه[1].

(١) ينظر مقال في مجلة البيان عدد: (١٥١) ص:(٢٨) بعنوان: تأملات دعوية. د.محمد الدويش.

المجلس الثالث والسبعون
(عملُ السريرة)

يقول الزبير بن العوام ﷺ: «مَن استطاعَ أن تَكون له خَبِيئَةٌ مِن عَمَلٍ صَالحٍ فَليفْعَل»(١).

يا لها من موعظةٍ بليغة، ووصيةٍ فَذّة! ذلك أن الأعمال الصالحة لا تُقبل إلا بإخلاص العمل، ولما كان الإخلاصُ يحتاج إلى مجاهدةٍ، خاصة إذا كان العملُ كبيراً، والأثرُ عظيماً، والإنسانُ كثيرَ الخلطة للخلق؛ لذا كان السلف - ومنهم الزبير - يوصون بمثل هذه الوصية، وهي أن يكون للإنسانِ خبيئةُ عملٍ صالح، لا يطلع عليها إلا اللهُ تعالى، فإن الإخلاصَ ما خالط عملاً إلا عظَّمه، ولأن اطلاعَ الناسِ على العمل - وإن لم يسارع له العبد - له ضريبتُه مِن جهةِ حاجَتِه إلى الإخلاص، والبعدِ عن حظ النفس، والرغبةِ في ثناء الخلق.

قال عبدالله بن داود الخريبي رحمه الله: «كانوا - أي السلف - يستحبون أن يكون للرجلِ خبيئة مِن عملٍ صالح، لا تَعلم به زوجتُه ولا غيرُها»(٢).

يقول ابن المبارك: ما رأيتُ رجلاً ارتفع مثل مالك بن أنس، ليس له كثير صلاة ولا صيام إلا أن تكون له سريرة(٣).

(١) الزهد لأحمد (ص:١١٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩).
(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٦/ ٣٣٠).

ويُسألُ ابنُ المبارك - أيضاً - عن إبراهيم بن أدهم؟ فيقول: له فضل في نفسه، صاحب سرائر، وما رأيته يظهر تسبيحا ولا شيئا من الخير[(١)].

وهذا الإمام أحمد - رحمهم الله جميعاً - يُذكرُ عنده ابن المبارك فيقول: «ما رفع اللهُ ابنَ المبارك إلا بخبيئةٍ كانت له»[(٢)].

لهذا، فإن مِن توفيق الله تعالى للعبدِ أن يَحرص على هذه الوصية الزبيرية: «مَن **استطاعَ أن تَكون له خَبِيئَةٌ مِن عَمَلٍ صَالحٍ فَليفْعَل**»، فإن قلتَ: مثّل لي بمثال على الخبيئة؟ فالجواب: أمثلةُ هذا كثيرة، كأن تدمع عينُك وأنتَ خالٍ بربك! أو تتصدق بصدقةٍ فتخفيها حتى لا تَعلَم شمالُك ما أنفقت يمينُك، أو تغض بصرك عن الحرام في حالٍ لا يراك فيها إلا الله، مع قوة الداعي للنظر، أو تسعى في تفريج كربة مسلم بحيث لا يدري من فرّجها، أو تجبر كسيرا، ونحو هذه الأعمال الصالحة.

ولمّا سأل النبيُّ ﷺ بلالاً ﷺ عن أرجى عمل عمله في الإسلام؟ لأنه سمع دفّ نعلي بلال بين يديه في الجنة! فأجابه بلال: ما عملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهورا في ساعةِ ليلٍ أو نهارٍ إلا صليتُ بذلك الطهور ما كُتب لي أن أصلي[(٣)]، علّق ابن بطال: على هذا فقال: «ففيه دليل أن الله يعظم المجازاة على ما ستر العبد بينه وبين ربه، مما لا يطّلع عليه أحد، فالنبي ﷺ لم يعرف عمل بلالٍ حتى سأله عنه»[(٤)].

اللهم ارزقنا سريرة تزكو بها نفوسنا، واجعلنا من عبادك المخلصين.

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٦/ ٢٨٩).
(٢) صفة الصفوة (٢/ ٣٣٠).
(٣) البخاري ح(١١٤٩) مسلم ح(٢٤٥٨).
(٤) شرح ابن بطال لصحيح البخاري (٣/ ١٤٣).

المجلس الرابع والسبعون

وقفة مع قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

قال العلامة العثيمين رحمه الله: في بيان شيء من فوائد هاتين الآيتين:

«أن الذين ينتفعون بمثل هذه المواعظ هم المتقون.

ومنها: أن المواعظ قسمان:

كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها، وما خلفها، وموعظة للمتقين.

وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والمواعظ الكونية أشد تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

ومن فوائد الآيتين: أن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون؛ وأما غير المتقي فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية؛ قد ينتفع بالمواعظ الكونية

اضطراراً، وإكراهاً؛ وقد لا ينتفع؛ وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]؛ وقد ينتفع، ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومن فوائد الآيتين: أن من فوائد التقوى - وما أكثر فوائدها - أن المتقي يتعظ بآيات الله سبحانه وتعالى الكونية، والشرعية»[١].

(١) تفسير القرآن الكريم ١/ ٢٣٢.

المجلس الخامس والسبعون
(لن تُبعدني معصيتي)

قال أحدهم - وهو يشكو حاله إلى أحد العلماء ـ: أنا أتوب ثم أعود!.. أنا منافق!.. عجزت عن مقاومة المعصية!.. أخشى أن أنسلخ من ديني بسبب ذنوب الخلوات! ما الحل؟

كم تحمل صناديقُ البريد الإلكتروني ورسائل الجوال أمثالَ هذه الكلمات من فتية وفتيات آمنوا بربهم، لكن تغلبهم نفوسُهم فيقعون قَيد المعصية، فيُحيل الشيطانُ أجواءَهم سوداءَ قاتمة، تفوح فيها رائحةُ الذنب، ولا تَهِبُّ فيها نسائمُ مغفرةِ الله الواسعة.

ولا ريب أن استعظامَ الذنب علامةُ إيمان، والاستخفاف به علامة ضعف.

إلا أن الخطيرَ في هذا الباب أن الشيطان يدخل على قلوب بعض الناس من باب تعظيم الذنب، لا ليعينهم على التوبة، بل ليعزز في قلوبهم الانقطاع عن مجالسِ الذكر، والصحبةِ الصالحة؛ بحجة أنهم منافقون! وأن مظهرهم غيرُ مخبرِهم! وهي في الحقيقة حيلة شيطانية يريد منها إبليسُ أن تكون جسراً لمفارقة أصدقائه الصالحين، وسبباً لتبرير المعصية، التي لن تتوقف عند الصغائر، بل ستجره إلى ما هو أعظم منها.

والمتأمل في هذه الذنوب يجد أن غالبها من الصغائر، وحين يقال هذا؛ فليس تهويناً من ارتكابها قطعاً! بل لتُوضَع الأمورُ في موضعها الصحيح، فإن **الخلل في**

تقدير مراتب الذنوب، ومعرفة منزلتها في الشريعة؛ يؤدي إلى نتائج وخيمة، وكم جرّ تضخيمُ بعض الذنوب فوق حجمها الذي جاءت به الشريعة إلى عواقب سيئة الأثر على هؤلاء النشء!

والذي ينبغي أن نحذره أن نضع المعصيةَ فوقَ قدْرها الشرعي، فننقلها بطريقة حديثنا - من حيث نشعر أو لا نشعر - من الصغائر إلى الكبائر، تماماً كحذرنا من التقليل من كبيرة من الكبائر، وكأنها من أخفّ الذنوب، فإن كلا الأمرين داخلٌ في القول على الله بغير علم.

والذي ينبغي أن نُربي عليه أنفسَنا ومَن تحت أيدينا، يمكن تلخيصه في أمور:

١ - تعظيمُ الله وتوقيره، والحذرُ من المعاصي صغيرها قبل كبيرها، وأن تكون الهيبة من المعصية عملاً لا يفارق القلوب، فالحياء من اطلاعِ الله عليه حالَ المعصية من أعظم العواصم عن المعصية.

٢ - أن نبادر إذا وقعنا في الخطأ للتوبة.

٣ - أن وقوعنا في الخطأ لا يبرّر مفارقة الصحبة الطيبة، التي لو لم يكن منها إلا أنها تزهّد في المعصية، بخلاف صحبة السوء الذين يزينونها في النفس، ويهوّنونها.

إننا نبقى بشراً نتقلب بين تلك الأنفس الثلاث: الأمّارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة، فإذا كنا غير معصومين من الأولى، فليكن لنا نصيب كبير من الثانية، لعلنا ننتقل بعدها إلى النفس الثالثة، عسى أن نسمع هذا النداء المحبَّب للنفوس: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

المجلس السادس والسبعون
﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، تبعث الأمل في نفوس أهل الإيمان، وتملأ قلوبهم ثقةً ويقينًا.

وقد ذكر الله هذه القاعدة على لسان موسى عليه الصلاة والسلام وهو يبشر قومه بحسن العاقبة لهم في الدنيا قبل الآخرة، والتمكين في الأرض إن هم لازموا التقوى، ولهذا جاءت في موضع آخر بلفظ: (والعاقبة للتقوى).

والعاقبةُ لا تنحصر في الآخرة التي ضمن الله النجاة فيها للمتقين، بل هي عامة في الدنيا والآخرة.

وقد يسألُ بعضنا: أين هذه القاعدة من واقعنا؟ فالجواب في سؤال آخر: أين تحقيق التقوى على الوجه الصحيح؟! وإلا فوعد الله لا يتخلف!

ما أحوجنا ونحن نشاهد ما نشاهد سواء على المستوى الفردي أم الجماعي - أن نتأمل هذه القاعدة! **ولنبدأ بالإشارة إلى المستوى الجماعي**:

فإن أمة الإسلام تمر منذ قرون بحالة من الضعف والتفرق وتسلط الأعداء على كثير من أبنائها، وهذه حالٌ تجعل بعض الناس من المنتسبين للإسلام قد يبحث عن موطئ قدم خارج دائرة الإسلام؛ فيذهب غربًا أو شرقًا؛ بحثًا عن مبادئ أخرى، ومذاهب مختلفة، لا تَمُت إلى الإسلام بصلة، لشعوره بهزيمة داخلية! في الوقت

الذي يبدي فيه انبهاره بالتقدم المادي الذي عليه أهل الكفر، وما يوجد في بلادهم من محاسن تتعلق بحقوق الإنسان، وغيرها من المجالات.

والمؤلم في أمثال هؤلاء: أنهم لم يروا من حضارة الشرق أو الغرب إلا الجانب الإيجابي والحسن، وعميت أبصارهم، أو تعاموا عن الجوانب المظلمة - وما أكثرها -! هذه الحضارة التي اعتنت بالجسد، وأهملت الروح، وعمرت الدنيا وخربت الآخرة، وسخّرت ما تملكه من أسباب مادية في التسلط على الشعوب المستضعفة، وفرض ثقافتها، وأجندتها على من تشاء!

أما على المستوى الفردي، فإني سأقتصر على ذكر مثالٍ واحد له صلة بحياتنا اليومية:

فإن آية القصص: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] جاءت بعد قصة قارون الذي لم يصبر على شهوة المال!

وفي هذا إشارة إلى حاجة العبد - رجلًا كان أو امرأة - لتدبر هذه القاعدة، خصوصًا وهو يعيش في جو من المغريات والفتن والصوارف عن دين الله ؛ لتهوّن عليه الصبرَ عن الشهوات والملذات المحرمة، فكلما دعته نفسه إلى ما يخالف التقوى، فليذكرها بحسن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة.

وكذلك الداعية إلى الله، من أحوج ما يكون إليها وهو يسير في طريق الدعوة الطويل، والمليء بالابتلاء بالخير أو بالشر، وخصوصًا إذا كان لا يجد معينًا ولا ناصرًا، بل قد يجد مناهضًا ومعاديًا!

ومفهوم هذه القاعدة القرآنية المحكمة: أن كل من لم يكن تقيًا في أحواله، أو أفعاله، فلا عاقبة له حسنة، وإن أُمهل زمانًا، أو تُركَ دهرًا، وهذه سنة الله في خلقه.

المجلس السابع والسبعون (الظلم ظلمات يوم القيامة)[١]

يا له من ردع رهيب، وزجر مخيف؛ عن هذه الشعبة المقيتة من شعب الطغيان: الظلم!

إنه الداء الذي أبدى القرآن فيه وأعاد، حتى كرره في مئات المواضع، وما ذاك إلا لعظيم أثره، وقبيح عاقبته! إن «وضع الشيء في غير موضعه» هو المعنى الجامع لهذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة النبوية، فيدخل تحت هذا المعنى ما شاء الله من الصور والمعاني.

لنتأمل هذه القصة التي حدّث بها النبي ﷺ، ففي الصحيحين من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**عُذّبت امرأةٌ في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً، فدخلت فيها النار**» قال: فقال والله أعلم: «**لا أنتِ أطعمتِها ولا سقيتِها حين حبستيها، ولا أنتِ أرسلتِها فأكلتْ من خشاش الأرض**»[٢]!

أي عظمة هذه! امرأة مكلّفة تدخل النار المحرقة بسبب ظلم هرةٍ صغيرة؟! نعم! هذا هو الدين العظيم الذي كفل حقوق الحيوانات، فضلاً عن الآدمي.

وإن القارئ والسامع لهذا الحديث وأمثاله ليتساءل: إذا كان هذا الوعيد على من

---

(١) البخاري ح(٢٤٤٧)، مسلم ح(٢٥٧٩).

(٢) البخاري ح(٢٢٣٦)، مسلم ح(٢٢٤٢).

ظلَم حيواناً، فكيف سيكون الوعيد على من ظلم إنساناً، وخاصةً إذا كان أخاه المسلم، أو من تربطه به علاقة خاصة!

كم من الأيتام الذين أُكلتْ أموالهُم ظلماً مع شدة الوعيد الوارد في حق أكل أموالهم بغير حق، وكأن الآكل الظالم لم يسمع بهذا الوعيد الذي تهتز له الجبال الصم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]!

كم امتلأتْ أدراجُ المحاكم بمعاملات تتعلق بالسطو على الأراضي! وكأن هؤلاء لم يسمعوا قولَه ﷺ: «**من أخذ شبراً من الأرض ظلماً؛ فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»؟![1] هذه عقوبة مَن أخذ شبراً فقط، فما الظن بمن يسطو على ما هو أكثر من ذلك؟!

إن هذه القاعدة النبوية الجليلة لا تستثني أحداً من الناس، ويعظم الوعيد ويشتد على من استغل قوتَه أو مكانتَه أو سلطتَه في ظلم العباد، وانظر كيف كانت نهاية فرعون حين تجبر وطغى ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

ولمّا ذكر اللهُ قصةَ ثمود وما حلّ بهم قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، فظلم العباد من أسرع موجبات الهلاك والخراب للأمم والمجتمعات، وفي التاريخ عبرة.

إن الظلم لا يكاد يسلم منه أحدٌ منا! فمِنّا المسترسل معه، ومنا المجاهد نفسه على تركه؛ ذلك أن الله تعالى وصف هذا الإنسان بأنه: ظلوم جهول، لكن السؤال: **ما الموقف الشرعي الذي يقفه المسلم من أخيه الظالم؟** لقد أجاب النبي ﷺ عن ذلك بأبلغ كلام وأوجز عبارة فقال: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً!**» فقال رجل: يا رسول

(١) البخاري ح(٣٠٢٦)، مسلم ح(١٦١٠).

الله! أَنصُرُه إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: «**تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره**»[1].

اللهم أجرنا من الظلم والظالمين، واجعلنا بالعدل وعلى العدل قائمين، وأنر لنا الطريق إلى جنات النعيم.

(١) البخاري ح(٦٩٥٢).

المجلس الثامن والسبعون
(الابتلاء بالسراء والضراء)

يقول الصحابي الجليل المبشر بالجنة عبدالرحمن بن عوف ﷺ: «**ابتُلينا بالضَّراءِ فصَبَرنا، وابتُلينَا بالسراءِ فلم نَصبِر**»[(١)].

هذه الجملة مِن متينِ الفقه لمعاني الكتاب والسنة، فإن الصبرَ على الضراء والشدة ظاهرةُ المعنى، ويدركُها كلُّ أحد، لكنّ التي لا يَتفطن لها إلا الألبَّاء، وذوو العقول والنُّهى: الصبر على الغنى، والرخاءِ، ورغدِ العيش، وما يترتب عليه مِن تَبعات وتكاليف، فقَلّ مَن يتفطن له، ولهذا قال ﷺ: «فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[(٢)].

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكلتا النعمتين - الضراء والسراء - **تحتاج مع الشكر إلى الصبر**، أما الضراء فظاهر، **وأما نعمةُ السراء** فتحتاج إلى الصبر على الطاعة فيها، كما قال بعض السلف: ابتُلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، فلهذا كان أكثرُ مَن يدخل الجنةَ المساكينُ، **لكن لما كان في السراء اللذة، وفي الضراء الألم**؛ اشتهر ذِكر الشكرِ في السراء، والصبرِ في الضراء، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً

---

(١) الترمذي ح(٢٤٦٤).

(٢) البخاري ح(٤٠١٥)، مسلم ح(٢٩٦١) من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ...﴾ [هود: ٩] إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [هود: ١١] الآية»[1] انتهى.

ولنتأمل قوله الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فسنلحظ أنه «جعل كلَّ ما يصيب الإنسانَ من شرٍ أو خيرٍ فتنةً، يعني: أنه محنة يُمتَحن بها، فإن أُصيب بخيرٍ امتُحن به شكرُه، وإن أُصيب بشر امتُحن به صبرُه، وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء، قال بعض السلف: فتنة الضراء يصبر عليها البَر والفاجر، ولا يصبر على فتنة السراء إلا صدّيق، **ولما ابتُلي الإمام أحمد** بفتنة الضراء صبر ولم يجزع، وقال: **كانت زيادةً في إيماني**، فلما ابتُلي بفتنة السراء - وهي شهرته وإقبال الناس عليه وتعظيمهم له - جَزِعَ وتمنّى الموت صباحاً ومساءاً، وخشي أن يكون نقصاً في دينه!»[2].

إن مَن تأمل الواقع؛ أدرك عمقَ هذه الموعظة التي قالها عبدالرحمن بن عوف ﷺ: «**ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر**» فكم شاهد الناسُ أقواماً كانوا أيامَ فقرهم وتوسُّط حالهم الماديةِ على قَدرٍ جيد مِن الديانة، ورعايةِ الحقوق، والصلةِ، فلمّا فُتِحت عليهم الدنيا، وبُسِطت لهم؛ تغيّرت أحوالهم للأسوأ! ودخلوا في مضايق الأمور، ومقاطعِ الحقوق، فمنهم من سُجِن، ومنهم مَن هَجَره الناس، ومنهم.. ومنهم!

فنسأل الله تعالى العفوَ والعافية في حالِ السراء والضراء، وأن يجعلنا ممن إذا ابتلي بالخير أو الشر صبر.

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٠٩).
(٢) «اختيار الأولى» لابن رجب (١٢٣).

علّق العلامة ابن عاشور رحمه الله على هذه الآية فقال:

«موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي من جوامع كلم القرآن.

والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول ﷺ... فالتذكير بأن ما حلّ بالأمم الماضية من المصائب ما كان إلا بما كسبت أيديهم، أي بأعمالهم، فيوشك أن يحلّ مثل ما حلّ بهم بالمخاطبين الذين كسبت أيديهم مثلَ ما كسبت أيدي أولئك.

والآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصارِ أولئك، فكان من جراء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر، فتعطلت التجارة، وقلّت الأقوات بمكة والحجاز، كما يقتضيه سَوْق هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة بـ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم:٢].

والفساد: سوء الحال، وهو ضد الصلاح.

ودل قوله: (في البر والبحر) على أنه سوء الأحوال فيما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها.

وفسادُ البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضارّه، مثل: حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي مَوتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفسادُ البحر كذلك، يظهر في تعطيل منافعه من قلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان، فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب، وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوبُ مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس...

فذِكْرُ البَرِّ والبحرِ لتعميم الجهات، بمعنى: ظهر الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البر والواقعة في الجزائر والشطوط، ويكون الباء في قوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] للسببية، ويكون اللام في قوله ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ [الروم: ٤١] لامَ العاقبة، والمعنى: فأذقناهم بعض الذي عملوا، أي فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم.

وأيّاً ما كان الفساد، فالمقصود أن حلوله بالناس بقدرة الله كما دل عليه قوله: «ليذيقهم بعض الذي عملوا»، وأن الله يقدر أسبابه تقديراً خاصاً؛ ليجازي من يغضب عليهم على سوء أفعالهم.

وأعظم ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة: الإشراك - وهو المقصود هنا - وإن كان الحكم عاماً...

والرجاء المستفاد من (لعلَّ) يشير إلى أن ما ظهر من فسادٍ كافٍ لإقلاعهم عما هم اكتسبوه، وأن حالهم حال من يُرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم

وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة:١٢٦].

والمقصود بالرجوع: الإقلاع عن المعاصي، كأنَّ الذي عصى ربه عبدٌ أبق عن سيّده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع»[١].

(١) التحرير والتنوير ٢١/ ٦٣ - ٦٧ بتصرف.

المجلس الثمانون
(صفحات الفجور بين حجْب الموقع وحجْب القلب!)

تَعمَد كثير من الدول إلى حجب المواقع التي تسيء إلى بلدانها ورموزها السياسية، والقليل من هذه الدول التي تحجب تلك المواقع التي تنشر الفحش والفجور الأخلاقي، والمواد الإباحية!

ولقد تفنن الناسُ في البحث عما يكسر هذه الحُجُب؛ بإصدار البرامج التي تتجاوز الحجب، ليمتّع ناظريه بما حُجِب عنه! وهنا تبدأ رحلةُ حجب القلب عن مقام نظر الرب!

إن الإحصائيات التي تذكر عدد الداخلين إلى أمثال هذه المواقع الإباحية أرقامٌ مرعبة ومحزنة! وهي تثبت أن المنع وسيلةٌ – مع أهميتها وضرورة بقائها – لكنها ليست هي الأقوى، بل الأقوى هو أن يُكثَّف الحديث عن تقوية عبادة المراقبة والخوف من الله، والتأمل في أثر هذه المواقع وإدمانها في «حجب القلب» عن الله؛ فذاك العذاب الأكبر عند أهل القلوب الحيّة!

كم شكى الداخلون لهذه المواقع مِن فقد لذة العبادة التي كان يجدونها! وكم حُرِمَ بسببها مِن قيام ليلٍ كان يراه جنةَ قلبه في هذه الحياة المنغَّصة! وكم نسي عددٌ منهم ما كان يحفظ من كتاب الله! وكم هَوَتْ قلوبٌ – بسبب هذه المناظر – من علياء

التألق الإيماني إلى دَرَكٍ من الهمّ والغمّ! وكم أبعدتهم عن مجالس الأخيار لشعورهم بتأنيب داخلي، وتناقُضٍ بين ظاهرهم وباطنهم؛ فقادهم هذا الانقطاع إلى الارتباط بصداقات جديدة قرّبتهم من المنكرات، وأنستهم مجالس الذكر والعِبَر والعظات!

إن من المهم أن يتدارك - المبتلى بهذا الداءِ - نفسَه قبل أن يصطدم بجدار الموت، أو يستمر «حجب قلبه» والعياذ بالله. ومن الأسباب المعينة على ذلك:

أولاً: استشعار مراقبة الله تعالى للعبد، وأنه مطّلع عليه، وأن يتخيل نفسَه لو دخل عليه رجلٌ من كرام عشيرته، ورآه على معصيةٍ ما، ما حاله؟!

ثانياً: تذكرُ ثمرة خوف الله في الخلوات، فإن ذلك يورث عز الدنيا والآخرة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ثالثاً: الحذر من الاقتراب من كل ما يمهّد السبيل للنظر الحرام، وإغلاق الباب مبكراً، ولهذا جاء التعبير القرآني في النهي عن الزنا بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ولم يقل: ولا تزنوا؛ لأن الزنا غالباً تكون له مقدمات، ومن أخطرها أمثال هذه المواقع.

رابعاً: التفكرُ فيما يفوت المُطلق لبصرِه من بركاتٍ وآثار على القلب، والتي لو لم يكن منها إلا ضعفُ أو فَقْدُ التلذذ بالعبادة - التي شكى منها كثيرون - لكفى بها حسرة!

وما أجمل تَذَكّر تلك الوصية التي أوصى بها أحدُ السلف تلميذَه فقال: «اتق الله في خلواتك، وحافظ على أوقات صلواتك، وغض طرْفَك عن لحظاتك؛ تكن عند الله مقرباً في حالاتك»(١).

(١) حلية الأولياء (١٠/ ١٦٢).

«زهّدنا الله وإياك زهادةَ من أمكنه الحرام والذنوب في الخلوات؛ فعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه فتركه»[1].

(١) هذه دعوة كان يقولها التابعي الجليل بكر بن عبد الله المزني رحمه الله إذا لقي أحداً من إخوانه، كما في حلية الأولياء (٦/ ٣٠٣).

المجلس الواحد والثمانون

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة، يحتاجها الإنسان في مقام التمييز بين الأقوال والأفعال، والسلوكيات والمقالات.

ولا ريب أن الغرض من الآية ليس مجرد الإخبار بأن الخبيث لا يستوي هو والطيب، فذلك أمرٌ معروف ومستقر في الفِطَر، بل الغرض: الحثُّ والترغيبُ في تتبع كل طيب من القول والعمل والاعتقاد والمكسب، والتنفير من كل خبيث من القول والعمل والاعتقاد والمكسب.

وهذا النفي للاستواء بين الخبيث والطيب شامل لكل الأمور، سواء أكانت حسيةً أم معنوية، فيتناول كل قول باطلٍ ورديء في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح من الفعال، فكل خبيث: لا يحبه الله ولا يرضاه، بل مآله إلى جهنم.

وإذا تبين معنى الخبيث فإن الطيب بعكسه؛ فيدخل فيه الواجب والمستحب والمباح - من الأقوال والأفعال والصحيح من المعتقدات - فدخل في هذه القاعدة كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الواجبات والمستحبات والمباحات.

ولما كان في بعض النفوس ميلٌ إلى بعض الأقوال أو الأفعال أو المكاسب الخبيثة، وكان كثيرٌ من الناس يؤثر العاجل على الآجل، والفاني على الباقي؛ جاء التحذير من الخبيث بأسلوب عجيب يقطع الطريق على من قد يحتج بكثرة من يتناول

هذا الخبيث، فقال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وذلك أن في بعض الخبائث شيءٌ من اللذة الحسية أو المعنوية، كالحصول على مالٍ كثير لكن من طريق حرام، أو الوصول إلى اللذة الجسدية عن طريق الزنا، أو الخمر أو غيرهما من الملذات المحرمة، هذه قد تغري الإنسان، وتعجبه، إلا أنه مع كثرة مقداره، ولذاذة متناوله، وقرب وجدانه، سبب للحرمان من السعادات الباقية الأبدية.

ولعظيم موقع هذه القاعدة وما دلّت عليه، فقد كثر تأكيد القرآن عليها في صور شتى، منها:

١ - التأكيد على ضرورة العناية بالمكاسب الطيبة، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، قال سفيان الثوري: إن طلب الحلال هو عمل الأبطال.

٢ - ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أنه لا يصح - أبدًا - أن نجعل الكثرة مقياسًا لطيب شيءٍ ما، وصحته وسلامته من المحاذير الشرعية، وهذا أمرٌ يصدق على الأقوال والأفعال والمعتقدات، بل يجب أن نحكم على الأشياء بكيفيتها وصفتها وبمدى موافقتها للشرع المطهر، وحسبك أن تتذكر أن أتباع الرسل أقل من أتباع إبليس.

وليوقن المؤمن أنه ما في الخبيث من لذة إلا وفي الطيّب مثلها وأحسن، مع أمْنٍ من سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

المجلس الثاني والثمانون
(وأتبع السيئة الحسنة تمحها)[١]

هذه قاعدة من قواعد تهذيب النفس، وتربيتها على المجاهدة، والرقي في مدارج العبودية، وإنك لتتنسم الرحمة من بين أحرف هذه القاعدة النبوية، فهي تصب شآبيب الرجاء والطمع في رحمة الله الرحيم في قلوب المذنبين الخطائين - وكلنا ذاك الرجل -.

جاءت هذه القاعدة النبوية ضمن وصية من ثلاث وصايا، أوصى بها النبيُ ﷺ صاحبَه الجليل أبا ذر رضي الله عنه حين قال له: «**اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[٢].

وتأمل في حكمةِ من أوتي جوامع الكلم - عليه الصلاة والسلام - كيف عقّب الوصية بالتقوى بقوله: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»! ذلك أن العبد لما كان مأموراً بالتقوى في السر والعلن، مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى - إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات - أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة؛ وهو أن يتبعها بالحسنة.[٣]

ومن عجيب الموافقات: أن هذا الحديث بوصاياه الثلاث وقع معناه في ثلاث آيات متتابعات؛ فتأملها أيها المسلم في قول الله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ

(١) الترمذي ح(١٩٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح.
(٢) الترمذي ح(١٩٨٧)قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٤١١).

﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فهذه توافق الوصية الأولى: «**اتق الله حيثما كنت**»، ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] هذه أخلاق! فهي توافق الوصية الثالثة: «**وخالق الناس بخلق حسن**»، ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وهذه توافق الوصية الثانية - وهي قاعدتنا التي نحن بصدد الحديث عنها -: «**وأتبع السيئة الحسنة تمحها**»!

ومن الموافقات بين الوحيين - أيضاً - أن هذه القاعدة الجليلة أتت موافقة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [آل عمران: ١١٤].

إذا تبين هذا؛ فحقٌّ على الناصح لنفسه أن يحرص - إذا أخطأ أو قصّر - أن يبادر إلى حسنة تمحو السيئة التي قبلها، وأن يفتش - ما استطاع - في الأعمال التي تمحو سيئاته؛ فإن الحديث عامٌّ في جميع الذنوب - صغيرها وكبيرها -.

- **ومن الحسنات العظام التي تمحو الذنوب: الحج المبرور**؛ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»(١).

والحسنة الجامعة التي تمحو جميع الذنوب: هي التوبة؛ كما سبق في حديث عمرو بن العاص، وكما دلّت على ذلك نصوص كثيرة.

(١) البخاري ح(١٧٢٣)، مسلم ح(١٣٥٠).

المجلس الثالث والثمانون
(نعم المال الصالح)

من جميل ما أُثِرَ عن الصحابي الجليل، الجواد النبيل عبدالرحمن بن عوف ﷺ قوله: «**يا حبَّذا المالُ أَصونُ به عِرضي وأُرضي به ربي**»[١].

صدق ﷺ، وهذا القولُ منه هو الفقه، فإن الشرع لا يَذم جمعَ المال لذات الجمع، وإنما يَذمّه إذا جَمعه صاحبُه ثم قصَّر في أداء حقوقه - كالزكاة والنفقة والصلة والصدقة - أو تسبب في تعلُّقه الزائد عن حَدّه بالدنيا.

وأما ما سرى في أبجديات بعضِ الزهاد، مِن ذمّ المال مطلقاً! فهو كلامٌ لا يجري على قواعدِ الشرع ولا أصولِه، والصحيح في مسألة جمعِ المال وعدمِه أن يُفصّل فيها، فيقال:

إن كان جمْعُه لمجرد الجمع، مع التقصير بحق الله وحق عباده فيه، أو ألهى عن الواجبات الشرعية، أو كان سبباً في رِقَّةِ الديانة وضعفها؛ **فهو مذمومٌ بلا شك**، أما إن جمَعَه الإنسانُ لغرَضٍ صالح، فأنفقه في سبيل الله، ودعْم مشاريعِ الخير، وعرَفَ الجامعُ حقَّ الله فيه، فأدى زكاته، وأدى حقوقَه الأخرى؛ **فهو ليس بمذموم**، وبهذا تجتمع الأحاديثُ والآثارُ الواردة في هذا الباب.

---

(١) أدب الدنيا والدين (١/ ٣٢٩).

وعند التأمل في حياةِ الصحابة ﷺ وتعاملِ النبي ﷺ معهم؛ يتضح ما ذكرناه بجلاء، فمَن الذي جهَّز جيشَ العُسرة؟ ومَن الذي حفر بئر رومة؟ بل مَن الذي جهَّز النبيَّ ﷺ عندما أراد الهجرة؟ وكم نفع الله بأموال تجارِ الصحابةِ في قيام الدولة الإسلامية، وكم نفع اللهُ بأموالِ تجار المسلمين في هذا الزمان في قيام الدعوة، ودعم الجهاد وتجهيز المجاهدين في سبيل الله، وانتشار الخير في أرجاء العالم!

ومما يؤسَف عليه أن بعضَ الناس يَظن أن مَن يسعى في جمع المال معدوداً خارج دائرة الصالحين، بعيداً عن وصف الزهاد، مصنَّفاً مِن أهل الدنيا بإطلاق تصنيفاً بغيضاً!!

وماذا أجْدَتْ هذه النظرة على هؤلاء! إلا تأخُراً في مشاريع الخير، وعنتاً ومشقةً عند السعي في إقامة أي مشروع خيري، وتسوُّلاً مهذباً عند أبواب التجار، فاضطر هذا النوعُ مِن الناس إلى العودة إلى هؤلاء الذين سلبنا عنهم وصف الزهدِ والرغبةِ في الآخرة! والحمد لله أن هذا الأمر ليس عاماً، ولا شائعاً، لكنه موجود[1].

اللهم إنا نسألك القصد في الفقر والغنى، وأن تجعل ما رزقتنا من هذا المال عوناً لنا على طاعتك.

---

(١) انظر كلاماً قيما لابن الجوزي في كتابه القيم (صيد الخاطر): (٢٨٦،٢٨٣) حول هذه النقطة.

المجلس الرابع والثمانون
(درسُ مِن عامل النظافة)

خرج أحدهم من بيته وبرفقته أطفاله الصغار، فمروا بعامل النظافة، فارتفعت من أبنائه الصغار كلماتٌ تدل على احتقار لمهنته، وهيئته!! متأثرين بمن حولهم من أقرانهم الذين اعتادوا مثل هذه المواقف - للأسف - والتي هي نتاج ثقافة عامة في محيطهم.

هنا اغتنم صاحبي هذه الفرصة ليجعل من رؤية هذا العامل - وما صاحَبَه من ضحك وسخرية - فرصةً لتربية أطفاله لإيصال رسالةٍ - بل رسائل - نتعلمها من رؤية هذا العامل وأمثاله، فقال لهم:

يا أولادي.. صحيحٌ أن هذا عاملُ نظافة، لكن العمل في الإسلام - ولو كان في مهنةٍ كهذه - شرفٌ، وهو خيرٌ من الذي يَسأل الناس (يشحذ).

صحيحٌ أنه عاملُ نظافة، وقد لا يُؤْبَهُ له، ولا يَلتفت له أحدٌ؛ فهو غريب وفقير، لكن الرسول ﷺ علّمنا أن هذا النوع من الناس، الذين لا وزن لهم من الناحية الاجتماعية، فيهم مَن قد يكون له منزلة عالية عند الله، لا يبلغها المشاهير، ولا الأغنياء، فقال ﷺ كما في الحديث الصحيح: «رُبَّ أشعثَ، مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه»[(١)].

(١) مسلم ح(٢٦٢٢).

فالرسول ﷺ يصفه بثلاث صفات:

- «أشعث» وهو الملبّدُ الشَّعْرِ، المغبرِّ غيرِ مدهون ولا مُرجّلٍ ولا مُسرّح.
- «مدفوع بالأبواب» أي: لا قَدْر له عند الناس؛ فهم يدفعونه عن أبوابهم، ويطردونه عنهم؛ احتقاراً له.
- «لو اقسم على الله لأبرّه» أي: لو حلف على وقوع شيءٍ أوقعه الله؛ إكراماً له بإجابة سؤاله؛ لعظم منزلته عند الله، وإن كان حقيراً عند الناس.

يا أولادي.. صحيحٌ أنه عاملُ نظافة، لكنه سافرَ وجاء من بلادٍ بعيدة يطلب الرزق، الذي هو قرين الجهاد في سبيل الله، كما في الآية التي تحفظونها: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكم مِن نفْسٍ تنتظر راتِبَه في آخر الشهر! والداه.. زوجته.. أطفاله! إنه في جهادٍ - يا أولادي - يستحق أن يُقَدّر ويُحترَم لأجله.

نعم.. هو عاملُ نظافة، لكن السخرية ليست من أخلاقنا ولا من ديننا في شيء، لا مع المسلمين ولا مع الكفار، فلقد نادى اللهُ أهلَ الإيمانِ بقوله: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

يا أولادي.. إن وجود بعض النماذج السيئة من هؤلاء العمّال لا تُبيح لنا التعميم، ولا تُجيز لنا السخرية بهم، بل هي فرصة لأن نرفع أَكُفّنا لربنا؛ شاكرين له على نِعمَه وأفضالَه، وأن أغنانا من فضله.

المجلس الخامس والثمانون
﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِين﴾

وردت هذه الآية في - سورة القصص - في سياق قصة موسى مع صاحب مدين الذي كان عاجزًا عن طلب الماء فخرجت ابنتاه للسقيا في القصة المشهورة، وفي القصة أنهما ذكرتاه لوالدهما المقعد عن العمل، فأرسل في طلبه، فلما جاء وحدثه بخبره، قالت له إحداهما - وهي العالمة بعجز والدها عن القيام بمهام الرجال -: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فقولها: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ تعليل لطلبها، **فالقوة**: في العمل، **والأمانة**: في أدائه على الوجه المطلوب.

وهذا التنصيص على هذين الوصفين هو من وفور عقل هذه المرأة التي رأت اكتمال هاتين الصفتين في موسى، فإنهما من المطالب التي يتفق عليها عقلاء البشر في جميع الأمم والشرائع، وهي تمثل قاعدة من القواعد القرآنية المحكمة في أبواب المعاملات، والعلاقات بين الناس.

وقد أخذ العلماء - رحمهم الله - هذه الآية مأخذ القاعدة فيمن يلي أمرًا من الأمور، وأن الأحق به هو من توفرت فيه هاتان الصفتان، وكلما كانت المهمة والمسؤولية أعظم، كان التشدد في تحقق هاتين الصفتين أكثر وأكبر.

إن من تأمل القرآن الكريم وجد تلازمًا ظاهرًا وبيّنًا بين هاتين الصفتين (القوة والأمانة) في عدة مواضع، ومن ذلك:

١ - ما وصف الله به جبريل عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١] [التكوير: ١٩ - ٢١].

٢ - قولُ يوسف - عليه الصلاة والسلام - للملِك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

ولهذا قال العلماء: «ينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب؛ فإن الولاية لها ركنان: القوة والأمانة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾... **والقوة في كل ولاية بحسبها: فالقوة في إمارة الحرب** ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها، وإلى القدرة على أنواع القتال، **والقوة في الحكم بين الناس** ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام.

والأمانة ترجع إلى خشية الله، وألا يشتري بآياته ثمنًا قليلًا، وتركِ خشية الناس، إلى أن قال: «**والمهم - في هذا الباب** - معرفةُ الأصلح، وذلك إنما يتم بمعرفة مقصود الولاية، ومعرفة طريق المقصود، فإذا عُرِفَتْ المقاصد والوسائل تَمَّ الأمر».

نسأل الله أن يولي على المسلمين خيارهم، وممن جمع الله له الأمانة والقوة، والنصح لعباد الله.

المجلس السادس والثمانون
(ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر)

هذه قاعدة من قواعد تربية النفس على الفضائل، ودفع غوائل المكاره، إن الحياة مليئة بالمنغصات والمكدرات:

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها
صفواً من الأقذاء والأكدارِ!

والإنسانُ فيها كما قال عنه خالقه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، إذن: ما القوة التي يمكنه أن يواجه بها مصاعب الحياة، وكبد الزمان، ونوائب الدهر؟!

«إذا استحكمت الأزمات، وتعقّدت حبالُها، وترادفت الضوائق وطال ليلُها؛ فالصبر وحده هو الذي يُشع للمسلم النورَ العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط»[(١)].

إن الصبر علاج شرعي، تكرر الحديثُ عنه في القرآن في أكثر من تسعين موضعاً، ومن المحزن أن يظن بعضُ الناس أن الوصية بالصبر - عند انغلاق الأمور - وصيةُ عاجز! عجباً! أوَ تكون الوصية بوصية الله ورسوله وصية عاجز؟! بل هي وصية ناصح، خاصةً أن عدداً من المصائب والمشاكل، لا يمكن تجاوز أثرها إلا بالصبر،

(١) خُلق المسلم: (١١٧).

وإلا فماذا يصنع من يُفجعُ بوفاة حبيب، هل ثمة إلا الصبر! أو من يُبتلى بتلف مال، هل ثمة إلا الصبر!

وإذا ابتلي الوالدان بولد عاقٍّ، جرّبا معه جميعَ الوسائل الممكنة في النصح والإرشاد والتوجيه، لكنه لم ينتفع، بل استمر على عقوقه! فهل هناك علاج غير الصبر؟!

وإذا قُدّر على الإنسان أن أخفق في صفقة، أو خسر في تجارة، فهو إما أن يصبر صبر الكرام، أو يسلو سلّو البهائم - كما قال بعض السلف - وبالصبر والاحتساب: تخف وطأة البلاء، بل وربما انتقل العبد منها إلى درجة أخرى من درجات العبودية، وهي درجة: الرضا عن الله.

إن الصبر يعتمد على حقيقتين خطيرتين:

أما الأولى: فتتعلق بطبيعة الحياة الدنيا؛ فإن الله لم يجعلها دار جزاء وقرار، بل جعلها دار تمحيص وامتحان.

وأما الحقيقة الأخرى فتتعلق بطبيعة الإيمان: فالإيمان صلة بين الإنسان وبين الله ﷻ، وإذا كانت صِلات الصداقة بين الناس لا يُعتدّ بها، ولا يُنوّه بشأنها إلا إذا أكدها مُرُّ الأيام، وتقلبُ الليالي، واختلافُ الحوادث؛ فكذلك الإيمان، لابد أن تخضع صلتُه للابتلاء الذي يمحصها(١).

«**وإنما كان الصبر أعظم العطايا**: لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر...»(٢).

---

(١) ينظر: خلق المسلم ص(١١٧).
(٢) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٢٧ - ١٢٩).

إن من أعظم ما يعين العبد على الصبر والتصبر: أن يتفكر فيما أعدّه الله للصابرين من الثواب الجزيل، وحسن العاقبة في الدنيا، ولو لم يكن للصابر حافز سوى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] لكفاه بذلك حافزاً ومشجعاً! فكيف وقد وعد الله الصابرين بما هو أعظم وأجلّ!

فلا بد من بذل الجهد والمشقة، مع سؤال الله تعالى والتضرع له أن يبلغك مدارج الصابرين؛ فالصبر إذاً يحتاج منا إلى صبر!

المجلس السابع والثمانون
(التربية بالمواقف)

لما أُتي عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه بطعام - وكان صائماً - قال: «**قُتِل مصعبُ بنُ عميرٍ وهو خيرٌ مني، وكُفِّن في بُرْدةٍ إن غُطِّي رأسُه بدتْ رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسُه**، وأراه قال: **وقُتل حمزةُ وهو خيرٌ مني، ثم بُسِط لنا من الدنيا ما بُسِط، أو قال: أُعطِينا مِن الدنيا ما أُعطِينا، وقد خَشِينا أن تكون حسناتُنا عُجِّلتْ لنا، ثم جَعل يبكي حتى تَرَكَ الطعامَ**»[١].

الله أكبر! هكذا هي القلوب الحيّة! لا تُنسيها النعمةُ عبادةَ الشكر والذِّكر والتَّفكّر في الحال والمآل.

إن عبدَالرحمن بن عوف رضي الله عنه يَضرب بهذا الموقفِ درساً عملياً لأرباب المال، الذين أحيى اللهُ قلوبَهم، فلم تُنسهم بسطةُ الرزقِ شكرَ المنعِم، ولا تذكُّرَ ما سلف وما هم مُقبِلون عليه.

تأمل قولَه: «**وقد خشينا أن تكون حسناتنا**» في رواية: «**طيباتنا عُجِّلت لنا**» يقول هذا وهو المبشر بالجنّة! يقول هذا وهو الذي أنفق في سبيل الله ما أنفق! يقوله وهو لا يشك في وعد الله ورسوله.. لكن المؤمن ما دام نَفَسُهُ يتردد، فهو يطير بجناحي الخوفِ والرجاءِ حتى إذا اقتربت ساعةُ الرحيل غلَّب جانبَ الرجاءِ بربِّه الذي وفّقه للخير، وأَمَدّه بالخير، وأنعم عليه وبَسَط في رزقه.

---

(١) البخاري ح(٤٠٤٥).

وفي هذه القصة: «فضلُ الزهد، وأن الفاضل في الدين ينبغي له أن يمتنع مِن التوسع في الدنيا؛ لئلا تَنقُص حسناتُه، وإلى ذلك أشار عبدالرحمن بقوله: خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا»(١).

وفي هذه القصة مِن تواضع عبدالرحمن بن عوف، حيث ذَكَر مصعبَ بن عمير، وقال: إنه خير منّي! مع أن ابن عوف ممن شهد له النبي ﷺ بالجنة!

إنهم الكبار حقاً! إذا ازداد فضلُ اللهِ على أحدِهم ازدادَ تواضعاً لربه، ألا ترى كيف دخَل النبيُّ ﷺ يومَ فتح مكة، متواضعاً، منكّساً رأسَه لله تعالى، معترفاً بفضله؟ وها هو تلميذه عبدالرحمن بن عوف يكرر المعنى ذاته.

رضي الله عن عبدالرحمن بن عوف، وجمعنا به في دار كرامته، ومع سادة أوليائه الذين أنعمَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٣٥٤).

المجلس الثامن والثمانون
(اجتماعٌ عائلي)

«لولا هذه الاجتماعات لما استطعتُ رؤيةَ أكثرَ أبناء العم من عائلتي»!

بهذه العبارة يصرِّح غير واحدٍ من أبناء الأُسَرِ الكريمة التي اعتادت ترتيب اجتماعٍ شهري أو فصلي أو نصف سنوي أو سنوي.

وهذه حقيقة مشاهدة، خاصة مع كثرة انشغال الناس بأعمالهم، وتفرقهم في المدن، وانهماكهم في وظائفهم وأعمالهم الخاصة.

إن هذه الاجتماعات صورةٌ من صور التواصل التي يحبها الله ورسوله، وهي ليست مجرد اجتماع على طعام، بل هي أَجلُّ وأكبر، ففيها صلةٌ للرحم، وتفقدٌ للمحتاج، وتقويةٌ لأواصر المحبة، وهيبة في نفوس الآخرين، وقد قال قوم شعيب له: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١]، علّق العلامة السعدي على هذه الآية بتعليق نفيس، فقال - في فوائد هذه الآية -: «ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يَعلمون بعضَها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين لا بأس بالسعي فيها بل ربما تعين ذلك؛ لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان»[١].

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٨٩).

لقد قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة وأهلُها يتشكّلون في تجمعات تُمَثِّلُ قبائل كبرى ثم صغرى، وأقرّهم على ذلك، لما في الاجتماع والقرب من مصالح كثيرة لا تخفى.

وسُئل ﷺ: أَمِنَ العصبية أن يحب الرجلُ قومَه؟ قال: «لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجلُ قومَه على الظلم»(١).

إن من المحزن أن ينشأ ناشئةٌ تختزل فوائد هذه الاجتماعات وآثارها الكبيرة في أنها مجرد اجتماع على «رز ولحم» أو «بوفيه مفتوح»!!

إنه لتسطيح بالغ للفوائد الكثيرة التي تتحقق من جراء هذه الاجتماعات، وهي كثيرة، منها:

١ - تفقّد المحتاج من العائلة، فكم سُدِّدت من ديون، وقُضيت من حاجات، بل اشتُريت بيوت للفقراء من تلك الأُسَر.

٢ - إقامة وقف دائم للأسرة.

٣ - التنافس الشريف في مسابقات حفظ القرآن الكريم.

٤ - تشجيع التميز العلمي، بتكريم المتفوقين، والمتخرجين في الدراسات العليا.

٥ - ما يحصل من وقفات جماعية في المناسبات التي تنغّص أو تَسُر، كالعزاء، ومناسبات الأفراح، وغيرها، ولا يدرك قيمة هذه الوقفة الاجتماعية إلا من فَقَدَ أمثال هذا النوع من التواصل.

نسأل الله تعالى أن يجمع القلوب على الهدى، وأن يسدد خطى المصلحين.

---

(١) سنن ابن ماجه ح(٣٩٤٩)، وسنده حسن.

المجلس التاسع والثمانون
﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة تبين سنة من سنن الله تعالى في تعامل الخلق مع بعضهم، ذكرها الله تعالى في سورة فاطر.

وقد دلَّ القرآن أن هذا الأسلوب - وهو المكر - إنما هو منهجٌ من مناهج أعداء الرسل مع الأنبياء والرسل، كم قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

وأما الأمثلة الفردية التي تبين معاني هذه القاعدة، فكثيرة في كتاب الله تعالى، لكن حسبنا أن نشير إلى بعضها، فمن ذلك:

١ - ما قصه الله تعالى عن مكر إخوة يوسف بأخيهم، فماذا كانت العاقبة؟ صحيح أن إخوته تابوا، لكن بعد أن آذوا أباهم وأخاهم بأنواع من الأذى، فعاد مكرهم على غير مرادهم، وفاز من صبر وعفا بالعاقبة الحسنة، والمآل الحميد.

٢ - لما تحايل المشركون بأنواع الحيل لأذية نبينا ﷺ قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فكانت العاقبة له عليه الصلاة والسلام.

٣ - فرعون! كم كاد لبني إسرائيل لمّا آمنوا به! ومن جملتهم ذلك الرجل الذي عرف بـ «مؤمن آل فرعون» الذي قصّ الله خبره في سورة غافر! فنجى الله

المؤمن، وأما فرعون وجنوده فهم الآن - بل منذ ماتوا - وهم يعذبون، وإلى يوم القيامة.

وفي واقع الناس أمثلةٌ تطبيقية كحال المتحايلين على أكل الربا ببعض المعاملات، أو يحتالون على بعض الأنكحة المحرمة، وأمثال هؤلاء، **وقد دلت التجارب أن من عاش بالمكر مات بالفقر**؛ ولهذا عاقب الله من احتال على الصيد المحرم في بني إسرائيل بأن مسخهم قردة وخنازير، وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بأن يمحق ماله، كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾[البقرة: ٢٧٦]، وأصل هذا: أن الله سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم، فآكل الربا يقصد كثرة ماله، فيعاقبه الله بعكس قصده.

وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عباده بأن: **من مكر بالباطل مُكر به، ومن احتال احتيل عليه، ومن خادع غيره خُدِعَ**، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، فلا تجد ماكرًا إلا وهو ممكورٌ به، ولا مخادعًا إلا وهو مخدوع ولا محتالا إلا وهو محتال عليه»[١].

(١) إغاثة اللهفان: (١/ ٣٥٨).

المجلس التسعون
(من حسن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يعنيه)(١)

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة، قال عنها أبو محمد بن أبي زيد - إمام المالكية في زمانه -: **جماع آداب الخير وأزمّته تتفرع من أربعة أحاديث... وذكر منها** هذا الحديث الذي يمثل هذه القاعدة العظيمة: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(٢).

ومعنى هذه القاعدة: أن من حسن إسلام الإنسان، وكمال دينه: أن يترك الخوض فيما لا يعنيه من قولٍ وفعل، ومعنى يعنيه: أنه تتعلق عنايتُه به، ويكون من مقصده ومطلوبِهِ شرعاً أو قدَراً، فتحديد كون الأمر يعني أو لا يعني مردّه الشرع والحاجة الكونية، لا الهوى أو النفس.

والمقصود: أنه إذا حسن إسلام المرء؛ تركَ ما لا يعنيه في الإسلام من الأقوال والأفعال؛ فإن الإسلام يقتضي فعل الواجبات؛ كما بيّنه النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور، الذي سأل فيه النبي ﷺ عن الإسلام فأخبره عنه.(٣)

إن الإنسان وهو يقرأ في كتب السير والتراجم، أو يقرأ في صفحات الحياة اليومية؛ ليجد أمثلة كثيرة تدل على **خَرْقٍ عجيبٍ وظاهرٍ لهذه القاعدة**، التي تكاثرت النصوص في التأكيد على معناها، ومن تلك الصور التي لا تكاد تخطئها العين والأذن:

---

(١) الترمذي ح(٢٣١٧)، ابن ماجه ح(٣٩٧٦).
(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٨٨).
(٣) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٨٩).

١ - الدخول في علم الكلام والمباحث الكلامية التي أضرّت بأصحابها كثيراً؛ فزلزت اليقين الذي كان عندهم، وأدخلتهم في دهاليز الشكوك، فأصبح بعضهم حيارى في عقائدهم، مترددون في بعض ما كانوا يوقنون به من الاعتقاد.

وإنني - بهذه المناسبة - لأنصح أحبتي الشباب ألا يُقْدِموا على قراءة هذا النوع من الكتب إلا عند الحاجة، وبشرط مهم: وهو التحصين العلمي القوي الذي يدفع غوائل الشُبَه، فإن أغلى ما عند الإنسان دينُه وعقيدتُه، وليس من الحكمة ولا من العقل في شيء أن يجعلهما في مهب الريح!

٢ - السؤال عما لا يعني الإنسان من تفاصيل المسائل التي أخفى الله ورسوله شأنهما.

٣ - ما يقع لبعض الناس من تتبع الصغيرة والكبيرة من خصوصيات الناس، وهذا لو لم تأت به الشريعة لنبذته الفطرة السليمة، ولنفرت منه النفوس المستقيمة.

٤ - الانشغال بعيوب الناس عن عيب النفس.

وأختم هذه الحلقة بهذه اللطيفة المتعلقة بهذه القاعدة، فقد جاء في ترجمة أحمد الغزالي - أخي أبي حامد الغزالي - أنه قال على رأس منبره ببغداد، في شعبان سنة خمس عشرة وخمس مئة: سمعت شيخي أبا بكر، حكى عن الشيخ أبي القاسم الكركان قال: في بداءة أمري سمعت هذا الخبر: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» فبقيت ثمانين سنة أُفْتي بمقتضى هذا الحديث[1].

اللهم أشغل أوقاتنا بطاعتك، واجعل سكوننا وحركتنا فيما يعنينا ويرضيك.

---

(١) طبقات الشافعية: (١/ ٣٩٩).

المجلس الواحد والتسعون
(دمعةُ نبي)

في مجلسٍ من المجالس العابقة بذكر الله، المتضوِّعة بأنفاس محمد ﷺ، يَطلب النبيُّ المعلّم من تلميذه القارئ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يقرأ عليه آيات من القرآن.. هنا بدت الدهشةُ على ابن مسعود! فتساءل: يا رسول الله! أقرأ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، فقرأتُ النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى جنبي، فرفعتُ رأسي فرأيت دموعَه تسيل[١].

وفي موقف آخر يُرْفَعُ إليه أحد أسباطه - ابنٌ من أبناء إحدى بناته - ونفْسُهُ تقعقع كأنها في شنة[٢]، ففاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يَرحم اللهُ من عباده الرحماء»[٣].

ولمّا بُشّر ﷺ بقدوم ولده إبراهيم رضي الله عنه أخبر أصحابَه بذلك، لكن لم تكتمل الفرحة به طويلاً، فإنه لما ذهب ﷺ ليراه، ويضمّه، بدأ يجود بنفسه وهو بين يدي والده ﷺ،

---

(١) البخاري ح(٤٥٨٢) مسلم ح(٨٠٠) واللفظ له.
(٢) القعقعة، هي حكاية حركة الشيء يسمع له صوت. والشنُّ: القِربةُ البالية، والمعنى: وروحه تضطرب وتتحرك لها صوت وحشرجة كصوت الماء إذا ألقي في القربة البالية.
(٣) البخاري ح(١٢٨٤) مسلم ح(٩٢٣).

فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال: «تدمع العينُ ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، والله يا إبراهيم إنا بك لمحزونون»(١).

إن دمعة الرجل ليست سهلة، فكيف إذا كانت دمعةَ النبي ﷺ!

لا يختلف الناسُ على أن الحزن والمصائب سببٌ مشتركٌ في جريان الدموع، وقد تجري في حال الفرحِ أيضاً، لكن ثمة مقامٌ هو أشرف مقامات العبد عندما تذرف دموعه من خشية الله، وتفاعلاً مع آيات الكتاب العزيز.. تماماً كما أخبر ابنُ مسعود عن النبي ﷺ.

ومن المقامات الشريفة لجريان الدمع: حينما تفيض حُزْناً على فوات فرصةٍ يخدم العبدُ بها دينَه، وينصر بها ملّته، كما في قصة البكّائين، الذين ذَكر الله خبرهم في سورة التوبة: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

لله تلك الدموع ما أجملها حين سالت، وهي ترى فرصةً من الخير فاتتها، مع أنها معذورة! ولله دمعةٌ تسيل على الخدّ فرَقاً وخوفاً من معصيةٍ وقعت فيها النفس، فتذكرت مقام الوقوف بين يدي ربها.

إن حياتنا - بتقلباتها - لن تخلو من مصائب ومواقف تَستدرّ الدمع، فلنحرص على ألا ننتقل من هذه الحياة ولم نذقْ شرف فيْضِ الدمع لآيةٍ تُتلى، أو خوفاً من معصية، أو حزناً على فوات طاعة.

---

(١) مسلم ح(٢٣١٥).

المجلس الثاني والتسعون
﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل بين الخلق، الذين لا تخلو حياة بعضهم من بغي وعدوان، سواء على النفس أو على ما دونها، وهي **قاعدة** جاءت بعد قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ...﴾ الآيتين [البقرة: ١٧٨، ١٧٩]، ولنا مع هذه **القاعدة القرآنية** وقفات:

الوقفة الأولى: إن من تأمل في واقع بلاد الدنيا عمومًا - مسلمها وكافرها - فسيجد قلة القتل في البلاد التي يُقتلُ فيها القاتل؛ لأن القصاص رادع عن جريمة القتل؛ وما يزعمه أعداء الإسلام من أن القصاص غير مطابق للحكمة؛ وأن فيه إقلالاً لعدد المجتمع بقتل إنسان ثان بعد أن مات الأول، وأنه ينبغي أن يعاقب بغير القتل فيحبس مثلاً، **فهذا كله كلامٌ ساقط، عارٍ من الحكمة**؛ لأن الحبس لا يردع الناس عن القتل، فإذا لم تكن العقوبة رادعةً فإن السفهاء يكثر منهم القتل، فيتضاعف نقص المجتمع بكثرة القتل[1].

الوقفة الثانية: مع كلمة (حياة)، والمعنى: **في القصاص حياة لنفوسكم**؛ فإن فيه ارتداعَ الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت

(١) ينظر: أضواء البيان: (٣/ ٣٢).

لأقدم على القتل مستخفًا بالعقوبات، ولو ترك الأمر للأخذ بالثأر - كما كان عليه في الجاهلية - لأفرطوا في القتل وتسلسل الأمر كما هو معلوم ومشاهد، فكان في مشروعية القصاص حياةً عظيمة من الجانبين.

الوقفة الثالثة: مع ختم الآية بقوله تعالى: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ففي ذلك تنبيه على التأمل في حكمة القصاص؛ وفي توجيه النداء إلى أصحاب العقول إشارة إلى أن حكمة القصاص لا يدركها إلا أهل النظر الصحيح؛ إذ هو في بادئ الرأي كأنه عقوبة بمثل الجناية؛ لأن في القصاص رزية ثانية لكنه عند التأمل هو حياة لا رزية؛ للوجهين المتقدمين.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إكمالا للعلة، أي لأجل أن تتقوا، فلا تتجاوزوا في أخذ الثأر حد العدل والإنصاف [1].

اللهم ارزقنا التسليم لأمرك، والانقياد لشرعك.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢/ ٢٠٠) بتصرف واختصار.

المجلس الثالث والتسعون
(احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز)[1]

هذه قاعدة نبوية محكمة، جليلة الفائدة، عظيمة المعاني، انطوت على «كلامٍ جامعٍ نافع، مُحتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة.

فالأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية، والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية؛ فمدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد في الأمور النافعة منهما، مع الاستعانة بالله تعالى، فمتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها، وسلك أسبابها وطرقها، واستعان بربه في حصولها وتكميلها؛ كان ذلك كماله، وعنوان فلاحه، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة؛ فاته من الخير بحسبها، فمن لم يكن حريصاً على الأمور النافعة، بل كان كسلاناً؛ لم يدرك شيئاً، **فالكسل هو أصل الخيبة والفشل**، فالكسلان لا يدرك خيراً، ولا ينال مكرمة، ولا يحظى بدين ولا دنيا، ومتى كان حريصاً، ولكن على غير الأمور النافعة - إما على أمور ضارة، أو مفوّتة للكمال - كان ثمرة حرصه الخيبة، وفوات الخير، وحصول الشر والضرر، فكم من حريص على سلوك طرقٍ وأحوالٍ غيرَ نافعة لم يستفد مِن حرصه إلا التعبَ والعناءَ والشقاءَ.

ثم إذا سلك العبد الطرقَ النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها؛ لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها، وأن لا يتكل على نفسه وحَوْله

---

(١) مسلم ح(٢٦٦٤).

وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه؛ فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتمّ له النتائج والثمرات الطيّبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنّه في هذه الأحوال محتاج - بل مضطر غاية الاضطرار - إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح»(١).

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وفي قوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز» أمرٌ بالتسبب المأمور به؛ وهو الحرص على المنافع، وأمرٌ مع ذلك بالتوكل - وهو الاستعانة بالله - فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين، ونهى عن العجز الذي هو ضد الكَيس، وكما في الأثر: «الكيّس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» فالعاجز في الحديث مقابل الكيّس، فمن فعل ما أمر به من التزود؛ فاستعان به على طاعة الله وأحسن منه إلى من يكون محتاجاً؛ كان مطيعاً لله في هذين الأمرين»(٢).

ومن أعظم ما يعين على اختيار النافع من الأعمال والأقوال والمشاريع:

١ - العلم؛ فإنه يهدي إلى الفرقان بين الأمور النافعة والضارة.

٢ - الاستشارة؛ فكم من رأي يبدو للإنسان سدادُه، ثم بعد الاستشارة يتبين له خلاف ذلك!

أن يعلم العبد أن ما ينفع لفلانٍ من الناس فقد لا ينفع لك؛ فالنفوس ليست واحدة، والمواهب والملكات ليست سواء بين الناس.

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٨/ ١٨١ - ١٨٢) بتصرف.

المجلس الرابع والتسعون
فقرٌ حاضرٌ

من جميل الوصايا التي تؤثر عن الصحابي الجليل، سعد بن أبي وقاص ﷺ ما أوصى به ابنه قائلاً: «يا بني! إياك والطمع؛ فإنه فقرٌ حاضرٌ، وعليك بالإياس فإنه الغنى، وإياك وما يُعتذَر منه من القول والعمل، وافعل ما بدا لك»(١).

هذه وصية تعالج بعض الأدواء الخلقية والأخطاء التربوية.

أما الداء فهو الطمع، وعلّل ذلك بقوله: «فإنه فقر حاضر»! ثم أتبعها بما يوضّح معناها فقال: «وعليك بالإياس فإنه الغنى»، وصدق ﷺ ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين في سورة التوبة أدرك هذا المعنى جيداً، قال تعالى عن أولئك المنافقين: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[التوبة: ٥٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة: معلقاً على المقولة المشهورة: (الطمع فقر، واليأس غنى، وإنّ أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه) قال: «وهذا أمر يجده الإنسان في نفسه؛ فإنّه الأمر الّذي لا ييأس منه، لا يطلبه ولا يطمع به، ولا يبقى قلبه فقيرا إليه ولا إلى من يفعله، وأمّا إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه تعلّق قلبه به فصار فقيرا إلى حصوله وإلى من يظنّ أنّه سبب في حصوله وهذا في المال والجاه والصّور وغير ذلك»(٢) انتهى.

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (١٤٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨١).

- أما الوصية التربوية، فهي قول سعدٌ لابنه: «وإياك وما يُعتذر منه من القول والعمل» والمعنى: لا تتكلم بكلام، أو تعمل عملاً يحوجك إلى الاعتذار، فالكلمة ما دامت لم تخرج من الفم فأنت تملكها، فغن خرجت ملكتك. وكذلك الفعل.

ولا يُعفي الإنسانُ أن يفعلَ فعلاً فيه إشكال أو ريبة، يحوجه إلى التوضيح والبيان، ولهذا قال ﷺ قولاً محكماً، وقاعدة من قواعد هذا الشرع: «**ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**»[1].

كم مِن إنسانٍ أَلقى كلمةً أحوجتْه إلى ما كان يَكره من الاعتذار والذل للخلق!

ومن الأمثلة الواقعية: أن أحدهم ربما سمعَ كلاماً عن شخصٍ من الناس، فتحدث به في المجالس دون تثبُّت! وأصبح يتكلم في المجالس: فلان قال كذا، وفعل كذا! ثم تبين له بعد فترةٍ أن ما كان يقوله عن فلان غير صحيح!! هنا سيضطر إلى ما كان غنياً عنه، ولو كلّف نفسه قليلاً عناء التثبت لارتاح وأراح! لكنه وقع في أمر لا يمكن تداركه.

وكلما كان موقع الكلمة خطيراً من جهة الزمان والمكان والحال؛ صار التوقي أكثر وأكبر، فلربما تكلم الإنسان بكلمةٍ كان فيها حتفُه!

ألا ما أجمل أن يسمع الابنُ من أبيه أمثال هذه المواعظ والوصايا.

إن من المؤسف، أن بعضَ الأبناء لا يَكاد يَسمَع مِن أبيه إلا اللوم والتقريع، دون أن يسمع أمثال هذه الكلمات الأبوية الحانية، التي تكون رصيداً له في الحياة.

اللهم هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إماما.

---

(١) البخاري ح(٥٢)، مسلم ح(١٥٩٩).

المجلس الخامس والتسعون
(فرحةُ نبي)

يتفنن الناسُ في التعبير عن فرحتهم بما يسمعونه أو يشاهدونه أو يحقّقونه؛ كما يتفاوتون في البحث عن مصادر ذلك الفرح؛ فمنهم من يبحث عنها في السفر، ومنهم من يجدها في القراءة، وثالث في لهو وعبث، وآخرون في معصية الله - عياذاً بالله -، وطائفة تجدها في شيء آخر.. لم يذقه أكثرُ الخلق!

إنه الفرح الذي تجده القلوبُ حين تتصل بعلام الغيوب! إنه الفرح بنفحات الرب الكريم، وما يَهَبُه لعبده من رزق القلب، الذي به يحيا حياةً لا تُشبهها حياة!

كم يستوقفك مشهد الفرح الذي عبّر عنه النبي ﷺ حين نزلتْ عليه سورة الفتح فقال: «لقد أُنزلت عليّ الليلة سورةٌ، لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس» ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١][(١)]، ومتى كانت هذه الفرحة النبوية، التي تجلّت في هذا التعبير المشرِق؟ لقد كانت بعد صلح الحديبية، الذي صُدِمَ بعضُ المسلمين بشروطه بادئ الرأي؛ لشعورهم أن فيها غضاضة وهضماً لجَناب المسلمين.

وإذا كان هذا فرَحُه بسورة، فما ظنك بفرحته حين اكتمل نزول القرآن عليه!

---

(١) البخاري ح(٤١٧٧).

لقد كان ﷺ يُترجم هذا الفرحَ بكتاب ربه في مواقف شتى، منها: حينما يُرخي الليلُ سُدوله، وتنقلب الأبدان إلى الفرش، فيقوم بعد نومة قصيرة ليناجي ربّه، ويتلذذ بتلاوة كلامه، فيقف ذلك الوقوف الطويل الذي تفطّرت له قدماه، مع أنه غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر! لكنها الفرحةُ بفضل الله، والتنعّم بجنة العبودية، التي من لم يدخلها في الدنيا لم يدخل جنة الآخرة.

إنها الفرحةُ التي وجدها أهل القرآن في عيشهم مع القرآن: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] فبهذا الفضل وبتلك الرحمة فليكن الفرح الأكبر، وليكن الغمّ والهمّ على قلبٍ فاته مثلُ هذا الفرح.

وقد يتساءل أحدنا: هل يُعاب الإنسان على فرحه بحصوله على شيء من الدنيا؟

الجواب: لا، لكن مِن المحزن أن نختصر أفراحنا وأحزاننا على لعاعة من الدنيا أتت أو فُقِدتْ، كما أن مِن الحرمان البيّن أن يعيش أحدُنا عشرات السنوات وما ذاق هذه الفرحة القرآنية التي عبّر عنها النبي ﷺ قولاً وعملاً!

كما أن من الغبن الشديد أن يرحل المسلم عن هذه الحياة ولم يتفيأ ظلال هذه الفرحة الراقية، ولم يُورِقْ قلبُه - ولو مرةً - بثمارها اليانعة، هذا وبين يديه أعظم مورد للفرح القلبي، الذي لا تجلبه الأرصدة، ولا الشهرة ولا المناصب، والله الموفق.

المجلس
٩٦

المجلس السادس والتسعون
﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾

هذه قاعدة من قواعد العدل الإلهي، ولتدبرها أثرٌ في فهم المؤمن لما يراه أو يقرأه في كتب التاريخ، أو الواقع من تقلبات الزمن والدهر بأهله، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات.

وهذه القاعدة وردت في سياق ذِكْرِ سجود ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فهل يدرك المؤمن - وهو يتلو هذه الآية - أن أعلى صورة كرامة العبد أن يوحّد ربه، ويترجمه بالسجود له، والتذللِ بين يديه؟ وهل يدرك أن غاية الهوان والذلّ أن يستنكف العبد عن السجود لربه، أو يشرك مع خالقه إلهًا آخر؟! وأن تكونَ الجبالُ الصم، والشجرُ، والدوابُ البُهمُ، خيرًا منه حين سجدتْ لخالقها ومعبودها الحق؟!

وإذا كان الشرك بالله هو أعظم صور الذل، فإن ثمةَ صورًا أخرى - وإن كانت دون الشرك - إلا أن أثرها في هوان العبد وذله ظاهر بيّن: إنه ذل المعصية، وهوان العبد بسببها، والذي يوضحه كلامٌ نفيسٌ لابن القيم رحمه الله حيث يقول: «ومنها: أن المعصية سببٌ لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]! وإنْ عَظّمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفًا من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر

شيء وأهونه...» إلى أن قال - وهو يتحدث عن بعض عقوبات المعاصي -: «أن يرفع الله مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمر الله، واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته يعظم الناس حرماته!»(١).

ومفهوم هذه القاعدة: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ وهو: أن من أكرمه ربه بطاعته فهو الأعز الأكرم، وإن خاله المنافقون أو الكفار على خلاف ذلك، كما قال من طمس الله على بصائرهم من المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولله در ابنِ تيمية: حين قال: «الكرامة في لزوم الاستقامة، واللهُ تعالى لم يكرم عبده بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه، وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٦/ ٢٩٥).
(٢) التحفة العراقية في الأعمال القلبية(١٢).

المجلس السابع والتسعون
(من تشبه بقومٍ فهو منهم)[١]

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب الاعتقاد والسلوك، وهي قاعدة تبرز عظمة هذا الدين الذي يريد من أهله أن يكونوا أعزّة في كل شيء.

ألا ما أحوج المسلمين اليوم - وقد انفتحت عليهم الدنيا، واتصلوا بأمم الأرض بواسطة وسائل التقنية - إلى فقه هذه القاعدة النبوية الشريفة، خصوصاً والإنسان يرى أنواعاً كثيرة من خرق هذه القاعدة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إن من المهم - ونحن نتحدث عن التشبه - أن نحرر المعنى الذي يدخل في التشبه بالكفار، فيقال: هو **مضاهاة الكفار فيما هو من خصائصهم**، فدخل في هذا: التشبه بهم في الأمور الاعتقادية، والأمور الظاهرة: من أقوال، أو أفعال قد تكون عبادات، وقد تكون أيضاً عادات خاصة بهم.

وهنا تساؤل سمعتُه من بعض الشباب: وماذا يضر أن أتشبه بهم في أمورهم الظاهرة ما دام أني مؤمن في الباطن؟! ماذا تضر قَصةُ شَعْرٍ، أو تقليدٌ في لباس، ونحو ذلك مما اختصوا به أو صار شعاراً لهم؟

(١) أبو داود ح(٤٠٣١) وغيره من طريق أبي منيب الجُرشي، عن ابن عمر رضي الله عنهما، وفي سنده عبدالرحمن بن ثوبان، والأقرب أنه لا بأس به، ولذا قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٥/ ٣٠٩): «إسناده صالح»، وصححه العراقي في «المغني» (١/ ٣١٨)، وقال ابن حجر: «وقد ثبت أنه قال: «من تشبه بقوم فهو منهم»»، ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٧٤). وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» الكلام في موضوع التشبه.

فيقال: إن مصدر هذه الكلمات هو الجهل بارتباط الظاهر بالباطن، واعتقاد أنه لا تأثير للظاهر على الباطن، ولا للباطن على الظاهر! وإن أدلة القرآن والسنة لتؤكد ارتباط الباطن بالظاهر، وتأثيرِ كل واحدٍ منهما على الآخر؛ لهذا يقول ابن تيمية رحمه الله: «**وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال؛ يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً.**

وقد بعث اللهُ محمداً ﷺ بالحكمة التي هي سنته، وهي الشرعة والمنهاج الذي شرعه له، فكان من هذه الحكمة: أن شرع له من الأعمال والأقوال ما يباين سبيل المغضوب عليهم والضالين»[(١)].

يقول ابن خلدون رحمه الله: (إن المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه وتخلقه، وسائر أحواله وعوائده؛ والسبب في ذلك: أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه... حتى إذا كانت أمة تجاور أخرى، ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم، والكثير من عوائدهم وأحوالهم، **حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء!** والأمر لله)[(٢)]اهـ.

إذا تبيّن هذا المعنى؛ فلعلنا نختم هذه الإشارات العابرة عن هذا الموضوع الكبير ببيان حُكم التشبه بالكفار؛ لأن النبي ﷺ قال في الشطر الأخير من قاعدتنا هذه: «**فهو منهم**»:

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: (١/ ٩٢).
(٢) ينظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/ ٢٦٧).

يقول ابن كثير رحمه الله عن هذه الجملة «**فهو منهم**»: «ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد، على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نُقَرَّر عليها»[١].

اللهم اجعلنا ممن يتأسون بنبيك وعبادك الصالحين، وجنبنا التشبه بأعداء الدين.

(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٧٤).

المجلس الثامن والتسعون
(مقياس الحب الإلهي)

يقول ابن مسعود ﷺ - مبيّناً مقياس حب الله له وكيف يعرف أحدنا هذا -: «**مَن كان يُحِب أن يَعلم أنه يُحب اللهَ ﷻ فليَعرِض نفسَه على القرآن، فإن أحبَّ القرآنَ فهو يُحِب اللهَ تعالى؛ فإنما القرآنُ كلامُ الله، فمَن أحبَّ القرآنَ فهو يُحب اللهَ ﷻ**»(١).

إنه مقياسٌ رباني أصيل، فأكثر الناسِ يدّعي محبة الله، ولكن الشأنَ في البرهان على هذه الدعوى، فهذا ابن مسعود يَعرِضُ لنا ميزاناً لا تطيش كفتُه! فاعرض نفسَك أيها المدِّعي لمحبةِ الله على كتابه العظيم، فبقَدرِ موافقتك لما فيه؛ فنسبة حبك تعلو وترتفع، والعكس صحيح.

وفي التنزيل العزيز ميزانٌ آخر، يكشف حقيقة الدعوى، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

لقد كانت سيرة ابن مسعود ﷺ ترجمةً عملية للعيش مع القرآن قولاً وعملاً، فلقد عُرِفَ عنه أنه لشدة تعلقه بالقرآن، كان يؤثره على صوم النفل، لأن الصوم يضعفه.

وأما الأثر العلمي للقرآن في حياة ابن مسعود ﷺ قوله: «**مَن أرادَ العلمَ فليُثَوِّر القرآن؛ فإنَّ فيه عِلمُ الأولينَ والآخرين**»(٢).

(١) السنة لعبدالله بن أحمد (١/ ١٤٨).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (١٢٩).

وهذه الكلمةُ كلمةُ مجرِّبٍ، يوضّحها قولُ التابعي الجليل مسروق بن الأجدع: «ما نسأل أصحابَ محمدٍ ﷺ عن شيءٍ إلا عِلمُه في القرآن، إلا أن عِلْمَنا يَقصُر عنه»[1].

يحزنك أن تجد تقصيراً ظاهراً من بعض الناس - خاصةً طلبة العلم والدعاة - في تدبر القرآن، واستنباطِ معانيه وهداياته، فتجد الواحد منهم يَذهب بعيداً في قصصٍ وأخبارٍ ليُقرر قضيةً معيّنة، ولو تدبر كتاب الله لوجَدَها فيه.

وبعد هذا.. أفليس من المحزن أن تمضي على أحدنا ساعات طويلة في أحاديث المجالس، أو في التصفح لمواقع التواصل، فإذا ما أخذ المصحف وجد نفسه يتململ! ولا يكاد يقرأ جزءاً في اليوم؟!

إن من الغبن العظيم أن يمرّ يوم على أحدنا دون أن ينظر في المصحف أو يحرّك لسانه بشيء من القرآن، ولا أدري ما عذر أحدنا في التقصير في هذا والمصاحف الإلكترونية تملأ أجهزتنا الكفية؟

اللهم لا تشغلنا عن كتابك بذنوبنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا.

---

(١) العلم لزهير بن حرب (١٥).

المجلس التاسع والتسعون
(فن إسقاط الآخرين)

زار ياقوتُ الحمويُّ (ت: ٦٢٦هـ) في عنفوان شبابه بلدةَ من البلاد سنةَ ٥٩٣هـ لِيَلقى فيها أحدَ المنتسبين للعلم، فبِمَ وصفه ياقوت؟ يقول رحمه الله:

«كان من العلم بمكانٍ مَكين، واعْتَلَقَ مِن حِباله برُكْنٍ ركين، إلا أنه كان لا يُقيمُ لأَحَدٍ مِن أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً، ولا يعتقد لأحدٍ فضيلة، ولا يُقِرّ لأحدٍ بإحسان في شيءٍ من العلوم ولا حسن، فحضرتُ عنده، وسمعتُ مِن لفظِه إزراءَه على أولي الفضل، وتَنديدَه بالمعيب عليهم بالقول والفعل، فلما أبرمني وأَضْجَر، وامتدّ في غَيّهِ وأَصْحَر؛ قلت له: أما كان في مَنْ تقدَّم - على كثرتهم وشغف الناس بهم - عندك قطّ مجيد؟ فقال: لا أعلم إلا أن يكون ثلاثة رجال، فذكرهم»اهـ كلام ياقوت[١]، ولم تنته هذه الصورة «الاحتقارية» لأعداء النجاح، والحُسّادِ، ومتطلبي النقائص في جهودِ الآخرين، فهي تلوح لنا في مجالسنا ومنتدياتنا العلمية والثقافية، ومواقع الشبكة العالمية، والإعلام الجديد!

مازال أمثالُ هذا الرجل الذي زارَه ياقوت يعيشون في حياتنا، ويتوسطون مجالسَنا! يعتدل أحدُهم في جلسته، ويغضب وتنتفخ أوداجُه، ويتورَّم أنفُه كلما قرعَ سمعَه صوتُ مادحٍ على أحد، ولسانُه منطلِق في مهمَّته لا يَقف عن مطاردة منجزات الآخرين بالعَيب والانتقاص، فهل تجد أوضح من هذا مثالاً على حرمان بركة العلم والأدب؟!

(١) معجم الأدباء (٦/ ١٩٩ - ٢٠٠).

وتَعظُم الفاجعةُ، ويَهوْل الخطبُ كلما كان المنتقِص صغيراً في بواكير الطلب، ومع ذلك فلسانه مِقراضُ أعراضِ الكبار! يَصدُق عليه المثلُ المشهور: تزبّب قبل أن يَتحصرم![1]

لقد بقيتُ أتأمل في سيرة هذا المُنْتَقِص - التي سردها ياقوت في موضع آخر من كتابه - وحاولتُ أن أتقصى أثَرَه في الأمة بعد موته، فلم أر إلا خمولاً لذِكره[2]، فالإنسان حين يُنفِق عمرَه في دفن حسنات الناس؛ فلن يبقى مِن زمانه ما يَبني به منجزاته، وحتى لو بقي، فما أقلَّ برَكةَ عملٍ لا يُبنى إلا على أنقاضِ نجاحات الآخرين، والجزاءُ من جنس العمل!

إن من أعظم النُّصح الذي يقدّمه الشيخ لتلاميذه أن يُربيهم قولاً وعملاً على عفةِ اللسان، والكفِّ عن القيل والقال، والرفقِ في التوجيه، والاشتغالِ بتحصيل العلم النافع والعمل الصالح، والسيرِ على منهج السلف الصالح قولاً وعملاً وسلوكاً! وأن يعوا جيداً نصيحة الفضيل بن عياض رحمه الله لأحدهم: «ليكن شغلك في نفسك ولا يكن شغلك في غيرك، فمن كان شغله في غيره فقد مُكِر به»[3]، عندها يكون العلم مباركاً وزكياً، ويُرجى من صاحبه أن يكون عالماً مؤثِّراً.

إن إسقاطَ الآخرين وتهميشَ منجزاتهم وتحقيرَ مكتسباتهم فَنٌّ يجيده الصغار، فهو لا يحتاج مِن المؤهلات إلا لساناً فجّا، وقلماً جريئاً، ونفْساً مريضة!

---

(١) هو مثَل يطلق على من تبوأ منزلة قبل أن يتأهل لها. وينظر في سببه وقصته: زهر الأكم في الأمثال والحكم (٣/ ١٣٧).

(٢) وأنا هنا لا أتحدث عن منزلته عند الله بل عن أثره في الناس.

(٣) حلية الأولياء (٨/ ١٠٢).

المجلس المائة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق والتعامل مع خلقه، تمثل سفينةً من سفن النجاة، وركنًا من أركان الحياة الاجتماعية.

وهذه القاعدة جاءت تعقيبًا على قصة جهاد طويل قام به النبيُّ ﷺ وأصحابُه ﷺ كما في خاتمة سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾ إلى قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٩].

ومما يخطئ فيه بعض الناس قَصْرُهم معنى الصدق في الآية على الصدق في الأقوال! والصواب أنه عام في الأقوال والأفعال والأحوال، التي كان يتمثلها نبينا ﷺ في حياته كلها، بل قبل البعثة وبعدها، حتى استدل بعض عقلاء المشركين بهذه الخصلة على صدقه في رسالته، فقال: لم يكن هذا الرجل ليترك الكذب على الناس ثم يكذب على الله!!

وسبحان الله! لو لم يكن للصدق من ميزة إلا السلامةُ من رجس الكذب، ومخالفة المروءة، والتشبه بالمنافقين! فضلًا عما يكسبه الصدق من عزة النفس، والشجاعة والهيبة؛ لكفى بذلك دافعا للتحلي به، فكيف والصادقُ سائر على درب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام!

ومن بركة الصدق أن الله يسخر لصاحبه مَنْ يدافع عنه من حيث لا يتوقع، بل قد يكون المدافع خصمًا من خصومه، كما دافعت امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام،فقالت: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

الصادقُ يسير في طريق يهدي إلى الجنة، كما في الصحيح عنه ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة»... الحديث[١].

وأهل الصدقُ هم الناجون يوم العرض الأكبر على ربهم، النائلون رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

ومع كثرة فضائل الصدق والصادقين، فإن من المحزن أن يرى المسلم الخرق الصارخ - في واقع كثير من المسلمين - لهذا الخلق العظيم! فكم فيهم من يكذب؟ ويخلف الوعد؟ وينقض العهد؟ ويزوّر العقود، والأوراق الرسمية!

ليت هؤلاء يتأملون قول أبي سفيان - حين سأله هرقل عدة أسئلة قبل أن يسلم - فقال أبو سفيان: **وأيم الله! لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت**[٢].

فهذا رجل مشرك، وبعيد عن المدينة، ومع هذا حاذر الكذب! لأنه يراه عارًا وسُبةً لا تليق بالرجل؟! إنها مروءة العربي، الذي كان يعد الكذب من أقبح الأخلاق! فكيف يتجرأ مسلمٌ عليه وقد عرف ما في الكذب من قبح وعقوبة!

ألا ما أحرانا معشر الآباء والمربين، أن نربي أجيالنا على هذا الخلق العظيم، وعلى كراهة الكذب، وأن نكون لهم قدوات حية يرونها بأعينهم.

---

(١) البخاري ح(٥٧٤٣)، ومسلم ح(٢٦٠٧) واللفظ له.
(٢) البخاري ح(٧)، ومسلم ح(٧٤).

المجلس الواحد بعد المائة
(لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ واحدٍ مرتين)[(١)]

هذه قاعدة نبوية محكمة في أبواب الأدب والأخلاق، التي تحث المسلم على أن يكون يقظاً نبيهاً، إنها «أدبٌ شريف، أدّب به النبيُّ ﷺ أمتَه، ونبههم كيف يحذرون ما يخافون سوءَ عاقبته، وهذا الكلام مما لم يُسبق إليه النبي ﷺ»[(٢)] **أي في التعبير عنه**، وإلا فمعناه مركوز في الفطر، ومستقر لدى العقلاء - فضلاً عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -.

وكما أن هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة مطلوبٌ في أمر الدنيا؛ فكذا في أمر الآخرة، فالمؤمن يمتنع من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتُها، ثم متى وقع في شيءٍ منها؛ فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة، ولهذا لما سئل الإمام أَحمد بن حنبل رحمه الله عن معنى هذه القاعدة النبوية: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»، نبّه على معنى شريف من اشرف معانيها، وقلّ من ينتبه له: فقال: إن وقع مرة في ذنب فلا يعد فيه[(٣)]اهـ.

ومن تمام الاعتبار بهذه القاعدة في هذا الباب: أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب، كحال من أدخل يده في جُحرٍ فلدغته حَيَّة؛ فإنه بعد ذلك لا يكاد يُدخِل يَده في ذلك الجُحر؛ لما أصابه فيه أول مرة.

---

(١) البخاري ح(٥٧٨٢)، مسلم ح(٢٩٩٨)، قال المناوي في (فيض القدير: ٦/ ٤٥٤): «وذا من جوامع كلمه التي لم يسبق إليها».
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٣٠٧).
(٣) طبقات الحنابلة: (١/ ١٢٤).

وفي التنصيص على «**المؤمن**» في هذا الحديث، إشارة إلى أن الإيمان كما يَحمِلُ صاحبَه على فعل الطاعات، ويرغِّبه فيها، ويحزنه لفواتها؛ فكذلك يزجره عن مقارفة السيئات، وإن وقعت بادر إلى النزوع عنها، ولم يَعُد إلى مثل ما وقع فيه.

ومن دلالات هذه القاعدة النبوية:

- الحث على الحزم والكَيْس في جميع الأمور، ومن لوازم ذلك: تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنبها.

- والحثّ على تجنب أسباب الرِّيب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر.

- وأن الذرائع معتبرة، وقد حذّر اللهُ المؤمنين من العود إلى ما زيّنه الشيطان من الوقوع في المعاصي، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور:١٧]؛ ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلغ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة[١].

وينبغي للمؤمن أن يفرق بين سلامة القلب وبين البَلَه والغفلة، «فسلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة؛ فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يُحمد؛ إذ هو نقص، وإنما يَحمَد الناسُ من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفاً بتفاصيل الشر، سليماً من إرادته، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لست بخِبٍ ولا يخدعني الخِب**»، وكان عمر أعقل من أن يُخْدَع، وأورع من أن يَخْدع»[٢].

وبالجملة: فهذه القاعدة النبوية الشريفة شاملة لأمر الدين والدنيا، وأمر الفرد والجماعة.

---

(١) انظر: بهجة قلوب الأبرار: (ص: ١٥٨).
(٢) كتاب الروح(٢٤٣).

المجلس
١٠٢

المجلس الثاني بعد المائة
(قَرْعُ بابِ الملك)

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**ما دُمتَ في صلاةٍ فأنتَ تَقرَعُ بابَ الملِك، ومَن يَقرَع بابَ الملِك يُفتَح له**»(١).

من هو الملِكُ الذي نَقرع بابَه في كل صلاة؟ إنه رب العالمين، الذي بيده خزائن السماوات والأرض! إنه الله الذي بيده صلاح القلوب والأحوال!

إن فرصة قرْعِ باب ملك الملوك ليست مقصورةً على خمس صلوات مفروضة.. بل إن الله أعطى فرْصةَ قرعِ بابه في اليوم والليلة مراتٍ متعددة! ولا يحجب عنك الطرْقَ إلا أوقات النهي - وهي محدودة -!

والأعجب أنّ هذا الطرقَ لو وقَع عُشْرَهُ لباب مخلوق لضجر وملّ، أما الربّ الغني الكريم فهو - مع كمال غناه - يفرح بهذا الطرْقِ والسؤال.

إنه قرْعٌ لا يحتاج إلى استئذان، ولا حجز موعد، كما قال المزني رحمه الله: «من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب والماء كلما شئت دخلت على الله ليس بينك وبينه ترجمان»(٢).

(١) صفة الصفوة: (١/ ١٥٦).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٤٦).

وحين يقرر ابن مسعود أن من طرق الباب فتح له، فهو لا يعني بالضرورة أن يفتح له من أول مرة، فالله تعالى - لحكمة بالغة - قد يؤخِّر فتح الباب، وإجابةَ دعوةِ الداعي، فيَحصل له من الخير في هذا الخير ما لا يتأتى له لو قُضيَتْ حاجتُه بسرعة! فيَحصل له مِن الإخبات والإنابة، ولذة مناجاة خالقه، وغيرِ ذلك من المصالح القلبية مالم يخطر له على بال..! ومن أدمن القرع يوشك أن يفتح له، لكن ما هي حقيقةُ هذا الفتح؟ أهي إجابةُ الدعاءِ فحسب؟ لا، ولكن قد يَدفع الله عنه شراً أعظم، أو يَدَّخر اللهُ له ذُخرها يومَ القيامة، وأقل المكاسب - وما هو بالقليل - أن يَكتب اللهُ لك أجرَها، تجده أحوجَ ما تكون؛ إذا كانت الحسنةُ بالدنيا كلها، يوم يقرأ كلُّ عاملٍ ما قدَّم.

ومن أعظم الفتوح التي يعطاها الداعي: أن يحبب الله له مناجاة ربه، والتلذذ بدعائه، والأنس بالقرب منه، فتلك التي لا يعادلها نعمة، ولا فوقها مصيبة حين يفقدها العبد بعد ما وجدها.

نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا لذة مناجاته، والأُنْسَ بقربه.

المجلس الثالث بعد المائة
(عِبرة من ترجمة إمام أهل البصرة)

إذا كان لقراءة التراجم لذة، فإن القراءة التحليلية للشخصيات المؤثرة في أمتها أكثرُ لذةً، وأعمقُ أثراً.. ومن الشخصيات الفذّة في هذه الأمة: الإمام الجليل الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠هـ): بعد أن عاش نحواً من تسعين سنة، مُلئت علماً وعملاً، وحكمةً وعقلاً، وجهاداً بالبيان والسِّنان، فكان الأثر والتأثير الكبير في حياته وبعد موته.

ومن تأمل في ثناء العلماء عليه بالعلم والعمل، والزهد والتعبد، بدءاً من الصحابة الذين أدركهم، ومروراً بكبار التابعين وأقرانه؛ أدرك شيئاً من أسرار هذه المكانة العظيمة التي تبوأها.

وإن القارئ في سيرة هذا الإمام؛ ليخرج بعِبَر كثيرة من ترجمته، تكشف سرَّ تميّزه عن أكثر أهل زمانه، منها:

أولاً: عمله بعلمه، وبهذا تظاهرت كلماتُ أقرانه، وحسبك شهادة عالم من أخص أصحابه، يونس بن عبيد (١٣٩هـ): «أمّا أنا فإني لم أر أحداً أقرب قولاً من فعلٍ من الحسن»(١).

ثانياً: عنايته بفهم القرآن، وتأثره به: خُلقاً وعملاً.

وهذه وإن كانت تدخل من حيث الجملة في التي قبلها، إلا أن القارئ لسيرة الحسن يجد هذه العَلامَةَ الفارقة في سيرته؛ من جهة عمق فهمه له، وأثره عليه في

(١) تاريخ دمشق (٥٣/ ٢٠٣).

حياته، فهذا مطر الوراق يقول: «كان الحسن إذا حدثنا حدثنا حديث رجلٍ كأنما كان في الآخرة؛ فهو يخبر عما رأى أو عاين»(١). وهل كان هذا إلا بأمور، على رأسها تدبره للقرآن الكريم، الذي أخبر عن حقائق الآخرة بكلام العليم الخبير!

ثالثاً: مواقفه الواضحة أيام الفتن التي عصفت بالأمة في وقته، يقول تلميذه يونس بن عبيد: كان الحسن من رؤوس العلماء في الفتن والدماء، أي: من العلماء الذين لهم بَصَرٌ، وعقلٌ، وبُعْدُ نظر في هذه الفتن، التي قال عنها الحسن نفسه: إن هذه الفتنة إذا أقبلت عرفها كلُّ عالمٍ، وإذا أدبرت عرفها كلُّ جاهل(٢).

ومن أشد الفتن التي عاشها هذا الإمام، هي فتنة ابن الأشعث؛ التي وقعت سنة (٨١هـ)(٣)، وخبرها مبسوط في كتب التراجم.

وأختم بهذا النصّ الذي يلخصّ سرّ تميّز الحسن، حين وصفه خالد بن صفوان فقال: «كان أشبه الناس سريرةً بعلانية، وأشبه قولاً بفعل، إن قَعد على أمرٍ قام به، وإن قام على أمرٍ قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنياً عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه»(٤).

ألا ما أحوجنا جميعاً أن نتأمل في سِيَر هؤلاء الكبار؛ وأن تُربّى الأجيال الناشئة على أمثال هذه السير العطرة، وصدق الله: ﴿جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

---

(١) المعرفة والتاريخ (٢/ ٤٨).
(٢) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٢).
(٣) وخلاصتها: أن نفراً من العلماء ومن وافقهم من الناس لم يصبروا على جور الحجاج وظلمه، ورأوا أن في جمعهم ما يقطع شأفة فتنته، فتسرب خبر هذا الاجتماع، فأعد لهم الحجاج جيشاً فوقعت الفتنة، فقُتل من قتل، وهرب من هرب، وسَلِم من سلم.
ينظر في خبرها: تاريخ الإسلام (٥/ ٣٤٣)، البداية والنهاية (١٢/ ٣٠٥).
(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٤٨).

المجلس الرابع بعد المائة
﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ومع خلقه، يفزعُ إليها من لا يجد تقديرا لعمله ولا اهتماما.

وهذه القاعدة جاءت في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام حين دخل عليه إخوته وشكوا له الضُرّ، ومعهم شقيقه بنيامين الذي ضمّه إليه، ثم عرّفهم بنفسه فعرفوه، فقالوا له بلسان الخجل والحياء: ﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] فما التقوى؟! وما الصبر؟

ما أكثر ما نحفظ تعريف التقوى والصبر، بل قد نحفظ عدة تعريفات وتقسيمات لهما، ثم يفشل أحدنا أو يقصّر في أول اختبار مع الصبر، ولسنا نعني بذلك العصمة من الذنب، وإنما نقصد أننا نخفق في مواضع كثيرة في التطبيق.

إن لهذه القاعدة القرآنية الجليلة تطبيقاتٍ كثيرة في حياة المؤمن، بل وفيما يقرأه المسلم في كتاب ربه، ومن ذلك:

١ - ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية - تعليقًا على هذه القاعدة في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام -: «وهكذا إذا أوذي المؤمن على إيمانه، وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان - وإن لم يفعل أوذي وعوقب - اختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما

الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون»(١).

٢ - ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: تربيةُ النفس على التقوى والصبر على ما يسمى بعشق الصور، الذي أفسد قلوب فئام من الناس، بسبب تعلق قلوبهم بتلك الصور، سواء كانت صورًا حية، أم ثابتة.

ولقد عظمت الفتنة بهذه الصور في عصرنا هذا، الذي لم تعرف الدنيا عصرًا أعظم منه في انتشار الصورة، والاحتراف في تصويرها، فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يتقي ربه، وأن يجاهد نفسه في البعد عن هذا المرتع الوخيم - أعني تقليب النظر في الصور المحرمة - وأن يوقن أن ما يقذفه الله في قلبه من الإيمان والنور والراحة والطمأنينة سيكون أضعاف ما يجده من لذة عابرة بتلك الصور.

٣ - ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أن الإنسان قد يبتلى بحُساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضله - وقد يكونون من قرابته -، وقد يتبع ذلك ألوانٌ من الأذى القولي أو الفعلي، كما وقع لأحد ابني آدم، وكما وقع ليوسف مع إخوته، وقد يقع هذا من المرأة مع ضرتها، أو من الزميل مع زميله في العمل، فعلى من ابتلي بذلك أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٠/ ١٢١ - ١٢٣) بتصرف واختصار.

المجلس الخامس بعد المائة
(من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)[١]

هذه قاعدة جليلة، تفيض على قلوب المؤمنين أنهاراً من اليقين والإخلاص لربٍ يدافع عن أحبابه، ويحمي أولياءه، إنها قاعدة في الحب! وأي حبٍ هذا! لو ذاقه امرئ القيس لتبرأ من: (قفا نبكِ)، ولو عرفه مجنون ليلى لشفي من جنونه ونجا، ولو عايشه عنترة لما ذكر عند التقاء الرماح غير ربه العزيز الأعلى.

لقد أخبر الله تعالى – ولي المؤمنين – أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، والويل لمن كان متصدياً لعداوة الله، ومحاربة مالك الملك، فليبشر بالخذلان! وفي المقابل: فمن تكفل الله بالدفاع عنه فهو منصور ولا بد، «فهذه سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه: أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم»[٢].

فمن هو هذا الولي الذي تكفل الله بالدفاع عنه، وبأن ينتقم من أعدائه؟

لقد بين صاحب الشأن سبحانه في كتابه الكريم صفة أوليائه فقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[يونس: ٦٢ – ٦٣].

---

(١) ولعلامة اليمن الشوكاني رحمه الله كتاب قيّم في شرح هذا الحديث، جدير بالمطالعة، وهو: (قطر الولي في حديث الولي = ولاية الله والطريق إليها).
(٢) تفسير ابن كثير: (٧/ ١٥٠).

فالإيمان والتقوى هما شرطا ولاية الحق سبحانه، فمن آمن بالله واتقاه؛ تولاه الله.

إن «الولي» في اللغة مشتق من (الولْي) وهو: القرب، كما أن العَدُوّ من (العَدْو) وهو: البعد، فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته[1].

فإن قلتَ: وهل من شرط الولي أن لا يقع في ذنب؟

فالجواب: لا! فقد قال الله عن أوليائه المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

إذا عرفت هذا؛ فما هي **صور معاداة أولياء الله**؟ حتى يسعى المسلم لاجتنابها، وينفض عنه ما علق به من غبارها.

أحدها: أن يعاديهم عصبية لغيرهم، كما يعادي الرافضي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، وهؤلاء من أخسر الناس حظاً يوم القيامة.

ثانيها: أن يعاديهم بمخالفة مذهبهم في الاعتقاد والإيمان، كما يعادي أهلُ البدع أهلَ الحق، قال الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] فانظر كيف ذكرهم بعد ذكر من يشاقق الرسول المعصوم!

ثالثها: يعاديهم باحتقارهم والتنقص منهم؛ فيكون الفعل بهم فعل الأعداء.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٦٢).

رابعها: أنه قد يكون بين الولي وبين الناس معاملات وخصومات[1]؛ فيعاديه لأمور دنيوية، وهذه قد لا يسلم منها أحدٌ، ولا هي مجال حديثنا هنا.

إذا تبين هذا؛ فقد أخذ أهل العلم بمفهوم هذا الحديث فقالوا: «وإذا ثبت هذا في جانب المعاداة؛ ثبت في جانب الموالاة: فمن والى أولياء الله أكرمه الله»[2].

اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين، ومن حزبك المفلحين، إنك سميع قريب.

---

(١) أصل هذه الأربعة في: كشف المشكل لابن الجوزي (٣/ ٥٢٥).
(٢) فتح الباري: (١١/ ٣٤٣).

المجلس السادس بعد المائة
(عليكم بالعلم)

يقول ابن مسعود رضي الله عنه[1]: «**عَلَيْكُم بِالْعلم؛ فَإِن أحدكُم لَا يدْرِي مَتى يُفْتَقر إِلَى مَا عِنْده، عَلَيْكُم بِالْعلمِ قبل أَن يُقبَض، وَقَبضُه: ذَهَابُ أَهلِه**».

حينما تقرأ هذه الوصية من هذا الصحابي الجليل الذي عُمّر بعد وفاة النبي ﷺ وبعد وفاة وزيريه وخلفتيه - أبي بكر وعمر - فإنك تقرأ وصيةَ إمام شعر بمرارة فقْدِ معلم الناسِ الخير، وشعر بِلَوْعَةِ فقْدِ أعلم هذه الأمة بعد نبيها وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفي الوقت ذاته يستشعر معناها لأنه عاش حتى احتاج الناس إلى علمه، بل قال يوماً عن نفسه - متحدثاً بفضل الله عليه -: لقد قرأتُ على رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة، ولقد عَلِمَ أصحابُ رسول الله ﷺ أني أعلَمُهمْ بكتاب الله، ولو أَعلمُ أن أحداً أعلم مني لرحلتُ إليه» قال شقيق: فجلستُ في حِلَقِ أصحابِ محمدٍ ﷺ، فما سمعتُ أحداً يَرُد ذلك عليه، ولا يَعيبُه.

فإذا استشعرتَ هذا كلّه وَقَعَتْ هذه الوصيةُ من ابن مسعود موقِعَها مِن نفسك.

هذه الوصية - بالعناية بالعلم حال الصغر - تلتقي تماماً مع موقف عملي وقع لابن عباس رضي الله عنهما، يترجم فيه هذه الوصية، إذ يقول رضي الله عنه: لما توفي رسول الله ﷺ قلتُ لرجل من الأنصار: يا فلان! هلمَّ فلنسأل أصحابَ النبي ﷺ، فإنهم اليوم كثير! فقال: **واعجباً**

---

(١) نثر الدر في المحاضرات: (٢/ ٥٢).

لك يا ابن عباس! أترى الناسَ يحتاجون إليك، وفي الناس مِن أصحاب النبي ﷺ مَن ترى؟ **فتركتُ ذلك، وأقبلتُ على المسألة**، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريحُ على وجهي الترابَ، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله! ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث، قال: فبقي الرجلُ حتى رآني وقد اجتمعَ الناسُ عليَّ، فقال: «كان هذا الفتى أعقلَ مني»[(١)].

إن هذا النموذج من الشباب المثبطين، أو الذين لا ينظرون لأبعاد الأمور يفوّتون على أنفسهم وعلى غيرهم فرص البناء، والتحصيل العلمي، والسبب؟ وجود الأكابر في حياتهم! وأن الناس لن يحتاجوا لهم في وجودهم! والسؤال الذي ينبغي أن يسأله هؤلاء أنفسهم: هؤلاء الأكابر، ألم يكونوا يوماً من الدهر صغاراً مثلكم؟! ثم صاروا كباراً احتاج الناس إلى علمهم؟ فالله الله أيها الشباب، ضعوا القطن في آذانكم ولا تستمعوا لهذه المقولات التي لا تنتج إلا جيلاً من الكسالى، وفئاماً من الزمنى في علمهم وعملهم! وتأكدوا أنكم وإن كنتم اليوم صغار قوم، فستكونون كبار قوم آخرين، وسيحتاج الناس إلى علمكم إن استمررتم في الطريق، ومن سار وصل، بعون الله وتوفيقه.

---

(١) سنن الدارمي ح(٥٩٠)، وصححه الحاكم (١/ ١٨٨).

المجلس السابع بعد المائة
(أنا)

من الضمائر التي يكثر استعمالها في خطابنا اليومي (أنا)، وليست المشكلة في ذات استعماله، بل في سياقه!

ومَن تأمّل في حديث القرآن وجدَ الفجّار أكثرَ الناس استعمالاً لهذا الضمير في مقام الفخر والكبر والجحود!

هذا سيد الأشقياء، لما قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وهذا النمروذ - بكل كِبر وعناد - يقول في محاجته للخليل ﷺ: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]!

وقالها صاحب البستان المتكبر: ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]!

وقالها فرعون: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]!

وتتكرر الـ(أنا) بهذا التضخّم في كل زمان ومكان، ولكلّ قومٍ وارث!

ومِن جميل ما قاله ابن القيم: في هذا المعنى: «ليُحذر كلَّ الحذر من طغيان «أنا»، «ولي»، «وعندي»! فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليسُ وفرعون وقارون، فـ(أنا

خير منه) لإبليس، و ﴿لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] لقارون.

وأحسن ما وُضعت «أنا» في قول العبد: أنا العبدُ المذنب، المخطئ، المستغفر، المعترف ونحوه. «ولي»، في قوله: لي الذنب، ولي الجرم، ولي المسكنة، ولي الفقر والذل. «وعندي» في قوله: «اغفر لي جِدي، وهزلي، وخطئي، وعمدي، وكل ذلك عندي»[(1)].

وصدق رحمه الله فإن الـ(أنا) لها وقْعٌ آخر، حينما تكون في موضع الانكسار للواحد القهّار، وفي مقام التذلل والخضوع للملك الجبار، والاعتراف بالذنب والتقصير في حق العليّ الكبير جلَّ جلاله، بل ما قيلت في شيء أحسن من هذا.

ونحن - مع كثرة تقصيرنا - محتاجون إلى هذه الروح التي تُردِّد الـ(أنا) المقصّرة، وهي تناجي ربها، وتتضرع لمولاها، مع حسن الظنّ به جلّ وعلا، خصوصاً في مواسم الخيرات، ومواضع الدعوات والابتهال إلى ربّ الأرض والسماوات.

وكذلك أيضاً محتاجون لتربية أنفسنا على التقليل من استعمالها في مدح أنفسنا ما لم يستدع المقام ذلك، أو وقعتْ على الإنسان مظلمةٌ فأراد دفعها - سواء في مجلس القضاء أو غيره - واضطر لبيان الحق فيها.

وبالجملة، فإن مَن عرفَ عظيمَ فضل الله عليه، وعظيم تقصيره في حقه؛ استحى من الله أن يُكثر من حديثه عن نفسه حديثَ المثني، والموفَّق من أكثر من (أنا) مقتاً لنفسه في ذات الله، متمثلاً بلسان حاله ومقاله مقولة الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما حضرته الوفاة فقال: «أنا الذي أمرتَني فقصّرت، ونهيتني فعصيت».

نسأل الله أن يبصّرنا بمواطن الزلل منّا، وأن يزكي نفوسنا، ويرزقها تقواها.

المجلس الثامن بعد المائة

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾

هذه القاعدة القرآنية جاءت ضمن سياق الحديث عن عادة من عادات أهل الجاهلية، الذين إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدا بذلك، وظنا أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر؛ لأن الله تعالى، لم يشرعه لهم، كما ثبت في سبب نزول الآية، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

ولئن كان سبب النزول الذي عالج ذلك الخطأ من أجلى وأظهر الصور التي عالجتها هذه القاعدة، فإن ثمة تطبيقات أخرى واسعة لهذه القاعدة القرآنية الجليلة: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، تظهر لمن تتبع كلام العلماء عنها، أو في تطبيقاتهم العملية لها، ومن ذلك:

١ - **في باب طلب العلم**: شرعيًا كان أم غير شرعي، وكذلك في طلب الرزق، فإن «كل من سلك طريقًا وعمل عملًا، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، وكلّما عَظُمَ المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل وأقوم الطرق الموصلة إليه»(١).

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٩) للعلامة: السعدي رحمه الله.

٢ - **ومن تطبيقات هذه القاعدة:** في الحديث مع الناس: فإن الآية ترشد إلى أن المؤمن عليه أن يسلك الطريقة المناسبة في الحديث، فيعرف الموضوع المناسب الذي يحسن طرقُه، والوقت الملائم، ويعرف طبيعة الشخص أو الناس الذين يتحدث إليهم، فإن لكل مقام مقالًا، ولكل مجال جدالًا، ولكل حادثة مقامًا.

٣ - **ومن تطبيقات هذه القاعدة:** التماس الأساليب المناسبة لعلاج المشاكل الاجتماعية والأسرية، ومعرفة الحلول المناسبة للمشكلة، بعد تشخيصها ودراستها، فإن هذا كله من الهدايات التي دلَّت عليها الآية، ومن خالف ذلك ازدادت مشاكله، وتعقَّد حلُّها.

والواجب علينا عموماً أن ننطلق في إصلاح مشاكلنا كلها مهما تنوعت من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ وأن نعتقد ذلك يقينًا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء: في أمر العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والقضايا الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ولكن الشأن فينا نحن، وفي تقصيرنا في تطلب حل مشاكلنا من كتاب ربنا تعالى، نسأل الله تعالى أن يعيننا على فهم كتابه، والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره.

المجلس التاسع بعد المائة
(من غشنا فليس منا)

هذه من القواعد النبوية المحكمة في شيء من أدب التعامل مع الخلق، وكان لورودها سبب، وهو أن النبيَّ ﷺ مرَّ على صُبرة طعام[١]، فأدخل يده فيها؛ فنالت أصابعُه بللاً! فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟! قال: أصابته السماءُ يا رسول الله! قال: أفلا جعلتَه فوق الطعام؛ كي يراه الناس؟! «من غشنا فليس منا»[٢].

هكذا أطلق النبي عليه الصلاة والسلام هذه القاعدة العظيمة، وأعلن هذه العقوبة النفسية الأليمة، لمن يغش الناس في معاملته وأخلاقه، «فالذين يَغشون في البيع أو في الشراء يرتكبون محظورين:

المحظور الأول: العدوان على إخوانهم المسلمين؛ بأخذ أموالهم بغير حق.

المحظور الثاني: أنهم ينالون تبرؤ النبي ﷺ منهم، وبئس البضاعة بضاعة يلتحق فيها صاحبها بالبراءة من رسول الله ﷺ!: «من غشنا فليس منا»»[٣].

وقوله: «من غشنا فليس منا» «كلمةٌ جامعة في كل غاش»[٤] في بيع أو شراء، أو

---

(١) وفي التهذيب: وإذا أطلق أهل الحجاز لفظ (الطعام) عنوا به البر خاصة، وفي العُرف: الطعام اسم لما يؤكل، مثل: الشراب؛ اسم لما يشرب.[المصباح المنير: ٥/ ٤٠٦].

(٢) مسلم ح(١٠١).

(٣) شرح رياض الصالحين للعثيمين: (٢/ ١١٩) بتصرف يسير.

(٤) مجموع الفتاوى: (٢٩/ ٣٧١).

علم أو تعليم، أو حُكم، أو تربية، أو نصيحة، أو أي معاملة كانت؛ فيحرم فيها الغش والتدليس[1].

ومع هذا الوعيد الشديد، إلا أنه من المؤلم أن يرى الإنسان خرقاً ظاهراً لهذه الحرمة في صورٍ كثيرة، منها:

١ - الغشّ في البيوع، والإجارات، والديون، والأنكحة، والذبائح، وغيرها من المعاملات، والعقود، وعدم تبيينها وتوضيحها، أوترك العمل بما فيها.

٢ - الغشّ في النّصح وإبداء الحقائق، والنقص في النصيحة، أو الكذب فيها.

٣ - الغشّ للرّعيّة الصغرى أو الكبرى، وبقدر المسؤولية التي يتلقدها المسؤول تعظم جريرة الغش.

وبعدُ: ألا فليعلم كل من وقع في غشِّ مسلمٍ في أي نوع من أنواع الغش - وهو يعلم - ؛ أنه سيُسأل يوم يقوم الناس لرب العالمين، عن علمه ذلك: ماذا عملت به؟[2] كما يُسأل من كان على علمٍ من الدين والإيمان.[3]

فلينج كل مسلم ومسلمة بنفسه، فمن غش مسلماً في قولٍ أو فعلٍ، أو مال، أو غير ذلك؛ فليتحلله اليوم، قبل أن لا يكون درهمٌ ولا دينار، وليطلب مسامحته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) حتى قال الذهبي في: تاريخ الإسلام(١١/ ٥١) بعد ذِكر أحد مدلسي الحديث: «قلت: والمدلس داخل في عموم قوله: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٨٨]، وداخل في قوله عليه السلام: «من غشنا فليس منا»؛ لأنه يوهم السامعين أن حديثه متصل! وفيه انقطاع، هذا إذا دلس عن ثقة، أما إذا دلس خبره عن ضعيف يوهم أنه صحيح؛ فهذا قد خان الله ورسوله، وقد قال عبدالوارث بن سعيد: التدليس ذل».

(٢) حديث (لا تزول...وعن علمه فيم فعل) عند الترمذي ح(٢٤١٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ينظر: قوت القلوب(٢/ ٤٤٦).

المجلس العاشر بعد المائة
(الفرح بنعمة الإسلام)

قال ابن مسعود ﵁: «**واللهِ الذي لاَ إله غيرُه ما يَضُر عَبداً يُصبِح على الإسلامِ ويمسي عليه ما أصابَه مِن الدنيا**»[١].

الله أكبر! إنه الفرح بالهداية لهذا الدين الذي تهون عند فقدِه كلُّ مصيبة! خاصةً إذا تذكَّر الإنسانُ أَثَر هذه الشهادة العظيمة (لا إله إلا الله) في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فأمرُها ظاهر، وأما في الآخرة فإن من بديع العبارات السلفية التي تبيّن موقع هذه الكلمة قول ابن عيينة ﵀: «ما أنعم الله على الْعباد نِعْمَةً أعظم من أَن عرّفهم لَا إِلَه إِلَّا الله، **وَإِن لَا إِلَه إِلَّا الله لَهُم فِي الْآخِرَة كَالْمَاءِ فِي الدُّنْيَا**»[٢].

ويوضّح ذلك أكثر، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[آل عمران: ٩١] فهل تصورتَ معي - أيها المبارك - ماذا يعني أن يهديك الله لقول هذه الكلمة والعمل بمقتضاها؟ إن هؤلاء الكفار لو جاءوا بسبيكةٍ ذهبية بحجم الكرة الأرضية، لم تنفعهم ولم تنقذهم مِن العذاب! بينما لو جاءوا بـ(لا إله إلا الله) لنَفَعَتْهم، فتبيَّن بهذا أن هذه الكلمة التي ينطقها الطفلُ الصغيرُ من أطفالنا؛ خيرٌ من سبيكةٍ ذهبيةٍ بحجم الكرةِ الأرضية! بل أعظم!

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٩).
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٥/ ٤٤).

ولهذا كان نبيُّنا ﷺ حريصاً أن يَسمعَها مِن عمِّه أبي طالب، ولكن سَبَق القدَرُ بموته على الكفر، ولله الحكمةُ البالغة، والمشيئةُ النافذة!

ألا ما أحوجنا - ونحن في عصر كثرت فيه الشكوى من المنغصّات - أن نستذكر هذه الموعظة من ابن مسعود: «والله الذي لاَ إله غيره ما يضر عبداً يصبح على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه من الدنيا»، فالدنيا أمَدُها قصير، وعُمْر أحدِنا فيها أقصر من أن نملأه بالمنغصات، ولهذا كان الإمام أحمد رحمه الله يُسلِّي نفسَه بنحو هذا المعنى فيقول: «إذا ذكرتُ الموتَ هان عليَّ كلُّ أمرِ الدنيا، إنما هو طعامٌ دون طعام، ولباسٌ دون لباس، وإنها أيام قلائل»![1].

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥).

المجلس الحادي عشر بعد المائة
(مرحباً بالواعظين)

لم تكن التغيرات التي طرأت بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م مؤثرةً على الجوانب السياسية والأمنية والاقتصادية في العالم فحسب، بل سرى التأثير على القنوات الإعلامية بمختلف أوعيتها، تمثّل ذلك في هجوم عنيف من قِبَل بعض الأقلام على الخطاب الديني بمختلف مساراته، وكان من هذه المسارات التي صوّبوا سهامهم إليها: الخطاب الوعظي.

ولو كان النقد موجهاً بعدل وإنصاف لبعض أساليب الوعّاظ؛ لما استنكف عاقلٌ من قبوله، لكن الواقع أنه هجوم منظّم على هذا الأسلوب الشرعي، الذي طفحت النصوص بفضله والحث عليه؛ بغية تحجيمه وإيقافه! والسؤال الذي يفرض نفسه: ماذا لو أن أعداداً من الأطباء أخطأوا في ممارسة الطب - كما هو الواقع - فهل يقول عاقل بأنه يجب أن يقلّص دور الطب أو يحارَب؛ لوجود وَفَيَات من جراء تلك الأخطاء؟ أم أن العقل والفطرة يناديان بتصحيح الخطأ، وتوجيه المسار؟

لو نظرنا بإنصاف إلى واقع الشباب والفتيات لوجدنا أن الحاجة للخطاب الوعظي أشدّ ما تكون في هذا الوقت، فسهام الأعداء على بلاد الإسلام وشبابهم بالذات تزداد كثافةً، فالمخدرات متفشية، وألوان الانحراف العقدي والسلوكي الموجّهة لهم تزداد ضراوة.

والوعظُ - كما تدل عليه التجارب والواقع - من أهمّ أساليب تخفيف أثر هذا الغزو المنظّم، ذلك أن الإيمان إذا وقر في القلب، صار كالصخرة التي تتكسر عليها نصال سهام الأعداء.

ولعظيم منزلة الوعظ وكبير أثره تولّى الله وعظ عباده بنفسه في عدة مواضع من كتابه، منها: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ [النور: ١٧](١)، ووصف الله كتبه المنزّلة في آيات كثيرة بأنها كتبُ وعْظ.

وحين بعث الله موسى قال له: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]، ولما كان هود - عليه الصلاة السلام - مداوماً على هذه الوظيفة الجليلة، قال له الملأ بكل كبرياء: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

وحين تتأمل في تنوع خطاب مؤمن آل فرعون، وجدته يعود إلى مقصد واحد، وهو الوعظ، وإذا قرأتَ أمر الله لرسونا ﷺ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣] تحققتَ - من خلال تأمل كل ما سبق - عظيمَ أثر هذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى.

ولأجل ذا قال الإمام أحمد: «ما أحوج الناس إلى قاص صدوق»(٢)، وقال مَرةً: «يعجبني القصاص؛ لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر، قلت لأبي عبد الله: فترى الذهاب إليهم؟ فقال: أي لعمري إذا كان صدوقاً لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر»(٣).

---

(١) وتنظر الآيات الكريمة في سور: البقرة (٢٣١)، النساء (٥٨)، النحل (٩٠)، النور (١٧).
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٨٢).
(٣) المصدر السابق.

إنها دعوةٌ لتكثيف الوعظ وفق المنهج الشرعي، ومراعاة آدابه[1]، وقطعِ الطريق على المتربصين بالوعظ وأهله، فمرحباً بالواعظين الذين يضعون نصب أعينهم قول ربهم تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُون﴾ [الروم: ٦٠].

(١) لأخينا الشيخ المسدد فضيلة د.محمد بن إبراهيم الحمد، رسالة قيّمة عنوانها «أدب الموعظة» تحسن مراجعتها.

المجلس ١١٢

المجلس الثاني عشر بعد المائة

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

هذه القاعدة جاءت في ختام سورة العنكبوت التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ... الآيات﴾ [العنكبوت: ٢] فالإيمان ليس كلمةً تقال باللسان، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانةٌ ذات أعباء، وهو دعوى لا تمرُّ دون ابتلاء يُمَحّصُ، ليخرج المؤمنون منه صافيةً عناصرهم، خالصةً قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به.

ومَنْ رام الهداية والتوفيق - وهو يسير في طريق الدعوة - فليحقق ذينك الأصلين الكبيرين اللذين دلّت عليهما هذه القاعدة:

١ - **أما الأصل الأول**: فهو بذل الجهد والمجاهدة في الوصول إلى الغرض الذي ينشده الإنسان في طريقه إلى الله تعالى.

٢ - **والأصل الثاني هو**: الإخلاص لله، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فليس جهادهم من أجل نصرة ذات أو لعاعة من الدنيا، ولا لجماعة أو حزب على حساب جماعات وأحزاب أخرى، أو من أجل كرسي ومنصب، بل هو جهادٌ في ذات الله تعالى.

وإنما نُبّه على هذا الأصل - وهو الإخلاص - مع كونه شرطًا في كل عمل؛ لأن من الدعاة من يدفعه للقيام بالدعوة أو أي عمل نافع، الرغبةُ في الشهرة، أو نيلُ ثراء.

وثمة سرٌّ آخر في التنبيه على هذا الأصل، وهو: أن الإنسان قد يبدأ مخلصًا، ثم لا يلبث أن تنطفئ حرارة الإخلاص في نفسه كلما لاح أمام ناظريه شيء من حظوظ النفس، والأثرة، أو التطلع إلى جاه، والرغبة في العلو والافتخار، أو الانتصار.

وفي واقع المسلمين أحوال تحتاج إلى استشعار معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾:

- فمن له والدان كبيران مريضان، بحاجة أن يستشعر هذه القاعدة.
- ومن سلك طريق طلب العلم، فطال عليه بعض الشيء بحاجة أن يتأمل معاني هذه القاعدة.
- ومن فرّغ جزءً من وقته لتربية النشء والشباب، أو لتعليم أبناء وبنات المسلمين كتابَ الله - وقد دبّ إليه الفتور - هو بحاجة ماسّة ليتدبر هذه القاعدة.

وبالجملة: فكلُّ من نصب نفسه لعمل صالح، سواء كان قاصرًا أم متعديًا، فعليه أن يتدبر هذه القاعدة كثيرًا؛ فإنها بلسمٌ شافٍ في طريق السائرين إلى ربهم، ويوشك المؤمن أن ينسى كلَّ ما واجهه من تعب ونصب، إذا وضع قدمه على أول عتبة من عتبات الجنة، جعلني الله وإياكم - ووالدينا وذرياتنا - من أهلها، ومن الدعاة إلى دخولها.

المجلس ١١٣

المجلس الثالث عشر بعد المائة
(إن الله كتب الإحسان على كل شيء)[1]

هذه لَبِنة من لبنات الكمال في بناء هذا الدين العظيم، المبني على كمال الحكمة، وكمال العلم، وكمال الرحمة.

«إن الله كتب الإحسان على كل شيء» هل تأملتَ هذا العموم **«على كل شيء»**؟

هذا عموم لا ينخرم منه شيءٌ! فلنلقِ نظرةً على بعض ما يشمله معنى هذه القاعدة الجليلة:

١ - فالإحسان في عبادة الله، وفي العلاقة مع الله، هو من أعظم هذه المعاني التي تشملها هذه القاعدة، وهو الذي فسّره النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه».

٢ - الإحسان إلى الخلق من الآدميين، في التعامل معهم، وعلى رأسهم الوالدان، ثم من له حق على الإنسان، من قريب، وشيخٍ، وجار، وصاحب ونحوهم.

٣ - الإحسان إلى الخلق من الحيوانات.

فإن سألتَ - أيها القارئ الكريم - عن معنى الإحسان الذي نتحدث عنه؟ فيقال:

الإحسان: هو بذلُ جميع المنافع من أي نوعٍ كان، لأي مخلوق يكون، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسَن إليهم، وحقهم ومقامهم، وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

---

(١) مسلم ح(١٩٥٥).

ومن أجَلّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل، قال تعالى: ﴿ادفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤ - ٣٥].

ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

واعلم أن الإحسان له ميادين عدة يتجلى فيها، لا يحصره ميدان واحد، ولا تسعه حلْبة(١) واحدة من حَلَبات هذه الحياة الدنيا، دعونا نتأمل في أهم ميادين الإحسان التي نص عليها القرآن:

الإحسان في: مواجهة الملمّات بالصّبر عليها، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥].

في الحرب والجهاد، يقول سبحانه وتعالى: ﴿أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

في الحوار الفكريّ والتّواصل الثّقافيّ، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء:٥٣].

في العلاقات الاقتصاديّة، يقول المولى ﷻ في قصّة قارون: ﴿وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

وهكذا نرى الإحسان يشمل الفرد والمجتمع، والدّولة والحياة بأسرها، وأنّه لن تقوم تربية راشدة إلّا إذا غرسنا معنى الإحسان في النّفوس على أنّه من محابّ

---

(١) والحَلْبَة بالتَّسْكِين: خَيْلٌ تُجمع للسِّباقِ من كلِّ أَوْبٍ لا تَخْرُجُ من مَوْضِعٍ واحِدٍ ولكن من كلِّ حَيٍّ. لسان العرب: ١/ ٣٣٢.

الله تعالى، وقد تضمّن الإحسان كما رأينا: النّوايا والمقاصد والعبادات، كما تناول الأقوال والأفعال، ليس هذا فحسب؛ وإنّما شمل أيضاً الإحسان إلى المخلوقات كافّة من حيوان وجماد ونبات[1].

(١) نضرة النعيم: (٢: ٧٤) بتصرف.

المجلس الرابع عشر بعد المائة
(حقيقة الدنيا)

يقول ابن مسعود ﷺ: «**الدُّنْيَا كلُّهَا غمومٌ، فَمَا كَانَ مِنْهَا مِن سرُور فَهُوَ رِبح**»[١].

حين يقرر ابن مسعود هذا المعنى، فهو ينطلق في هذا من عددٍ مِن الآيات القرآنية، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، وقوله تعالى عن أهل الجنة - وهم يتحدثون بنعمة الله عليهم -: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] وغيرها من الآيات.

ولا ريب أن استحضار هذا المعنى مما يهوِّن على العبد ما يمرُّ به مِن مُنَغصّاتٍ ومكدرات، وأنْ يَعلمَ أن هذه الدار كما قال الشاعر:

جُبِلتْ على كَـدَرٍ وأنـتَ تُريدُها
صـفـواً مِـن الأقـذاء والأكـدار
ومُـكـلِّـف الأيـامِ ضـدَّ طباعها
مـتـطـلـبٌ في المـاء جـذوةَ نـارِ

إن فِقْه حقيقةِ الحياة؛ لمِن أعظمِ الأدويةِ وأنجعِها في تخفيف وطأةِ الهمومِ التي عصفتْ بملايين القلوب، حين عاشوا الدنيا على غير حقيقَتِها، وطلبوا منها ما لم يجعله الله فيها.

(١) السيرة الحلبية (١/ ٣٩٧).

والحقيقةُ أن الدنيا منذ خلقها الله هي الدنيا! وإنما الفَرق هو في كيفية التعاملِ مَعَها، ولهذا تجد أخوين شقيقَين، عاشا في بيئةٍ واحدةٍ، وظروف متشابهةٍ جداً، لكن أحدَهما سعيدٌ والآخرُ شقيّ، ومِن أهم الأسباب طريقةُ التعامل، وكيفيةُ النظر لهذه الحياة، فَمَن فَقِه حقيقَتَها استراح، ومن غابت عنه الحقيقة تَعِب وتعنّى.

ولابن مسعود كلمةٌ أخرى في هذا السياق تُجلِّي فقهَهُ لهذه الحياة فيقول: «ما أحدٌ أصبَح في الدنيا إلا وهو ضيفٌ، ومالُه عاريةٌ، والضيفُ مرتَحلٌ، والعاريةُ مردودةٌ»[1].

ويقول - أيضاً -: «ليس للمؤمن راحةٌ دونَ لقاء الله، فمن كانت راحتُه في لقاء الله فكأنْ قَدِ»[2].

ولمن لم يَفقَه حقيقةَ هذه الدنيا؛ أهديه هذا الخبر الغريب، فقد ذكر: ابنُ أبي الفياض في (تاريخه) قال: أُخْبرتُ أنه وُجد في تاريخ عبدالرحمن الناصر - خليفة الأندلس الشهير - أن **أيام السرور التي صفَتْ له عُدَّتْ، فكانت أربعةَ عشرَ يوماً! وقد مَلَكَ خمسين سنة ونصفاً**[3] فهل من معتبر؟!

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ١٦٣).
(٢) حلية الأولياء: (١/ ١٣٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٦٦).

المجلس الخامس عشر بعد المائة
(رَجل السَّاقَة)

اجتمع مدير بموظف يعمل في أحد العاملين في الجهات الخيرية، فأتى الحديثُ على عمله في مهمة لا تناسب مقامه الحالي بتوجيه ممن يعلوه رتبةً في تلك الجهة، فقال بالحرف الواحد: أنا أعملُ حيثُ وُضِعْتُ، ولو كنت في المستودع!

هنا يتذكر الإنسان في هذا السياقِ قولُه ﷺ: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة - الذين يسوقون جيش الغزاة -، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفع لم يشفّع»[1]، والشاهد منه قوله: «إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة».

ما أبهى هذا التعبير النبوي عن هذا النوع من الناس! البسيط في هيئته ولباسه.

يحدثنا التاريخ عن نماذج من رجال الساقة، منهم من عرفناه، والأكثرون لم نعرفهم، ولكنهم لا يَخفَون على الله تعالى، وفي الواقع من أمثالهم كثير، ومن هؤلاء:

قصة رجل نوّه النبي ﷺ به بعد أن وَضعت الحربُ أوزارها في إحدى غزواته، فقال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً، وفلاناً، وفلاناً، ثم قال: «هل تفقدون من

(١) البخاري ح(٢٨٨٦).

أحد؟» قالوا: لا، قال: «لكني أفقد جليبيبا، فاطلبوه» فطُلب في القتلى؛ فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلوه، فأتى النبيُّ ﷺ فوقفَ عليه، فقال: «قتل سبعة، ثم قتلوه هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» قال: فوضعه على ساعديه، ليس له إلا ساعدا النبي ﷺ، فحفر له ووُضع في قبره[1].

وعَقِيْب فتح نهاوند (سنة ٢١هـ)[2] جاء البشير إلى الفاروق رضي الله عنه فقال: أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله، وأذل به الكفر وأهله؛ فحمد الله عز وجل، ثم قال: النعمان بعثك؟ قال: احتسِب النعمانَ يا أمير المؤمنين، قال: فبكى عمر واسترجع قال: ومن ويحك! قال: فلان وفلان، حتى عدّ له ناساً كثيرا، ثم قال: وآخرين يا أمير المؤمنين لا تعرفهم، فقال عمر وهو يبكي: لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم[3].

إن من توفيق الله لعبده ورحمته به أن تكون هِمّةُ نَفْسِه، وقِبْلَةُ قلبه - في عمله - أن يكون خالصاً لله، فلا يضيق صدرُه إذا لم يقدَّم، ولا تجزعُ نفسُه إذا لم يشتهر، بل إذا اقتضى الأمر أن يعمل بصمت؛ عمل ونفسه تتدفق سروراً، وقد يرحل بصمت، وهو يتذكر كلمةَ الفاروق: «لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم»، وهو يطمع أن يَقْدُمَ على «طوبى» دار الطيبين المطيّبين، الصادقين المخلصين.

(١) مسلم ح(٢٤٧٢).
(٢) هذا هو المشهور، وقيل غير ذلك.
(٣) تاريخ الطبري (٤/ ١٢٠).

المجلس السادس عشر بعد المائة
﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

هذه قاعدة توضح سنةً من سنن الله في الأمم والمجتمعات.

وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان المراد بهذه الآيات، فمن قائل: هو الموت المتفشي الذي يكون بسبب وباء أو مرض، وآخر يقول: آيات الانتقام تخويفًا من المعاصي، وتنوعُ هذه العباراتِ يشير إلى أن الآيات لا يمكن حصرها في شيء واحد، وما ذكروه إنما هو عبارة عن أمثلة لهذه الآيات، وليس مرادهم بذلك الحصر في نوع واحد منها.

يقول قتادة رحمه الله - في تفسير هذه الآية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] -: «إن الله يخوّف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون. ذُكِرَ لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه»[1].

وحاصل كلام السلف - في هذه الآية - يؤكد أن السبب الأكبر في إرسال الآيات: هو تخويف العباد، وترهيبهم مما يقع منهم من ذنوب ومعاصٍ، لعلهم يرجعون، فإن لم يرجعوا فهذه علامة قسوة في القلب - عياذًا بالله -.

---

(١) تفسير الطبري: (١٧/ ٤٧٨).

ومع وضوح هذا المعنى وظهوره، إلا أن من المؤسف أن يقرأ الإنسان أو يسمع بعض المتحدثين في المنابر الإعلامية ممن يسخر أو يهوّن من هذه المعاني الشرعية الظاهرة! ويريد اختصار الأسباب في وقوع الزلازل أو الفيضانات، أو الأعاصير - وغيرها - في أسباب مادية محضة!

ونحن لا ننكر أن للزلازل والفياضانات والأعاصير أسبابها المادية المعروفة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أمر الأرض أن تضطرب؟ ومَنْ أذن للماء أن يزيد عن قدره المعتاد؟ ومَنْ أمر الرياح أن تتحرك بتلك السرعة العظيمة؟ أليس هو الله؟! لعل عباده أن يتضرعوا إليه، ويستكينوا له؟!

ثم ماذا يصنع هؤلاء بما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح، قال: «**اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» قالت: وإذا تخيلت السماء تغيّر لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرّي عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته؟ فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] [(١)]؟

وأما ما يورده بعض الناس من قولهم: هناك بلاد أشد معصية وفجوراً من تلك البلاد التي أصابها ذلك الزلزال أو الإعصار، فهذه الإيرادات لا ينبغي إيرادها أصلًا؛ فإن ربنا يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، لا يُسأل عما يفعل، وله الحكمة البالغة، والعلم التام، ومن وراء الابتلاءات حكم وأسرار تعجز عقولنا عن الإحاطة بها، فضلًا عن إدراكها.

---

(١) البخاري ح(٤٥٥١)، مسلم ح(٨٩٩) واللفظ والدعاء لمسلم.

المجلس السابع عشر بعد المائة
(ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً)[١]

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب العلاج الحسي والمعنوي، إنها قاعدة ترسم البسمة على شفتي كل مريض، وتبعث الأمل في قلب كل مبتلى، وتمسح الدمعة عن خدِّ كل مصاب، وتفتح الآفاق لكل من يعاني مشكلة معنوية في حياته الخاصة والعامة.

قال القرطبي رحمه الله: «هذه الكلمة صادقة العموم؛ لأنها خبر عن الصادق البشير عن الخالق القدير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] فالداء والدواء خلْقه، والشفاء والهلاك فِعلُه، وربْطُ الأسباب بالمسببات حكمته وحُكْمه، فكل ذلك بقدَرٍ لا مَعدِل عنه»[٢].

فإن قيل: ما معنى الإنزال المذكور في هذه القاعدة: «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء»؟

يجيب على ذلك الحافظ ابن حجر رحمه الله، بعد أن ذكر عدة أحاديث في هذا الباب؛ فيقول: «هو: إنزال علم ذلك على لسان المَلَك للنبي ﷺ مثلاً، أو عبَّر بالإنزال عن التقدير»[٣].

(١) البخاري: (٥٣٥٤).
(٢) فيض القدير: (٢/ ٢٥٦).
(٣) فتح الباري: (١٠/ ١٣٥).

وعموم هذا الحديث يقتضي: أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية، أو تخففه.

وفي هذا: الترغيب في تعلّم طب الأبدان(١)، كما يُتعلم طبُّ القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة، وجميعُ أصول الطب وتفاصيلُه، شرحٌ لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية، فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها.

وقد كان بعض الأمراض يظن كثيرٌ من الناس أنه ليس له دواء - كالسِّل ونحوه - وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علمه؛ عرف الناسُ مصداق هذا الحديث، وأنه على عمومه(٢) - إلا الهرم والموت فلا شفاء لهما -.

وأصول الطب: تدبير الغذاء؛ بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوةُ، وينهضم الطعامُ السابق انهضاماً تاماً، ويتحرى الأنفع من الأغذية، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال، ولا يمتلئ من الطعام امتلاء يضره مزاولتُه، والسعيُ في تهضيمه، بل الميزان قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١](٣).

وفي هذه القاعدة النبوية **إثبات الأسباب**(٤)، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله ومشيئته.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ١٣٤): «والطب نوعان: نوع لا يحتاج إلى فكر ونظر بل فطر الله على معرفته الحيوانات، مثل ما يدفع الجوع والعطش، ونوع يحتاج إلى الفكر والنظر؛ كدفع ما يحدث في البدن مما يخرجه عن الاعتدال».

(٢) قال ابن حجر: «ويدخل في عموم الأحاديث أيضاً الداء القاتل الذي اعترف حذاق الأطباء بأن لا دواء له، وأقروا بالعجز عن مداواته، ولعل الإشارة في حديث ابن مسعود بقوله: «وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ» إلى ذلك فتكون باقية على عمومها» فتح الباري: (١٠/ ١٣٥).

(٣) بهجة قلوب الأبرار: (ص ١٤٧ - ١٤٨).

(٤) وقد جاء عند الترمذي ح(٢٠٣٨): «يا عباد الله! تداووا...» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

إذا تبين هذا، فليعلم الجميعُ أن النبي ﷺ قال في هذا الباب: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حَرّم عليكم»(١)، فلا يجوز لمريض أو ممرض أن يستعمل شيئاً حرمه اللهُ تعالى أو رسولُه.

إن «التمريض ضروري، والمهنة لا بد منها، لكن بشرط: أن نبقى متمسكين بأحكام ديننا، فلا نُغضِب ربنا لنَشفي مريضَنا، والشفاء من الله، والله لا يشفي بمعصيته، بل يشفي بطاعته، وإذا زال المرض عن الجسد مؤقتاً في هذه الحياة الدنيا بالمعصية؛ فإن الحياة الحقيقية الطويلة هي الآخرة، فماذا ينفعنا شفاءُ المرض هنا وأن نبتلى بمرض الحريق بنار جهنم؟!»(٢).

---

(١) البخاري ح(١٢٢٧٠).

(٢) ذكريات الطنطاوي: (٤/ ٢٩٤) في مقال جدير بالأطباء قراءته وهو: (هجوم على الأطباء).

المجلس الثامن عشر بعد المائة
(سجن اللسان)

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**والذي لاَ إله إلا هو! ما على ظَهْرِ الأرضِ شيءٌ أَحَقَّ لطولِ سِجنٍ مِن لسان**»(١).

هذا القَسَم من هذ الصحابي الجليل، يدُلك على فقهه لخطورة هذه الجارحة، ونصوص الشرع المطهر مشحونةٌ بالتحذير من ذلك!

وأنتَ إذا تأملتَ كثيراً من المشاكل الفردية والجماعية - بل أحياناً بين بعضِ الدول - وجدتَ منطلقها من كلمةٍ ألقاها صاحبُها دون أن يقدِّر أثرَها، الذي ربما صارَ أشدَّ مِن أثرِ النارِ في الهشيم!

وفي التاريخ عِبرةٌ! تَقوم حربٌ بين قبيلتين، أو تذهب نَفْسٌ بسبب كلمة أو قصيدة شعرية!

وأشد من ذلك كلّه، ما قاله النبي ﷺ: «إن العبدَ ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب»(٢).

بل كم مِن كلمةٍ جلبَتْ لصاحبها الأذى الطويل، ولو سكت لكان خيراً له! وما أجمل قول الأول:

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ١٦٢).
(٢) البخاري ح(٦٤٧٧) مسلم ح(٢٩٨٨).

يموت الفتى مِن عثرةٍ بلسانه
وليس يموت المرءُ مِن عثرةِ الرِّجلِ
فعثرَتُه بالقول تُودي برأسه
وعثرتُه بالرِّجل تَبرى على مَهلِ

وابن مسعود ﵁ يُكرِّر هذا المعنى في مواعظ أخرى له، فيقول لرجلٍ طلب وصيته: «**ليَسعك بيتُك، واكفُف لسانَك، وابكِ على ذِكر خطيئتِك**»[1].

وقال مرةً: «**إياكم وفضول القول**، فبحسب المرءِ مِن الكلام ما بلغ مِن حاجَتِه»[2].

وهذه الجملة الأخيرة: «إياكم وفضول القول» تأخذ معنى أبعدَ في الوصية بحفظ اللسان عمّا لا يعني، فإن الترجمة تفيد أن من اعتاد الكلام فيما لا يعني قسا قلبُه، ولم يأمن الزَّلة والخوضَ فيما يضره.

وكلُّ هذا يدخل تحت تلك الجملة النبوية المُحْكمة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[3].

ولقد أحسن ابن السَمَّاك الواعظ حين قال عن اللسان: «سَبُعُك بين لحييك - يعني اللسان -، تأكل به كلَّ مَن مَرَّ عَليك، قد آذيتَ أهل الدُّور في الدُّور حتى تَعاطَيت أهلَ القبور، فما ترثي لهم وقد جرى البلى عليهم! وأنت ها هنا تنبشهم، إنما نرى نبشَهم أخْذَ الخِرَق عنهم، إذا ذكرتَ مساويهم فقد نَبشتَهم، إنه ينبغي لك أن يَدُلَّك على ترك القول في أخيك ثلاثُ خلال: أما واحدة فلعلك أن تَذكُرَه بأمرٍ هو فيك، فما ظنُّك بربِّك إذا ذكرتَ أخاك بأمرٍ هو فيك؟ ولعلك تذكره بأمرٍ فيك أعظمُ منه، فذلك أشدُّ

(١) صفة الصفوة: (١/ ١٥٨).
(٢) أنساب الأشراف للبلاذري: (١١/ ٢٢٨).
(٣) البخاري ح(٦٠١٨) مسلم ح(٤٧).

استحكامًا لمقتِه إياك، ولعلك تذكره بأمرٍ قد عافاك الله منه، فهذا جزاؤه إذ عافاك؟! أما سمعتَ: ارحم أخاك، وأحمد الذي عافاك»[1].

وبالجملة فشأن اللسان خطير، ومن أجْل ذلك صنَّف العلماء كتباً مستقلة في الصمت وفي المنطق، وضمّنوا كتبَهم في الآداب الكلام الكثير عن هذا الموضوع، الذي يجب على كل ناصحٍ لنفسه، أن يراعيه ويرعاه.

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٠٢).

المجلس التاسع عشر بعد المائة
(المسكين الجديد)

حين يُذكر اسم «المسكين» لا يتبادر إلى الأذهان إلا ذاك الإنسان الذي ظهرت عليه آثار الحاجة، وشظف العيش، وحلّت له الصدقة.

لكن ظهر في الآونة الأخيرة نوع آخر من «المسكنة»، أفرزه نقل أخبار الأسفار، وموائد الأطعمة، وأنواع الماركات والمناسبات الاجتماعية وغير ذلك، مما جعل كثيراً من الناس - من ذوي الدخل المحدود - يتساءل: أين أنا من هؤلاء؟! ليتني أسافر مثلهم! وألبس مثلهم، وأركب مثلهم؟ فترتفع نسبة الحسرات والآلام عنده، وهو يسمع أخبار هؤلاء المترفين، وقد تكون حقيقتهم أنهم غارقون في الديون، لكنه حب المظاهر!

لقد أنتجت هذه المشاعر مجتمعاً مشغولاً بالكماليات، معنياً بترفيه نفسه على حساب روحه، إلا من رحم الله!

صار مَنْ لا يسافر للخارج مع عائلته عند هؤلاء المترفين مسكيناً!

وأصبح مَنْ لا يُجدّد ملبوساته بالماركات العالمية المشهورة مسكيناً!

وأضحى مَنْ يختصر زفاف موليته، ولا يجعله في قصر كبير، أو قاعة فندقية مسكيناً!

ومَنْ جواله من النوع العادي الذي لا يصنّف من الأجهزة الذكية، فصاحبه مسكين!

ولئن كان التوسع قد لا يستغرب من أهل الثراء، فما تفسير تسابق كثير من ذوي الدخل المحدود، حين يشعرون بمركّب النقص و«المسكنة» إذا لم يفعلوا ذلك! فيدفعهم هذا إلى الاستدانة، أو الوقوع في أسر القروض البنكية التي تطوّقهم بأقساطها سنوات عدّة!

لا أحد يمنع من التمتع بما أحل الله من الطيبات، لكن هذا التسابق إلى هذه الألوان من الترف ومن أغلب طبقات المجتمع ليس محموداً، ولا مأمون العواقب، وحسْبك أن تنظر في آثاره بعين البصر والبصيرة؛ لتدرك شيئاً من الأثر العاجل!

ولما كانت بعض الموازين عند بعض الناس متعلقةً بالمظاهر، كان النبي ﷺ يحرص على تصحيحها كلما حانت فرصةٌ، ومن ذلك أنه مرَّ رجلٌ على النبي ﷺ، فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، قال: فسكت النبي ﷺ، ثم مرّ رجل آخر، فقال له النبي ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله! هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[(1)]، وقد بوّب عليه البخاري فقال: باب فضل الفقر!

إنها دعوة للاعتدال، وإعادةِ النظر في كثير من ألوان التوسع في الترفه، فينشأ في الأمة فئام من الشباب والفتيات على حياة الترف التي لا تعرف الجدّ، وحياةِ اللذات التي لم تذق طعم العناء، فإذا ما أرادت أن تبني عجزت، أو بَنَتْ أبنية هشّة القواعد، ضعيفة الأسس!

---

(١) البخاري ح(٦٤٤٧).

المجلس العشرون بعد المائة

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية جاءت ضمن سياق الآداب العظيمة التي أدب الله بها عباده في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وفي قراءة سَبعيّة: ﴿فتثبتوا﴾ وهذه القراءة تزيد الأمر وضوحًا؛ فهي تأمر عموم المؤمنين حين يسمعون خبرًا أن يتحققوا بأمرين:

الأول: التثبت من صحة الخبر، **والثاني**: التبيّن من حقيقته.

وفي هذه القاعدة القرآنية دلالات أخرى، منها: أنها تضمنت ذم التسرع في إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها.

إذا تبين هذا المعنى، فإن من المؤسف أن يجد المسلم خرقًا واضحًا من قبل كثير من المسلمين لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وازداد الأمر واتسع مع وسائل التواصل المعاصرة.

وأعظم من يُكذب عليه من الناس في هذه الوسائل هو رسول الله ﷺ، فكم نسبتْ إليه أحاديث وقصص لا تصح عنه! بل بعضها كذب عليه، لا يصح أن ينسب لآحاد

الناس فضلًا عن شخصه الشريف ﷺ!

ومن ذلك: التسرعُ في النقل عن العلماء، خاصةً العلماء الذين ينتظر الناس كلمتهم، ويتتبعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرم لا يجوز، وإذا كنَّا أمرنا أن نتحرى ونتثبت من الأخبار عمومًا؛ فإنها في حق النبي ﷺ وحق ورثته أشد وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النقل عما يصدر عن ولاة أمور المسلمين، وعن خواص المسلمين ممن يكون لنقل الكلام عنهم له أثره، فالواجب التثبت والتبين، قبل أن يندم الإنسان ولات ساعة مندم.

ومن أكثر من يحتاج إلى تطبيق هذه القاعدة في حياته: الزوجان، وكذلك الآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم إلى تطبيق هذه القاعدة القرآنية.

وسبحان الله! كم من بيوت تهدمت أركانها بسبب الإخلال بهذه القاعدة القرآنية!

فهذه رسالة قد تصل إلى جوال أحد الزوجين، فإن كانت من نصيب جوال الزوجة، سارع إلى الطلاق قبل أن يتثبت، وإن كانت وصلت إلى جوال الزوج، سارعت إلى اتهامه بالخيانة ونحو ذلك، فتبادر إلى طلب الطلاق قبل أن تتثبت من حقيقة الحال! ولو أن الزوجين أعملا هذه القاعدة القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ لما حصل هذا كلّه.

وإذا انتقلتَ إلى المنابر الإعلامية؛ وجدت عجبًا من خرق سياج هذا الأدب.. فكم من تحقيقات صحفية بنيت على خبر إما أصله كذب، أو ضُخّم وفُخّم حتى صُور للقراء على أن الأمر بتلك الضخامة والهول، وليس الأمر كما قيل!

والواجب على كل مؤمن معظم لكلام ربه أن يتقي ربه، وأن يتمثل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

المجلس الواحد والعشرون بعد المائة
(من لا يَرْحم لا يُرْحم)[1]

هذه قاعدة جليلة، ترسم للبشرية خطوطَ الحياة السعيدة؛ لينعم كلُّ فردٍ بما وهبه الله في هذه الدنيا من عُمُر، بل ويجد المسلم اللذتين: في الدنيا والآخرة.

«فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تُنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقْدُها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها؛ فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله، والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل اللهُ بعضَ العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفةَ والرحمةَ والحنانَ على الخَلْق.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة تجعل قلبَه على هذا الوصف، فيعلم العبدُ أن هذا الوصف مِن أجلِّ مكارم الأخلاق وأكملها؛ فيجاهد

(١) البخاري ح(٥٦٥١)، مسلم ح(٢٣١٨).

نفسَه على الاتصاف به، ويعلم ما رتَّب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب[(١)].

فإن قلت: كيف أعرف أن الرحمة موجودة في قلبي؟

فالجواب: أن لذلك علامة، وهي أن تكون محباً لوصول الخير لكل الخلق، وللمؤمنين خصوصاً، وفي مقابل ذلك: أن تكره حصول الشر والضرر عليهم.

قال مُطَرِّفٍ بن عبدالله: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْحَمُ بِرَحْمَةِ الْعُصْفُورِ»[(٢)]، هذا في حيوان! فكيف بمن يحنو ويرأف ويرفق بوالديه، وأرحامه، وزوجته...؟!

لقد كانت هذه الرحمة حاضرةً في حياة النبي ﷺ في كل حين من أحيانه، حتى إذا كان في مقام الصلاة الذي يستولي عليه مقام المناجاة لربه تعالى، يقول النبي ﷺ: «إنّي لأقوم في الصّلاة أريد أن أطوّل فيها، فأسمع بكاء الصّبيّ فأتجوّز في صلاتي كراهية أن أشقّ على أمّه»[(٣)].

فعوِّد نفسك الرحمةَ أيها المؤمن؛ فإنك مضطرٌ إلى رحمة الله، ودرّب نفسك وهذّبها على الرحمة وإذهاب القسوة، واحرص على مخالطة الرحماء عسى أن تُرحم، وأن تكون رحيماً، وتسلم من ضدها قال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[(٤)].

اللهم املأ قلوبنا رحمة لأنفسنا ولعبادك، واجعلنا من عبادك الرحماء، واهدنا يا ربنا لأحسن الأخلاق والأعمال، وجنبنا سيئها؛ لا يملك ذلك إلا أنت.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ١٨٨) باختصار.
(٢) الزهد لهناد بن السري: (٢/ ٦١٩).
(٣) البخاري ح(٧٠٧).
(٤) أبو داود ح(٤٩٤٢)، الترمذي ح(١٩٢٣) وقال: هذا حديث حسن.

المجلس الثاني والعشرون بعد المائة
(الساخرون)

يقول ابن مسعود رضي الله عنه[١]: «**لو سَخِرتُ مِن كلبٍ خشيتُ أن أُحَوَّل كَلباً**».

هذا أثرٌ من آثار العلم الذي امتلأ به صدر ابن مسعود رضي الله عنه، ذلك أن السخرية ليست من خصال أهل الإيمان الذين ناداهم الله تعالى بقوله: ﴿أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]، بل يمتد هذا إلى كفّ ألسنتهم عن السخرية بغير المكلَّفين؛ إذْ الخالق للكل هو الله تعالى، ولو شاء اللهُ لكانَ الإنسانُ مثل مَن سخِر به!

وهذا المعنى تواردتْ عليه كلماتُ السلف - رحمهم الله - فهذا إبراهيمُ النخعي يقول: «إني لأرى الشيءَ أكرهه، فما يمنعني أن أتكلَّم فيه إلا مخافةَ أن أُبتلى بمثلِه»[٢].

وقال أبو ميسرة: «لو رأيتُ رجلاً يرضَع عنزاً فسخِرتُ مِنْهُ خشيتُ أن أكون مثله»[٣].

وقال ابن سيرين: «عَيَّرْتُ رجلاً، وقلت: **يا مفلس!** فأفلستُ بعد أربعين سنة»[٤].

---

(١) الزهد لهناد بن السري: (٢/ ٥٧٠).
(٢) البيهقي في الشعب ح(٦٣٥٣).
(٣) التاريخ الكبير = تاريخ ابن أبي خيثمة - السفر الثالث (٣/ ١٧٣).
(٤) صيد الخاطر (ص: ٣٩).

وعن الحسن قال: «كانوا يقولون: مَن رمى أخاه بذنبٍ قد تاب مِنه؛ لم يمت حتى يبتَليه الله به»[1].

فإذا كانتْ هذه حالهم في الحذر من السخرية بالحيوانات؛ أفتراهم يُطلقون ألسنَتَهم بالسخرية ببني آدم؟!

شرُّ الورى مَن بعيبُ الناس مشتغلاً
مثلُ الذباب يُراعي موضعَ العِلَلِ

وإذا كان هذا المعنى محرماً في عموم الناس؛ فهو في حقّ العلماء أشدّ وأقبح، وإذا كان من أجل علمهم ودينهم الذي عرفوا به فالمسألة أخطر، ولله در الإمام مالك الذي قال:

«أدركتُ بهذه البلدة - يعني المدينة - أقواماً لم تكن لهم عيوب، فعابُوا الناسَ فصارت لهم عيوب، وأدركتُ بها أقواماً كانت لهم عيوب، فسكتُوا عن عيوبِ الناسِ فنُسيتْ عيوبُهم»[2].

لا تَهْتِكَنْ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سُتِرَا
فَيَهْتِكُ اللهُ سِتْرًا عَنْ مِسَاوِيكَا
وَاذْكُرْ مَحَاسِنَ مَا فِيهِمْ إِذَا ذُكِرُوا
وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَا

---

(١) الصمت لابن أبي الدنيا (ص: ١٧٠).
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ١٠٦).

المجلس الثالث والعشرون بعد المائة
(طعم الراحة)

الراحة كلمة جميلة، وطلبُها غاية، وفي الدعاء النبوي: «واجعل الموت راحة لي من كل شر»[(١)].

ومن رحمة الله بعباده حين خلقهم في دار العناء؛ أن فتح لهم أبواباً يَلِجُون منها إلى الراحة.. لكن ما الراحةُ الحقّة؟

والتاريخ والواقع يحدثاننا أن طعم الراحة يوجد حيث يفعل الإنسانُ ما تطمئن إليه نفسه من قول أو عملٍ قلبي أو بدني، وأن الراحة لا تُبْلَغ إلا على جسر من التعب، فكيف إذا كان هذا الفعلُ طاعةً وقربةً إلى الله؟

فهذا الفاروق ﷺ يشير إلى صورة من صور الراحة، فيقول: «الزهادة في الدنيا راحة للقلب والجسد»[(٢)].

ووجدها آخرون في تَرْكِ خُلْطَةِ السوء، قال البخاري: «بابٌ العزلةُ راحةٌ من خلاط السوء» ثم ذكر حديث أبي سعيد ﷺ قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أي الناس خير؟ قال: «رجل جاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب: يعبد ربه، ويَدَع الناس من شره»[(٣)].

---

(١) مسلم ح(٢٧٢٠).
(٢) الزهد لابن المبارك (ص: ٢١٠).
(٣) البخاري ح(٦٤٩٤).

ووَجَدَ الراحةَ قومٌ في السخاء والكرم، قال ابن وهب: «البُخْلُ عَاهَةٌ والسَّخَاءُ رَاحَةٌ»[(١)].

ووجدَ الراحةَ آخرون بقوة التعلق بالله، وإخراج الخلق من القلب، فهذا إبراهيم بن أدهم يقول: مَن أراد الراحة فليُخرج الخلق من قلبه حتى يستريح[(٢)].

ووجد الراحةَ قومٌ في القناعة بما رزقهم الله، وعدم تطلع أنظارهم إلى ما بأيدي الناس، فقد رأوا أن التطلع لا يزيدهم إلا حسرةً وكمداً، متذكرين قوله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه»[(٣)]، وأيقنوا تماماً أنه لا راحة لطمّاع أو حسود.

وذاقَ «طعم الراحة» بالسعي والعمل الصالح بمختلف صوره وأنواعه.

ووجدها قومٌ في القيام من لذائذ الفُرُش لمناجاة الله..

ووجدها قومٌ في تلاوة كلام الله تعالى والتدبر لمعانيه، وترقيق القلب، واستنزال الدمع عند قراءته.

ووجدها آخرون في تفريج كربة محتاج، وقضاء دَين معسِر.

ووجدها طائفةٌ من الناس في طلب العلم النافع؛ ليقينهم أنه «لا يستطاع العلم براحة الجسد» كما قال يحيى بن أبي كثير[(٤)].

ووجدها أناس في إتعاب أجسادَهم هنا في هذه الدنيا ليرتاحوا في دار لا نصب فيها ولا وصب، فحينما عوتب الأسود بن يزيد: في إجهاد نفسه بالعبادة، وقيل له: لم

---

(١) معجم ابن المقرئ (ص: ٢٦٣).
(٢) سير السلف الصالحين للأصبهاني (ص: ٩٧٠).
(٣) مسلم ح(١٠٥٤).
(٤) رواه عنه مسلمٌ في الصحيح، رقم (٦١٢).

تعذب هذا الجسد؟ قال: راحة هذا الجسد أريد[1].

وأخيراً.. مهما تنوعت مطالبُ الناس في البحث عن الراحة؛ فلن تخلو هذه الدار من منغصات ومكدّرات، كما قال الإمام أحمد: للرجل الذي رحل من خراسان (أفغانستان) إلى بغداد، من أجل أن يسال الإمام سؤالا واحدًا: متى يجد العبدُ طعم الراحة؟ فقال له الإمام: إذا وضع قدَمه على أول عتبة في الجنة.

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٠٣).

المجلس الرابع والعشرون بعد المائة
﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة القدر؛ لعظيم أثرها في حياة العبد، وقوة صلتها بتلك المضغة التي بيّن النبي ﷺ أن صلاحها صلاح لبقية الجسد، وفسادها فساد له.

والتزكية تطلق ويراد بها معنيان:

المعنى الأول: التطهير بنوعيه: الحسي والمعنوي، فالحسي، مثل: تنقية الثوب من الوسخ، والمعنوي، مثل: تزكية القلوب بالإيمان والأعمال الصالحة.

والمعنى الثاني: هو الزيادة، يقال زَكَى المال يزكوا إذا نمى.

وكلا المعنيين مقصودان في الشرع؛ فالمؤمن **مطالب** بالتنقِّي من العيوب: كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، **ومطالب** بالتحلِّي بالأخلاق الجميلة: من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تزكيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، كما في هذه القاعدة، وكما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

إن من تأمل نصوص القرآن وجد عناية عظيمة بمسألة تزكية النفوس، ومن أعظم الشواهد على ذلك، أن أطول قسم في القرآن - أحد عشر قسماً - هو على تزكية النفوس كما في مطلع سورة الشمس.

إن منطوق هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ يدل بوضوح على أن أعظم أثر لهذه التزكية هو أثرها على نفس المتزكي، ومفهومها يتضمن تهديدًا: أنك إن لم تتزكَ يا عبد الله، فإن أعظم متضرر بإهمال التزكية هو أنت.

ولعظيم منزلة تزكية النفس في الدين، كان الأئمة والعلماء المصنفون في العقائد يؤكدون على هذا الأمر بعبارات مختلفة، وإنما نص أئمة الدين على ذلك؛ لأن هناك تلازمًا وثيقًا بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهرُ مرتبطٌ بالاعتقادِ الباطن، فأيُّ انحرافٍ في الأخلاقِ إنما هو من نقص الإيمان الباطن، فالسلوكُ والاعتقادُ متلازمان، كذلك فإن من الأخلاقِ والسلوك ما هو من شُعَبِ الإيمان.

والسؤال الأهم: كيف نزكي نفوسنا؟ والجواب عن هذا يطول جدًا، لكن من أهم وسائل تزكية النفس:

توحيدُ الله تعالى، وقوة التعلق به، **وملازمة** قراءة القرآن، وتدبره، **وكثرة** ذكر الله على مختلف الأحوال، **والمحافظة** على الصلاة المفروضة، وقيام الليل ولو قليلًا، **ومحاسبة** النفس بين الفينة والأخرى، **وكثرة** حضور الآخرة في قلب العبد، **وتذكر** الموت، وزيارة القبور، **وقراءة** سير الصالحين.

وحتى تؤتي هذه الوسائل أكلها، فيجب إغلاق المنافذ التي قد تُفسد عليه أثر تلك الوسائل، كالنظر إلى المحرمات، أو سماعها، أو إطلاق اللسان فيما لا يعني، فضلًا عما حرم الله تعالى.

المجلس الخامس والعشرون بعد المائة
(ليس الشديد بالصُّرَعة)(١)

هذه قاعدة من قواعد العلاج النفسي في السنة النبوية، وهي من قواعد الحياة التي تضبط تصرفات المرء مع غيره، وتعينه ليهنأ بحياته، ويطيب بعيشه، ويرتقي بنفسه في درج الكمال.

و«الصُّرَعة: هو الذي يصرع الناسَ ويَكثُر منه ذلك، كما يقال للكثير النوم: نُوَمة، وللكثير الحفظ: حُفَظة، فأراد عليه الصلاة والسلام أن الذي يقوى على مِلك نفسه عند الغضب، ويردها عنه هو القوي الشديد والنهاية في الشدة؛ لغلبته هواه المُرْدي، الذي زيَّنه له الشيطانُ المُغوي، فدل هذا على أن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل للذي يملك نفسه عند الغضب من القوة والشدة ما ليس للذي يغلب الناس ويصرعهم(٢)، ومن هذا الحديث قال الحسن البصري حين سئل: أي الجهاد أفضل؟ فقال: جهادك نفسك وهواك»(٣).

ولعظيم أمر الغضب عطف اللهُ بذكره بعد ذكر كبائر الذنوب والفواحش فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

---

(١) البخاري ح(٦١١٤)، مسلم ح(٢٦٠٩). تنوير الحوالك (٢/ ٢١٣): قَالَ الْبَاجِيّ: وَلم يُرد نفيَ الشدَّة عَنهُ؛ فَإِنَّهُ يعلم بِالضَّرُورَةِ شدته! وَإِنَّمَا أَرَادَ أنه لَيْسَ بالنهاية فِي الشدَّة وَأَشد مِنْهُ الَّذِي يملك نَفسه عِنْد الْغَضَب.

(٢) قال ابن عبدالبر: على أن مجاهدة النفس أصعب مراماً، وأفضل من مجاهدة العدو، والله أعلم. التمهيد(٦/ ٣٢٣).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٩/ ٢٩٦) بتصرف يسير.

[الشورى: ٣٧][1].

فالغضب مجمع شرور عظيمة، «وينشأ عنه من الأفعال المحرمة: كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة: كالقذف، والسب، والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر! كما جرى لجبلة بن الأيهم، وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعاً، وكطلاق الزوجة الذي يعقب الندم»[2].

ومما ينصح به الغاضب أمور:

الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠].

١ - السكوت.

٢ - أن يجلس إن كان قائماً.

٣ - أن يتوضأ.

كظم الغضب: فلما بين الله من صفات المتقين ذكر منها: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

وههنا تنبيه ينبغي التفطن له: وهو أن النبي ﷺ إنما أراد أن لا يغضب المسلمُ لأمور دنياه ومعاملته التي يمكن استدراكها، وأما فيما يعود إلى القيام بالحق؛ فالغضب فيه قد يكون واجباً، كالغضب على الكفار، أو مندوباً إليه: كالغضب على المخطئ إذا علمت أن في إبداء غضبك عليه ردعاً له وباعثاً على الحق.

اللهم أعنا على أنفسنا وأهوائنا والشيطان، وقنا شر الغضب، واجعل أهواءنا تبعاً لما جئتَ به، لا حول ولا قوة إلا بك.

---

(١) ينظر: فتح الباري: (١٠/ ٥١٩).
(٢) جامع العلوم والحكم: (١/ ٣٦٩).

المجلس السادس والعشرون بعد المائة
(منزلة الذنْبِ في قلب المؤمن)

يقول ابن مسعود ﷺ: «**إن المؤمنَ يَرى ذُنوبَه كأنَّه قاعدٌ تحتَ جبلٍ يَخافُ أن يَقع عليه، وإن الفاجِر يَرى ذنوبَه كذُبابٍ مرَّ على أنفِه فقال به هكذا!**»[١] فقال الراوي بيده فوق أنفه.

ما أروعَ هذا التشبيه الذي يحكي حالَ المؤمن مع الذنب، وخوفَه وشفقتَه مِن أثره! ويحكي حال الفاجر والمنافق، الذي لا يبالي في أي أوديةِ المعاصي نزل، ولا أيَّ ذنبٍ اقترف! والعياذ بالله.

وهذا الشعور إذا ساور الإنسانَ فهي - بلا ريب - علامةُ إيمانٍ وخوف، فليس من شرط الإيمان العصمةُ مِن الذنب صغيراً أم كبيراً، بل الشرطُ عدمُ الإصرارِ على الذنب، قال تعالى في صفة المتقين الذين يرثون جنةً عرضها السماوات والأرض: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

فتأمل كيف لم يَنفِ عنهم الوقوعَ في الفواحش فضلاً عن غيرها من الذنوب، وإنما نفى عنهم الإصرار، لأن لسعَ الذنبِ مستمرٌ على القلب، فلا يرتاح إلا إذا أقلَعَ وأناب.

---

(١) البخاري ح(٥٩٤٩).

وإن مِن الأمثلة المدهشة في هذا المعنى: قصة المرأة الغامدية التي زنت، وأصرّت على إقامة الحدّ، مع أن لها ولداً مِن الزنا، إلا أن حرارة الذنب استمرت معها قرابة ثلاث سنوات، وهي تتردد على النبي ﷺ من أجل الرغبة في التطهير، مع أنها لو استترتْ بسِتر الله، وتابت فيما بينها وبين الله لم يطالبها أحد.. لكنه القلب الحي، الذي استعظم ذنبَه وخطيئتَه، فلم يَرضَ إلا بتطهيرٍ يُريحُ ضميرَه الذي ما زال يؤنِّبه، فأقيم عليها الحدُّ، فشهد لها النبي ﷺ أنها «تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»، بل قال - كما في الرواية الأخرى لما استغرب الفاروق رضي الله عنه صلاة النبي ﷺ عليها -: «لقد تابتْ توبةً لو قُسِمَت بين سبعين من أهل المدينة لوسِعتْهم، وهل وجَدتَ توبةً أفضل مِن أن جادتْ بنفسها لله تعالى؟»[1].

لقد كان السلفُ كثيري التذكير بهذا المعنى؛ لعلمهم بأن الإنسان إذا تساهل بالصغيرة فلا يبعد أن يتساهل بما هو أعظم، استناداً إلى جملة من الأحاديث الواردة في هذا الباب.

ويشبِه قولَ ابنِ مسعود هذا قولُ أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أَدَق في أعينكم مِن الشَّعر، إن كنا لنعُدُّها على عهد النبي ﷺ مِن الموبقات» قال البخاري: «يعني بذلك المهلكات»[2].

وقد بوّب البخاري على هذا الأثر بقوله: «بَابُ مَا يُتَّقَى مِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ»، يشير إلى حديث سهل بن سعد رضي الله عنه - وحسنه ابن حجر[3] -: أن النبي ﷺ: «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بِعُودٍ، وجاء ذا بِعُودٍ حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يُؤخَذ بها

(١) مسلم ح(١٦٩٥، ١٦٩٦).
(٢) البخاري ح(٦٤٩٢).
(٣) فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

صاحبُها تهلِكه»[1].

والمقصود من هذا أن يحرص كلُّ واحدٍ مِنا أن لا تخبو في قلبِه جذوةُ المرارة مِن الذنب عند الوقوع فيه، فإن شعر أنه يُذنب ولا يَتألم، ولا يضيق صدرُه؛ فليتفقد قلبَه قبل أن يموت موتاً لا يَحيَى بعده.

---

(١) المسند ح(٢٢٨٠٨).

المجلس السابع والعشرون بعد المائة
(قطرةُ عَرَقٍ)

رائحةُ العرق من الروائح المكروهة للنفس، ويتنوع سببُه بتنوع الجهود المبذولة..

هذا يخرج من بيته باكراً باحثاً عن لقمة عيشٍ له ولأولاده، فيرجع في المساء وقد أضناه التعب، وبلغ منه الجهدُ مبلَغه.

وتلك تبقى في مملكتها لتأخذ دورها الطبيعي في رعاية بيت الزوجية، فتجهد نفسَها في ترتيب البيت وتنظيفه، وإعداد الطعام، فيؤذيها العرق.

وأخرى تخرج غُدْوةً لتحث الخطى إلى دار قرآن، أو مدرسة تحفيظ، أو معقلٍ من معاقل العلم النافع.

وذاك يتغرّب عن بلاده؛ باحثاً عن مصدر رزقٍ له ولأولاه وزوجته، وربما والديه، فتراه يَنصَب في حقلٍ زراعي، أو مصنع، أو ميدانٍ آخر.

ويَمضي أحدُهم لحلقة الدرس أو لمدرسته وجامعته معلماً أو متعلماً، مع بواكير الصباح؛ يبتغي بذلك وجه الله، فلا يَنفضّ الدرسُ إلا وقد بلغ الجهدُ منه مبلغه، وأثَرُ العرقِ والتعبِ بادٍ على محيَّاه.

وآخرُ يثني ركبتيه في مجالس العلم والعلماء، ويصبر ويصابر؛ حفظاً لآية، أو مذاكرة لحديث، أو مراجعة لمسألة.

ومِن أشرف مقامات تصبُّب العرق: لحظة تنزّل الوحي على قلب النبي ﷺ، وإن كان الوقت شتاء! من شدة وطأته عليه.

ومن تلك المقامات العالية: حين يعلو العرَقُ جبينَ العالِم إذا وردته مسألةٌ عظيمةٌ، كما وقع للإمام مالكٍ رحمه الله حين سأله السائل عن مسألةٍ منكرة تتعلق بصفةٍ من صفات الله تعالى!

وثمة آخرون يصيبهم العَرَق أيضاً، لكن في ميادين أخرى؛ يسافر أحدُهم آلاف الكيلو مترات ليقيم حفلاً غنائياً في بلدٍ ما، يسبق ذلك أيامٌ وشهورٌ من التعب والسهر، والتمرين على تلك الحفلات!

وآخر يمضي الساعات والأيام الطويلة، في سهر متتابع، ومالٍ كثير يُصْرَف في عملٍ إعلامي يَضِلُّ بسببه خلقٌ كثير..!

السعداء والأشقياء، والأغنياء والفقراء، كلهم يَتعَبون ويَلغَبون، لكن الأهم أين تتجه بوصلةُ هذا التعب؟

الذي يسهر الليل في مناجاة ربه تعالى، والذي يسهر الليل في تنفيذ مشروعه الغنائي، كلاهما يتعب ويجهد.

مَنْ يعكف على تأليف كتابٍ ينفعه بعد موته، ومَنْ يعكف على تأليف رواية ماجنة، تثير الغرائز، وتحرك مكامن الشهوات، أو يسطر مقالات يشغّب بها على أصول الشريعة؛ كلاهما يتعب ويبذل قدراً مشتركاً من الجهد والتعب.

والمؤكَّد أن العرَقَ الذي يَعقُب الطاعات لذّته باقية، وثوابه مدّخر، وأما العرَقُ الذي يَعقُب الذنوبَ والمعاصي تبقى حسرتُه، ويُسطّر في كتابٍ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها!

فانظر في عَرَق جبينك، فيم يَرْفَضّ، وعلى أي شيء يسيل؟ أهو عرقُ تَحدَّر عن عملٍ يحبه الله أم لا؟ أفي شيءٍ يُسْطَّرُ لك أم عليك؟

المجلس
١٢٨

المجلس الثامن والعشرون بعد المائة
﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية تكررت ثلاث مرات في كتاب الله - في قصة شعيب عليه السلام -، وهي تتصل بواقع الناس، سواءٌ في أبواب المعاملات - وهذا الأصل في سياقها الذي وردت فيه - أم في أبواب تقييم الناس أو الأعمال، كما سيأتي بيانه قريبًا.

وهي قاعدة جاءت بعد عموم النهي عن نقص المكيال والميزان، فهو عموم بعد خصوص؛ ليشمل جميع ما يمكن بخسه من القليل والكثير، والجليل والحقير.

ودلالة هذه القاعدة تتسع لتشمل كلّ حق حسي أو معنوي ثبت لأحدٍ من الناس.

أما الحقوق الحسية فكثيرة، منها: ما سبقت الإشارة إليه - كالحق الثابت للإنسان كالبيت والأرض والكتاب والشهادة الدراسية - ونحو ذلك.

وأما الحقوق المعنوية، فأكثر من أن تحصر، ولكن يمكن القول: إن هذه القاعدة القرآنية كما هي قاعدة في أبواب المعاملات، فهي بعمومها قاعدة من قواعد الإنصاف مع الغير.

والقرآن مليء بتقرير قاعدة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم، تأمل - مثلًا - قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فربك يأمرك أن تنصف عدوك، وأن لا يحملك بغضه على غمط حقه، أفتظن أن دينًا يأمرك بالإنصاف مع عدوك، لا يأمرك بالإنصاف مع أخيك المسلم؟!

وفي واقع المسلمين ما يندى له الجبين من بخس للحقوق، وإجحاف وقلة الإنصاف، حتى أدى ذلك إلى قطيعة وتدابر، وقلّب صفحات التعامل في واقعنا، فستجد صوراً مؤلمة:

- يختلف أحدنا مع شخص آخر من أصدقائه، أو مع أحد من هل الفضل والخير، فإذا غضب عليه أطاح به، ونسي جميع حسناته، وجميع فضائله، وإذا تكلم عنه تكلم عليه بما لا يتكلم به أشد الناس عداوة، والعياذ بالله!
- يخطئ عالم، أو داعية، ممن عُرف عنهم الخير، والرغبة في الوصول إلى الحق، ولكن حصلت منه زلّة، فتجد بعض الناس ينسف تاريخه ونفعه للإسلام وأهله، بخطأ واحد لم يحتمله ذلك المتكلم أو الناقد، مع أنه قد يكون معذورًا فيه!

ولنفترض أنه غير معذور، فما هكذا يربينا القرآن! بل إن هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدد الحديث عنها تؤكد ضرورة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم.

صورةٌ ثالثة - تتكرر كثيرا - في تقييم الكتب أو المقالات على النحو الذي أشرنا إليه آنفًا، ولعل من أسباب غلبة البخس على بعض النقاد في هذه المقامات، أن الناقد يقرأ بنية تصيُّد الأخطاء والعيوب، لا بقصد التقييم المنصف، وإبراز الصواب من الخطأ، عندها يتضخم الخطأ، ويغيب الصواب، والله المستعان.

المجلس التاسع والعشرون بعد المائة
(وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)[١]

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب المعاملة بين الخلق، هكذا يختصر النبي ﷺ آلافاً من الكلمات والعبارات، والخطب والمقالات - في باب التعامل مع الخلق - في هذه القاعدة الجامعة، بل هي قاعدة من قواعد السعادة، إنه ميزان عادل منصف ينصبه النبي ﷺ لكل من يتعامل مع الناس، الذين في تنوع أخلاقهم، وتفاوت معاملاتهم كما بين السماء والأرض.

يقول النووي رحمه الله: «هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حِكَمه، وهذه قاعدة مهمة[٢]؛ فينبغي الاعتناء بها، وإن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه»[٣].

ولعمر الله إن هذا لهو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح لعباد الله، فكلما أشكل عليك شيء مما تعامل به الناس؛ فانظر هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا؟ فإن كنت تحب ذلك؛ كنت محباً لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة؛ فقد ضيعت هذا الواجب العظيم.[٤]

---

(١) مسلم ح(١٨٤٤).
(٢) الفتاوى الكبرى: (٦/ ١٥٦) عند كلامه على الحديث التي وردت فيه هذه القاعدة: «فهذه الوظائف الثلاث التي جمعها في هذا الحديث من قواعد الإسلام».
(٣) شرح مسلم: (١٢/ ٢٣٣).
(٤) انظر: بهجة قلوب الأبرار: (ص٢٠٦).

إن من يهتدي بهذه القاعدة في معاملاته الاجتماعية تستقيم حالُه، وتجمُل خصالُه، وترقى مع الناس أفعالُه «فلا يؤذيهم؛ لأنه لا يحب أن يؤذوه، ولا يعتدي عليهم؛ لأنه لا يحب أن يعتدوا عليه، ولا يشتمهم؛ لأنه لا يحب أن يشتموه، وهلم جراً: لا يغشهم في البيع والشراء وغير ذلك، ولا يكذب عليهم؛ لأنه لا يحب أن يفعل به ذلك، وهذه قاعدة لو أن الناس مشوا عليها في التعامل فيما بينهم لنالوا خيراً كثيراً، ويشبه هذا قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»»(١).

وعندما نتأمل في القرآن الكريم نجده قد رسخ هذه القاعدة بأساليب متنوعة:

وأقرب مثال على ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

ليكن كل واحد منا حكماً على نفسه أمام هذه الجملة: «وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» وليضع نفسه دوماً في مكان الطرف الآخر ولينظر! هل يحب أن تقدره زوجته؟ وهل يحب أن يقدره الناس؟ وهل يحب أن يحترم الناس مواعيده؟ أسئلة كثيرة إجابتها معلومة عند كل عاقل، فإذا كان كذلك، فليعلم أن الناس أيضاً كذلك.

قيل للأحنف: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسي! كنتُ إذا كرهتُ شيئاً من غيري لا أفعل مثلَه بأحد(٢).

وأيضاً.. إذا كان هذا الأدب مطلوباً في حق الخلق؛ فهو في حق الخالق سبحانه وتعالى من باب أولى! كيف تطلب من ربك أن يعطيك ما تحب، وينجيك مما تكره، وأنت مقيم على ما يكره، تارك لما يحب؟!

(١) انظر: شرح رياض الصالحين للعثيمين: (٦/ ٢٣٥).
(٢) فيض القدير: (١/ ٦٥).

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأقوال والأعمال؛ لا يهدينا لأحسنها إلا أنت، وجنبنا عن أسوأ الأخلاق والأقوال والأعمال؛ لا يجنبنا عن أسوأها إلا أنت، إياك نعبد وإياك نستعين.

المجلس الثلاثون بعد المائة
(الموبّخ نفْسَه)

يقول ابن مسعود ﷺ: «**إن الناسَ قد أحسَنوا القولَ، فمَن وافقَ قولَه فعلُه فذاك الذي أصاب حظَّه، ومن لا يوافق قولَه فعلُه فذاك الذي يوبِّخ نفسَه**»(١).

يقول بعضُ السلف: أسكتَتْني كلمةُ عبدالله بن مَسْعُود عشْرين سنة حَيْثُ يَقُول: من كَانَ كَلَامه لَا يُوَافق فعله فَإِنَّمَا يوبخ نَفسه.(٢)

ما أبلغ هذه الموعظة! وما أشد حاجتنا لتأمُّلها، فإن النفس قد تَتُوقُ كثيراً للمعرفة والتعلم، ولكنها قد تُفرّط أو تقصّر في ترجمة هذا العلم، وهذا في حقيقته توبيخٌ للنفس كما قال ابن مسعود.

وكلام السلف في هذا المعنى كثير وطويل، ولأجله صَنّف بعضُ العلماء كتباً مستقلة، كما صنع الخطيب البغدادي: في كتابه: (اقتضاء العلم العمل).

قال الإمام مالك رحمه الله: بلغني عن القاسم بن محمد قال: «أدركتُ الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل»(٣).

ومِن أخْوَف الأحاديثِ على المؤمن الذي لا يعمَل بعلمِه، وإنما حظُّه من ذلك العلمُ فحسب، والرياءُ والتَّكثرُ به؛ حديث الثلاثة الذين هم أول من تُسعَّر بهم النار،

(١) الزهد لأبي داود (ص: ١٧٥).
(٢) عيون الأخبار (٢/ ١٩٥).
(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٧).

وفي رواية الترمذي وغيره لهذا الحديث قصة مؤثرة؛ وهي أن شُفَيّاً الأصبحي قال لأبي هريرة ﷺ: أسألك بحقٍ وبحقٍ[1] لما حدثتني حديثاً سمعتَه من رسول الله ﷺ عقَلتَه وعلِمتَه، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسولُ الله ﷺ عقلْتُه وعلِمتُه، ثم نشغ أبو هريرة نشغة - أي شهق شهقةً - فمكثنا قليلاً ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه فأسنَدتُه عَليَّ طويلاً، ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكلُّ أمةٍ جاثية، فأول مَن يدعو بِه رجلٌ جمع القرآن، ورجل قُتِل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ...» فذكر الحديث.[2]

فنسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يعيذنا من فتنة القول والعمل.

---

(١) التكرار للتأكيد والباء زائدة، والمعنى أسألك حقاً غير باطل. تحفة الأحوذي (٧/ ٤٦).
(٢) الترمذي ح(٢٣٨٢) وصححه ابن خزيمة ح(٢٤٨٢) وابن حبان ح(٤٠٨).

المجلس الواحد والثلاثون بعد المائة
(أنتم عرب..فلماذا لا تبكون؟!)

قال لي صديقي: ألقيتُ كلمةً في رمضان في أحد المساجد، فلما فرغتُ قال لي إمام المسجد: ألا أريك عجباً؟ فانطلق بي لرجلٍ تركيّ الجنسية، لا يُحسن العربية، لكنه كان رجلاً بكّاءً حين يَقرأ القرآن، فقلتُ له - عن طريق المترجم -: هل تفهم ما تقرأ يا عمّ؟ قال: لا، ويكفيني أنه كلام الله، ولكن أنتم عرب فلماذا لا تبكون؟ يقول صديقي: لقد قفّ شعري من كلمته هذه، وبقيتْ تتردّد في ذهني أياماً طويلة.

إن المتأمل في آيات القرآن ليجد حفاوةً ظاهرةً بأولئك الأقوام الذين تتحدّر على وجناتهم الدموعُ إثْر سماعهم لكلام الله تعالى، مترجمين بذلك شيئاً مِن وقْعِ هذا الكلام الذي لو نزل على الصخور الصمّ لتصدعت من خشية الله.

لما تلا الفاروق هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] قال ﷺ هذا السجود، فأين البكاء؟!

لقد كان من جملة ما امتدح اللهُ به قساوسةَ النصارى قُرْبُ دموعهم عند تلاوة القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

وإن مما يعظّم هذا المعنى في نفوس أهل القرآن: أن يتذكروا أن البكاء في هذه المواطن عبادةٌ يحبها اللهُ، ويؤجَر عليها العبدُ متى ما قارنها الإخلاص.

إن هذا الثناء العاطر لهو رسالةٌ تستحثنا لِلَّحاقِ بركْب أولئك الكرام، وأن نفتِّش عن سبب قحط العين، وقد قال بعضُ السلف ملخصا الداءَ والدواءَ: «القلبُ إذا قلّت خطاياه أسرعتْ دمعتُه»(١).

نعم، ليست قلةُ الدمعِ دليلاً على قسوة القلب، لكن من المؤكد أن قحط العين مطلقاً ليس علامةَ خير؛ بل هو مؤشر على قسوةٍ قلبية، تستوجب الاستعتاب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، ولئن انقطع نزولُ الوحي؛ فلم تنقطع بركتُه لمن أراد استلانَة قلبِه به.

والعاقلُ لن يعدمَ معرفةَ أصول أسباب قسوة هذا القلب، فهي تَعود في مجملها إلى ذنوب القلب وذنوب الجوارح، ودواؤها: توبةٌ صادقة، ومجاهدة دائمة، وبُعدٌ عن أسباب العطب، وعفةٌ عن المحارم، وغض للبصر، وحفظٌ للسمع، وصِدقٌ في اللجأ إلى الله تعالى.

كل هذا كفيل - بعون الله - بحصول تلك الغاية التي لطالما انتصبت لها الأقدام، وتقرّحت لأجلها الأجفان: الأنسُ بالله والتلذذ بمناجاته بتلاوة كتابه والوقوف بين يديه.

---

(١) الرقة والبكاء. لابن أبي الدنيا (ص: ٧٦).

المجلس الثاني والثلاثون بعد المائة
﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية وردت في سياق الحديث عن أهل الكتاب - اليهود بشكل أخص - الذين ذمهم الله، وحذر عباده من اتباع سبيلهم.

وهي قاعدة عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار، وكثر فيها تكالب الأعداء بصنفيهم: المعلن والخفي.

وإذا كان الله يخبرنا هذا الخبر الصادق في هذه القاعدة القرآنية، فحري بنا أن نتأمل جيدًا فيمن وصفهم ربنا بأنهم أعداء لنا، فلا أصدق من الله قيلًا، ولا أصدق من الله حديثًا.

وعلى رأس أولئك الأعداء:

١ - إبليس: الذي لم يأت تحذير من عدو كما جاء في التحذير منه، فكم في القرآن من وصفه بأنه عدو مبين؟.

٢ - الكفار المحاربون لنا، ومن كان في حكمهم ممن يريد تبديل ديننا، أو طمس معالم شريعتنا، قال تعالى - في سياق آيات صلاة الخوف من سورة النساء -: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١].

ومن كمال الشريعة أنها فرقت بين أنواع الكفار، فالذي لا يحاربنا لم ينهنا الله عن البر به والإحسان إليه، بخلاف الكافر الحربي المعادي، فهذا لا تجوز موالاته مطلقا.

٣ - والصنف الثالث الذين نص القرآن على عداوتهم، بل وشدتهم: هم المنافقون، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وتتجلى شدة عداوة هذا الصنف في أمور:

أولًا: أنه لم يوصف في القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته شخص أو فئة بأنه «العدو» معرفًا بـ (أل) إلا المنافقون، قال تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ثانيًا: لم يأت تفصيل في القرآن والسنة لصفات طائفةٍ أو مذهب كما جاء في حق المنافقين وذلك لكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله.

إذا تبين هذا، اتضح لنا أهمية هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾، وأن لا تخدعنا عن معرفة حقائق أعدائنا ظروف استثنائية، أو أحوال خاصة، فإن الذي أخبرنا بهؤلاء الأعداء هو الله الذي خلقهم وخلقنا، ويعلم ما تكنه صدور العالمين أجمعين: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

المجلسُ الثالث والثلاثون بعد المائة
(كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)[١]

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب الزهد، ومعرفة حقيقة هذه الحياة الدنيا، وهي نص وصيةٍ جامعة مختصرة أوصى بها النبيُّ ﷺ أحدَ صحابته النجباء، وهو عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

ولقد فقه ابن عمر رضي الله عنهما هذا المعنى عملياً - كما تقدم - وفقهه علميا؛ ولذا كان يقول بعد أن روى لتلاميذه هذه الوصية: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك**»، وممن خصهم بذلك تلميذه النجيب مجاهد رحمه الله، حيث قال له: «يا مجاهد! إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري ما اسمك غدا؟»[٢].

لقد كانت وصيةُ ابن عمر لمجاهد تفسيراً لهذه القاعدة التي رواها عن النبي ﷺ، وهو تفسير في غاية النفاسة والأهمية؛ حتى لا يتوهم متوهمٌ أن معنى قوله: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» أن يتخلى عن كل أسباب الحياة الكريمة، وأن لا يبني له داراً تؤويه وأهلَه؛ لأن عابر السبيل كذلك! ولا يتخذ له إخوة يجالسهم ويأنس بهم؛ لأن الغريب كذلك! فبيّن راوي الحديث ابنُ عمر رضي الله عنه أن هذا ليس

---

(١) البخاري ح(٦٤١٦).
(٢) الزهد لوكيع (ص: ٢٣٣).

مراداً من قول المعصوم عليه الصلاة والسلام: «**كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل**»، وإنما مراده: أن يبقى دائم التيقظ والترقب ليوم الدين والحساب، فمن كان كذلك: أكثر ذكرَ الموت؛ فأحسن السير إليه، واستعان بما وهبه الله من النِّعَم على تحسين وقوفه هناك بين يديه.

إن هذه القاعدة النبوية تُرشِّد مسير المرء في الحياة، وتحد من شراهة نفسه، وتخلصه من مرض الانبهار الزائف للذات هذه الحياة الدنيا ومُتَعها؛ ليعرف قدرها، ويستعد للتي هي خير وأبقى.

قال بعض أهل العلم - مبيناً معنى هذه القاعدة ـ: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها؛ فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله، وبالله فاستعن.[١]

ويقول ابن الجوزي رحمه الله: «من الناس من يثبت الدليل، ولا يفهم المقصود الذي دل عليه الدليل! ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذم الدنيا فتزهدوا، وما فهموا المقصود، فظنوا أن الدنيا تذم لذاتها، وأن النفس تجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوق ما يطاق، وعذبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها، جاهلين بقوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًّا»، وفيهم من أدته الحال إلى ترك الفرائض، ونحول الجسم، وضعف القوى! وكل ذلك لضعف الفهم المقصود، والتلمح للمراد»[٢] اهـ.

اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا غاية رغبتنا، واجعل الحياة زيادة في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر، ونجنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) تسلية أهل المصائب. للمنبجي (ص٢٤٠).
(٢) صيد الخاطر (ص/ ٢٢٥).

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائة
(الخيل في آخر المضمار)

روى البيهقي في «الشعب» من طريق موسى بن إسحاق الطلْحي، قال: أنا أبا موسى الأشعري اجتهد قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسك بعض الرفق! قال: «**إن الخيلَ إذا أُرسلتْ فقاربتْ رأسَ مجراها أَخرجتْ جميعَ ما عندها، والذي بَقي مِن أجلي أقل من ذلك**»، قال: فلم يزل على ذلك حتى مات[1].

يا لها من موعظة عملية من أبي موسى رضي الله عنه! قرنها بموعظة قولية؛ فاجتمع فيها القول والعمل، وهذا غاية ما يكون من التأثير في المواعظ التي تُنقل عن العلماء.

لقد كان أبو موسى من علماء الصحابة، وكان على قدرٍ كبيرٍ من العمل، لكنه لما تقدَّمتْ به السن، وأحسّ بدنو الأجل؛ رأى أن خير عُدَّة للقاء الله هي الاجتهاد في العمل، فلما عوتب في هذا، وطلبوا منه أن يَرفِق بنفسه، أجابهم بهذه الكلمة الحكيمة: «**إن الخيلَ إذا أُرسلتْ فقاربتْ رأسَ مجراها أَخرجتْ جميعَ ما عندها، والذي بَقي مِن أجلي أقل من ذلك**».

وإذا كان المطلوب من المؤمنين عموماً الاجتهاد في العمل - لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الأجل - فإنه متعين ومتأكِّد في حق مَن تقدمتْ بهم السنّ، واقتربوا من الآخرة، فماذا ينتظر من جاوز الستين؟ فضلاً عمن جاز السبعين والثمانين! بل قال

(١) شعب الإيمان (١٣/ ٢٠٢).

بعض السلف - وهو عبدالله بن داود الخريب - يحكي حال مَن قبْله: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، وكان بعضُهم يُحيي الليل، فإذا نظر إلى الفجر قال: «عند الصباح يَحمد القومُ السُّرى»(١).

يقول أنس بن مالك ﷺ: كنا مع أبي موسى في مسير له، فسمع الناسَ يتحدثون، فسمع فصاحة فقال: «ما لي يا أنس؟ هلم فلنذكر ربَّنا، فإن هؤلاء يكاد أحدُهم أن يَفري الأديم(٢) بلسانه»! ثم قال لي: «يا أنس! ما أبطأ بالناس عن الآخرة، وما ثبَّرهم(٣) عنها؟» قال: قلت: الشهوات والشيطان، قال: «**لا والله، ولكن عُجِّلت لهم الدنيا، وأُخِّرت الآخرة، ولو عاينوا ما عدلوا وما ميلوا**»(٤).

وهذه المعاني التي أشار لها أبو موسى وعبدالله بن داود الخريبي، منتزعة من جملة من النصوص، لعل من أشهرها قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] فالموفَّق من التَفتَ إلى آخرتِه ما دام في نفَسه بقية، خاصة إذا كان ممن جاز الأربعين، فليس بعد بلوغ الأشد إلا بداية الضعف، وما أقرب الوداع!

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (١/ ٤٤٤).
السُّرى: السير في الليل. وهذا مثل أول من قاله خالد بن الوليد، في صبح ليلة قطع فيها مفازة كانت في طريقه من العراق إلى الشام. ويضرب هذا المثل للرجل يحتمل المشقةَ رَجاءَ الراحة. انظر: الفاخر (ص: ١٩٣)، مجمع الأمثال (٢/ ٣)، صبح الأعشى (١/ ٣٤٨).
(٢) الفري: القطع. الأديم: الجلد.
(٣) ومَا ثَبَّرهم: مَا بَطَّأَ بِهِمْ. غريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٦٥).
(٤) حلية الأولياء (١/ ٢٥٩).

المجلس الخامس والثلاثون بعد المائة
(إني لم أُخلَق لهذا!)

حدّث النبي ﷺ يوماً أصحابه فقال: «بينما رجل يسوق بقرةً له، قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة فقالت: إني لم أُخلق لهذا، ولكني إنما خُلقت للحرث»، قال الناس: سبحان الله! - تعجبا وفزعا - أبقرة تكلَّم؟ فقال رسول الله ﷺ: «فإني أومن به، وأبو بكر وعمر»(١).

هذه القصة المختصرة تنطوي على دروس إيمانية وتربوية، منها:

أن البقرة التي خُلقت للحرث والدرّ والنسل، لما عوملت بخلاف ما خُلقت له أنطقها الله، وأوحى إلى رسوله أن يبلّغ هذه الرسالة؛ ليستفيد منها المكلَّفون العقلاء، بل ليكونوا أوعى لها من البهيمة؛ ليقول كلٌّ منهم بلسان حاله ومقاله، حين تدعوه نفسُه أو الشيطان إلى خلاف الغاية التي خُلق لأجلها: إني لم أُخلَق لهذا!

ومما يدخل تحت هذا المعنى: أهمية معرفة الإنسان للمواهب والقدرات التي منّ الله عليه بها؛ ليفعّلها في المجال الذي يناسبه؛ فالناس ليسوا على درجة واحدة في المواهب والقدرات والطاقات، والكمال البشري لم يجتمع - في غير الأنبياء - إلا لقلة من الناس، فمعرفة الإنسان لما يتقنه ويحسنه مهم جداً في تحديد المجال الذي ينطلق فيه فيبدع وينفع أمّته؛ إذْ ليس القصد هو العمل فحسب، بل الإبداع والإتقان،

---

(١) البخاري ح(٢٣٢٤)، مسلم ح(٢٣٨٨).

حتى إذا ما عُرض على الإنسان عملٌ لا يحسنه - وإن كان العملُ في نفسه فاضلاً - اعتذر، ولسانه حاله يقول: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ويتذكر القاعدة النبوية المحكمة: «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»(١).

إن في الساحة طاقاتٍ كثيرةً خسرتها الأمة؛ بسبب تقحّمها لما لا تحسنه، وتركها ما تتقنه، وفيها أيضاً طاقاتٍ يراد جذبها من المجال الذي أبدعت فيه - وإن كان مفضولاً - إلى مجال لا تُحسنه كثيراً! هذا شاب مبدعٌ في العلم، وآتاه الله فهماً، وقدرةً على الحفظ، وسلك طريقَه في العلم، فيأتيه من يأتيه ليقنعه بالانخراط في العمل الخيري، وكأنه - وهو في طريق الطلب - في طريق مفضول، أو عمل مرجوح!

ومن الشباب من يجتهد في طلب العلم، لكنه لا ينجح ولا يتقدم، ويعلمُ مَنْ حوله أنه لم يُخلق لهذا، فليس من الحكمة في شيء أن يُطالَب هذا الرجل وأمثالُه بأكثر مما بذل، فينبغي توجيهه إلى ما يحسنه من الأعمال؛ فالأمة بحاجة إلى طاقات في العمل الخيري، والإغاثي، والاجتماعي، والدعوي.

وبالجملة: فإننا لن نستطيع تحقيق ما دلّ عليه هذا الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»(٢)، إلا إذا عرفنا مواهبنا وطاقتنا التي نستطيع بها خدمة أمَّتنا، أما تضييع الوقت في غير ما نحسن؛ فهو لن يفوت علينا الإتقان فحسب، بل سيورث فوضى في العمل العلمي والدعوي والخيري، والله المستعان.

---

(١) البخاري ح(٧١١٢)، مسلم ح(٢٦٤٨).
(٢) أخرجه أبو يعلى(٧/ ٣٤٩) ح(٤٣٨٦) وفي سنده ضعف، لكن معناه صحيح.

المجلس السادس والثلاثون بعد المائة
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، تمتد جذورها في قلوب الموحدين، في غابر الزمان وحاضره، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والقاعدة تدل على أن من اعتمد على الله، وفوّض أمره إليه في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره في أمر دينه أو دنياه، وفعَلَ ما أُمِرَ به من الأسباب، مع كمال الثقة بتسهيل ذلك وتيسيره، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به[1].

إن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] جاءت في سياق الحديث عن آيات الطلاق في سورة الطلاق، لبيان جملة من المبشرات التي تنتظر من طبق شرع الله في أمر الطلاق، وأما مناسبة مجيء هذا المعنى بعد ذكر هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق، فلعل السر - والله أعلم - هو تضمنها للتحذير والتطمين:

أما التحذير: فهو متجه لكل واحد من الزوجين اللذين قد تسول له نفسه مجاوزة حدود الله تعالى في أمر الطلاق، سواء فيما يتعلق بالعدة، أو النفقة، أو غير ذلك، خصوصًا وأن النفوس وقتَ الطلاق قد تكون مشحونةً، وغير منضبطةٍ في تصرفاتها غالبًا، وقد تتصرف بما تمليه حالة الغضب، بلا تجرد ولا إنصاف!

---

(١) ينظر: تفسير السعدي (٨٦٩).

وأما التطمين: فهي لمن صدق مع الله في تطبيق شرع ربه في أمر الطلاق، وأنه وإن كيد به أو له، فإن الله معه، وناصره، وحافظ حقه، ودافع كيد من يريد به كيدًا، والله أعلم بمراده.

ومع ورود هذه القاعدة في سياق آيات الطلاق إلا أن معناها أعم وأشمل من أن يُختصر في هذا الموضوع، وآيات القرآن الكريم مليئة بالحديث عن التوكل، وفضله، والثناء على أهله، وأثره على حياة العبد، فالتّوكُّل على اللّه مطلوب في كلّ شئون الحياة، بيد أنّ هناك مواطن كثيرة ورد فيها الحضّ على التّوكّل والأمر به للمصطفى ﷺ والمؤمنين!، منها: عند طلب النصرِ والفرَجِ، وعند تسلُّطِ الأعداء وخشية بأسهم، وعند إعراض الخلق، وعند ازدحام الأعمال وضيق الأوقات، وغيرها.

ومما يحسن التذكير به: أنّ النصوص دلّت على أن من كمال التوكلِ فعلُ الأسباب، وهذا بيِّن ظاهرٌ، وإنما نُبِّهَ عليه؛ لأن بعض الناس قد يظن - خطأً - أن التوكل يعني تعطيل الأسباب! وهذا غلط بيّن، ومن تأمل قصة موسى عليه السلام لما واجه البحر، وقصة مريم عليها السلام لما ولدت، وغيرهم من الأولياء والصالحين، يجد أنهم جميعًا أُمِروا بفعل أدنى سبب، فموسى أُمِر بضرب الحجر، ومريم أُمِرت بهز الجذع.

اللهم إنا نسألك صدق التوكل عليك، وقوة التفويض إليك، ونبرأ من كل حول وقوة إلا من حولك وقوتك، ونعوذ بك أن نوكل إلى أنفسنا طرفة.

المجلس السابع والثلاثون بعد المائة
(إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً)[(١)]

ما أطيب هذه القاعدة! التي ترشد إلى شيء مما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين العبد وربه.

إن في النفوس المؤمنة رغبةً في التصدق والبذل، وميلاً قوياً لإخراج بعض ما رزقها الله من فضله الواسع، فتأتي هذه القاعدة لترسم المنهج الذي يجب أن يدركه كلُّ مؤمن، وأن مقياس القبول عند الله ليس بكثرةٍ ولا عدد، بل بصفة ذلك الذي يخرجه الإنسان ويبذله.

ولئن كانت هذه القاعدة النبوية ظاهرةَ الارتباط بالشأن المالي؛ فهي تتسع - أيضاً - لتشمل ما هو أوسع من ذلك؛ فيدخل فيها كل الأعمال والأقوال، بل حتى الذوات.

ولعظيم مدلول هذه القاعدة؛ قال الإمام أبو داود السجستاني - صاحب السنن -: نظرتُ في الحديث المسند؛ فإذا هو أربعة آلاف حديث! ثم نظرت؛ فإذا مدار أربعة آلاف حديث على أربعة أحاديث، وذكر منها هذه القاعدة «**إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيباً**»، ثم قال: فكل حديث من هذه ربع العلم»[(٢)]! فقاعدتنا هذه - **أيها الأخ الكريم** - هي رُبع العلم! ومن عرف سعة العلم وتبحُّرَه بان له قدرُ هذه القاعدة العظيمة، ومعنى كونها ربع العلم.

---

(١) مسلم ح(١٠١٥).
(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم: (١/ ٦٢).

إن الطيب الذي عناه النبي ﷺ في هذه القاعدة يعني: الطاهر المنزّه عن النقائص، الذي لا يعتريه الخُبث بأي حالٍ من الأحوال[1]، «وإذا وُصِف به العبدُ مطلقاً أُريدَ به: أنه المتعري عن رذائل الأخلاق، وقبائح الأعمال، والمتحلي بأضداد ذلك، وإذا وُصف به الأموالُ أريدَ به كونه حلالاً من خيار الأموال»[2].

فهو في حق الله تعالى يعني أنه سبحانه وتعالى طيّب في ذاته، طيّب في أسمائه، طيب في صفاته، طيب في أفعاله، طيب في أحكامه، ذاته هي الطاهرة المقدسة، وأسماؤه هي الحسنى البالغة في الحسن منتهاه، وصفاته هي العلية البالغة في العلو أقصاه، وأفعاله هي الحائزة من الخير أزكاه، وأحكامه هي العدل الذي لن تجد البشرية طريقاً إلى العدل سواه: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

ولما كان سبحانه وتعالى طيباً لم يقبل أن يصعد إليه من العباد إلا ما كان طيباً «لا يقبل من الأعمال إلا ما كان طيباً طاهراً من المفسدات كلها - كالرياء والعجب -، ولا من الأموال إلا ما كان طيباً حلالاً؛ فإن الطيب يوصَف به الأعمال والأقوال والاعتقادات، فكل هذه تنقسم إلى طيِّبٍ وخبيث.

ومن أعظم ما يحصل به طِيب الأعمال للمؤمن: طِيب مطعمه، وأن يكون من حلال؛ فبذلك يزكو عملُه»[3].

فإن قلتَ: كيف نميز بين الطيب والخبيث؟

فالجواب عن ذلك: أن مدار معرفة الطيب من الخبيث وضابطه: هو شرعُ الله تعالى، ولا يمكن أن يُرَد هذا إلى عقول الناس؛ لأنه يفتح من الشر والخلاف ما الله

---

(١) ينظر: شرح الأربعين. للعثيمين: (ص: ١٤١).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٥/ ١٨٨٩).
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).

به عليم، فمن الناس مثلاً من يستقذر ويستخبث بعض المباحات، ومنهم - ممن انتكست فطرته - من يستطيب المحرمات!

اللهم اجعلنا طيبين مطيَّبين، في اعتقادنا وأقوالنا وأفعالنا، واجعل حياتنا طيبة، وقلوبنا سليمة، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

المجلس الثامن والثلاثون بعد المائة

(إن لم تبكوا فتباكوا)

وعظ أبو موسى الأشعري الناس يوماً فقال: ومن مواعظه ﷺ: ما رواه قسامة بن زهير، قال، خطبنا أبو موسى ﷺ بالبصرة فقال: **يا أيها الناس! ابكوا فإن لم تَبكوا فتبَاكَوا؛ فإنَّ أهلَ النارِ يبكون الدموعَ حتى تَنقطِع، ثم يَبكون الدماءَ حتى لو أُرسلتْ فيها السُّفُن لجَرَتْ»**(١).

البكاءُ من خشية الله دأبُ الصالحين، وهديُ أولياء الله المفلحين، ومَن تأمل ما ذَكَره الله تعالى في كتابه؛ وجد ما ينكِّس الرأسَ، ويُطأطِئ الهامةَ خجلاً مِن بُعده عن تلك المراتب التي جاءت عن أولئك الصفوةِ المباركة! كمثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٦١).

قال عبدالأعلى التيميّ رحمه الله: إنَّ مَن أوتي مِن العلم ما لم يُبكِه لخليقٌ أن لا يكون أوتي علماً ينفعه! لأن الله نعت العلماء فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ...﴾ الآيتين[١].

ولمّا قرأ ابنُ مسعود على النبي ﷺ صدرَ سورة النساء، قال ابنُ مسعود: فقرأتُ عليه سورةَ النساء، حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال: «أمسك»، فإذا عيناه تذرفان![٢]

ومِن السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلٌ ذَكَر اللهَ خالياً ففاضت عيناه»[٣].

وهكذا تأتي موعظة أبي موسى رضي الله عنه متفقةً مع هذا الهدي النبوي، بل مع هدي الأنبياء جميعاً، حيث قال: «**ابكوا فإن لم تَبكوا فتبَاكَوا**» أي: حاولوا أن تدرِّبوا نفوسَكم على هذا، بأن «يحضر قلبَه الحزنُ، فمن الحزن ينشأ البكاء... **ووجهُ إحضار الحزن**: أن يتأمل ما في كتاب الله من التهديد والوعيد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيرَه في أوامرِه وزواجرِه؛ فيحزن لا محالةَ ويبكي، فإن لم يحضره حُزنٌ وبكاءٌ كما يحضر أرباب القلوب الصافية؛ فليَبكِ على فقد الحزن والبكاء! فإن ذلك أعظم المصائب»[٤].

والذي يُرجى ويُؤمَّل مِن فضل الله ورحمته، أن من بكى في هذه الدار خوفاً من الله وعذابه؛ أن الله لا يجمع عليه البُكاءَين.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٥٧٩).
(٢) البخاري ح(٤٥٨٢) مسلم ح(٨٠٠).
(٣) البخاري ح(٦٦٠) مسلم ح(١٠٣١).
(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٧٧).

المجلس التاسع والثلاثون بعد المائة
قواعد في تلقي المصائب (١/ ٢)

مِن الحقائق التي يتفق عليها البشرُ: أن هذه الدنيا مظنةُ الكَدَر، تتنوع فيها المصائب وتتقلب على ألوان، لا فرق في ذلك بين مسلمٍ وكافر، إلا أن المسلمَ مع هذا الواقع الكوني بمنظارٍ آخر؛ يخفِّف عليه وقعَ المصاب، بل وربما انتقل معه إلى درجةِ الرضى.

وثمة قواعد في تلقي المصائب والتعامل معها، إذا تعامل معها المسلم هان عليه وقعها، بل انقلبت المحن إلى منح بإذن الله، من هذه القواعد:

القاعدة الأولى: أن البلاء لا ينفك عنه أحدٌ؛ فلستَ وحدَك في هذا الطريق، وهذا مما يَسْلو به الإنسانُ، على حدّ قول الخنساء:

ولـــولا كـــثـــرةُ الـــبـــاكـــين حـــولي
عـــلى إخـــوانهـــم؛ لـــقـــتـــلـــتُ نفسي

القاعدة الثانية: تَذكَّر جيداً أن الله تعالى لا يُقدِّر شيئاً إلا لحكمةٍ بالغة، وعاها مَن وعاها، وجهِلها مَن جهلها، وكم في المحن من مِنَح، وكم في المصائب مِن ألطاف! ومِن وراء الابتلاء حِكمٌ وأسرار تعجز قلوبُ البشر وعقولُهم عن إدراكها.

كم مِن شاردٍ عن ربه، يبتليه مولاه بحادث، فيكون الحادثُ سبباً في توبته ورجوعه لمولاه! وكم مِن حادثٍ أنجى مِن حادثٍ أكبرَ منه! ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون!

القاعدة الثالثة: تيقّن أن جالبَ النفع هو الله، ودافع الضر هو الله، وأن ما يقع لا يخفى عليه، بل كله تحتَ عينه، وأن رحمتَه سبقت غضبَه، وأن الله أرحم بعباده من أمهاتهم اللائي ولدنهم، بل من أنفسهم التي يحملونها، وهذا كلُّه يدعوك لأن تُعلّق قلبَك بالله وحده، ترجوه، تُخبت له، تنطرح بين يديه.

القاعدة الرابعة: تذكّر جيداً الوصيةَ النبوية ﷺ لابن عباس: «ما أصابك لم يكنْ لِيخطِئك، وما أخطأك لمْ يكنْ ليصيبك»[١] فلِمَ الجزع؟! ولِمَ التسخط؟!

ثم تأمل.. ماذا جلب الجزعُ والقلقُ على أهله؟! هل صلحتْ أحوالهم؟! هل ردّ قلقُهم ما كُتب عليهم؟! أبداً، بل خسروا كثيراً!

القاعدة الخامسة: اعرف حقيقةَ الدنيا تسترح:

طُبِعَت عَلى كـدرٍ وَأَنـتَ تُريدُها
صَفـواً مِـنَ الأَقـذاءِ وَالأَكـدار
وَمُكَلِّف الأَيـامِ ضِـدَّ طِباعِها
مُتَطَلِّب في المـاءِ جَـذوة نـارِ
وَإِذا رَجَـوتَ المُستَحيل فَـإِنَّما
تَبني الرَجاءَ عَلى شَفيرٍ هارِ

فمن عرف حقيقةَ الدنيا، وفَقِهَ سنةَ الله فيها؛ استراح.

ولحديثنا بقية.. إن شاء الله في المجلس القادم.

---

(١) مسند أحمد ح(٢١٦٥٣) وسنده حسن.

المجلس الأربعون بعد المائة
قواعد في تلقي المصائب (٢/٢)

سبق في المجلس السابق الإشارة إلى خمسٍ من القواعد التي يتلقى بها المبتلى المصائب، وفي هذا المجلس نكمل الحديث عن بقية هذه القواعد:

القاعدة السادسة: تذكّر أنَّ الفرجَ بعد الكربِ سنَّةٌ ماضيةٌ، وقضيةٌ مُسلَّمةٌ، كالنهار بعد الليلِ، لا شكَّ فيه ولا ريب، فما عُرِفَ أن كربةً استحكمت استحكاماً لا فرج معه، بل لابد من فرج: إما فرج حسي، أو فرج معنوي.

وكـلُّ الحـادثـات إذا تـنـاهـت
فـمـوصـول بهـا الـفـرج الـقـريـب

وخيرٌ من ذلك قول النبي ﷺ: «وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا»(١).

القاعدة السابعة: أحسِن الظن بربك؛ فإن هذه عبادة بذاتها:

أحـسـن الـظـن بـربٍّ عـوّدك
حـسـنـاً أمـسِ، وسـوّى أَوْدك
إن ربـاً كـان يـكـفـيـك الـذي
كـان بـالأمـس؛ سيكفيك غـدك

---

(١) مسند أحمد ح(٢٨٠٣) وسنده حسن.

وخيرٌ من ذلك قول الله ﷻ - في الحديث القدسي الصحيح -: «أنا عند ظنِّ عبدي بي؛ فلْيظنَّ بي ما شاءَ»(١).

القاعدة الثامنة: تَذكّر دائماً أن اختيار الله خيرٌ من اختيارك لنفسك، هذه ضعها نصب عينيك؛ لأنها تُورثك عبادةً أخرى، وهي: الرضى عن الله! والرضى عن الله عبادةٌ جليلة، مَنْ فقدها فَقَدَ خيراً كثيراً.

قال الأعمش: كنا عند علقمة فقُرئ عنده هذه الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] فسُئل عن ذلك؛ فقال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها مِن عند الله؛ فيرضى ويُسلّم.

القاعدة التاسعة: لا تفكر بكيفية الفرَج! فإن الله إذا أراد شيئاً يسّر أسبابَه، وقد تكون هذه الأسباب لا تخطر على البال، وسل نفسك: هل كان موسى يعرف كيفيةَ الفرَج التي أُوحي له بها حين وقف أمام البحر؟!

أعرفُ قصةَ أسرةٍ كانت مسحورة، كان فرَجُها بعد حصول طوفان تسونامي (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م) الذي ضرب جنوبَ شرق آسيا، وراح ضحيته أكثرُ من ١٥٠,٠٠٠ نفسٍ، فكان هذا الطوفان سبباً في الفرج لآخرين!

القاعدة العاشرة: تجمّل بالصبر، وتحلَّ بالرضا، واحتسب الأجر، وتذكّر ما أعده اللهُ لأهل البلاء: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وتأمل في أمر الله لنبيه بقوله: ﴿وَبَشِّرِ﴾، فسبحانك ربي ما أرحمك وألطفك!

القاعدة الحادية عشر: عليك بالدعاء؛ فسِهامُه صائبة، وعواقبه مجابة، ولن يخسر الداعي قطّ؛ فإنه إمّا أن تنكشف كربتُه عاجلاً، أو يَدفع اللهُ به كربًا أشدّ - لا يعلمه -، أو يجدها مدخرةً له يوم القيامة.

---

(١) مسند أحمد ح(١٦٠١٦)، وصححه ابن حبان.

وأخيراً: إذا ضاقت نفسُك بهمّ المصيبة، وثَقُل كاهلك بحملها؛ فانطلق واسجد، وضع أثقالَ الأحزان بسجدةٍ بين يدي مولاك، وأَكثِر من تسبيحه وذِكره، فلنعم الربُّ الذي قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]، وأبشر بقُرب الفرَج.

المجلس الواحد والأربعون بعد المائة
﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾

هذه قاعدة قرآنية اجتماعية، يعين على فهمها أن نُذَكِّرَ بسبب نزول هذه الآية، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك[1].

والآية أمر للأزواج بعشرة نسائهم بالمعروف، ومن المعروف: أن يوفيها حقها من المهر، والنفقة، والقَسْمِ، وترك أذاها بالكلام الغليظ، والإعراضِ عنها والميل إلى غيرها، وترك العبوس والقطوب في وجهها بغير ذنب.

إن من تأمل هذه القاعدة العظيمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أدركَ أن هذا القرآن هو حقًا كلام الله، وبيان ذلك من وجوه، منها:

- أن هذه القاعدة مع أنها كلمتان فقط إلا أنها اشتملت على معانٍ عظيمة، يطول شرحها، وما حديثنا عنها هنا إلا إضاءة وإشارة فحسب.
- **ومنها:** أن الله تعالى ردّ أمر المعاشرة إلى العرف، ولم يحدده بشيء معين؛ لاختلاف الأعراف والعادات بين البلدان كما هو معروف وظاهر، ولاختلاف مكانة

(١) البخاري (٤٣٠٣).

الأزواج من الناحية المالية والاجتماعية، إلى غير ذلك من صور التفاوت التي هي من سنن الله في خلقه.

ولعظيم موقع هذه المعاني التي دلت عليها هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أكّد النبي ﷺ هذه الحقوق في أعظم مجمع عرفته الدنيا في ذلك الوقت؛ حين خطب الناس في يوم عرفة.

وإن مما يؤلم المؤمن، ما يراه من كثرة هتك لحرمة القاعدة، وعدم مراعاة لحدودها! فترى بعض الرجال لا يحسن إلا حفظ وترديد الآيات والحقوق التي تخصه، ولا يتحدث عن النصوص التي تؤكد حقوق زوجته، فويل للمطففين.

وفي المقابل فإن على الزوجة أن تتقي الله في زوجها، وأن تقوم بحقوقه قدر الطاقة، وأن لا يحملها تقصير زوجها في حقها على مقابلة ذلك بالتقصير في حقه، وعليها أن تصبر وتحتسب.

لقد كان سلف هذه الأمة يفقهون حقًا معاني هذه النصوص العظيمة، ومن ذلك هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس، يقول: «إني أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما أحب أن أستنطف - أستوفي - جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾»[١].

هكذا كان السلف يعيشون مع القرآن، علماً وعملاً، نسأل الله تعالى أن يرزقنا التأسي بهم.

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: (١٠/ ٢١٠) ح(١٩٦٠٨).

المجلس الثاني والأربعون بعد المائة
(مثل الجليس الصالح والجليس السوء: كحامل المسك، ونافخ الكير)[1]

إنها قاعدة قصيرة العبارات، كثيرة العبر والعظات، ودلالتها في الحث على اختيار الصحبة الصالحة والتحذير من ضدهم بيّنةٌ واضحة، وهذا المثل يختصر عبارات كثيرة لبيان حال الصحبتين:

أما الجليس الصالح - وهو المثل الأول - فأنت معه في غُنم على كل حال، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك، إما ببيع، أو هبة، وأقلُّ أحواله أن تجد منه الرائحة الطيبة.

وهذه المغانم من صحبته، قد تكون دينية أو دنيوية، فلن تعدم منه إما علماً، أو تنبيهاً على خطأ، أو دلالة على خير في دينك أو دنياك، أو يحذِّرك مما يضرك، ويبصِّرك بعيوب نفسك، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق بمقاله وفعاله وسمته وهديه، فإن الإنسان - بطبعه - مجبول على التأثر بصاحبه، والأرواح جنود مجندة، والناس - كما قيل - كأسراب القطا، يتبع بعضها بعضا.

«**وأقلُّ ما تستفيده** من الجليس الصالح - وهي فائدة لا يُستهان بها -: أن تكف بسببه عن السيئات والمعاصي؛ رعاية للصحبة، ومنافسة في الخير، وترفعاً عن الشر،

(١) البخاري ح(٢١٠١)، مسلم ح(٢٦٢٨).

وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك، وأن تنفعك محبتُه ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك، وفوائد الأصحاب الصالحين لا تُعد ولا تحصى»[1].

وأما المثل الثاني - وهو جليس السوء -، فهو ضرر من جميع الوجوه، لا غُنم فيه، بل كله غُرم وخسارة عاجلة وآجلة! ولله كم هلكت أديان أناس وضاعت دنياهم بسبب جلساء السوء! وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك شعروا أم لم يشعروا! ألم يكن أصدقاء السوء سبباً من أسباب بقاء عم النبي ﷺ على ملة الكفر؟ ألم يكونوا سبباً في خواتيم سوء لعدد من أصدقائهم، حين زيّنوا لهم حياة الفحش والبذاء، بعد أن كانوا أعفةً كرماء؟!

ولهذا كان فإن من أعظم نعم الله على العبد: أن يوفقه لصحبة الأخيار، ومن أعظم صور العقوبات: أن يبتليه بصحبة الأشرار.

إن من أجلِّ ما ترشدك إليه هذه القاعدة الجليلة:

التحذيرُ من مجالسة من يتأذى بمجالسته - كالمغتاب والخائض في الباطل -، والندب إلى من ينال بمجالسته الخير: مِن ذكر الله، وتعلُّم العلم، وأفعال البرِّ كلِّها، وقد قيل في الحكمة: «مصاحبة الأخيار تورث الخير، ومصاحبة الأشرار تورث الشر، كالريح إذا هبّت على الطِيْب عبقت طيباً، وإن مرت على النَّتَن حملت نتناً، وقيل: إذا جالستَ الحمقى علِق بك من حماقتهم ما لا يعلَق لك من العقل إذا جالست العقلاء؛ لأن الفساد أسرع إلى الناس وأشد اقتحاماً في الطبائع»[2].

قال ابن حبان رحمه الله: «وصحبة الأشرار: تورث سوءَ الظن بالأخيار، ومَن خادَنَ

(1) بهجة قلوب الأبرار: (ص١٥٦).
(2) مرقاة المفاتيح: (٨/ ٣١٣٦).

الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم، فالواجب على العاقل أن يجتنب أهل الرِّيَب لئلا يكون مريباً»(١).

اللهم لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، ووفقنا لصحبة الأخيار، وموالاة الأبرار، وقنا شر الأشرار وكيد الفجار.

(١) روضة العقلاء: (ص١٠٠).

المجلس الثالث والأربعون بعد المائة
(هلاك بدينار ودرهم)

يقول أبو موسى الأشعري ﷺ، واعظاً للناس: «**إنما أهلك مَن كان قبلَكُم هذا الدينارُ والدِّرهمُ، وهما مُهلِكَاكُم**»[١].

هذه الموعظة من أبي موسى ﷺ قبَسٌ من آثار النبوة.. فالتنافس على الدنيا وشهواتها - ومن أشدها الدينار والدرهم - هي التي أهلكت مَن كان قبلنا، فإن تنَافَسْنا فيها تنافساً غير شرعي، وخلاف ما رسمتْه لنا الشريعة؛ فالسنة الإلهية ماضية.

ولهذا لما سمع الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة بمال من البحرين، وافَوا صلاةَ الفجر مع النبي ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له؛ فتبسم رسولُ الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنُّكم سمعتم أن أبا عبيدة قدِم بشيءٍ مِن البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله، قال: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبسَط الدنيا عليكم كما بُسِطت على من كان قبْلَكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلِكُكُم كما أهلكتهم**»[٢].

ومَن تأمل واقعَ الناس ومَا أحدثه هذا التنافس؛ أدرك معنى هذا الحديث!

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٦١).
(٢) البخاري ح(٣١٥٨) مسلم ح(٢٩٦١).

وإن الإنسان ليحزن أن يتخاصم أَخَوان، أو والدٌ وَوَلدُه أمام القاضي على لعاعةٍ من الدنيا! تتقطّع بها أواصِرُهم، وتتفَصَّم عرى المودةِ بينهم، فيمتد الأثرُ إلى جيلٍ أو جيلين مِن تلك الأسرة! وهل هذا إلا الهلاك؟!

ومن أسباب ذلك - في بعض الحالات - عدمُ عدل بعض الآباء بين أولادهم، فتبقى الرواسب في نفوس أولاده، ولا تظهر على السطح إلا بعد موت والدهم!

ومن أسباب ذلك أيضاً: التأخر في قسمة المواريث لغير سبب شرعي، أو المجاملة العاطفية في القسمة حين التهاب العواطف بعد موت المورث، وتقسم بالعاطفة لا بالشرع، فإذا بردت المصيبة، وذهب أثرها، بدأ الشيطان ينبّش في الأمور المالية، فالواجب حسمها، وقسمتها بالشرع ومبكراً، وتنحية العواطف في هذه الأمور، لأنها مع الوقت تنقلب إلى عواصف. نعوذ بالله من فتنة المال، ونسأله أن يصلح أحوال المسلمين.

المجلس الرابع والأربعون بعد المائة
﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية إيمانية، وثيقة الصلة بالواقع الذي تعيشه الأمة اليوم بالذات، وهي تعيش هذه التغيرات المتسارعة، والتي خالها البعض خارجةً عن سنن الله تعالى!! وليس الأمر كذلك.

وهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لا تختص بالمعنى الذي وردت الآية في سياقه - وهو تعذيب الكفار -، بل هي عامة في كل ما وعد الله به؛ فاللهُ تعالى لا مُكْره له، ولا رادّ لأمره ومشيئته، ولكن الشأن في تحقق العباد بفعل الأسباب المتعلقة بما وعد الله به.

واستقرار هذا المعنى من أعظم ما يجدد الفأل في نفوس أهل الإسلام، في الثبات على دينهم ومنهجهم الحق، بل وتزيدهم يقينًا بما عليه أهل الكفر والملل الباطلة من ضلال وانحراف، وبيان هذا: أن المؤمن لا يزال يرى - إما بعين البصر أو البصيرة - صدق ما وعد به أولياءه في الدنيا، كيف لا وهو يقرأ نماذج مشرقة في كتاب الله؟!

ألسنا نقرأ قول ربنا في سورة آل عمران في سياق الحديث عن غزوة أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾؟ أي: تقتلونهم بإذن الله.

وفي فواتح سورة الروم ما يشير إلى سبب كبير في ضعف اليقين تجاه الوعود الربانية، ألا وهو: التعلق بالدنيا، والركون إليها، ولهذا فإنك لو تأملتَ لوجدت أن

أضعف الناس يقينًا بموعود الله هم أهل الدنيا، الراكنين إليها، وأقواهم يقينًا هم العلماء الربانيون، وأهل الآخرة، جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

والمؤمن لا يقترح أجلًا لإهلاك الكفار، أو موعدًا لنصر الإسلام، أو غير ذلك من الوعود التي يقرأها في النصوص الشرعية، ولكن من شأنه أن يسعى في نصرة دينه بما يستطيع، وأن لا يظل ينتظر مضي السنن؛ فإن الله لم يتعبدنا بهذا، وعليه أن يفتش في مقدار تحققه بالشروط التي ربطت بها تلك الوعود، فإذا قرأ - مثلًا - قول الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ فعليه هنا أن يفتش عن أسباب النصر التي أمر الله بها: هل تحققت فيه فردًا أو في الأمة على سبيل المجموع؛ ليدرك الجواب على هذا السؤال: لماذا لا تنتصر الأمة على أعدائها؟!

ولو ذهب الإنسان إلى تعداد الآيات الموضحة لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لطال به المقام، ولكن حسبنا ما ذكر، جعلنا الله من أنصار دينه، والدعاة إلى سبيله.

المجلس الخامس والأربعون بعد المائة
(ما زاد اللهُ عبداً بعفو إلا عزاً)[١]

يتوقف المؤمن - وهو يقرأ أو يستمع لهذه الجملة - ليستحضر في ذهنه صوراً دامية من تاريخ العرب في الجاهلية الذين تقوم بينهم حروب من أجل أمور تافهة، ويستحضر - أيضاً - الأنفة التي جبل عليها الآدمي، والعربي خصوصاً من العفو عمن ظلمه، فتأتي هذه القاعدة لتضبط مسار فهمه وفكره؛ ليقف على معنىٍ راقٍ، وهداية نبوية عظيمة، في باب التعامل مع أخطاء الآخرين معنا.

«ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» وكيف ينال العز بالعفو؟ والجواب: لأن العافي في مقام الواهب والمتصدق؛ فيعز بذلك[٢].

وقال بعض العلماء: لأنه إذا عُرف بالعفو ساد، وعظم في القلوب، وزاد عزه.[٣]

ويوضح السعدي رحمه الله هذا العز في العفو فيقول: «وأما العفو عن جنايات المسيئين بأقوالهم وأفعالهم: فلا يتوهم منه الذل، بل هذا عين العز، فإن العز: هو الرفعة عند الله وعند خلقه، مع القدرة على قهر الخصوم والأعداء.

ومعلوم ما يحصل للعافي من الخير والثناء عند الخلق، وانقلاب العدو صديقاً، وانقلاب الناس مع العافي، ونصرتهم له بالقول والفعل على خصمه، ومعاملة الله له

---

(١) مسلم ح(٢٥٨٨).
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٣/ ٥٨٦).
(٣) مرقاة المفاتيح: (٤/ ١٣٣٤).

من جنس عمله؛ فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه»(١).

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]: «اعلم أن معاقد الخيرات - على كثرتها - محصورة في أمرين: صدقٌ مع الحق، وخُلقٌ مع الخَلق، والذي يتعلق بالخَلق محصور في قسمين: إيصال نفعٍ إليهم، ودفع ضررٍ عنهم، فقوله: ﴿إن تبدوا خيراً أو تخفوه﴾ إشارة إلى إيصال النفع إليهم، وقوله: ﴿أو تعفوا عن سوء﴾ إشارة إلى دفع الضرر عنهم؛ فدخل في هاتين الكلمتين جميعُ أنواعِ الخير وأعمالِ البر»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «ومن أراد فهم هذه الدرجة كما ينبغي؛ فلينظر إلى سيرة النبي ﷺ مع الناس يجدها هذه بعينها، ولم يكن كمال هذه الدرجة لأحد سواه، ثم للورثة منها بحسب سهامهم من التركة...»(٣).

واعلم أخي أن في الصفح والعفو والحلم: من الحلاوة والطمأنينة والسكينة، وشرف النفس، وعزها، ورفعتها عن تشفيها بالانتقام: ما ليس شيء منه في المقابلة والانتقام(٤).

اللهم اعف عنا واجعلنا من العافين عن الناس، وارزقنا من الأخلاق ما يقربنا إليك واجعلنا ممن هديتم لأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال.

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٨١).
(٢) مفاتيح الغيب: (١١/ ٢٥٤).
(٣) مدارج السالكين: (٢/ ٣٢٨ - ٣٢٩).
(٤) مدارج السالكين: (٢/ ٣٠٣).
تنبيه: قيد بعض العلماء بما إذا كان إصلاحاً؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] أما إذا لم يكن إصلاحاً بل كان إفساداً؛ فإنه لا يؤمر به.

المجلس السادس والأربعون بعد المائة
(فقه معاشرة الناس)

يقول الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ: «**خالِصِ المؤمن، وخالِطِ الكافر، ودِينَك لا تكلِمَنَّه**»[1].

ومعنى هذه الجملة: أَخلِص في تعامُلك مع أخيك المؤمن، ولا حَرَج أن تخالط الكافر إذا احتجتَ لذلك، لكن الأهم هو: أن تُحافِظ على دِينك لا يُكْلَم، ولا يُخدَش، ولا يُجرَح!

ذلك أن بعضَ الناس إذا خالط الفساق - فضلاً عن الكفار - تنازل عن بعض مبادئه، أو استحى من إظهار شعائره!

وما أحوج الإخوة الذين يسافرون إلى بلاد الكفر - لعلاج أو تجارة أو ابتعاث - أن يستحضروا هذا المعنى، وأن يتذكروا قولَه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ويعجبني في هذا المقام ذِكرُ قصةٍ لأحدِ التجارِ الكبار في بلادنا - سمعتُها منه - حيث سافر لبريطانيا، وكان من ضمن برنامجه: زيارة مدير أكبر بنك في بريطانيا - وهو من أكبر بنوك العالم - فدعاه المديرُ لطعامِ الغداء، فوافق ولكنه - وبعزة المسلم - اشترط عليه: أن لا يكون على المائدة خمرٌ ولا لحمُ خنزير، وألا يختلط الرجال بالنساء؛ فوافق المدير.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٨٠).

وإذا كان (المهاتما غاندي) لما اقتيد مأسوراً من الإنجليز، رفض التخلِّي عن اللباس التقليدي الذي يرمز لطائفة السيخ؛ لأنه يعتبر نفسَه مناضلاً عن حقوقهم، إذا كان حاله وهو سيخي؛ فالمسلمُ أولى وأحرى بأن يكون معتزاً بهويته، لا أن يذوب وينماع في مجتمعات الكفر!

لقد أثبتت التجاربُ والأخبارُ أن الناس يحترمون الذي يحافظ على مبادئه وإن اختلف معهم، ويمقتون من يتنازل ويقلدهم، وإن احترموه في الظاهر.

والمقصود أن هذه الموعظه التي قالها حذيفة: «**خالص المؤمن، وخالط الكافر، ودينك لا تكلمنه**» لابد أن يَعيش معَها المؤمنُ، في هذا الزمن الذي كَثُر فيه الاحتكاكُ بغير المسلمين، سواء من الوافدين، أم ممن نسافر إليهم. **رزقنا الله الاعتزاز بديننا، والثبات عليه حتى نلقاه.**

المجلس السابع والأربعون بعد المائة
(يهودي في الرمق الأخير)

كيف سيتحدَّث الإعلامُ لو أن رئيسَ الدولة أو الملك زارَ مديراً لدائرةٍ حكوميةٍ في بيته بسبب مرضه؟!

وكيف ستكون لغةُ الحديثِ لو أن المريضَ أحدُ الموظفين مِن ذوي المراتب المتدنّية؟

أم كيف ستكون «المانشيتات» في الصحف ومقدِّمات النشرات الإخبارية، لو كان الشخصُ المزور خادماً في القصر الملَكي أو الرئاسي؟

هذا مشهدٌ حقيقيٌّ وقَع بلا ضجيج إعلامي، في طَيبةَ الطيبة.

أما المزور: فغلامٌ يهوديٌّ مريض! ومهنته: خادم! وأما الزائر، فليس رئيسَ الدولة في وقته فحسب؛ بل هو سيد ولد آدم ﷺ.. إنها قصةُ زيارة النبي ﷺ للغلام اليهودي الذي كان يَخدمه، فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلِم»، فنظر إلى أبيه وهو عنده! فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبيُّ ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذَه من النار»(١)، لا تزال معالمها ومعانيها تتجدد لي وتلوح في مناسبات عدّة!

(١) البخاري ح(١٣٥٦).

ونحن نقرأ هذه القصة ونسمعها، تبرز لنا عدة أسئلة:

ما الذي يُتوقَّع من غلامٍ حديث السنّ؟ يهودي الديانة؟ وفي مهنة خادم؟

ما الذي كان ﷺ يتعامل به مع هذا الغلام حتى لم يحتج موقفُ الدعوة إلى الإسلام سوى كلمة: «أسلم»؟

وما الذي كان ينقله هذا الغلام من صور التعامل النبوي معه لأبويه اليهوديين؟

إنّ مِن شأن من يكون خادماً حديثَ السنِّ أن يقع منه ما يستحق التنبيه.

وكون هذا الغلام يهودياً؛ فيُتوقّعُ منه ما لا يتوقع مِن غيره - مِنْ قَصْدِ الأذى بمن يخدمه - خصوصاً مع ما عُرف عن اليهود مِن حسَد وغَدر، وكراهيةٍ لاختيار النبي العربي ﷺ رسولاً بدلاً من بني إسرائيل.

يقعُ المرضُ فتقع الزيارة، فيُسلم الغلام في الرمق الأخير!

ويفرح ﷺ بهذه النفس التي نجت من النار، مع أنها لم تُقدِّم للإسلام شيئاً! لكن النجاة من جهّنم حَدَث يستحق الفرح، ولمثله تدمع العينُ سروراً.

لكن ما الذي يَحدث من بعض المسلمين مع من يَفِد إلى بلادنا من الخدم والعمالة الكافرة؟! وهم مِن أديان ومِلَل شتى، وربما بقي بعضُهم سنوات عِدّة، وكثيرٌ من هؤلاء لا يحتاج - في عَرْض الإسلام عليه - أكثر وضوحاً ونقاءً، وأسرع اختصاراً من حُسن المعاملة.

وفي المقابل، كيف نتوقّع أن تكون الصورةُ الذهنية عن الإسلام في نفوس هؤلاء، إذا بُخِسَتْ حقوقُهم، أو أُهينت كرامتُهم، أو تأخرت رواتبُهم، أو كُلّفوا فوقَ ما يطيقون؟! لن تُمسح هذه الصورة ولو أُعطوا مائةَ كتابٍ أو مادةٍ مسموعة أو مرئيةٍ عن الإسلام.

كم يجني المسيئون لمعاملة مَن تحت أيديهم من العمّال والخدَم، لا على أنفسهم فحسب؛ بل على دين الإسلام! ويا لعِظَم إساءتهم وجريمتهم!

وهنيئاً لتلك النفوس الكبيرة، والقلوب الطاهرة التي أنقذ اللهُ بحسن معاملتها أنفساً من النار.

المجلس الثامن والأربعون بعد المائة

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

هذه قاعدة قرآنية، تمثل ميزانا عظيما في التعامل مع الدنيا، والتي من أبرز مباهجها: المالُ.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة جاءت في أثناء قصة قارون، الذي غرّه ماله، وغرته نفسه الأمارة بالسوء.

إن من أعظم مزايا هذا الدين ومحاسنه، أنه دين يدعو إلى التوازن في كل شيء، من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء - في أمر الدين أو الدنيا - وهذا ما تقرره هذه القاعدة بوضوح وجلاء: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ولو تأملنا هذه الآية لوجدنا ترتيب الكلام فيها كأنه عقد نُظِمَ كأحسن ما يكون النَّظم، فهي قد اشتملت على أربعة وصايا عظيمة، أحوج الناس إليها - في هذا المقام - هم أرباب الأموال، فلنتأملها جميعًا:

الأولى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ فإن الآخرة هي المستقبل الذي يجب على كل عاقل أن يسعى للنجاة فيها، وأن يجعل حاضره من الدنيا تمهيدًا لها، وأن يجعل سعيه في حياته غراسًا ليوم الحصاد.

وأما الوصية الثانية: فهي ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، والمعنى: لا نلومك على أن تأخذ نصيبك من الدنيا بشرط أن لا يأتي على نصيب الآخرة، قال قتادة:

نصيب الدنيا هو الحلال كله!

وذكر بعض أهل العلم ملمحًا لطيفًا في توجيه معنى قوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، وهو أن الله أراد أن يجعل الدنيا شيئًا هيّنًا مُعرَّضًا للنسيان والإهمال، فهو يُذكِّرنا بها، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب، فأنا لا أقول لك: لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام.

أما الوصية الثالثة: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾، وهذا يتفق تمامًا مع العقل والشرع.

الوصية الرابعة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، وجاء هذا النهي للتحذير من خلط الإحسان بالفساد فإن الفساد ضد الإحسان، ولأن بعض الناس قد ينقلب عليه الأمر فيتصور الإساءة إحساناً كما وقع لقارون.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ تعليل للنهي عن الإفساد؛ لأن العمل الذي لا يحبه الله لا يجوز لعباده عمله [1].

نسأل الله تعالى أن يجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١٠٩) بتصرف واختصار.

المجلس التاسع والأربعون بعد المائة
(نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحّة والفراغ)(١)

هذه قاعدة نبوية جليلة في فقه الوقت والعمر، وفي فقه الصحة والعافية، فهي دعوة نبوية إلى التصرف الأمثل، والتعامل الأحسن مع نِعم الله تعالى على العبد في الزمن والبدن.

وهي دعوة لاغتنام الطاقات، والحفاظ على الجهود فيما يعود نفعُه على الفرد والمجتمع، والرقي بالحياة إلى المستوى الأفضل والأكمل، والبعد عن استغلال الصحة والعافية في إيذاء الآخرين، أو السخرية من المعاقين، أو انتهاك ما حرمة رب العالمين.

إن في التعبير **بالغبن** - وهو النقص والغلبة على الشيء - لإشارةً إلى معنى شريف في هذه القاعدة النبوية، فإن أكثر الناس قد يقاتل على الغبن في ماله، أو وظيفته؛ لِتعلُّق ذلك بأمر معاشه، لكن قلّ منهم من يغتم ويهتمّ لضياع وقته، أو اغتنام قوة بدنه فيما يفيده وينفعه، ولهذا يقع الغبن في ذلك، كما هو مشاهد وواقع.

ولا يتفطن لهذا الغبن من الناس إلا القلة - في حال صحتهم وفراغهم - أما التفطن لذلك عند وجود الشغل أو المرض فهذا قدر مشترك بين الناس.

(١) البخاري ح(٦٤١٢).

إن من الناس من لا يشعر بالغبن في وقته - وهذا نوع من العقوبة الخفية - ولا يكتفي بهذا، بل تراه - لغفلته - ينقل غبنه ونقصه وتفريطه في وقته إلى الآخرين من خلال السطو على أوقاتهم، وإشغالهم عن أعمالهم بتافه القول، ورديء الحديث، وهؤلاء ممن عظمت منهم الشكوى من الغيورين على أوقاتهم، ولابن الجوزي في هذا آهات معروفة، منها قوله: «أعوذ بالله من صحبة البطالين! لقد رأيت خلقًا كثيرًا يجرون معي فيما قد اعتاده الناس من كثرة الزيارة، ويسمون ذلك التردد خدمة، ويطلبون الجلوس، ويجرون فيه أحاديث الناس، وما لا يعني، وما يتخلله غيبة!

وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربما طلبه المَزُوْرُ، وتشوق إليه! واستوحش من الوحدة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضهم إلى بعض، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان.

فلما رأيتُ أن الزمان أشرف شيء، والواجب انتهابه بفعل الخير؛ كرهت ذلك، وبقيت معهم بين أمرين: إن أنكرت عليهم وقعتْ وحشة؛ لموضع قطع المألوف! وإن تقبلته منهم؛ ضاع الزمان! فصرت أدافع اللقاء جهدي: فإذا غُلبت؛ قصّرت في الكلام لأتعجل الفراق»[1].

لقد جاء هذا التعبير النبوي العجيب: «**نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس**» لشحذ الهمم، وليسعى كلٌ إلى ما يجنِّبه عن ذلك الغبن، وتلك الخسارة.

والإنسان قد يكون صحيحاً ولا يكون متفرغاً للعبادة؛ لاشتغاله بأسباب المعاش، وقد يكون متفرغاً من الأشغال ولا يكون صحيحاً، فإذا اجتمعا للعبد، ثم غلب عليه

(١) صيد الخاطر: (٢٤٠).

الكسل عن نيل الفضائل؛ فذاك الغبن! كيف والدنيا سوق الرباح، والعمر أقصر، والعوائق أكثر![1]

وفي هذه القاعدة النبوية: «دليل على أن نعم الله تتفاوت، وأن بعضها أكثر من بعض، وأكبر نعمة ينعم الله تعالى بها على العبد: نعمة الإسلام»[2].

وليكن لك أخي المسلم بين الفينة والأخرى زيارة إلى المرضى في المستشفيات أو في دورهم؛ ليعلم قدر ما هو فيه من نعمة، وكيف حالَ المرضُ بين أهله وبين أكثر ما يريدون من العمل والإنجاز!

اللهم اجعلنا ممن يربحون صحتهم وفراغهم أعظم الربح، وجنبنا الخسار في الدنيا والآخرة، واجعلنا على مرضاتك من العاملين، وبالفردوس الأعلى من الجنة من الفائزين.

---

(١) ينظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين: (٢/ ٤٣٧).
(٢) شرح رياض الصالحين: (٢/ ٦٧).

المجلس الخمسون بعد المائة
(ميّتُ الأحياء)

سئل الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ﷺ: مَن مَيِّتُ الأحياء؟ قال: «**مَن لم يَعرِف المعروفَ بقَلبِه، ويُنكِر المنكَر بقَلبه**»[١].

الله أكبر! يا لها مِن كلمةٍ عميقة! تَنقُل القارئَ لها إلى معنى شريف! ألا وهو: أن الحياة الحقّةَ هي حياةُ القلبِ لا البدن! إذ حياةُ البدنِ يَشترك فيها مع الإنسانُ بل والحيوان.

وبم تكون حياتُه؟ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن خلا قلبُه من ذلك - والعياذ بالله - فليبحث له عن قلب، فقد قال النبي ﷺ: «مَا مِن نبيٍّ بعثَه اللهُ في أمةٍ قبْلي إلا كان له مِن أُمَّته حواريون وأصحاب؛ يأخذون بسنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخلُف مِن بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يَفعلون، ويَفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدَهم بقلبِه فهو مؤمن، وليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خردل»[٢].

لقد شرح حذيفةُ نفسُه هذه الجملة المختصرة فقال: «أفلا تَسألون عن ميت الأحياء؟ فقال: إن الله تعالى بَعَثَ محمداً ص فدعا الناسَ مِن الضلالة إلى الهدى، ومِن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له مَن استجاب، فحيي بالحق من كان ميتاً، ومات

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤) رقم(٣٧٥٧٧).
(٢) مسلم ح(٨٠).

بالباطل مَن كان حياً، ثم ذهبتْ النبوةُ فكانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون ملكاً عَضُوضاً، فمن الناس من ينكر بقلبِه ويدِه ولسانِه والحقَّ استكمَل، ومنهم من ينكر بقلبِه ولسانِه كافّاً يدَه وشُعبةً من الحق تَرَك، ومنهم من يُنكِر بقلبِه كافّاً يدَه ولسانَه وشُعبتين مِن الحقِّ ترك، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه! فذلك ميتُ الأحياء»[1].

يقول عاصم الأحول: «ما سمعتُ الحسن البصري يتمثل ببيت من شعرٍ قط إلا هذا البيت:

ليس من مات فاستراح بمَيْتٍ
إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

ثم قال الحسن: وصدق والله، إنه ليكون حياً، وهو ميت القلب!»[2]. اللهم أعذنا من موت قلوبنا، وأحيها بذكرك وتقواك.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٧٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٢٧٦) رقم(٣٥٢١٩)، شعب الإيمان (٩/ ٤٢٢).

المجلس الواحد والخمسون بعد المائة
(التفكير بالموجود)

المشاهَد أن لغةَ التذمُّر من الزمن، ومِن الواقع المُعاش - سواء على المستوى الفردي أو المجتمعي - ترتفع بشكل مستمر، ساعد على ذلك: مواقع التواصل الاجتماعي؛ التي صارت متَنَفَّساً للتعبير عن الظروف التي يمرّ بها أكثرُ الناس، خاصة ما يتعلق بالأقدار المؤلمة، والأحوال الاقتصادية السيئة.

وبثُّ الشكوى قد يُخفِّف من الألم، على حد قول الشاعر:

ولا بُـدّ من شكوى إلى ذي مـروءةٍ
يواسيك أو يسليكَ أو يتوجّعُ

لكن ثمةَ طريقةٌ مجرّبة في التعاطي مع الظروف التي تمرّ بالإنسان، وهي ما يمكن تسميته بـ«التفكير بالموجود»، وهو أسلوب ناجِع ومجرّب، وقد طبّقه العقلاءُ من المسلمين وغيرهم.

وفي القصة المشهورة عن عروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ) ما يوضح المراد بشكل أدقّ؛ فقد ابتُلي عروةُ رحمه الله في وقتٍ واحدٍ بفَقد ولدٍ له، ركَلَهَ حصانٌ فمات، وسرى داءُ الآكِلة إلى رجله فقُطعت! فأتته قريشٌ والأنصار يعزونه في ابنِه ورِجله؛ فقال له عيسى بن طلحة بن عبيد الله: أبشر يا أبا عبد الله، قد صنع الله بك خيراً، والله ما بك حاجةٌ إلى المشي. قال: ما أحسن ما صنع اللهُ إلي! وهبَ لي سبعةَ بنين، فمتعني بهم

ما شاء، ثم أخذ واحداً وترك ستةً، ووهب لي ست جوارح، فمتعني بهن ما شاء، ثم أخذ واحدة، وأبقى لي خمسةً - يدين ورجلاً وسمعاً وبصراً - ثم قال: اللهم لئن كنتَ أخذتَ لقد أبقيتَ، ولئن كنتَ ابتليتَ لقد عافيتَ[1].

فتأمل في كلمات عروة رحمه الله إذْ نَسب المفقود إلى الموجود؛ فوجد أنه في خير عظيم، فلئن ذهب ولدٌ فلقد أبقى له ستة، ولئن ذهبت جارحة فلقد أبقى اللهُ له الكثير.

لو أردنا أن نُعبّر عن هذه المصيبة على طريقة المتذمّرين؛ لوجدنا أنه سيقارن نفسَه بمن لم يفقد أي جارحة، وبمن لديه أولاد أكثر منه، أو من لم يبتلوا بفَقْد أحدهم! وهذا كله لا يُجدي على صاحبه شيئاً، فلن يُعيد هذا التذمرُ عَجَلة الزمن، ولن يعيد له ولدَه ولا قَدَمَه، مع زيادةٍ في الهمّ والغمّ قد تُذهب الأجر وتَجلب الوزر - إن صحبه تسخط - وربما تبع ذلك مشاعر سلبية - من القلق والاكتئاب - تزيد الطينَ بلّة.

إن هذا الأسلوب في التفكير - التفكير بالموجود - يحتاج إليه الأبُ والزوجُ حين يكثر الإلحاحُ من داخل البيت على شراء الكماليات بدافع التقليد والمحاكاة للآخرين، وذلك بذِكر ما عندهم وفقَدَه الآخرون، وليس العكس؛ مستشعراً قولَه ﷺ وهو يربي أمّتَه على التعامل مع ما يراه أحدُنا من تميّز غيرنا علينا في أمر الدنيا: «انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أَجدَر أن لا تزدروا نعمةَ الله عليكم»[2]، وهذا كلُّه ليس تهرباً من النفقة، ولكن لكبح جماح الرغبة في الشراء لمجرد الشراء والتقليد، وليس الحاجة.

وهذا الأسلوب في طريقة التفكير، إنما هو مفيد في التعامل مع أقدار الله المؤلمة؛ أما في باب التذكير والتنبيه على الفضائل الدينية؛ فلابد أن نعكس الأسلوب إلى: «التفكير بالمفقود»، ومن الأمثلة التي تقرِّب هذا المعنى: أن أحد الإخوة أراد أن

---

(١) ينظر: «التعازي» للمدائني (ص: ٥٦).
(٢) رواه مسلم ح(٢٩٦٣).

يتحدث عن فضل صلاة الجماعة؛ فقرَّر أن يغيّر طريقةَ الطرح المعتادة - مع أهميتها - ولكن هذه المرة بأسلوب «التفكير بالمفقود»، فذكر الفضائلَ المتعلقة بحضور الجماعة، وما الذي يخسره من لم يحضرها؟ ومن جملةِ ما ذَكر:

إذا كان الذي يحضر الجماعةَ يَفضُل صلاةَ الفَذِّ بسبع وعشرين درجة؛ فهذا يعني أن الفذ «يَفقِد» مائة وخمسة وثلاثين درجة يومياً، وقرابة الألف درجة أسبوعياً!

وإذا كان الذي يحضر الجماعةَ ينالُه هذا الفضل: «من غدا إلى المسجد، أو راح[1]؛ أعدّ اللهُ له في الجنة نُزُلاً[2] كلما غدا أو راح»[3]، فكم نُزُلاً «يفقِد» المتخلفُ عنها يومياً؟[4]

وإذا كان الذي يحضر الجماعة «لم يخط خطوة، إلا رُفعت له بها درجة، وحُط عنه بها خطيئة»[5]؛ فكم سيفوت المتخلِّف عنها مِن رفعةٍ للدرجات وحطٍ للخطايا؟

وهكذا، يمكن تفعيل هذين النوعين من التفكير في نظرتنا لسائر أنماطنا في الحياة، فأنا واثق أن النتائج ستكون - بإذن الله - أكثر إيجابية، وأعظم نفعاً.

---

(١) أصل غدا: خرج بغدوة، أي مبكرًا. وراح: رجع بعشي، وقد يستعملان في الخروج مطلقًا توسعًا، وللحديث روايتين يتبين بهما أن المراد بالغدوّ: الذهاب، وبالرواح: الرجوع. انظر: شرح القسطلاني (٢/ ٣٣).

(٢) النُّزُل: ما يهيأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٣) البخاري ح(٦٦٢)، مسلم ح(٦٦٩). النُّزُل: ما يُهيأ للضيف. انظر: كشف المشكل (٣/ ٤٠٢).

(٤) وهذا الفضل فقط لمن غدا أو راح! قال ابن بطال: «فما ظنك بما يُعِدُّ له ويتفضل عليه بالصلاة في الجماعة واحتساب أجرها والإخلاص فيها لله تعالى!» شرح صحيح البخاري لابن بطال (٢/ ٢٨٥).

(٥) البخاري ح(٦٤٧).

المجلس الثاني والخمسون بعد المائة
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عقدية، لا تزال معانيها تتجدد لأهل الإسلام في كل زمان.. إنها خبر مِنَ الذي يعلم السرّ وأخفى، ولا يخفى عليه شيءٌ من أحوال خلقه، لا حاضرًا ولا مستقبلًا: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وهذه القاعدة المحكمة وردت في سورة البقرة، تلك السورة التي تحدثت بتفصيل عن حقيقة أهل الكتاب، واليهود بشكل أخص - لكونهم يسكنون المدينة -.

ونزول هذه الآية الكريمة - كما قال بعض المفسرين - جاء عقب مرحلةٍ من محاولات النبي ﷺ لتأليف اليهود، لعلهم يستجيبون، وينقادون لدين الإسلام، فجاء هذا الخبر القاطع لكل محاولات التأليف التي كان النبي ﷺ يمارسها معهم.

إنها «آية للنبي ﷺ كاشفة عن حال أهل الملتين في عصره، ولا تزال مطردة في أمته من بعده، وقد اغتر زعماء بعض الشعوب الإسلامية؛ فحاولوا إرضاء بعض الدول بما دون اتباع ملتهم من الكفر، فلم يرضوا عنهم، ولو اتبعوا ملتهم لاشترطوا أن يتبعوهم في فهمها وصور العمل بها، حتى لا يبقى لهم أدنى استقلال في دينهم ولا في أنفسهم»[1].

(١) تفسير المنار: (١/ ٩٥).

ومع وضوح هذا النص القرآني المحكم، فإنك تأسف من شكك بعض المسلمين بهذه الحقيقة، وهذا الشك والتشكيك يأخذ صورًا شتى، تبدأ من الشك في كونهم كفارًا أصلًا! وتنتهي عند المطالبة بالتماهي والاندماج التام معهم، في مسخ واضح لأصل من الأصول الكبار، ألا وهو الولاء والبراء!

ولم يفرق هؤلاء بين ما يصلح أن يؤخذ منهم، ويستفاد منه في أمور الدنيا، وبين اعتزاز المؤمن بدينه، وتمايزه بعقيدته! وليس الحديث عن هذه الطوام التي لا يقولها عاقل قرأ التاريخ، فضلًا عمن عقل عن الله ورسوله.

ولو أردنا أن نقلب صفحات التاريخ؛ لوجدنا الجواب الذي يزيد المؤمن يقينًا بهذه القاعدة المحكمة!، فمن الذي سمّ الشاة التي وجد النبي ﷺ أثرها حتى لقي ربه؟! ومن الذي قتل الفاروق؟ ومن الذي سَمَّ جملة من الخلفاء المسلمين الذين كان لهم أثر في ضعف شوكة اليهود أو النصارى؟!

لقد غرّ بعض هؤلاء المتحدثين - بما ذكرناه آنفًا - كونهم يتعاملون مع بعض الأفراد من اليهود والنصارى فلا يجدون منهم إلا تعاملًا جيدًا - كما يقولون - وهذا قد يقع، ولكنه لا يمكن أبدًا أن يكون قاضيًا على هذا الخبر المحكم من كلام ربنا، ذلك أن العلاقة الفردية قد يشوبها من المصالح، أو تكون حالات استثنائية، فإذا جدّ الجدّ، ظهرت أخلاقهم على الحقيقة، ومن له أدنى بصر أو بصيرة أدرك ما فعلته الحروب الصليبية التي غزت بلاد الشام قبل وبعد صلاح الدين! وما فعله إخوانهم وأبناؤهم - في عصرنا الحاضر - في فلسطين والبوسنة والهرسك والعراق، إلا أكبر شاهد على ذلك.

المجلس الثالث والخمسون بعد المائة
(المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده)(١)

هذه قاعدة نبوية تجلِّي للعالَم الحقيقةَ التي يجب أن يكون عليها المسلم - ذكراً وأنثى - في باب المعاملة مع إخوانه المسلمين، فالمسلم حين يتصف بهذا الوصف العظيم؛ فهو يعلن استسلامه للذي فطر السماوات والأرض، ولأوامره ونواهيه، فهو بهذا يكون كاملَ الإسلام، وجامعاً لخصاله، ما لم يؤذ مسلماً بقولٍ ولا فعل.

والمعنى أن أفضل المسلمين: من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق الناس، والكف عن أعراضهم(٢)، **والأذى الذي يقع من الإنسان نوعان:**

أحدهما: ظاهر بالجوارح: كأخذ المال بنحو سرقة أو نهب.

والثاني: باطن: كالحسد والغل، والبغض والحقد، والكبر، وسوء الظن، والقسوة، ونحو ذلك، فكله مضر بالمسلم، مؤذٍ له، وقد أمر الشرع بكف النوعين من الإيذاء، وهلك بذلك خلقٌ كثير(٣).

ومن تأمل - مثلاً - وقْع ما يحدثه القلم - الذي تحركه اليد - وأثَرَ ذلك في العالم؛ أدرك شيئاً من مواقع هذه القاعدة العظيمة، رغم أن كثيراً من هؤلاء قد يكونوا ماتوا قبل

(١) البخاري ح(١٠)، مسلم ح(٤٠).
(٢) ينظر: شرح السنة للبغوي: (١/ ٢٨).
(٣) ينظر: فيض القدير: (٦/ ٢٧١).

قرون! فكم في الكتب من أسطرٍ شهدت على أصحابها بالأذى الذي تنوَّع في آثاره! فلله كم من ملحد أو منحرف الفكر سطّر بقلمه ما ضلّ بسببه الملايين! وكم من راوٍ سطر رواية خبيثة المحتوى، سيئة المضمون، غوى بسببها ملايين! ويقال مثل هذا في كُتاب المقالات الورقية والإلكترونية، وأصحاب المدونات، والمواقع، والمنتديات، ومواقع الفيديو، وغيرها من وسائل التواصل مع الخلق.

ويتأكدُ الاحتياطُ في عصرنا هذا الذي لم يَعُد الإنسان متحكماً في طريقة النشر التي يريدها، فوسائل الاتصال المعاصر تفرض علينا مزيداً من الاحتياط والتروي والتثبت.

ومجمل القول في هذه القاعدة النبوية:

«الحث على ترك أذى المسلمين بكل ما يؤذي، **وسِرّ الأمر في ذلك**: حسن التخلق مع العالَم، كما قال الحسن البصري في تفسير الأبرار: هم الذين لا يؤذون الذر، ولا يَرضون الشر»[(١)].

ومن أراد أن يربي نفسه على ترك أذى المسلمين بلسانه ويده؛ فليتأمل الأمرين الآتيين:

الأول: هذا الحديث القدسي الذي يرويه نبينا الكريم، عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لِأعيذنه»[(٢)].

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (١/ ١٣٢).
(٢) البخاري ح(٦٥٠٢).

فالمحافظة على الفرائض، والإكثار من النوافل؛ طريقك أيها المسلم لأن يوفقك ربُك لضبط لسانك ويدك، وجميع جوارحك.

والثاني: أن تتذكر - أيها المسلم - لحظة وقوفك بين يدي الله تعالى، وحين تعرض عليك صحيفتك! لو كانت الصحيفة مليئة بذنوب بينك وبين الله! فإن الموقف يبعث على الحياء والخجل، وإنها لعلى رجاء رحمة أرحم الراحمين، ولكن كيف تصنع إذا كانت ذنوبك بسبب أذيتك لعباد الله بلسانك ويدك؟ ذنوب كتبتها ونسيتها:

اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واجعلنا ممن أسلم لك حقاً.

المجلس الرابع والخمسون بعد المائة (الشخوص للفتن)

يقول أعلم الصحابة بالفتن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه[١]: «**إياكم والفتنَ لا يَشخَص لها أحَدٌ، واللهِ ما شَخَصَ فيها أحدٌ إلا نَسَفتْه كما يَنسِفُ السيلُ الدِّمَن، إنها مُشبِهةٌ مُقبلة، حتى يقول الجاهل: هذه تُشبِه مُقبِلةً وَتَتَبَيَّنَ مُدبِرَةً، فإذا رأيتموها فاجثموا في بيوتكم، وكسِّروا سيوفَكم، وقطِّعوا أوتادَكم**».

حين يتحدث حذيفة رضي الله عنه عن الفتن فهو يتحدث عنها حديث الخبير البصير، كيف وقد أدرك أوائلها، وعرف مداخلها ومخارجها! حتى قال: «والله إني لأعلَمُ الناسِ بكل فتنةٍ هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسولُ الله ﷺ أَسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يُحَدِّثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدِّث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله ﷺ وهو يَعُد الفتنَ: «**منهن ثلاثٌ لا يَكدْن يَذَرنَ شيئاً، ومنهن فِتَنٌ كرياحِ الصيفِ، منها صغارٌ ومنها كبارٌ**» قال حذيفةُ: فذهب أولئك الرهط كلُّهم غيري»[٢].

وتتلخص وصية حذيفة هنا - عند وقوع الفتنة - ألا يَشخَصَ لها، ولا يَبرُز لها، ولا يخوض فيها؛ فهي بمثابة البحرِ الذي انفجرَ، والسيلِ الذي المنهمرَ، وما الذي

(١) جامع معمر بن راشد - الملحق بمصنف عبدالرزاق - (١١/ ٣٥٩)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٤٩٥).
(٢) مسلم ح(٢٨٩١).

يُتوقَّع مِن مصير مَن يواجه البحرَ إذا انفجر! والسيلَ إذا انهمر؟! سيجرفه جرفاً، وينفسه نسفاً، كما ينسف السيلُ إذا لاقى الدِّمَن - وهي آثار البعر -!

وقد أشار حذيفة ﷺ إلى معنى مهمٍّ جداً عند حدوث الفتنة، وهو: أنها تشتبه على أكثر الناس، فيختلط الحقُ بالباطل، والصوابُ بالخطأ، ويتنازع الناسُ الأمرَ، ويتحدثُ الصغيرُ والكبيرُ، والعالمُ والجاهلُ، وهذا مِن أسباب تعقّد الأمر - كما هو معلوم -.

وإذا كان الدَّورُ - في أوقاتِ الفتنِ - مناطاً بأهل العلم وأهل الرأي والرسوخ؛ فحقٌّ على مَن سواهم أن يأتمروا بأمرِهم، وألا يدعوا المجالَ لصغار الرأي أو السِّن، فإن الفتنة بطبيعتها تُعمي عن النظر في المآلات، وكثرةُ الحديث فيها مِن كل أحدٍ يضيّق المجالَ في الحل، والموفَّقون للتعامل معها وِفْقَ المراد قِلَّةٌ، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «**إن الفتنة إذا أقبلت عرفها العالم، وإذا أدبرت عرفها كلُّ جاهل**»(١).

ومِن أعظم ما يُذَكَّر به عند بروز قرْن الفتن: لزومُ جماعة المسلمين، والسمعُ والطاعة بالمعروف لمن ولاّه الله تعالى أمرَ المسلمين، والصدورُ عن رأي العلماء الراسخين الصادقين - الذين يقولون كلمة الحق، لا يخافون في الله لومةَ لائمٍ - وتركُ الكلام في الفتنةِ إلا للكبار الذين يُدرِكون المآلات والعواقب.

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٤).

المجلس الخامس والخمسون بعد المائة
(حاجز المهنة)

الانتساب إلى مهنةٍ مِن المهَن - كالطب والهندسة والتعليم والزراعة وغيرها - قديمٌ قِدَم دبيب أقدامِ البشر في الأرض.

لقد كان الغالبُ على المنتسبين لمهنَتهم الاكتفاءَ بها، والانشغالَ بتطوير ذاته، أو البقاء من رسومها على ما يحقّق رزقًا له ولأولاده، فلما جاء الإسلامُ نقلَ أهلَه إلى فضاءٍ أرحب، وميادينَ أوسع، جعلتِ الهمّ الأكبرَ الذي يدورُ حولَه الإنسانُ هو همّ الإسلام، مهما كانت مِهَنُهم، وعلى اختلاف مستوياتهم، فلا يحجزهم عن حملِ رسالةِ الإسلام كونهم ليسوا طلبة علمٍ بَلْه علماء بالشريعة.

بل امتد حملُ هذا الهمّ إلى مَنْ ينشغلون عادةً بخاصةِ أنفسهم، أو أناس وقعوا في بعض المعاصي فسُجنوا، ويحضرني هنا مثالٌ مرّ بي في ترجمة الإمام أحمد رحمه الله حيث يقول: ما سمعتُ كلمةً منذ وَقعتُ في الأمر الذي وقعتُ فيه؛ أقوى من كلمةِ أعرابي كلَّمني بها في رَحبة طَوق، قال لي: يا أحمد! إن يَقتلك الحقُّ متَّ شهيدًا، وإن عشتَ عشتَ حميدًا، قال: فَقوّى قلبي[1]، ولما تكلّم الإمامُ أحمد عن خوفه من فتنة السوط، وأنه يخاف أن لا يصبر! سمعه بعضُ أهلِ الحبس فقال: لا عليكَ يا أبا عبدالله! فما هو إلا سَوطان ثم لا تدرى أين يَقع الباقي! فكأنه سُرِّي عنه[2].

(١) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص: ٤٢٢).
(٢) مناقب الإمام أحمد، لابن الجوزي (ص: ٤٢٧).

وتمتد هذه النماذجُ المشرقةُ إلى عصرنا؛ لنرى شباباً أفاضل من تخصصات غير شرعية، تمثّلوا هذه الحقيقة؛ فسعوا إلى توظيف تخصصاتهم، والمهن التي ينتمون إليها في نشر الخير، والدعوة إلى الله، ولسانُ حالِ أحدِهم يقول: لعلّي أكون من أهل هذه الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

ومن الأمثلة القريبة: ما فعله بعضُ الشباب - في رمضان الماضي - من تسخير موقع التواصل الاجتماعي (سناب شات) للتعريف بمكة؛ من خلال حملة سُخِّرت للنقل الحيّ لشعائر التراويح، ومشهد الطواف، الأمرَ الذي ترتَّب عليه إسلامُ عددٍ ممن كان يتابع ذلك البث، ومنهم من لم يكن يعرف مكة مِن قبْل، فقادته تلك الجموعُ التي رآها في العشر الأواخر إلى السؤال عن الإسلام، ولعلّهم اهتدوا بسبب ذلك.

لم يكن ذلك الشابُ والفريقُ الذي معه - ممن تبنّوا الفكرة - مِن حمَلَة الشهادات الشرعية، بل كانوا مِن ذوي التخصصات التقنية..لكنه حبّ الخير، والرغبة في الدعوة إلى الله باستخدام هذه الوسيلة، فلله درّهم، وبارك فيهم، وأكثر مِن أمثالهم.

وفي القطاع الصحي، تَقرُّ العينُ حين تَرى مَن انبرى لدعوةِ الوافدين - من مسلمين وغيرهم - داخل القطاع الصحي، فهذا طبيب، وآخر صيدلي، وثالث ممرض، كلهم يتسابقون إلى التعاون مع مكاتب التوعية الدينية في المستشفيات، فنفع الله بجهودهم كثيرًا، وأنقذ اللهُ بهم فئاماً من النار.

ونجد بعضَ الموفَّقين من معلميّ اللغة الإنجليزية، يبادرون قبل أن يُسْألوا، بادَروا بالتواصل مع مكاتب توعية الجاليات؛ ونُصْبُ أعينهم قوله ﷺ: «**فوالله لأن يهدى بك رجل واحد خير لك من حُمْرِ النعم**»[1]، فيجتهدون في الدعوة، وإيصال رسالة الحق إلى من ضل عنه، وهمُّ أحدِهم: كم سيدخل الإسلام بسببي من إنسان؟!

---

(١) البخاري ح(٢٩٤٢) واللفظ له، ومسلم ح(٢٤٠٦).

وأعرفُ أحدَ الشباب ممن يعمل في قطاع المقاولات، جعل دعوة الجاليات همّه الأكبر، فلما حمل هذا الهمّ اجتهد في اغتنام كل وسيلةٍ لدعوتهم، ويقول: أتمنى ألا أموت حتى يُسلِم على يديّ أكثر من ٣٠٠،٠٠٠ كافر، وأظن أن الذين أسلموا على يديه حتى الآن فاقوا عشرين ألفاً.

إنها دعوةٌ لكل مسلم أن يَحمل رسالةَ الإسلام ما استطاع إلى ذلك سبيلا.. وأن يغتنم ما يسّره اللهُ من وسائل لخدمة الدين، فإن كَسِل، فاللهَ اللهَ أن يُؤتَى الإسلام من قِبَله! ولا يكن صاداً عنه بسوء أفعاله وتصرفاته: «فليكفّ شره عن الناس، فإنها صدقة منه على نفسه»[1]، والله يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

(١) انظر: البخاري ح(٢٥١٨)، مسلم ح(٨٤).

المجلس
١٥٦

المجلس السادس والخمسون بعد المائة
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ...﴾

هذه قاعدة إيمانية، لها صلة عظيمة بعبادة من أعظم العبادات، ألا وهي عبادة الدعاء، والتي جاءت تعقيبًا على جملةٍ من آيات الصيام، فلنقف على شيء من هداياتها:

أولاً: اشتمل القرآن على أربعةَ عشر سؤالًا، وكلها تبدأ بـ (يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ (قل) أو (فقل) إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأ بهذه الجملة الشرطية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ وجاء جواب الشرط من دون الفعل: قل، بل قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فكأن هذا الفاصل مع قصره (قل) كأنه يطيل القرب بين الداعي وربه، فجاء الجواب بدون واسطة: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ تنبيها على شدة قرب العبد من ربه في مقام الدعاء!.

ثانياً: أي رأفة ورقّة تحملها هذه الكلمة: ﴿عِبَادِي﴾! فقد أضافهم إلى نفسه العليّة سبحانه وبحمده، فأين الداعون؟ وأين الطارقون لأبواب فضله؟!

ثالثاً: تأمل في قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ففيها إثبات قربه الخاص من عباده جل وعلا، وهذا من أعظم ما يدفع المؤمن للنشاط في دعاء مولاه.

رابعاً: في قوله: ﴿أُجِيبُ﴾ ما يدل على قدرة الله وكمال سمعه سبحانه، وهذا ما لا يقدر عليه أي أحد إلا هو سبحانه!

إن أي ملك من ملوك الدنيا – ولله المثل الأعلى – مهما أوتي من القوة والسلطان لا يمكنه أن ينفذ كل ما يطلب منه؛ لأنه مخلوق عاجز، لا يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض والموتَ، فضلًا عن غيره، فتبارك الله القوي العزيز، الرحيم الرحمن.

خامساً: مع قوله: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ ففيها تنبيه على أنه مع سعة علم الله بحال العباد، لكنه يحب منهم أن يدعوه، ويظهروا الافتقار والحاجة، مستشعرين كرم الله وجوده.

هذا ربك – أيها المؤمن – ملكُ الملوك، الذي لا يشبه مُلْكَه ملك، ولا سُلْطَانه سلطان، لا تحتاج إذا أردتَ دعاءه إلى مواعيد، ولا إلى أذونات، ولا شيء من ذلك، إنما هو رفع اليدين، مع قلب صادق، وتسأل حاجتك، كما قال بعض السلف: «من مثلك يا ابن آدم! خلي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت على ربك، وليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان»؟![1].

فيا لها من نعمة لا يعرف قدرها إلا الموفق، وإلا الذي يرى ما وقع فيه كثير من جهال المسلمين من التوسل بالأولياء والصالحين، أو ظنهم أن الدعاء لا يقبل إلا من طريق الولي الفلاني أو السيد الفلاني!!

فما أجمل العبد وهو يظهر فقره وعبوديته بدعاء مولاه، والانكسار بين يدي خالقه ورازقه، ومَنْ ناصيته بيده! وما أسعده حينما يهتبل أوقات الإجابة ليناجي ربه، ويسأله من واسع فضله في خيري الدنيا والآخرة!

---

(١) حلية الأولياء: (٢/ ٢٢٩).

المجلس السابع والخمسون بعد المائة
(كلكم راعٍ، وكلكم مسئولٌ عن رعيته)[١]

هذه قاعدة من القواعد النبوية المحكمة في أبواب العلاقات البشرية، إنها قاعدة جامعة، بديعة التشبيه، بليغة الموعظة، إنها رسالة تقول: كلكم راعٍ في هذه الدنيا، وكلكم مسئول عن رعيته في الآخرة، «وهو تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه»[٢].

والرعي هو: حفظ الشيء، وحسن التعهد له، والراعي: هو الحافظ المؤتمن، الملتزم صلاحَ ما قام عليه وما هو تحت نظره، فكلّ مَن كان تحت نظره شيءٌ فهو مطلوب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإن وفّى ما عليه من الرعاية؛ حصل له الحظ الأوفر، والجزاء الأكبر، وإن كان غير ذلك طالَبه كلُّ أحدٍ من رعيته بحقِّه[٣].

ثم فصّل عليه الصلاة والسلام فقال: الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسئول عن رعيته» قال ابن عمر: - وحسبت أن قد قال -: «والرجل راعٍ في مال أبيه ومسئول عن رعيته»[٤].

---

(١) البخاري ح(٨٩٣)، مسلم ح(١٨٢٩).
(٢) فتح الباري: (١٣/ ١١٣).
(٣) عمدة القاري: (٦/ ١٩٠) بتصرف يسير.
(٤) البخاري ح(٨٩٣).

«هذه كلها أمانات تلزم من استُرْعِيَها أداءُ النصيحة فيها لله، ولمن استرعاه عليها، ولكل واحدٍ منهم أن يأخذ مما استُرعي أمرَه ما يحتاج إليه بالمعروف - مِن نفقة ومؤنة -»[1].

«فقد استوى هؤلاء في الاسم ولكن معانيهم مختلفة:

أما رعاية الإمام ولاية أمور الرعية: فالحياطة من ورائهم، وإقامة الحدود والأحكام فيهم.

ورعاية الرجل أهله: فالقيام عليهم بالحق في النفقة، وحسن العشرة.

ورعاية المرأة في بيت زوجها: فحسن التدبير في أمر بيته، والتعهد بخدمة أضيافه.

ورعاية الخادم: فحفظ ما في يده من مال سيده والقيام بشغله»[2].

ولو أردنا أن نقلّب النظر في واقع كثيرٍ من المسلمين مع هذه القاعدة؛ لوجدنا خرقاً واضحاً لهذه الوصية النبوية وللأسف، ولن يتعب الناظر في جمع الشواهد، ومن ذلك:

١ - التقصير البيّن في تربية الأبناء والبنات.

٢ - ما يقع من تقصير بعض من أوكل إليه من قِبَل وليّ الأمر إدارة أو رئاسة أو أي وظيفة من وظائف الدولة، فربما وقع التقصير في حضور الدوام، أو إنجاز ما يجب إنجازه، أو تأخير ما لا يحل تأخيره، وتعطيل مصالح الناس بلا عذر، وأشدّ من هذا أخذ الرشوة مقابل سرعة الإنجاز! وهذا كلّه خيانة لأئمة المسلمين وعامتهم.

---

(١) قاله المهلّب كما في شرح البخاري لابن بطال (٧/ ٧٠).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٦/ ٢٤٠٢).

٣ - ما يقع في ميدان التعليم، من تقصير بعض المعلمين في النصح لتلاميذهم، ومن صور ذلك: عدم التحضير الجيد للمادة العلمية، و التقصير في نصح المخطئ من الطلاب.

٤ - تقصير بعض الأئمة والمؤذنين في أداء وظيفتهم التي أنيطوا بها.

وتَعظُم الأمانة وتكبر التبعة كلما كان المتعلقون بهذه الوظيفة أكبر.

إن هذه القاعدة النبوية العظيمة منهجٌ عظيم في العلاقات بين الخلق، وهو مما يربي في المؤمن - الذي يرجو الله واليومَ الآخر - الخوف من الله واستشعار الأمانة، وأن الله تعالى سائله عما استرعاه.

اللهم اجعلنا رعاة خيرٍ وصدق لأنفسنا ولمن وليتنا عليه، وأعنا لإعطاء كل ذي حقٍ حقه، وأجرنا من الظلم خفيه وجليه، دقيقه وجليله.

المجلس الثامن والخمسون بعد المائة
(الحق الثقيل والباطل الخفيف)

يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: **«إن الحقَّ ثقيلٌ، وهو مع ثِقَلِه مَريءٌ، وإن الباطلَ خفيفٌ، وهو مع خفَّتِه وبيءٌ، وترْكُ الخطيئةِ أيسر - أو قال خيرٌ - مِن طلَبِ التوبة، ورُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثتْ حزناً طويلاً»**[1].

تضمنت هذه الموعظةُ جملتينِ مهمتينِ:

الأولى: وَصَفَ فيها الحقَّ والباطلَ فقال: **«الحقَّ ثقيلٌ، وهو مع ثِقَلِه مَريءٌ»** ومرادُه بالثِّقَل هو ثقل التحمُّل، وثقل العِبْءِ الذي يترتب على حَمله، كما أشارت إليه آيةُ الأمانةِ في خواتيم سورة الأحزاب: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ومع كون الحق ثقيلاً، فإنه مريءٌ، أي سهل التقبّل؛ لأن الحق موافق للفطر السليمة، بخلاف الباطل، فإنه خفيف؛ لموافقته لغالب الأهواء والشهوات، فتنقاد معه، وتستسلم له؛ ولهذا تجود النفوسُ في هذا السبيل بالأموال والجهود، لكنه مع ذلك فهو وَبيءٌ وخطيرُ العاقبة، وهكذا هي حال المحرمات كلها؛ يتعاطاها أهلها لذةً عابرة، ثم تعقُبها حسراتٌ لا يعلمها إلا الله.

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢٩١).

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وأجهل الجهَّال مَن آثر عاجلاً على آجلٍ لا يأمن سوءَ مغبَّته! فكم قد سمعنا عن صاحب مالٍ أطلقَ نفسَه في شهواتها، ولم ينظر في حلالٍ وحرامٍ، فنزل به مِن الندم وقتَ الموتِ أضعاف ما التَذَّ، ولقي من مريرِ الحسرات ما لا يقاوَم ولا ذرةً منه كلُّ لذة! ولو كان هذا فحسب لكفى حزناً، كيف والجزاء الدائمُ بين يديه؟!»(١).

والجملة الثانية التي تضمنتها موعظة حذيفة رضي الله عنه: «**وترْكُ الخطيئةِ أيسر - أو قال خيرٌ - مِن طلَبِ التوبة، ورُبَّ شهوةٍ ساعةٍ أورثتْ حزناً طويلاً**» وصدق رضي الله عنه، فإن ترك المعصية وإن كان فيه ثقل، إلا أنه أيسر من طلب التوبة، إذ قد لا يدركها العبدُ، ولو أدركها زماناً فقد لا يوفَّق لها؛ عقوبةً له على تقحُّم الحِمَى، ولهذا قال رضي الله عنه: «**ورُبَّ شهوةٍ ساعةٍ أورثتْ حزناً طويلاً**»، ذلك أن اللذة في المعصية - مهما طال زمنها - فما تُورثه مِن حُزنٍ أطول وأشقُّ، ومَن تأمل في آثارِ معصيةِ إطلاق النظر المحرَّم؛ أدركَ معنى هذه الحقيقة التي أشار إليها حذيفة رضي الله عنه، «فالنظْرةُ تجرح القلبَ جرحاً، فيتبعها جُرحٌ على جرحٌ، ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها... **وقد قيل**: إن حبس اللحظات أيسر مِن دوام الحسرات»(٢).

وبالجملة فإن ألم الصبرِ على ترك المعصيةِ أقلُّ وأيسرُ من آلامِ وحسراتِ الآثار التي يجدها العاصي بعد ذلك، والتي لو لم يكن منها إلا أنها تُضعِفُ وتوهِنُ سيرَ القلبِ إلى الله، والوحشة العظيمة التي تقع في قلب العاصي؛ لكفى بهما مصيبة، فإن لم يشعر العاصي بهاتين العقوبتين فليبحث عن قلبه فليس له قلب!

---

(١) صيد الخاطر (١٨٨) بتصرف يسير.
(٢) الجواب الكافي (١٥٤).

المجلس التاسع والخمسون بعد المائة
(اسمٌ مستعار)

دأَبَ بعضُ الشعراء والكُتّاب والمغرّدين على الكتابة باسم مستعار في المنتديات ومواقع التواصل؛ بغية السلامة من النقد اللاذع في أول التجارب، أو خوفاً من الفشل، أو لغير ذلك من الأسباب، وهذا مقبولٌ ومفهوم إذا كان الإنسانُ يريد أن ينشر بعضَ القصائد أو المقالات ذات البُعد الاجتماعي أو التربوي، لكن ما الذي يدعو مَنْ يتكلم في قضايا الأمة الكبرى، أو يقوم مقامَ مَن يوّجّه الآخرين لذلك؟!

إن حساسيةَ الموضوع، أو جرأَةَ الفكرة لا تحْتملُ التخفّي، ولا يُقبل فيها التستُّر في هذه المقامات، فمن نصّبَ نفسه لهذه الميادين؛ فعليه أن يكون شجاعاً، ويتحمل تَبِعةَ كلمته، فالكلمة أمانةٌ، والقيادةُ العلميةُ أو الفكرية تبعةٌ ومسؤولية عظمى؛ لا يمكن أن تُربط بشخصيات مجهولة!

وبعضُ الناس يهوّن من ذلك بقوله: الأهمّ هنا هو الفكرة، وهذا ليس بدقيق؛ فمعرفة المتحدِّث - الذي نَصب نفسه للتوجيه - لا تَقلُّ أهميةً عن معرفة حقيقة فِكره، وفي معرفة الاسم فوائد تختصر كثيراً من السجالات التي لا يخلو منها هذا النوع من الأطروحات.

والغالب أن مَن يكتب وينشر باسم مستعار، سيعيش مختفياً ويكتب مختفياً، ويموت مختفياً! فيذهب ما يطرحه - إن كان مفيداً - ويُنسب إلى مجهول! ومَن ولجَ عالم المخطوطات؛ أدركَ ما قيمة المخطوط المجهول عند أهل الاختصاص!

إن مِن أخطر مواضع هذا النوع من «التستر» حينما يَنبري أناسٌ للحديث في القضايا الكبرى والمعقّدة، ذات الأبعاد الشرعية أو الفكرية أو السياسية، أو بها جميعاً، فينصب نفسَه خَلْفَ معرّف على مواقع التواصل؛ ليوجّه الشبابَ ويَصوْغ عقولَهم، وهم - لفرط حماسهم - ينساقون ولا يَسألون عن اسمه، ولا عن تاريخه العلمي أو الفكري أو السياسي، بل يروّج هؤلاء المتسترّون مقولةَ حقٍّ يُراد بها تمرير بعض الأفكار الغالية أو الجافية، ثم يقول: دعك من اسمي، وانظر إلى كلامي!

ومما قد يَخفى على بعض الشباب - الذين ينجرفون خلف هذه المعرّفات المجهولة - أنها قد تُدار بأيدي استخباراتية محترفة، لديها أجندة معيّنة للتغرير بالشباب والفتيات، ودَفْعهم إلى مواطنَ ملتهبة، أو أماكن اشتعلت فيها نارُ الفتنة، وربما ظهرت بصورٍ تَستدرُّ العواطف، وتستهوي الناظرَ لها؛ فيقعون فريسةً وهم لا يشعرون.

ولئن كان التخفي باسم مستعارٍ مقبولاً في قضايا الأدب، أو الاقتصاد؛ فلا يمكن قبولُه في قضايا الشرع والفتيا، وقضايا الأمّة المصيرية، فالله تعالى حينَ أمرَ بالسؤال عند المشكلات؛ أمر بالرد إلى أهل العلم المعروفين به: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ورحم الله عمر بن عبد العزيز حين قال: «إن العلم لا يَهلك حتى يكون سِرّاً»(١)، ومن صور الاستسرار به: الكتابة في هذه الموضوعات باسم مستعارٍ مجهول.

إن الكتابة بالاسم الصريح تعني: تحمّل المسؤولية، وأمانةَ الحرف والكلمة، بل وأدعى لاحترامه، وتقدير وجهة نظره مِن قِبَل المخالفين - بلْه الموافقين - وأما السفهاءُ فلن يردعهم عن الردود الفجّة اسمٌ مستعارٌ ولا عالمٌ جليل له قدْره ومكانته، والله المستعان.

---

(١) صحيح البخاري (١/ ٣١).

المجلس الستون بعد المائة
﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

هذه قاعدة من أعظم القواعد الشرعية التي يفزع إليها العلماء في فتاويهم.

وقد جاءت هذه القاعدة المحكمة في سورة التغابن، وفي تدبر سياقها ما يحسن إيراده هنا، خاصةً وأن هذه القاعدة بدأت بالفاء التي يسميها بعض العلماء: فاء التفريع، أي أن ما بعدها فرعٌ عما قبلها، ذلك أن الله جل وعلا قال قبل هذه القاعدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥] ثم جاء التعقيب بعد هذا بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

«أي: إذا علمتم هذا، فاتقوا الله فيما يجب من التقوى في معاملة الأولاد والأزواج ومصارِف في الأموال، فلا يصدّكم حب ذلك والشغل به عن الواجبات، ولا يخرجكم الغضب ونحوه عن حدّ العدل المأمور به، ولا حُبُّ المال عن أداء حقوق الأموال وعن طلبها من وجوه الحلال،... ولما كانت التقوى قد يعرض لصاحبها التقصير في إقامتها زيد تأكيد الأمر بالتقوى بقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، فشمل بذلك جميع الأزمان، وعموم الاستطاعات»[1].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٥٨) باختصار.

إن هذه القاعدة القرآنية لتدل بوضوح على أن كل واجب عجز عنه المكلف، فإنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»(١) فدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يمكن حصره، ومن تطبيقات هذه القاعدة:

١ - فيما يجب له التطهر من العبادات: فمن عجز عن الماء لعدمه أو تعذر استعماله، فإن العبد ينتقل إلى التيمم، سواء كان هذا في الحدث الأكبر أم الأصغر.

٢ - الأصل في صلاة الفريضة أن يؤديها المصلي قائمًا، فإن عجز صلى جالسًا، وإلا صلى قاعدًا.

٣ - وفي الصيام: مَنْ كان الصوم يشق عليه مشقة ظاهرة أفطر وانتقل إلى الإطعام.

٤ - وفي الحج: فهو لا يجب على من عجز بماله، ومَنْ عجز ببدنه وقدر بماله أقام من يحج عنه، وكذلك في الرمي، مَنْ عجز لأي سبب معتبر شرعًا، والحج من أكثر أركان الإسلام فروعًا تطبيقيةً لهذه القاعدة العظيمة.

وبما سبق من أمثلة يتجلى لنا عظيم موقع هذه القاعدة من هذا الشرع المطهر، الذي مبناه على اليسر والسعة، فالحمد لله على ذلك كثيرا.

---

(١) البخاري ح(٦٨٥٨)، ومسلم ح(١٣٣٧).

المجلس الواحد والستون بعد المائة
(فاظفر بذات الدين)[1]

قال رسول الله: ﷺ «**تُنكح المرأةُ لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها؛ فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك**».

ولا يستريب إنسان أن الشرع لا يمنع من تلمّس هذه المقاصد، بشرط عدم إهمال المعيار الأهم، الذي لا يصح أن يغيب عن ذهن الباحث عن الزوجة؛ ألا وهو معيار التدين؛ فإن ذات الدين إذا وُجدتْ لا ينبغي العدول عنها؛ لأنها ضجيعة الرجل وأم أولاده، وأمينتُه على ماله وسِره وشرَفه، فدينُها يجعل الرجل مطمئناً، يفضي إليها بذات نفسه، ويُطلِعها على مكنون أمره، وتكونُ الحفيظةَ على ماله ومنزله، المربّيةَ لأولاده على التقوى والصلاح؛ فهو بها سعيد، وهي به سعيدة: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

أما ذاتُ المال التي لم تَعتصم بالدّين: ولم تَتَحَلّ بالتقوى؛ فقلّما يدوم له صفاؤها، ويُساس قِيادُها، وقلما تَرعى حقوقَه، وتكونُ له البارة المطيعة، وإنما تعتز عليه بمالها، وتفخر بثرائها.

وأما ذاتُ الحسَب: فإنها تُدِل على زوجها بحَسَبها؛ وتفخر عليه بعديدها، وبخاصة إذا كان أقل منها عددا؛ فلا يشعر معها بهناءة ولا سعادة، أو يُطأطيء لها رأسَه، ويُذل نفسَه.

---

(١) البخاري ح(٥٠٩٠)، مسلم ح(١٤٦٦).

وأما ذاتُ الجمال العارية من التدين: فقد تكون مبعَثَ ظِنةٍ، ومجلبةَ ريبة.

إن المشاهد والمعروف في الواقع: أن جمال الوجه، وحسن القوام يذبل مع تقادم العهد وطول الزمن، ويفقد نضرته مع الأيام، **أما جمال الروح، وروعة التدين فلا تزيدها الأيام إلا جِدّة، وحلاوة.**

ومن المعلوم أن الإنسان أن لن يجد المرأة الكاملة التي لا نقص فيها ولا عيب! فالكمال لله، وطبع البشر هو النقص والعيب، ومتى كمُل هو أصلاً مِن كل نقصٍ حتى يطلب امرأةً كاملة؟! وإنما عليه أن يسدد ويقارب، ويتحرى الظَفَر بذات الدِّين، ويسأل ربَّه التوفيق.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام - في هذه القاعدة -: «فاظفر» إشارة إلى سرعة المبادرة والسبق إليها، وعدم التباطؤ أو التأخر.

وما قيل في اختيار المرأة يُقال في اختيار الرجل؛ وكما قيل للرجل: «فاظفر بذات الدين» يقال للمرأة: «فاظفري بصاحب الدِّين».

ويجب على وليِّ المرأةِ أن يختارَ لها الرجلَ الدَّيِّن، صاحبَ الخُلُق والمروءة، وأن يظفر به، ولا يعضُلها ويمنعها من الزواج، أو يؤخرها كثيراً طمعاً في مالها! فيكون ظالماً لها، ولا يُكرِهها على الزواج ممن تكرهه ولا تُحبه، بل يَعرض عليها مَن يرى فيه مكافئته لها مِن ذوي الدين والخُلُق ممن تقدم لخطبتها، ثم يترك الخيار لها.

وفي صحيح مسلم يقول ﷺ: «الدنيا كلُّها متاع، وخيرُ متاعِ الدنيا المرأةُ الصالحة»[1] أي: أن الدنيا إنما هي شيءٌ يُتمتع به، كما يَتمتع المسافرُ بزادِه ثم ينتهي، وخيرُ متاعها

---

(١) مسلم ح(١٤٦٧).

المرأةُ الصالحة؛ إذا وُفق الإنسان لامرأةٍ صالحة في دينها وعقلها فهذا خيرُ متاع الدنيا؛ لأنها تحفظه في سِره، وماله، وولده[1].

اللهم وفقنا في جميع شؤوننا لما تحب وترضى، وارزق أبنائنا زوجاتٍ صالحات، وبناتنا أزواجاً صالحين، وأصلح شباب وشابات المسلمين.

(١) شرح رياض الصالحين: (٣/ ١٣٦) بتصرف.

المجلس الثاني والستون بعد المائة
(الانسلاخ البطيء من الدين)

قيل لحذيفة بن اليمان ﵁: أتركتْ بنو إسرائيل دينَها في يومٍ واحد؟ قال: «**لا، ولكنَّهم كانوا إذا أُمِروا بشيءٍ تَركوه، وإذا نُهُوا عن شيءٍ رَكِبوه، حتى انسَلَخوا مِن دِينِهم كما يَنسلِخُ الرجلُ مِن قَميصِه**»[1].

يا لها من موعظة مخيفة!

فحذيفة ﵁ يُبين حقيقةً قد تخفى على بعض الناس، وهي أن الانسلاخ من الإيمان لا يكون فجأة في الأمة، أو الجماعة، ولكنه يأتي شيئاً فشيئاً، ولا يظلم ربُك أحداً.

إن من أخطر ما تُبتلى به الأمةُ أن تَركبَ ما ركبه بنو إسرائيل، حين تترك الأوامر، أو تركب النواهي، وهذا وإن لم ولن يحدث للأمةِ كلها، إلا أنه لا يَسلم منه بعضُ الأفراد، وفي كلمةِ حذيفة تصريحٌ بالسبب العام لهذا الانسلاخ الذي يعاقَب به بعض الناس.

ومن الآيات المخيفة التي تتحدث عن الانسلاخ من الدين قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

---

(١) السنة للخلال (٤/ ١١٨).

فاتباعُ الهوى وإيثارُه على مراد الله؛ والتعلُّق الشديدُ بالدنيا الذي قطع قلبَه عن الله والدار الآخرة؛ كل ذلك كان سبباً في انسلاخه - والعياذ بالله -!

ومن تأمل في كلامِ الأئمة وجَدَ فيه تنصيصاً على جملةٍ من الأسباب التفصيلية لهذا الانسلاخ الذي تُضرَب به بعضُ القلوب والعياذ بالله، ومن ذلك ما عبّر عنه ابن القيّم في نونيته:

والله ما خوفي الذنوبَ فإنها
لعَلَى طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخَ القلب مِن
تحكيمِ هذا الوحيِ والقرآن
ورِضاً بآراءِ الرجالِ وخَرْصِها
لا كان ذاك - بمنةِ الرحمن -
فبأي وجهٍ ألتقي ربي إذا
أعرضتُ عن ذا الوحي طولَ زمانِ
وعزلتُه عمّا أُريدَ لأجله
عَزلاً حقيقياً بلا كِتمان

المجلس الثالث والستون بعد المائة
(لحظات الاحتضار بين حَيرةِ المتكلمين.. ويقينِ العجائز)

شيّعْنا في الأسبوع الماضي[1] امرأةً تجمعني بها آصرةٌ من قرابة ومصاهرة، وليست هذه المقالة في الحديث عنها - مع أنها تستحق رحمها الله - لكنه حديثٌ ينطلق من بعض مواقفها؛ ليعبِّر عن نموذجٍ يتكرر في أترابها من كبار السنِّ رجالاً ونساءً.

عُمّرتْ المرأةُ المذكورة نحو المائةِ عام، وفي أواخر حياتها اعتراها ما يعتري كبيرَ السنّ مِن ضعف، فكانت تسمع من أبنائها الدعاءَ المعتاد بطول العُمُر، ونحو ذلك، فكانت تقول: (يكفي ما عِشْنا.. لقد اشتقتُ للموت)! وتُتَمْتِم بكلماتٍ تُشعِرك بالشوق للقاء الله.

هذه التمتمات المعبِّرة عن الشوق للموت، ظهرتْ جلياً وبوضوح عند نزول الموت - كما حدّثني ابنُها - فإنها لما ضَعُف تنفّسها في الساعات الأخيرة، وأرادوا الذهاب بها إلى المستشفى؛ كانت تردد هذه الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، فلما نزل بها الموتُ، لم تزِد على أن قالت: هلا بالله.. هلا بالله.. هلا بالله! أشهد أن البعثَ حقٌّ، ثم فاضت روحُها رحمها الله!

إنها لحظات لا يمكن التمثيل فيها أبداً، بل المتحدّث الرئيس فيها هو القلبُ الذي كان يعيش أجملَ لحظاته، وهو يُدْبِرُ عن هذه الحياة المنغصّة؛ ليُقبِل على فواتح

---

(١) كان هذا في شهر ٤/ ١٤٣٦هـ.

الرحمة الإلهية، نقولها إحساناً منّا للظنّ بالرب الكريم الذي كانت تعبدُه هذه المرأة، وأمثالها من المؤمنين الموقنين بل المشتاقين للقاء الله.

يحدّثني ابنُها أنها في تلك الليلة - التي فاضت فيها روحُها قرابة الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً - قرأتْ بعد المغرب الأذكارَ كاملةً، ومنها: سيد الاستغفار، الذي قال النبي ﷺ عن كلمات هذا الدعاء العظيم: «مَن قاله من النهار موقنًا به، فمات من يومه قبل أن يُمْسي؛ فهو من أهل الجنة، ومَن قاله من الليل وهو موقنٌ به، فمات قبل أن يُصبِح؛ فهو من أهل الجنة»[1].

هذا النوع من كبار السنّ، لم يدخلوا يوماً مدرسةً يتعلمون فيها، ولا جلسوا بين يَدَي معلّمٍ في الكتاتيب، لكنّهم رضعوا معاني اليقين عبر كلماتٍ يسيرة تلقّوها في صِغَرهم من والديهم، وافقت فطرةً نقيّة لم تتلوث بشيءٍ من نواقض الفطرة ونواقصها، ولا عبثِ الفكر، بل كانت حياتهم عامرةً بحب الله ورسوله، والقيام بأنواعٍ مِن العباداتِ البدنية واللسانية والمالية، التي يُرى أثرُها في بوارِق السرور الذي لا تُخطئه العينُ والأذن، سواءٌ في فلتات اللسان، أو على صفحاتِ الوجه، رغم المصائبِ التي تمرّ، والمنغصات التي لا تخلو منها هذه الحياة.

لقد طاف بي طائفٌ - وابنها يحدثني عن خاتمة أمّه، والتي لها نظائر كثيرة - من أخبار العلماء الذين خاضوا في علوم الفلسفة والكلام، ممن عاشوا لحظاتِ الوداع الدنيوي، وختامِ المطاف في هذه الحياة، وكيف اتفقتْ كلماتُهم على الحيرة، والقلق، والرغبةِ في الموت على دِين العجائز، الذي لم يتلوث بهذه العلوم التي عَظُم ضرَرُها.

هذا أبو المعالي الجويني يقول في آخر حياته: «لقد خضتُ البحرَ الخِضَمَّ، وخلّيت أهلَ الإسلام وعلومَهم، ودخلتُ في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني

---

(١) البخاري ح(٦٣٠٦).

ربي برحمته؛ فالويل لابن الجويني! وها أنا أموت على عقيدة أمي، ويُروَى أنه قال: على عقيدة عجائز نيسابور». وقال مرةً لأصحابه: «لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلتُ به»(١).

وهذا الفخر الرازي يقول - بعد صولات وجولات في علم الكلام ـ: «مَن التزم دِين العجائز فهو الفائز»(٢).

واليوم تَعود المطالبةُ لسلوك طريقةِ هؤلاء - الذين جرّبوا مَرارةَ البعدِ عن العلومِ الصحيحة - لكن باسم الحرية الفكرية، والاستقلال في النظر، والاطلاعِ المطلق على تراثِ الآخرين، دون تمييزٍ أو تمحيص، أو تفريقٍ بين قادرٍ على التمييز مِن غيره!

وإنّ أولَ مَن سيكتوي بنارِ هذه الدعوى المطلقة والمجرّدة من كل قيْد: هم الداعون أنفسهم - إن لم يتداركهم الله برحمته -! فهل يريدون تكرار تجربة الجويني أو الرازي؟! أخشى أن يموتوا قبل أن يَستدركوا! فضلاً عن تحمّلِهم أوزارَ مَن ضَلوا أو شكّوا في محكماتِ دِينهم بسبب دعواتهم غير المنضبطة..!

فاللهم موتاً على الإسلام والسنة، موتاً يمتلئ القلبُ معه شوقاً إلى لقائك يا أرحم الراحمين.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٧٣)، و«بيان التلبيس» كلاهما لابن تيمية (١/ ٤٠٧).
(٢) لسان الميزان (٤/ ٤٢٧).

المجلس الرابع والستون بعد المائة
﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة تضم معانٍ جامعة، جاءت في خاتمة سورة هود، بعد أن بيّن الله فيها جملة من قصص الرسل، وما واجهوا من صعوبات ومشاق في طريق الدعوة.

وحتى يتحقق للعبد الانتفاع بهذه الوصية العظيمة، فعليه أن يعرف حقيقة الاستقامة؛ ليدرك بعد ذلك سرّ هذا الأمر الصريح بها للنبي ﷺ ولأتباعه من بعده.

أما حقيقة الاستقامة، فهي سلوكُ الصِّراط المستقيم، وهو الدِّينُ القيِّم من غير تعريج عنه يَمنةً ولا يَسرةً، بفعل الطَّاعات كلّها، ظاهرها وباطنها، وترْكِ المنهيات كُلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصال الدِّين كُلِّها.

وأما عن سر هذا الأمر الصريح للنبي ﷺ ولصحابته بالاستقامة، فالجواب عن هذا يطول جدًّا، لكن من أجلى ما يوضح ذلك: أن يعلم المؤمن أن أعظم غرض يريده الشيطان من بني آدم هو إضلالهم عن طريق الاستقامة، كما قال عدو الله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولهذا أمرنا أن نكرر في اليوم والليلة سبع عشرة مرة على الأقل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وهذا الأمر للنبي ﷺ بالاستقامة هو أمرٌ بالثبات على الاستقامة، ولغيره أمر بها وبالثبات عليها.

ولعظمة أمر الاستقامة وحسن عاقبته، تكرر الأمر به في القرآن، والثناء على أهله في مواضع متنوعة، وبأكثر من أسلوب.

إن الإنسان مهما بلغ من التقوى والإيمان، فهو بحاجة ماسة إلى التذكير بما يُثبِّته، ويزيد استقامته، ولو كان مستغنيًا عن ذلك؛ لكان نبينا ﷺ أولى الناس بهذا، **يقول ابن تيمية**: «وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه، ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته»(١).

ومما ينبغي أن يعلمه المؤمن أن أعظم مدارج الاستقامة هي استقامة القلب، فإن استقامته ستؤثر على بقية الجوارح ولا بد، «**فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التوحيد**، فمتى استقام القلبُ - على معرفةِ الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه ودعائه، والتوكُّلِ عليه، والإعراض عما سواه= **استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعته**، وأعظم ما يُراعى استقامتُه - بعدَ القلبِ مِنَ الجوارح -: اللسانُ؛ فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه»(٢).

اللّهم ارزقنا الاستقامة على دينك، وتوفنا عليه وأنت راضٍ عنا.

---

(١) مجموع الفتاوى: (١١/ ٢٩٨).

(٢) جامع العلوم والحكم باختصار، شرح الحديث(٢١) حديث سفيان بن عبد الله.

المجلس الخامس والستون بعد المائة
(لا يأتي على الناس زمانٌ إلا والذي بعده شرٌ منه)[١]

هذه قاعدة نبوية تبيّن سنةً من سنن الله في الأمم والمجتمعات.

وحاشا نبيَ الله تعالى أن يدعو أمتَه إلى اليأس والقنوط! أو يسوقَهم إلى الإحباط والركود! كيف وهو سيد المتفائلين، وإمام الصابرين، عليه صلوات وسلام رب العالمين!

لكن كلامه عليه الصلاة والسلام يفسِّر بعضُه بعضاً، ويأخذ بعضه بأعناق بعض، مع بقاء العبرة والفائدة لكل حديث في زمنه الذي خرج فيه، وحاله التي تكلم به النبي ﷺ فيها.

إذن: فهل يقول المسلم - حينما يقرأ هذه القاعدة -: فلم العمل إذن؟ ما دام أن الشر يزيد، والخير ينقص، وقد قُدِّر هذا! فلم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الخير؟!

لن يجيب عن هذا التساؤل الخطير غير من يوحَى إليه من رب العالمين، فتأمل أخي ما رواه لنا علي رضي الله عنه حين قال: كنا مع النبي ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعدُه من الجنة، ومقعدُه من النار» فقالوا: يا

---

(١) البخاري ح(٦٦٥٧).

رسول الله! أفلا نتّكل؟[1] فقال: «اعملوا؛ فكلٌ ميسّر» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٥ - ٦] إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١٠][2].

وهذا الشر الذي أشار إليه النبي ﷺ ليس شراً مطلقاً عاماً، بل قد يكون شراً في بعض المواضع، ويكون خيراً في مواضع أخرى، ويكون في بقعة دون بقعة.

ومما يؤخذ من هذه القاعدة العظيمة:

١ - أن فيها: الحث على اقتباس العلوم الدينية قبل هجوم تلك الأيام الرديئة[3].

٢ - أن هذه القاعدة النبوية العظيمة تقودنا لأمر من أعظم الأمور؛ إنه: تعظيم قدر السلف من الصحابة والتابعين؛ لأنهم كانوا في تلك القرون المفضلة.

٣ - أن المؤمن إذا عاش في آخر الأزمان، أو في بيئة غلب فيها الشر، أو علت فيها راية المنكر؛ فعليه أن يعقد العزم على أن يكون من المصلحين، والداعين إلى الهدى، المخففين لوطأة الشر وأهله.

٤ - لقد سمع الصحابة ﷺ هذا الحديث، بل إن سبب إيراده من أنس ﷺ - وهو ما لقيه التابعون من اضطهاد الحجاج وغيره من حكام السوء - يوضّح أنهم فقهوا معناه جيداً، وهو فهمهم لهذه السنة الإلهية التي نقلتهم إلى التعامل الأمثل معها، وهو يتلخص في أمرين:

الأول: الصبر على ما يمرّ بهم حتى يستريح بَرٌّ، ويستراح من فاجر.

الثاني: العمل لهذا الدين، ونشر تعالميه، وعدم انتظارهم لمجدد أو مُصلح يخرج ليصلح الأحوال! كلا.. بل كانوا غايةً في الفقه والفهم للسنن.

اللهم ارزقنا الفقه في الدين والبصيرة فيه، واجعلنا من دعاة الحق، وهداة الخلق.

---

(١) أي نعتمد على ما قُدِّر علينا ونترك العمل.

(٢) البخاري ح(٤٩٤٥)، مسلم ح(٢٦٤٧).

(٣) مصابيح التنوير على صحيح الجامع الصغير: (١/ ٣٢١).

المجلس السادس والستون بعد المائة
(تغير منزلة المنكر)

مما يؤثر عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال: «**معروفُكم اليومَ منكرُ زمانٍ قد مضى، وإن مُنكَركُم اليوم معروفُ زمانٍ قد أتى، وإنكم لا تَزالونَ بخيرٍ ما عَرفتُمُ الحقَّ، وكان العالمُ فيكم غيرَ مستَخَفٍ به**»[١].

«ولقد صدق، فإن أكثر معروفات هذه الأعصار منكراتٌ في عصر الصحابة رضي الله عنهم»[٢].

وكلمةُ حذيفة هذه تلتقي تماماً مع كلمةٍ لأنس رضي الله عنه: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر، إن كُنا لنعُدُّها على عهد النبي ﷺ مِن الموبقات»[٣] بوّب عليه البخاري بقوله: باب ما يتقى من محقرات الذنوب.

وسبب ذلك: «أنَّ معرفةَ الصحابةِ بجلالِ الله أتمّ، فكانت الصغائر عندهم - بالإضافة إلى جلال الله تعالى - من الكبائر»[٤].

وما أشار إليه حذيفةُ يدركه المشاهِد لواقعِ الناس بلا تكلُّف، والشأنُ كلُّ الشأن في المعنيَين الأَخيرَين اللذين ذكرهما حذيفةُ، وهما:

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٨٠).
(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٨٠).
(٣) البخاري ح(٦٤٩٢).
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٢).

١ - عدم خفاءِ الحق، ومعرفته، وألا ينقلب المنكرُ معروفاً، والمعروفُ منكراً، ولهذا لما قيل للإمام أحمد رحمه الله في أيام المحنة: يا أبا عبدالله! أوَلا ترى الحقَّ كيفَ ظهر عليه الباطل؟ قال: كلا، إن ظهورَ الباطلِ على الحق، أن تنتقل القلوبُ مِن الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعدُ لازمة للحق.

وأما المعنى الثاني الذي نبه عليه حذيفة، فهو:

٢ - معرفةُ قيمةِ العالم، وعدم الاستخفاف به، يقول ابن المبارك رحمه الله: «مَن استخفَّ بالعلماء ذهبتْ آخِرتُه»[(١)]، ومن الكلماتِ السائرةِ كلمةُ ابنُ عساكر رحمه الله: «لحومُ العلماءِ مسمومةٌ، وعادةُ الله في هتكِ منتقصِهم معلومة»[(٢)].

ومِن المعلوم أن التنبيه على خطورة الانتقاص من العلماء أو الاستخفاف بهم، لا تعني جواز الاستخفاف بغيرِهم كما يُشغّب بذلك بعضُ مَن ينتقد هذه العبارة! وإنما عبارةُ ابن عساكر واضحة المغزى، ظاهرة المراد، وإلا فمِن المحكمات المقرَّرة، ما دلَّ عليه حديثُ أبي بكرة في الصحيحين: «فإن دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ، كحُرمةِ يومِكم هذا، في شهرِكم هذا، في بلدِكم هذا، إلى يومِ تلقون ربّكم، ألا هل بلغتُ؟»[(٣)].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٢/ ٤٤٤).
(٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر (٢٩).
(٣) البخاري ح(٦٧) ومسلم ح(١٦٧٩).

المجلس السابع والستون بعد المائة
(الكرسي)

هذه الآلةُ التي اخترعها الإنسانُ قديماً ارتبط اسمُها - في العصور المتأخرة - بالمنصب العالي غالباً، وما مِنْ شخصٍ يَصِل إلى كرسيٍّ إلا بعد ذهابِ مَنْ قبله، فتلك سنةُ الله في هذه المناصب!

والمفارقة العجيبة في هذا الكرسي - ومع معرفة الجميع بسنة الله فيه - أن الأكثر تُصيبه السَّكرة إذا علاه، ويَظن أنه كالجبل الراسي الذي لا تُحركه رياحُ التغيير! فهل لهذا الاشتراك القويّ بين أحرف (الكرسي) و(السَّكرة) أَثَر؟ ربما يجمعها أنّ مَن ذاق لذّته أدْمَن عليه، كما قال ابن القيم - في حقّ عُبّاد الكراسي ـ: «فإن الرياسة سَكْرَةٌ كسكرة الخمر أو أشدّ، ولو لم يكن للرياسة سَكرة لما اختارها صاحبُها على الآخرة الدائمة الباقية»[(١)].

وللكرسي في نصوص الوحيين حضورٌ واضح، يجمعها: التحذيرُ من الاستشراف لها، والتطلّع للجلوس عليها، وأنه من تطلّع لها وُكِل إليها، ومن بلغها دون تطلّع أُعِين عليها، وأنها لا تَصلح إلا لمن جمع شرطَي: القوة والأمانة، وما سوى ذلك «فنِعم المرضعة، وبئست الفاطمة»[(٢)].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٣٢).
(٢) البخاري ح(٧١٤٨).

متى ما شعر صاحبُ «الكرسي» الذي رشّحه مَن فوقه أنه موظفٌ يخدم المسلمين بمجرد جلوسه، لا أنه فرصةٌ للتكسّب، أو التعالي على الخلق، والاحتجابِ دون حوائجهم، وأنه لم يجلس عليه إلا بعد ذهاب مَن قبله؛ متى شعر بذلك، هان عليه الأمر، بل وجد لذّةً في أداء ما أُنيط به، وراحةً عندما يقال له: انزل عنه ليَحُل بدلك.

ومتى ما تحوّل «الكرسيُّ» إلى مصالح خاصة، وغفلةٍ عن كونه وكيلاً عن الأمة عندما جلس على هذا «الكرسي»؛ فهذا عنوان الشقاء والبؤس المعجّل، وأوّل أوان حسراته يومَ نَزْعِه منه، وما يعقبُ ذلك من امتلاء قلبه حزناً على ما فاته، فضلاً عما ينتظره عند الله من حساب إذا اجتمعت الخصومُ عند من لا تَضيع عنده مثاقيلُ الذرّ!

ومِن مظاهر الأسى المعجّل لأصحاب الكراسي المعزولين بغير رضاهم: فرحُ الناس بسقوطهم من تلك الكراسي، وهي - لعمر الله - فضيحةٌ دنيوية، فكيف بيوم العرْض الأكبر إذا تعلّق به آلاف وربما ملايين الناس، يطلبون من الله حقهم منه؟!

ألا وإنّ مِن أشدّ ما يُبتلى به بعضُ عُبّادِ الكرسي: أن يلبّسوا بغيَهم وظلمَهم وعدوانَهم لبوسَ الدِّين، ولو أنّه كان بدون ذلك لكان عظيماً، فكيف والأمر كذلك؟! فيا ويل هذا النوع من العبيد حين توضعُ الموازين، وتُنشرُ الكتب التي لا تغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصتها، يومَ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

ويبلغُ الكرسيُّ أسوأ آفاته حين يتخلى الإنسانُ - بسببه - عن مبادئه، ويَقبل بأنصافِ وأرباع الحلول، ويقدّم التنازلات تلو التنازلات مِن أجل الوصول إلى هذا الكرسي!

لقد أدركتُ في حياتي وُزراء أُعْفوا من مناصبهم، فأما أحدُهم فتقاطر الناسُ على بيته عَصْرَ ذلك اليوم مهنّئين له بحسن السيرة، وقوّته وأمانته، وممن حضَر وزراءُ

وعلماءُ وأعيانُ البلد ووجهاؤه، بل إن الموظّف الذي كان يقدّم له القهوة والشاي في مكتبه كان من أوائل مَن حضر ليقدّم القهوة والشاي لضيوف صاحب المعالي الذي كان على كرسيّه أمسِ، وآخرون لم ينته المذيعُ مِن خبر إقالتهم من مناصبهم إلا ومَنْ حولي يسجدون شكراً لله على ذلك! يا لها من مفارقة! ونعوذ بالله أن نكون شامتين، ولكن العاقل من اعتبر، واستفاد مما يجريه الله مِن العِبَر.

المجلس الثامن والستون بعد المائة

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمات جامعة، تمثل أصلًا من أصول العدل، والجزاء والحساب[١].

وقد فهم السلف الصالح عموم هذه الآية، فظهر أثر هذا الفهم على مواقف كثيرة لهم، منها: أن عائشة رضي الله عنها جاءها سائل فسأل! فأمرت له بتمرة، فقال لها قائل: يا أم المؤمنين إنكم لتصدّقون بالتمرة؟! قالت: نعم والله! إن الخلق كثير ولا يشبعه إلا الله، أوليس فيها مثاقيل ذر كثيرة؟!

وجاء مسكين إلى ابن عمر، وكان في يده عنقود من عنب، فناوله ابنُ عمر منه حبة وقال: فيه مثاقيل ذر كثيرة! [٢].

وإذا كان هذا المعنى في باب احتساب الصدقة وإن كانت قليلة، فثمة معنى آخر يتفطن له أرباب القلوب الحيّة، وهو: **الخوف من تبعة السيئات**، كما قال الحارث بن سويد لما قرأ ﴿إذا زلزلت﴾ حتى بلغ ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ - قال: إن هذا الإحصاء شديد[٣].

---

(١) ينظر: القواعد الحسان للسعدي (١٤١)، والتحرير والتنوير (٣٠/ ٤٣٦) حيث قال: «وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم».
(٢) تنظر هذه الآثار في الدر المنثور (١٥/ ٥٩٣).
(٣) الدر المنثور: (١٥/ ٥٩١).

ولنتأمل هذين الحديثين الشريفين: أما الأول فهو حديث المرأة البغي التي سقت الكلب العطشان، فشكر الله عملها وأدخلها الجنة[1]، والحديث الثاني حديث المرأة التي حبست الهرّة، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت هزلًا، فدخلت النار[2].

فالمرأة الأولى التي لم يذكرها النبي ﷺ بالعبادة والطاعة بل ذكرها بأشنع ما تعاب به المرأة وهو البغاء! ومع هذا فقد نفعها هذا العمل اليسير! فالمعاملة مع رب كريم لا تضيع عنده حسنة، وفي الحديث الثاني لم يذكر النبي ﷺ سببًا أدخلها النار غير حبسها لحيوان صغير لا يؤبه له! كل هذا ليتحقق المؤمن معنى هذه القاعدة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إن من أعظم صور توفيق الله تعالى لعبده أن يوفقه لتعظيم أمره ونهيه، فلا يحقرن صغيرةً من الذنوب مهما صغر الذنب في عينه؛ لأن الذي عصي هو الله، **ولا يزهدنّ في أي عمل صالح** – وإن ظنّه صغيرًا – فلأنه لا يدري ما العمل الذي يدخله الجنة؟! **ومن أمثلة ذلك** قوله ﷺ: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»[3].

فتأمل – يا عبد الله – كم يحتقر كثير من الناس أمثال هذه الأعمال اليسيرة! وفي حياتنا اليومية الكثير منها مما لو جمع لشكّل سيلًا من الحسنات، دمعة يتم تمسحها، أو جوعة فقير تسدها، أو ابتسامة في وجه مسلم.

---

(١) مسلم(٢٢٤٥).
(٢) البخاري ح(٣١٤٠)، ومسلم ح(٢٦١٩) واللفظ له.
(٣) مسلم ح(١٩١٤).

المجلس التاسع والستون بعد المائة
(واعلم أن النصر مع الصبر)[١]

هكذا يرسخ عليه الصلاة والسلام في قلوب أتباعه هذه القاعدة الجليلة، التي تكتسح جحافل اليأس، وتخوض بك غمار الحياة بروح وثابة وعزم متجدد، إنها قاعدة تكسو الحياة فألاً وقوة، وترسم بسمة التفاؤل على شفاه البائسين.

إن الإنسان في الدنيا معرَّض للمصائب والتحولات التي تأتي على خلاف المراد؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥] فالصبر هو أول باب يؤمر العبد المصاب بطرقه، ثم بعد ذلك يبحث عن الأسباب المشروعة التي تخفف المصاب.

قال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وهذا في جهاد العدو الظاهر وهو جهاد الكفار، وكذلك جهاد العدو الباطن، هو جهاد النفس والهوى؛ فإن جهادهما من أعظم الجهاد، كما قال النبي ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في الله»[٢].

---

(١) الترمذي ح(٢٧٠٦)، أحمد ح(٢٨٠٣) واللفظ له، جامع العلوم والحكم(١/ ٤٦٠): «وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة...وذكر العقيلي أن أسانيد الحديث كلها لينة، وبعضها أصلح من بعض، وبكل حال، فطريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة»، المقاصد الحسنة(ص٢٥٧): «وهو حسن، وله شاهد»، وصححه محققو المسند.

(٢) الترمذي ح(١٦٢١) وقال: حديث حسن صحيح.

وقال عبدالله بن عمر لمن سأله عن الجهاد: ابدأ بنفسك فجاهدها، وابدأ بنفسك فاغزُها.

وقال إبراهيم بن أبي علقمة لقوم جاءوا من الغزو: قد جئتم من الجهاد الأصغر، فما فعلتم في الجهاد الأكبر؟ قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب.

فهذا الجهاد يحتاج أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه؛ غلبه، وحصل له النصر والظفر، وملك نفسَه؛ فصار عزيزاً ملكاً، ومن جزع ولم يصبر على مجاهدة ذلك؛ غُلب وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً، أسيراً في يدي شيطانه وهواه.

والصبر إذا أطلق فإنه يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لأن العدو يصيب الإنسانَ من كل جهة، فقد يشعر الإنسان أنه لن يطيق عدوه؛ فيتحسر ويدع الجهاد، وقد يشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف، وقد يستمر ولكنه يصيبه الألم من عدوه، فهذا أيضاً يجب أن يصبر، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لا يَرْجُونَ وكان اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [النساء: ١٠٤] فإذا صبر الإنسان وصابر ورابط؛ فإن الله سبحانه ينصره.[1]

ومن تأمل عموم الأوامر والنواهي في الشريعة؛ وجد أنه لا يحركها شيء كالصبر، وما يرجوه الصادبر بعد ذلك من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

اللهم اجعل الصبر لنا شعاراً ودثاراً، واجعلنا من الصابرين عند البلاء، الشاكرين عند النعماء، اللهم إنا نعوذ بك من تحول عافيتك، وزوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وجميع سخطك، اللهم ولا تجعل مصيبتنا في ديننا.

---

(١) ينظر: شرح الأربعين النووية للعثيمين: (ص: ٢٠٣).

المجلس السبعون بعد المائة
(زيغة الحكيم)

يقول معاذ ﷺ في موعظةٍ من مواعظه: «**أحذركم زَيغةَ الحكيم! فإن الشيطانَ قد يقول كلمةَ الضلالةِ على لسانِ الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق**»(١).

هذه الموعظة من معاذٍ بليغةُ المعاني، وعميقةُ الدلائل، فإن مِن الفتن التي تَخفى على كثيرٍ من الناس: زلّة العالم، والتي ينقسم الناس فيها - غالباً - ثلاثةَ أقسام:

قِسمٌ لا يقبل في شيخه أيَّ نقدٍ ولا ملاحظة!

وقِسمٌ ضدهم: لا يغفرون لعالمٍ زلّة، ويُسقِطونه من أول سقْطة! وكلا هذين القِسمَين مائلٌ عن الحق.

والحقُّ في التوسط بينهما، وهو ما أشار إليه معاذ ﷺ، وهو الاحتفاظ بقَدْره، وعدم تقليدِه في زَلتِه وخطَئِه، فهذا هو ميزان القسط والعدل.

قال ابن عبدالبر ﷺ: «وشبّه العلماءُ زلةَ العالم بانكسار السفينة؛ لأنها إذا غرِقت غرِقَ معها خَلقٌ كثيرٌ، وإذا ثبتَ وصحّ أن العالم يخطِئ ويَزِل لم يجُز لأحدٍ أن يُفتي ويَدين بقولٍ لا يَعرف وجهَه»(٢)اهـ.

فالواجب علينا جميعاً تجاه ما يبلغنا مِن زلاتٍ عن العلماء أمورٌ ألخصها فيما يلي:

---

(١) سنن أبي داود ح(٤٦١١)، وسنده صحيح.
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٩٨٢).

١ - التثبت فيما يُنقل عنهم، فما أكثر الكذبَ عليهم! خاصة في عصرنا الذي كثرت فيه وسائلُ نقل الأخبار!

٢ - فإذا ثبتت عنه؛ فالاتصال به، أو تبليغ من يمكنه التواصل معه لمعرفة وجه قوله، فقد يكون له عذرٌ ونحن لا نعلمه، أو نُقل الكلام عنه مبتوراً.

٣ - إن ثبت أنه قال، ولم يكن لقوله وجهٌ، فلا يُقلَّد فيها، بل تُغمر هذه الزلة في بحر حسناته، ولا يجوز إهدارُ منزلتِه وفضلِه، قال ابن القيم رحمه الله: «ومن له عِلم بالشرع والواقع، يعلم قطعاً أن الرجلَ الجليلَ الذي له في الإسلام قَدَم صالحة، وآثارٌ حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، **قد تكون منه الهفوةُ والزلةُ هو فيها معذورٌ بل ومأجور لاجتهاده؛** فلا يجوز أن يُتَّبع فيها، ولا يجوز أن تُهدَر مكانتُه وإمامتُه ومنزلتُه مِن قلوب المسلمين»[1].

وقد أشار معاذٌ إلى هذا المعنى الذي ذكره ابنُ القيم حيث قال: «ولا يثنينك ذلك عنه؛ فإنَّه لعلَّه أن يراجِع، وتلَقَّ الحق إذا سمعتَه فإن على الحق نوراً».

إن من الفتن العظيمة التي لا يُدرِك أثرَها بعضُ الناس: ما يمارسه بعضُ السفهاء في بعض مواقع التواصل الاجتماعي؛ من همزٍ ولمزٍ في علماء الأمة، والطعن فيهم، ورميهم بالنقائص، إلى غير ذلك من الأساليب التي مؤداها: التنفير منهم، والتزهيد في علمهم، وانتقاصهم، إلى غير ذلك من الآثار السيئة والخطيرة!

ألا فليتق اللهَ هؤلاء الذين يُطلِقون ألسنَتَهم في ثَلبِ العلماءِ وتنقُّصهم! فإن هذا غير مقبول في آحاد الناس، فكيف بعلمائهم، ومَن وجد شيئاً يراه غلطاً أو خطأ فليتواصل بالوسائل الممكنة، وليستفصل عما أشكل عليه، وإن لم يستطع فليكف لسانَه؛ فإن الأمر خطير، والله المستعان.

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ٢٢٠).

المجلس الواحد والسبعون بعد المائة
﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾

هذه قاعدة قرآنية من قواعد تربية النفس، وتوجيه علاقتها مع الله، ذكرها الله في سورة الشرح، وهي سورة استمر الخطاب فيها موجهاً للنبي ﷺ وهي تُعدّد نعم الله عليه، وفي ختامها يأمر الله فيها نبيه ﷺ إذا انتهى من طاعة أو عملٍ ما، أن ينصب ويبدأ في عمل أو طاعة أخرى، وأن يرغب إلى ربه في الدعاء والعبادة، والتضرع والتبتل؛ لأن حياة المسلم الحق كلها لله، فليس فيها مجال لسفاسف الأمور، بل إن اللهو الذي تبيحه الشريعة لأصناف من الناس كالنساء والصبيان، أو في بعض الأوقات كالأعياد والأفراح؛ فمن أعظم مقاصدْ أن يستجم الإنسان - والاستجمام للجد مرة ثانيةً من الشغل النافع - وأن يعيش العبودية لله في جميع أحواله، فهو يعيشها في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، وفي الحضر والسفر، وفي الضحك والبكاء، ليتمثل حقًا قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧، ٨] معنى عظيم، وهو أن الإسلام يكره من أبنائه أن يكونوا فارغين من أي عمل ديني أو دنيوي!

يقول ابن مسعود: «إني أكره أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل دنيا ولا آخرة»[1]، وسبب مقت ابن مسعود لهذا النوع من الناس؛ لأن «قعود الرجل فارغًا من غير شغل، أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه **من سفه الرأي، وسخافة العقل، واستيلاء الغفلة**»[2].

ومن هدايات هذه القاعدة القرآنية أنها تربي في المؤمن سرعة إنجاز الأمور - ما استطاع إلى ذلك سبيلًا - وعدم إحالة إنجازها إلى وقت الفراغ، فإن ذلك من الأساليب التي يخدع بها بعض الناس نفسه، ويبرر بها عجزه، وإن من عجز عن امتلاك يومه فهو عن امتلاك غده أعجز!

قال بعض السلف: «كان الصالحون يستحيون من الله أن يكونوا اليوم على مثل حالهم بالأمس، لأنهم كانوا لا يرضون كل يوم إلا بالزيادة من عمل الخير، ويستحيون من فقد ذلك ويعدونه خسرانًا»[3].

- **ومن آثار مخالفة هذه القاعدة**: أن بعض الناس لا يستغل الفرص التي تسنح في طلب العلم وتحصيله، فإذا انفرط عليه العمر، وتقضى الزمن؛ ندم على أنه لم يكن قد حصل شيئًا من العلم ينفعه في حياته وبعد مماته!

ومثل ذلك: تفريط كثير من الناس - وخصوصًا الشباب والفتيات - في التوبة، والإنابة، والرغبة إلى الله، بحجة أنهم إذا كبروا تابوا، وهذا لعمر الله من تلبيس إبليس!

اللهم وفقنا لاغتنام أعمارنا، وأعذنا من حال الغافلين.

---

(١) المعجم الكبير: (٩/ ١٠٢).
(٢) الكشاف: (٤/ ٧٧٧).
(٣) لطائف المعارف (ص ٣٢١).

المجلس الثاني والسبعون بعد المائة
(القرآن حجة لك أو عليك)

وردت هذه القاعدة النبوية الجليلة ضمن حديث عدّه بعض العلماء من أصول الدين، وبهذا يتبين عظيم قدر هذه القاعدة النبوية، وذلكم الحديث هو قوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن **حجة لك أو عليك**، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[١].

قال النووي رحمه الله: «هذا حديث عظيم، أصلٌ من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهماتٍ من قواعد الإسلام»[٢].

إن المقصود بالحجة في هذه القاعدة: «والقرآن **حجة** لك أو عليك»: البرهانُ الشاهد بصحة الدعوى.

قال القرطبي رحمه الله: «ألا وإن الحجة على مَن علِمَه فأغفله أوكدُ منها على من قصر عنه وجهله، ومن أوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً؛ كان القرآن **حجة عليه، وخصماً لديه**، قال رسول الله ﷺ: «**القرآن حجة لك أو عليك**»، فالواجب على من خصّه الله

---

(١) مسلم ح(٥٥٦).
(٢) شرح النووي على مسلم: (٣/ ١٠٠).

بحفظ كتابه أن يتلوه حق تلاوته، ويتدبر حقائق عبارته، ويتفهم عجائبه، ويتبين غرائبه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]»[١].

ولنضرب مثلاً عملياً في توضيح هذه القاعدة النبوية:

استَمَعَ شخصان لقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فأقام أحدهما الصلاة ولم يقمها الآخر؛ فالقرآن حجة للأول، وحجة على الثاني، وقل مثل ذلك في الزكاة.

لقد أسرتني عبارة الإمام الآجُرّي وهو يوضّح - بالتفصيل - كيف يصل الإنسان إلى هذه الغاية - أعني أن يكون القرآن حجة للعبد لا عليه - فنقلتها باختصار على طولها، حيث يقول:

«يتصفح القرآن؛ ليؤدب به نفسه، لا يرضى من نفسه أن يؤدي ما فرض الله بجهل، قد جعل العلمَ والفقهَ دليلَه إلى كل خير، إذا درس القرآنَ فبحضور فَهم وعَقل، همَّته إيقاعُ الفهم لما ألزمه الله: مِن اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، ليس همّته متى أختم السورة! همّته: متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟ متى أعرف النعم المتواترة؟ متى أشكره عليها؟ متى أعقل عن الله الخطاب؟

متى أفقه ما أتلو؟ متى أغلب نفسي على ما تهوى؟ متى أجاهد في الله حق الجهاد؟ متى أحفظ لساني؟ متى أغض طرفي؟ متى أحفظ فرجي؟ متى أستحي من الله حق

---

(١) تفسير القرطبي: (١/ ٢).

الحياء؟ متى أشتغل بعيبي؟ متى أصلح ما فسد من أمري؟ متى أحاسب نفسي؟ متى أتزود ليوم معادي؟...» إلخ كلامه رحمه الله.[1]

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، واجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده، واجعله قائدنا إلى جنات النعيم.

(١) أخلاق أهل القرآن: (ص ٨٧ - ٨٨) باختصار.

المجلس الثالث والسبعون بعد المائة
(صلاة مودع)

وعظ معاذ بن جبل رضي الله عنه ابنه فقال: «**يا بُني! إذا صليتَ صلاةً فصلِّ صلاةَ مُوَدِّع، لا تَظُنّ أنكَ تعودُ إليها أبداً، واعلم يا بُنيَّ أن المؤمِنَ يموتُ بين حسَنتَين: حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخَّرَها**»(١).

هذه الوصيةُ مِن أحسنِ ما يُوصَى بها الأبناءُ، ومن خير ما يلقيه الآباءُ في آذان أبنائهم، أو يكتبوه في وصاياهم، فإن مَن حفظ صلاتَه، وصلّاها على هذه الصفة؛ فهو لما سواها أحفَظُ، ولا بُدَّ أن تحفظه صلاتُه، فتكون حائلاً بينه وبين ما يكرهه الله تعالى، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومِن أحسن ما يستعان به على أداء الصلاة أداءً يحصل به الأثر، هو: أداؤها وكأن الإنسان لن يصلي بعد تلك الصلاة شيئاً، وهي صلاة المودِّع.

إنها بالتأكيد ستكون صلاة مؤثرة، يجد الإنسان طعمها في بصره، وسمعه، وممشاه، وسكونه، بل هي جنة ونعيم معجَّل، وذوقها يحتاج إلى جهاد ومجاهدة، وهكذا هي المطالب الكبار؛ تحتاج إلى قلوبٍ كبار، لا حرمنا الله وإياكم بمنِّه وكرمه هذا النعيم بسبب ذنوبنا.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٣٤)، وقد وردت هذه الجملة (صلّ صلاة مودع) في حديث مرفوع، لكن لا يثبت إسناده.

وأما الجملة الثانية في هذه الموعظة، فهي قوله: «**واعلم يا بُنيَّ أن المؤمِنَ يموتُ بين حسَنتَين: حسنةٍ قدَّمها، وحسنةٍ أخَّرَها**» أي: أن نجاته وفوزه وربحه وفلاحه إنما هو بهذه الحسنات التي ينجو بها العبدُ بعد رحمة الله، وما سوى ذلك عَطَبٌ وهلاك، وما أهلك الأفرادَ والأمم في الدنيا والآخرة إلا السيئات، قال سبحانه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١].

المجلس الرابع والسبعون بعد المائة
(مشغول!)

يبدو أن هذه الكلمة مِن أكثر الكلمات التي نسمعها ممن يُطْلبُ منهم عملٌ ما!

ومن المؤكد أن بعضَهم كذلك، إلا أن مما يدعو إلى الدهشة: أن يفاجئك طفلٌ في المرحلة الابتدائية - عندما تطلب منه عملاً أو تعاتبه على تقصيره - فيقول: أنا مشغولٌ!

الانشغالُ الحقيقيُّ المثمِر علامةُ حيويةٍ ودَأَب، والإنسانُ بطبعه «همّام»، بل التوقّف علامةُ مرَض، لكن هل هذه الكلمة تُقال في موضعها؟ أم هي كلمة نعبِّر بها - أحياناً - عن هروبنا من تحمّل المسؤولية أو العمل الذي يُراد مِنّا فعلُه وتنفيذُه؟

الواقع أن أكثر الناس لديه وقتُ فراغ كثير، ويعيش «فوضى منظّمة»، والقليل منهم من يرتبط بأعمالٍ تستهلك أكثرَ وقته، ولا أظن أنني بحاجة لذِكر الشواهد على هذا.

والسبب في انتشار هذه «الفوضى المنظّمة» - في تقديري - هو: غيابُ الأهداف الواضحة عند كثيرٍ من الناس، وأعني بها الأهدافَ الواضحةَ للإنسان في هذه الحياة، الأهداف التي تنقل الإنسانَ مِن السِّلبية إلى الإيجابية والتأثير، ومِن الفوضى إلى الترتيب.

ومِن البديهي - الذي لا يحتاج لتقرير - أن الناس تتفاوت هِمَمُهم، وتتباين أهدافُهم وقدراتُهم، لكن من المؤكد أن كثيراً منهم يستطيع أن يكون رقماً مؤثراً ولو

تأثيراً قليلاً، المهم أن يَطرد عنه الكسلَ والانشغالَ الموهوم، وإلى هذا يشير قولُه ﷺ - في الحديث الذي رواه البخاري -: «طوبى لعبدٍ آخذٍ بعَنان فرَسه في سبيل الله، أشعثٌ رأسُه، مغبرةٌ قدَمَاه، إن كان في الحراسةِ كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة»[(١)]، فهذا رجلٌ قد لا يُؤبَه له، لكنه شخصٌ مؤثِّر، وحيثما وُضِع نَفَع.

ومِن الأجدر بالعاقل أن يراجع ترديدَه لكلمة «مشغول»، وأين تقع هذه الكلمة في خارطة حياته (الجادّة)؟ وكم سيضيف ترديدُ هذه الكلمة إلى رصيده من المنجزات بعد عشرات السنوات؟!

وثمة نوعٌ من الشغلِ لهجتْ به ألسنةُ السلف الصالح ﵏ وهو شغل القلب واللسان بما يصلحهما، كقول ابن مسعود ﵁: «إنما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره»[(٢)].

ويقول جعفر بن محمد: «إياكم والخصومة في الدين؛ فإنها تَشغل القلبَ، وتُورث النفاق»[(٣)].

ومِن توفيق الله لعبده أن يوفِّقه لنوعٍ من أشرف معاني هذا «الانشغال»، وهو: أن ينشغل العبدُ بعيوبه عن عيوب غيره، ولسانُ حالِه يقول: إن في النفس لشُغْلاً عن الناس.

والويل لمن ابتُلي بالانشغال بعيوب الناس عن عيب نفسه، أو انشغل بباطلٍ من القول أو العمل، يجد غِبّه إذا انتقل عن هذه الدار.

(١) البخاري ح(٢٨٨٧).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦).
(٣) الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٥٢٦).

ولنختم هذه الأسطر بكلمةٍ معبّرة رغم قِصَر كلماتها، تلك هي التي لخّصها الإمامُ عبد الرحمن بن مهدي (١٩٨هـ) واصفاً حالَ شيخه المحدِّث الجليل حمّاد بن سلمة (١٦٧هـ) بقوله: لو قيل لحمّاد بن سلمة: إنك تموت غداً؛ ما قَدِرَ أن يزيد في العمل شيئاً![(١)]

اللهم فأملأ قلوبَنا بك فرحاً، وألسنَتنا لك ذِكراً، وجوارحَنا فيما يرضيك شُغلاً.

(١) ويعني بذلك عمل البدن، أما عبادات القلب فلا حدّ لها.

المجلس الخامس والسبعون بعد المائة

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وكلمةٌ جامعة، وهي من أعظم قواعد الشرائع السماوية كلها، والتي لا يشذ عنها شيء، ويدخل تحتها من الفروع ما لا يحصيه إلا الله تعالى.

والعدلُ معنى تحبه النفوس الكريمة، والفطر السوية، ولقد كان تحقيقه سببًا في خيرات عظيمة، ومنح كثيرة، والعكس صحيح، وكم كان تحقيق هذا العدل سببًا في إسلام أناس ما حثهم على الإسلام إلا تحقيق هذا الأصل الكبير: العدل، وإليكم هذا الموقف الذي يبين شيئًا من آثار العدل في نفوس الخصوم قبل الأصدقاء:

وقد حفظ التاريخ لنا قصة عليٍّ رضي الله عنه مع خصمه النصراني عند شريحٍ القاضي حيث اختلفا على درعٍ، فجلسا سويا بين يديه، فلما استمع القاضي للأدلة والقرائن قضى بالدرع للنصراني، فلم يملك إلا أن قال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء! أميرُ المؤمنين قدمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرع والله درعك، يا أمير المؤمنين، اتبعتُ الجيش - وأنت منطلق إلى صفين - فخرَجَتْ من بعيرك الأوْرَق، فقال: أمَا إذْ أسلمتَ فهي لك، وحَمَلَهُ على فرس، فقال الشعبي: فأخبرني من رآه يقاتل الخوارج مع علي في أحد معاركه.

فتأمل كيف أثّر هذا الموقف العجيب من الرجل الأول في الدولة آنذاك في إسلامه، بل والانضمام إلى جيوشه التي تقاتل الخوارج المارقين.

وتمتد ظلال هذه القاعدة العظيمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؛ لتشمل جميع شؤون الحياة، فمن ذلك:

١ - **العدل مع الزوجات**: فمن عدّد فليتق الله في هذا، وأن يحذر من آثار ضدّه، فهي سيئة ووخيمة، في الحياة قبل الممات، وكم وقعت نزاعات بين الإخوة غير الأشقاء بسبب ميل الوالد لأحد زوجتيه، فسرى هذا الأثر إلى الأولاد، وأما في الآخرة فهو أعظم وأشد، وعلى كل معدد أن يتأمل سيرة النبي ﷺ مع زوجاته التسع، ففيها الغَنَاء والعبرة.

٢ - **ومن تطبيقات هذه القاعدة في حياتنا**: العدلُ مع الأولاد: فعلى الوالدين أن يتجنبوا التفضيل بينهم، سواء في الأمور المعنوية كالحب والحنان والعطف ونحو ذلك، أو في الأمور المادية كالهدايا والهبات، ونحوها، وأما ميل القلب إلى أحدهم فلا يؤاخذ به العبد، المهم ألا يظهر أثره عمليا.

٣ - **العدل والإنصاف في إصدار الأقوال، وتقييم الآخرين**: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وهذا باب واسع جدًا، يدخل فيه الكلام على الأفراد، والجماعات، والفرق، والكتب والمقالات، وغير ذلك.

وبالجملة: فمن تأمل أوامر الله تعالى وجدها وسطًا بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط، وهذا هو معنى هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.

المجلس السادس والسبعون بعد المائة
(كل الناس يغدو فبائع نفسه: فمعتقها أو موبقها)

لقد وردت هذه القاعدة النبوية الجليلة في حديث: «الطهور شطر الإيمان...»[١] الذي قال عنه المناوي رحمه الله: «وهذا الحديث أصلٌ من أصول الإسلام؛ لاشتماله على مهمات قواعد الدين؛ فكن له من المتدبرين»[٢].

إنها قاعدة نبوية تلتقط لأهل الأرض صورةً من السماء؛ لتُجلّي لهم حقيقة هذه الحياة التي يعيشون فيها! إنهم جميعاً يمشون لا يقف منهم أحد، فمنهم من يتقدم، ومنهم من يتأخر، إنهم يمشون جميعاً؛ لكنهم كما قال الله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾، فهذا معنى قوله: «كلُّ الناس يغدو».

ثم قال عليه الصلاة والسلام: «فبائعٌ نفسَه فمعتقها أو موبقها»، هذه هي حقيقة المكان الذي يمشون فيه؛ إنه سُوْق هذه الدنيا الكبير، وهذا هو حقيقة الدنيا: سوقٌ يربح فيه الرابحون، ويخسر فيه الخاسرون.

وليتجلى لك - أيها القارئ الكريم - شيءٌ من معاني هذه القاعدة النبوية المباركة، فتخيل نفسك ذاهباً إلى سوق من الأسواق العامرة، هذا يبيع، وذاك يشتري، هذا يربح وذاك يخسر! إنها حركة معتادة، وأمرٌ مألوف، فالرابح اليوم قد يخسر غداً، والعكس صحيح، لكن الغبن حقاً حينما تكون السلعة التي تُباع وتشترى هي أنتَ أيها الإنسان!

(١) مسلم ح(٥٥٦).
(٢) فيض القدير: (١/ ٤٨٥).

«**فبائع نفسَه، فمعتقها أو موبقها**»! الله أكبر! ما أجمله من تعبير!

وفي معنى هذه القاعدة النبوية: «كل الناس يغدو...» نقرأ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

ولقد بلّغ النبي ﷺ هذا في أوائل بعثته، فحين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قام خطيباً فقال: «يا بني عبد مناف! **اشتروا أنفسكم من الله**، يا بني عبدالمطلب! **اشتروا أنفسكم من الله**، يا أم الزبير بن العوام عمة رسول الله! يا فاطمة بنت محمد! **اشتريا أنفسكما من الله**؛ لا أملك لكما من الله شيئاً...»[١].

يقول ابن رجبٍ رحمه الله: «وقد اشترى جماعةٌ من السلف أنفسَهم من الله ﷻ بأموالهم، فمنهم من تصدق بماله كله: كحبيب أبي محمد، ومنهم من تصدق بوزنه فضة ثلاث مرات أو أربعاً: كخالد الطحاوي، ومنهم من كان يجتهد في الأعمال الصالحة ويقول: إنما أنا أسير أسعى في فكاك رقبتي: منهم عمرو بن عتبة.

إن الغُدُوّ الذي ذكره النبي ﷺ في هذه القاعدة: «كل الناس يغدو» إنما هو إشارة إلى العمر والزمان الذي يحياه الواحد منا، فهو السوق التي يغدو فيها الإنسان ويروح، ولهذا فمن أعظم الغبن الذي يقع ويلاحظ في حياة أكثر الخلق؛ هو تضييعهم للزمان بغير طائل، وإهدارهم الساعات والأيام فيما لا يعود بالنفع الآجل والعاجل؛ ولعظيم هذا الزمن كان حديث القرآن والسنة عنهما عجباً من العجب، وحسبك أن تتدبر هذه الآية التي تشير إلى عظيم الغبن الذي وقع فيه أهل النار، وكيف رُبِطَ هذا بمسألة الزمن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

اللهم اجعلنا ممن غدا فأعتق نفسه بطاعتك، وجنبنا موارد الخيبة والخسران، واجعلنا من السعاة إليك، الفائزين برضاك.

---

(١) البخاري ح(٣٣٣٦) واللفظ له، مسلم ح(٢٠٦).

المجلس السابع والسبعون بعد المائة
(لماذا تحب البقاء في الدنيا؟)

ومن مواعظه رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: «انظروا أصبَحْنا؟» فأُتي فقيل: لم تصبح، فقال: «انظروا أصبَحْنا؟» فأتي فقيل له: لمْ تُصْبِح، حتى أُتي في بعضِ ذلك فقيل: قد أصبَحتَ، قال: أعوذ بالله مِن ليلةٍ صباحُها إلى النار، مرحباً بالموتِ مرحباً، زائرٌ مغيَّب، وحبيبٌ جاءَ على فاقةٍ، اللهم إني قد كنتُ أخافُك، فأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تَعلَمْ أني لم أكن أحبُ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لجري الأنهار، ولا لغَرسِ الأشجارِ، ولكن لظمأ الهواجرِ، ومكابدةِ الساعات، ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْر»[1].

الله أكبر! كم في هذه الدعوات من مواعظ!

لقد تمثّل معاذ رضي الله عنه في تلكم اللحظات ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن عند قرب مفارقة الدنيا، وهو حُسن الظن بالله، وتعظيمُ الرجاء به سبحانه، مع شيءٍ من الخوف.

إنها كلمات الواثقِ بموعود الله، لا المغترِّ بعمَله، وكلمات الراجي لفضل مَن بيده الفضلُ سبحانه! ولا يجرؤ على هذا الترحيب بالموت وفي هذه اللحظات العصيبة إلا من حسُنتْ علاقتُه مع الله حال الرخاء!

إن الإنسان - وهو يقرأ هذه الكلمة - ليتساءل: هل أنا إذا حضرني أجلي، ودنتْ منيَّتي سأقول هذه الكلمة؟ الجواب المبكر عن هذا السؤال: مَن حفظ الله في الرخاء

(١) ينظر: الزهد لأحمد بن حنبل (١٤٨)، حلية الأولياء (١/ ٢٣٩).

فلن يتركه في الشدة، ومِن أشد الأوقات التي يحتاج فيها الإنسان للحفظ هي لحظات الاحتضار، وقرب القدوم على الواحد القهار، ومفارقة هذه الدار!

ثم قال - كالمعتذر عن الفطرة المغروسة في النفوس -: «اللهم إنك تَعلَمْ أني لم أكن أحبُ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لجري الأنهار، ولا لغَرسِ الأشجارِ، ولكن لظمأِ الهواجرِ، ومكابدةِ الساعات، ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْر».

الله أكبر! يا لها من أعمال! صيام، وقيام، وطلب علم؟ فلم يَدَعْ مجالاً من أصول الخير إلا ولَجَه!

لم يكن معاذ ﷺ يُحِب البقاءَ في الدنيا لشيءٍ يتعلق به عامَّةُ أهل الدنيا، بل كان يحب البقاء لغرَضٍ شريف، وهو كثرة العمل الصالح التي تزيد الإنسانَ من الله تعالى قربةً ومحبة.

إن هذه الأمنية لتُشبِه كثيراً تلك المناجاة التي بثّها ابن الجوزي رحمه الله في كتابه الماتع: «صيد الخاطر» حيث يقول - بعد حديث عن سبب تمنيه طول العمر -: «أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي، فتكثر ثمارُ غَرسي، فأشكر يومَ حصادي؟! أفيَسُرني أنني مِت منذ عشرين سنة؟! لا والله؛ لأني ما كنتُ أعرفُ اللهَ تعالى عُشر معرفتي به اليوم! فيا ليتني قدِرْتُ على عُمْر نوح، فإن العلم كثير! وكلما حصل منه حاصلٌ رَفَع ونفع»(١).

وهنا نتساءل مرةً أخرى: ما هي الأماني التي تجول بخواطرنا عند طلب طول الحياة؟!

اللهم اجعلنا ممن طال عُمُرُه وحَسُن عملُه.

---

(١) صيد الخاطر (١٢٤) باختصار.

المجلس الثامن والسبعون بعد المائة
(ثقافة الاعتذار)

حياتنا الاجتماعية تكتظ بألوانٍ من الارتباطات والعلاقات، هي في مُجمَلها حسنةٌ جميلة، ومما تتميز به المجتمعات الإسلامية - والعربيةُ بشكل أخصّ - عن كثيرٍ من شعوب الأرض.

إلا أن هذه العلاقات تمرّ ببعض المنعطفات التي تؤدّي في بعض الأحيان إلى انقطاعها وتَصرّم حبالها! بسبب عدم مراعاة أحدِ الطرَفين لبعض الأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه العلاقات.

وإذا كان أهمّ هذه الأسسِ: الاحترامُ والتقديرُ المتبادل، ومراعاةُ كلٍّ من الطرفين حقوقَ الآخر؛ فالعاقل يراعي ذلك، فهو أدعى لديمومة العلاقة واستمرارها.

ولما كان النقصُ والخطأُ طبيعةً في البَشَر؛ فمن المهم أن يُبادِر المقصّر والمخطئ للاعتذار، وردمِ الهوّة التي قد يوسّعها الشيطانُ بوسوسته، وألوان الظنون التي تأتي في النهاية على بنيانِ تلك العلاقات من القواعد، فتخرُّ وتنهار، وقد تكون تلك المودةُ بين قريبَين أو صديقين قديمي الصداقة.

وردمُ الهوّة التي تنتج عن موقفٍ ما - قد لا يخطر ببال أحدِ الطرفين موقعه عند الطرف الآخر - وقطعُ الطريق على الشيطان؛ منهجٌ نبوي عظيم، دلّت عليه عدةُ مواقفُ في السنَّة، منها ما رواه أنسٌ ﷺ قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن وغطفان

وغيرُهم بذَرَاريهم ونَعَمهم، ومع النبي ﷺ يومئذ عشرة آلاف، ومعه الطُّلَقاء، فأدبروا عنه، حتى بقي وحده! قال: فنادى يومئذٍ نداءَين، لم يخلط بينهما شيئًا، قال: فالتفتَ عن يمينه، فقال: «يا معشر الأنصار» فقالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: ثم التفتَ عن يساره فقال: «يا معشر الأنصار» قالوا: لبيك يا رسول الله، أبشر نحن معك، قال: وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال: «أنا عبد الله ورسوله»، فانهزم المشركون، وأصاب رسولُ الله ﷺ غنائمَ كثيرة، فقسم في المهاجرين والطلقاء، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فقالت الأنصار: إذا كانت الشدَّة فنحن نُدعى، وتُعطى الغنائم غيرَنا! فبلغه ذلك؛ فجمعهم في قُبة، فقال: «يا معشر الأنصار! ما حديث بلغني عنكم؟» فسكتوا، فقال: «يا معشر الأنصار! أما ترضون أن يذهب الناسُ بالدنيا وتذهبون بمحمد تحوزونه إلى بيوتكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، رضينا، قال: فقال: «لو سلك الناسُ واديًا، وسلكت الأنصارُ شِعبا، لأخذت شِعب الأنصار»(١).

فانظر كيف بادر ﷺ - وهو الذي يُوحَى إليه - إلى قطعِ الطريق على الشيطان، وترضية الأنصار بهذه الكلمات التي تُعادِل غنائمَ الدنيا كلها.

إن التأخّر في الاعتذار - فضلاً عن التنكّر له كمبدأ - ليس بجيّد، خاصةً إذا كانت الصداقة أو العلاقة لم تبلغ درجةً من المتانة بحيث لا تُحوِج للاعتذار، كما قال يحيى بن معاذ: «بئس الصديقُ صديقٌ يُلجئك إلى الاعتذار»، ولكن مَنْ لي بمثل هذا المستوى من الصداقات! إنه لنادرٌ كندرة الكبريتِ الأحمر، وقد أحسن القائل: «الاعترافُ يهدم الاقتراف»(٢)، أي أنه يمحو أثرَ الخطأ والتقصير.

وفي المقابل: فإن على الطرَف الآخر - صاحب الحقِّ - كالداعي لمناسبة، أو طالبِ المعونة والمساعدة؛ أن يكون واسعَ الصدرِ في التماس الأعذار لإخوانه،

---

(١) مسلم ح(١٠٥٩).
(٢) عيون الأخبار (٣/ ١١٣).

جاعلاً تلك المقولة الشهيرة نصب عينيه: «إذا بلغك عن أخيك الشيء تُنكِره؛ فالتمس له عذراً واحداً إلى سبعين عذراً، فإن أصبته وإلا قل: لعل له عذرا لا أعرفه»(١).

وليستحضر مقولةَ ذلك الرجل العاقل - جعفر بن يحيى - حين اعتذر إليه رجلٌ فقال له: «قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن»(٢)؛ لأنّ تَطَلُّبَ الإنسانِ للاعتذار من إخوانه دوماً يوجب التكلف، ويُشعِر الأخ بنوع من الغربة عن أخيه وصديقه، والسبب؟ كلمة عابرة، أو زلة لسان!

وليتذكر أحدُنا أنه في حال ما استوقف الآخرين عند كلِّ صغيرة وكبيرة؛ فإنه سيضطرهم للمعاملة بالمثل، وإذا صار التلاومُ والعتابُ سِمةَ العلاقة؛ فقد آذنت بصُرْم!

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه
على شعثٍ، أيُّ الرجالِ المهذبُ؟!

وكان البضعة النبوية جعفر بن محمد الصادق رحمه الله يقول: «أثقل إخواني عليّ: من يتكلّف لي وأتحفظ منه، وأَخَفّهم على قلبي: من أكون معه كما أكون وحدي».

ويتأكد هذا المعنى، في حقّ من بوأه اللهُ مكانةً في قومه ومجتمعه؛ كشيخ القبيلة، وشيخ العلم، وأمثالهم؛ إذْ «لا يصلح للصَّدْر إلا واسع الصدر» كما قال بعضُ البلغاء.

وبالجملة: فالنفسُ إذا عُوّدت مكارمَ الخصال، وجاهدتْ على ذلك؛ تطبّعت واستقامت، وإذا كان صرْم الحبال مع الناس سهلاً؛ فإن إبقاء حبال المودة، والصبر على تفاوت أخلاقهم لا يَقدر عليه إلا عظماءُ الرجال، وهكذا كان سيدي ﷺ الذي قال الله له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) شعب الإيمان (١٠/ ٥٥٩).
(٢) العقد الفريد (٢/ ١٨).

المجلس التاسع والسبعون بعد المائة
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة لها أثرها الإيماني والتربوي لمن عقلها وتدبرها، تكرر ذكرها في القرآن لفظاً ومعنى،ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، يجمعها قول ابن تيمية رحمه الله: «والقرآن يبين في غير موضع: أن الله لم يهلك أحدًا ولم يعذبه إلا بذنب»[(١)].

وكما دل القرآن على هذا المعنى فكذلك السنة، ففي الحديث القدسي الصحيح يقول الله تعالى: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[(٢)].

ولمّا سأل أبو بكر النبيَّ ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته، قال له: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[(٣)]. فتأمل في هذا الحديث جيدًا! فَمَنْ هو السائل؟ ثم لك أن تتساءل: مَنْ الناس بعد أبي بكر؟

(١) مجموع الفتاوى: (١٤/ ٤٢٤).
(٢) صحيح مسلم ح(٢٥٧٧).
(٣) البخاري ح(٨٣٤)، مسلم ح(٢٧٠٥).

يقول ابن القيم: «وهل في الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟!

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء؟ وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه؟ فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع...

وما الذي أغرق قوم نوح كلهم؟ وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟»[(١)] انتهى كلامه.

وليُعْلَم أنه العقوبات ليست محصورةً في العقوبات الحسية أو الجماعية - التي أشار ابن القيم إلى شيء منها - فثمة عقوبات قد تكون أشد وأعظم، وهي التي تتسلط على القلب، فيضرب بالغفلة وقسوته، حتى إن جبال الدنيا لو تناطحت أمامه ما اعتبر ولا اتعظ - عياذًا بالله - بل يظن، أو تظن أمة من الأمم - ونعمُ الله عليها تترى، وهي مع ذلك تزداد عصيانا وفسوقا - أن ذلك علامةً على رضى الله عنها، وهذه لعمر الله من أعظم العقوبات التي يبتلى بها العبد وتبتلى بها أمة من الأمم.

فحري بالعاقل أن يبدأ بنفسه، فيفتش عن مناطق الزلل فيه، وأن يسأل ربه أن يهديه لمعرفة ذلك، فإن من الناس من يستمرئ الذنب تلو الذنب، والمعصية تلو المعصية، ولا ينتبه لذلك! بل قد لا يبالي! ولربما استحسن ذلك - عياذًا بالله - فتتابع العقوبات عليه وهو لا يشعر، فتكون مصيبته حينئذٍ مضاعفه! فاللهم بصّرنا بزلل أنفسنا، وتب علينا، واغفر لنا وارحمنا.

---

(١) الجواب الكافي: (٢٦ - ٢٧).

المجلس الثمانون بعد المائة

(إن الدِّين يُسرٌ)[١]

هذا هو دين الله تعالى! يختصره النبي عليه الصلاة والسلام في هذه القاعدة الجليلة، التي تبين حقيقة الإسلام، وأنه دين يُسْرٍ وسهولة، في كل شؤونه وتعاليمه كما يأتي بيانه.

لقد رسّخ النبي ﷺ هذا الأصل الكبير، وجعله حُكماً عاماً لا يستثني شيئاً، فدين الله سهلٌ وميسّر في عقائده وأخلاقه وأعماله، بل وفيما يُطلب تركه.

لنتأمل - أخي - مثلاً في اليسر الذي صاحب فَرْضِيّةَ الصلوات الخمس؛ فبدءاً من تخفيفها من خمسين صلاة إلى خمس صلوات، ثم في توزيع أوقاتها، وفي تخفيفها حال السفر، والترخيص في الجمع عند وجود المشقة، وفي كونها تسقط عن الحائض، وفي صلاة النوافل من أنواع التيسير والتسهيل ما هو ظاهر بيّن.

وأما الزكاة: فمن أوجه اليسر الظاهرة أنها لا تجب إلا على من ملك نصاباً، ولا تجب إلا في العام مرةً واحدة، ولا تجب في جميع الأموال، بل في أنواع منها معروفة.

وأما الصيام: فالمفروض منه شهرٌ واحدٌ كل عام، والصيام لا يجب إلا في النهار فقط، بل نهت السنة عن الوصال! وأباح الله الفطر لأهل الأعذار كالمسافرين والمرضى، ووسّع في وقت القضاء.

---

(١) البخاري ح(٣٩).

وأما الحج: فإن الله لم يفرضه إلا على المستطيع، وفي العمر مرة واحدة فقط، ونوّع على عباده الأنساك، فوسّع عليهم في ذلك، وجعل فيه من المنافع الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره.

إن النموذج المحتذى في فهم حقيقة اليسر والتشديد هو رسول الله ﷺ وسيرته العملية!

بل إنني أقول وبكل وضوح وثقة: إنك قد تجد في سير بعض الأئمة الأعلام ما لا تستطيع الاقتداء به؛ لأن هذا الإمام أو ذاك قد يكون اختار لنفسه طريقة معيّنة في التعبد أو التزهد أو الورع الدقيق ليربّي بها نفسه، ولا يراها تشريعاً للناس، أما رسول الله ﷺ فإنك لن تجد في سيرته وحياته شيئاً يشقُّ الاقتداء به، **وهذا من أسرار كماله**، ومن أسرار قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقبل الختام لا بد من التعريج على مسألة مهمة جداً كثر الخوض فيها في هذا العصر، وأصبح يرددها كلُّ من أراد التملص والتخفف من الأحكام الشرعية - من مفتين أو أتباع مفتين -؛ فصار يردد هذه القاعدة، ويوردها في غير محلها ويقول: «**إن الدين يسر**»؛ ليبرر المفتي فتواه، والمقلد تقاعسه عن الانقياد، أو الأخذ بما دلّ عليه الدليل؛ بحجة أنه يوجد من قال بهذا القول أو ذاك من العلماء! **وجواباً عن هذه الشبهة بإيجاز يقال**:

ينبغي أن يعلم أن كلّ ما شرعه الله يسيرٌ، فعلى من تصدر للفتيا أو طلب جواباً أن يستحضر هذا المعنى جيداً، فدور المفتي التماس الحكم بدليله، سواء وافق ما يهواه الناس أم لا، وليس من الدين في شيء تتبُّع رخص العلماء، ولا زلاتهم، وأن يعلم الباحث عن التيسير في غير موضعه أن هذا اتباع للهوى لا للهدى! وقد قال الله ﷻ:

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] فلا يوجد خيار ثالث: إما الشرع أو الهوى(١).

اللهم ألهمنا الرشد في القول والعمل، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، والباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

(١) وينظر للتفصيل في هذا كتاب ابن القيم البديع: (إعلام الموقعين عن رب العالمين) وبخاصة: فصل كلام الأئمة في الفتيا (١/ ٣٥).

المجلس الواحد والثمانون بعد المائة
(لا تحقرنّ سيئة تعملها أو حسنة تعملها)

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «لا تَحقِرنَّ شيئاً مِن الشرِّ أن تَتَّقيَه، ولا شيئاً مِن الخير أن تَفعَلَه»(١).

هذه الموعظة من أبي الدرداء يصدِّقها القرآن والسنة، أما القرآن ففي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وأما السُّنَّة فيكفي أن يتأمل المؤمنُ قصةَ امرأتين: إحداهما كانت بَغِياً سقت كلباً من العطش فغفر الله لها ودخلت الجنة(٢)، وأخرى حبست هرةً لا هي أطعمَتْها ولا هي تركتْها تأكل من خَشاش الأرض.(٣)

وفي واقع بعض الناس تجد أنه يمارس الاستهانة بذَرَّةِ الخير وذَرة الشر وهو لا يَشعُر، فحينما يَسمع بعضُهم عن دعوةٍ للتبرع لعمل خيري، فيقول في نفسه - على سبيل المثال -: إما أن أدفع مبلغاً كبيراً أو لا أدفع شيئاً! بحجة أن المبلغ اليسير لا يصنع شيئاً.

وفي المقابل يستهين بعضُهم بذنوبٍ ومعاصٍ بحجة أنها من الصغائر! وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه: «إنكم لتعمَلون أعمالاً هي أَدق في أعينكم من الشعر، إن كنا

---

(١) تاريخ دمشق (٤٧/ ١٦١).

(٢) مسلم ح(٢٢٤٥).

(٣) البخاري ح(٣٤٨٢)، مسلم ح(٢٢٤٢).

لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات» قال أبو عبدالله: «يعني بذلك المهلكات»[1]، بوّب عليه البخاري: (باب ما يتقى من محقرات الذنوب).

والموفَّق من لم يَدع حسنةً يقدِر عليها إلا فعلها، ولا سيئةً إلا تركها، فإنه لا يدري ما العمل الذي يبلغه رضوان الله، وكذلك ما السيئة التي تقصم ظهرَه!

---

(١) البخاري ح(٦٤٩٢).

المجلس الثاني والثمانون بعد المائة
(فقهاء الحسد)

حين يُذكَر الفقه؛ فلا يكاد ينصرف الذهنُ إلا للفقه في الدين، وهو شيءٌ مفهوم، ولكن ثمةَ نوعٌ من الفقه يمنّ اللهُ به على مَن يشاء مِن عباده، وهو «الفقه بأدواء النفوس»، وكيفية التعامل معها، والقدرةِ على نزع فتيل تلك النار التي تشتعل في قلوبِ بعض الأنفس التي لا تَرى إلا المساوئ، ولا تعرف الإنصاف!

ومن صور هذا الفقه: التعامل مع الحُسّاد، إذْ لا يَسلَم ذو نعمة من حاسد، «وبحسب فضل الإنسان، وظهور النعمة عليه؛ يكون حسد الناس له، فإن كثُر فضلُه كثر حسّاده، وإن قلّ قلّوا، لأنّ ظهور الفضل يثير الحسد، وحدوثُ النعمة يضاعف الكمَد»[1].

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية إشارات إلى فقه التعامل مع هذا النوع من الناس، منها:

• العفو والصفح عن الحاسد، أو الإعراض عنه تماماً، حتى يُظْهِر اللهُ المحسود عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ من بعد ما تبين لهم الحق فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص١٧٦.

وفي قصة يوسف عليه الصلاة والسلام أظهَرُ دليلٍ على هذا المعنى، فلله درّه حين قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، بل بالغ في الإعراض عن ذكر آثار حسدهم ولو بالإشارة، فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفي تعامل النبي ﷺ مع رأس النفاق عبد الله بن أُبيّ منهجٌ واضح في هذا، فإن ابنَ أبيّ لم يمنعه من القبول برسالة النبي ﷺ، والانقياد لأمره إلا الحسدُ، إذْ كان يترقب تسويدَه على أهل المدينة، فلما بُعث ﷺ شرِقَ بدعوته؛ فعاداه، وآذاه، حتى أظهر اللهُ نبيَّه ﷺ عليه.

- إشعارُ الحاسد تصريحًا أو تلميحاً - وهذا يختلف بحسب المقام - بأنه لا يمنعني من مقابلة آثار حسدك إلا خوفُ الله تعالى، وفي قصة ابْنَي آدم ما يشير إلى هذا: ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨، ٢٩].
- الصبر على أذى الحاسد، وعدم شكواه، ولا يحدّث نفسَه بأذاه أصلاً! فما نُصِرَ محسودٌ على حاسده بمثل الصبر عليه، والتوكّلِ على الله؛ فهو من أقوى الأسباب الّتي يَدْفع بها العبدُ ما لا يُطيق من أذى الخلق وظلمِهم وعدوانهم، ومن كان اللهُ حسبَه وكافِيْه وواقيه فلا مَطمَع فيه لعدوّه.

وقد قال تعالى: ﴿مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ﴾ [الحج: ٦٠] فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولًا؛ فكيف بمن

لم يستوف شيئًا من حقه! بل بُغي عليه وهو صابر؟![1]

- الإحسان إلى الحاسد، وهذا - كما يقول ابن القيّم - «من أصعب الأسباب على النفس، وأشقّها عليها، ولا يوفّق له إلّا مَن عظُم حظّه من الله»[2]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

ومن الفقه في التعامل مع الحاسد: إفهامه - برسالة واضحة - بأن الحسد لن يَضرني ولن ينفعك، كما يعبّر عن ذلك موقفُ شُريحٍ القاضي من رجلٍ قال له: إني لأحسدك على ما أرى من صبرِك على الخصوم، ووقوفِك على غامض الحُكم! فقال: ما نفعك اللهُ بذلك ولا ضرّني[3].

وبالجملة.. فإن الفقه في التعامل مع الناس مِنّةٌ إلهية، ومِنحةٌ ربانية، يوفَّق لها من اجتهد في تحقيق هذه القاعدة القرآنية من قواعد التعامل: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٣٩).
(٢) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٣).
(٣) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٧٠).

المجلس الثالث والثمانون بعد المائة

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُم﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة بواقع الناس؛ إذ لا ينفك أحدٌ عنها لكثرة تلبسهم بها، جاءت في سياق الحديث عن كفارة اليمين في سورة المائدة.

والأمر بحفظ الأيمان يشمل ثلاثة أمور:

الأول: حفظها عن الحلف بالله كاذبًا.

والثاني: حفظها عن كثرة الحلف والأيمان.

والثالث: حفظها عن الحنث فيها إذا حلف الإنسان، اللهم إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه.

وهذا مختصر لهذه الأمور الثلاث:

- **أما حفظ الأيمان عن الحلف الكاذب**، فلأن الحلف الكاذب من أكبر الكبائر، وتلك هي اليمين الغموس - التي تغمس صاحبها في الإثم - كما دلّ على ذلك الحديث الثابت في الصحيحين، وقد فسّر النبي ﷺ هذه اليمين بقوله: «**الذي يقتطع مال امرئ مسلم هو فيها كاذب**»(١).

(١) البخاري ح(٦٥٢٢).

وإنك لتعجب - بعد ذلك - من جرأة بعض الناس على الأيمان الكاذبة، من أجل حطام الدنيا، أو من أجل دفع مضرة عن نفسه بسبب كذبه أو تحايله!

ألم يعلم هؤلاء أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة؟!

ألم يسمع هؤلاء قوله ﷺ - في الحديث الذي يرتجف له القلب -: «**من حلف على يمين صبْر يقتطع بها مال امرئٍ مسلمٍ - هو فيها فاجر - لقي الله وهو عليه غضبان**»[(١)]؟

وأما حفظها عن كثرة الحلف والأيمان: فبالإقلال من الحلف وترك الإكثار منه، وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، **والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان، ظاهرة**، فإن الإنسان كلما جنّب اسم الله في الحلف على ما لا حاجة له، دلّ ذلك على توقيره لاسم ربه، وتوقيره له؛ ولأن كثرة الحلف دون حاجة تقلل ثقة الإنسان بنفسه، وثقة الناس به، فهو يشعر بأنه لا يصدق فيحلف، ولهذا وصفه الله تعالى بالمهين.

لذا ينبغي للآباء والأمهات والمربين أن ينتبهوا لهذا الخلل الذي يقع فيه بعض الناس، وأن يربوا من تحت أيديهم على تعظيم الله، **ومن صور ذلك**: نهيهم عن كثرة الأيمان بلا حاجة.

- **وأما حفظها عن الحنث - أي مخالفة ما حلف عليه -**: فإن الواجب على المؤمن إذا حلف على شيء من أمور الخير أو من المباحات أن يتقي الله ويبر بيمينه؛ لأن هذا من تعظيم المحلوف به وتوقيره - وهو الله -.

ويستثنى من ذلك: إذا كان الحنث ومخالفة اليمين خيرًا من الاستمرار فيه، **فتمام الحفظ**: أن يفعل الخير، وأن لا تكون يمينه سببًا في ترك ذلك الخير الذي حلف على تركه.

---

(١) مسلم ح(٢٢٠).

نسأل الله تعالى أن يرزقنا توقيره وتعظيمه.

ومثال ذلك: أن يحلف على أن لا يأكل النوع الفلاني من الطعام، أو لا يدخل البيت الفلاني، فإن الأفضل هنا أن لا يستمر في يمينه، خاصة إن ترجحت المصلحة في الحنث، لقوله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأتها وليكفر عن يمينه»[1].

(١) مسلم ح(١٦٥٠).

المجلس الرابع والثمانون بعد المائة
(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيقل خيراً أو ليصمت)[١]

هذه قاعدة محكمة من قواعد السلوك، تدعو إلى ضبطِ عضوٍ من أخطر أعضاء الإنسان.

وهي قاعدة نوّه جمع من الأئمة بمنزلتها العظيمة، فهذا الإمام الجليل أبو محمد عبدالله بن أبي زيد إمام المالكية بالمغرب في زمنه يقول: جِماع آداب الخير يتفرع من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»، وقوله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه»، وقوله ﷺ للذي اختصر له الوصية: «لا تغضب» وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»»[٢].

لقد مهّد النبي عليه الصلاة والسلام لهذه القاعدة بقوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» حثّاً وترغيباً في ضبط هذه الجارحة التي لا يضبطها، ويكفُّ شرها مثل مراقبة الله، وتذكر يوم القدوم عليه في الآخرة، فمن استشعر هذا الأمر «فلْيقل خيراً أو ليصمت».

قال الإمام الشافعي رحمه الله مبيناً معنى هذه الجملة: «إذا أراد أن يتكلم فليفكِّر؛ فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلَّم، وإن ظهر له فيه ضرر أوشَكَّ فيه أمسك»[٣].

---

(١) البخاري ح(٥٦٧٢)، مسلم ح(٤٧).
(٢) شرح النووي على مسلم: (٢/ ١٩).
(٣) شرح النووي على مسلم (٢/ ١٩).

وفي هذه القاعدة النبوية: «دليلٌ على حُسن الصمت ومدحِه، والمراد به عن فضول الكلام، وقد وردت عدة أحاديث دالة على مدح الصمت، ومدحه العقلاء والشعراء.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر، بل المهم محصورٌ في كتاب الله تعالى حيث قال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، وآفاته لا تنحصر، فعُدَّ منها:

الخوض في الباطل: وهو الحكاية للمعاصي؛ من مخالطة النساء، ومجالس الخمر، ومواقف الفساد، وتنعم الأغنياء وتجبّر الملوك ومواسمهم المذمومة، وأحوالهم المكروهة؛ فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه، فهذا حرام.

ومنها: الغيبة والنميمة، وكفى بها هلاكاً في الدين، ومنها: المراء، والمجادلة، والمزاح، ومنها: الخصومة والسب، والفحش وبذاءة اللسان، والاستهزاء بالناس والسخرية، والكذب، وقد عد الغزالي في الإحياء عشرين آفة، وذكر في كل آفة كلاماً بسيطاً حسناً، وذكر علاج هذه الآفات[1].

ولنتذكر جيداً أن اللسان سلاح ذو حدين، فتأمل قوله ﷺ في هذه القاعدة: «فليقل خيراً أو ليصمت» أي: عن شر، وكما أن أبواب الشر الصادرة عن اللسان كثيرة؛ فكذلك **أبواب الخير الصادرة من اللسان كثيرة** ميسرة - لمن وفقه الله -، **من ذلك:**

تلاوة كتاب الله تعالى، وهو أعظم ما استُخدمت فيه اللسان، وذكر الله تعالى، والنصيحة الحسنة، وتبليغ دين الله تعالى، والذب عن عرض مسلم، والشفاعة في

---

(١) سبل السلام(٢/ ٦٥٤). التمهيد(١/ ٢٨٨): «وقيل لمالك رحمه الله: أيُعبِّر الرؤيا كلُّ أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلعَب! وقال مالك: لا يُعبِّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، قيل: فهل يُعبِّرها على الخير وهي عنده على المكروه؛ لقول من قال: إنها على ما أُوِّلت عليه؟ فقال: لا، ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة؛ فلا يُتلاعب بالنبوة».

حق، والجدال بالتي هي أحسن؛ لإحقاق حق أو إبطال باطل، والدعاء، وإدخال السرور على مسلم، وإزاحة همٍّ عن آخر...إلى أبواب أخرى يسرح فيها اللسان رابحاً بإذن الله غير خاسر.

اللهم وفقنا لحفظ ألسنتنا وجميع جوارحنا عن محارمك، واستعملنا ربنا في طاعتك، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

المجلس الخامس والثمانون بعد المائة
(حقيقة الخير)

من مواعظ أبي الدرداء ﷺ التي تبيّن عمق فهمه، قوله: «**ليسَ الخيرُ أن يَكثُر مالُك وولدُك! ولكن الخيرَ أن يَكثُر عملُك، ويَعظُم حِلمُك، وأن تُبَاري الناسَ في عبادةِ الله، وإذا أحسنتَ حمدتَ اللهَ وإذا أسأتَ استغفرتَ الله**»[١].

إن أبا الدرداء ﷺ يصحِّح بهذه الموعظة مفهوماً يَقع في أذهانِ بعضِ الناس في حقيقة الخيرية، التي ربما حصَرَها بعضُهم بكثرة المالِ والولد! وليستْ كذلك، فلو كانت كثرةُ المالِ والولدِ خيراً لكان الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل اللذان غرّهما مالهما وولدهما من خير الناس، وليسا كذلك بنصّ القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠]، وقال في شأن الوليد: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٧] الآيات.

إذاً.. ما الخير في فهم أبي الدرداء؟ الخير في مفهومه أن يكون لك النصيب الأوفر من العمل الصالح، والخلق الحسن، وأن تنافس الناس في عمل الخير، ولسان حاله

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٧/ ١٥٩).

يقول: إن استطعتَ ألا يسبقك إلى الله أحدٌ فافعل.. وإذا وُفّقتَ إلى العمل الصالح فإياك أن تغترّ، أو تعجب بعملك بل إذا أحسنتَ حمدتَ اللهَ، وإذا أسأتَ استغفرتَ الله، وما ذاك إلا لأن الإنسان - في عمله وسيره إلى الله - لا يسلم من تقصير أو ذنب، فيحتاج إلى تسديد ذلك بالاستغفار، وإذا كان الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، فما الظن بغيره ﷺ؟

بل أمره الله بالاستغفار بعد فراغه من الأعمال الصالحة كالصلاة، وفي ختام قيام الليل عند السحر، والحج، وغيرها، بل أمره بختم حياته بالاستغفار كما في سورة النصر، فماذا يقول المقصرون من أمثالنا؟!(١). اللهم اسلك بنا سبيل عبادك الأخيار، وأعذنا من مسالك الأشرار.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١٢٠ - ١٢٢).

المجلس السادس والثمانون بعد المائة
(المرآتيون)

قبل نحو عشرين سنة؛ طلبَ مني مرةً أحدُ الأصدقاء - وهو طالب علم - أن أذكر له ما أراه من ملاحظاتٍ وعيوبٍ لا يَسلَم منها البشر! فأكبرتُ هذا منه، وأفادني بموقفه هذا درساً عظيماً في تلمّس الكمالات، والاعتراف بالنقص.

المهم أني قلتُ له: لا يحضرني شيء الآن، لكن دعني أنقلُ لك ملاحظةً سمعتُها من أحدِ الإخوة، فلما ذكرتُها له؛ بيّن لي عذرَه فيما انتقده عليه ذلك الشخص، ودعا له وشكره، ثم سألني عن مستوى هذا الأخ الناصح العلمي وليس عن اسمه؟ فاستغربتُ سؤالَه هذا! فقال: أريد أن أُهدي له هديةً تليق به، ولأعبِّر عن شكري له على ما قال، بغضّ النظر عن دقّة فهمه لما جرى، فأخبرتُه أنه طالب علم يدرس في كليةٍ شرعية، فذهبنا جميعاً إلى أحد المكتبات فاشترى كتاباً تساوي قيمته الآن ٤٠٠ ريال في ذات التخصص الذي يدرس فيه ذلك الأخ الذي نقلتُ نصيحتَه، فازداد عجَبي من هذا الصديق أكثرَ وأكثر!

ثم وجدتُ - بعد ذلك - مِن فِعال السلف ما انطبق على حاله، فهذا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر يقول: قال لي بلال بن سعد: «بلغني أن المؤمنَ مرآة أخيه؛ فهل تستريب من أمري شيئًا؟»![1]

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣١٢).

وأبو هريرة ﷺيقول: «المؤمنُ مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيباً أصلحه»[1]، ويُروى هذا الحديثُ مرفوعاً إلى النبي ﷺ بلفظ: «المؤمن مرآة المؤمن»[2]، فالإنسان إذا وقف أمامَ المرآة رأى صورتَه الحقيقية، بما فيها من حَسَن وسَيّء؛ لأن المرآة تعكس صورةَ الشخص بحُسنها وقَبيحها، والإنسانُ ربما لا يستطيع أن يعرف نفسَه، ولا يَرى نفسَه جيداً، إلا من خلال رؤية أخيه المسلم الذي هو مرآة له:

فالعين تُبصر فيها ما دنا ونأى
ولا ترى نفسَها إلا بمرآةِ

فمَن منّا يملك الشجاعةَ ليبادر إلى خاصةِ إخوانه الذين يخالطهم بكثرة، ويراهم أو يحادِثهم كما يَرى المرآة، ليسألهم عن عيوبه وجوانبِ النقص فيه، ولا ينتظر أن يأتي أحدٌ لينصحه، فإن هذا قد لا يَجرؤ عليه إلا القليلُ من الأصدقاء؛ خشيةً من تَبِعات هذه المبادرة بالنصيحة، إذ النُّصح لا يتقبله ويحتفي به إلا النوادرُ من الأصحاب، لأن النصيحة تعني الكشف عن العيوب!

ومن المتفق عليه أنه لا أحدَ منّا يخلو من نقص وعيب، على حدّ قول الحريري:

مَن ذا الذي ما ساء قط
ومَن له الحسنى فقط!

فمن العقل أن نفتح الباب، ونمهّد الطريقَ لخاصّة أصحابنا ليقوِّموا ويقيّموا ما يرونه منّا، خصوصاً مَن يكثر اختلاطُه بالناس، ويتصدى لنفعهم، فإن مظنّة الخطأ من هذا النوع أكثر؛ لكثرة ملابستهم للناس، ولتنوع المواقف التي تقع من الآخرين تجاههم، ففيهم الجاهلُ والصغير وصاحبُ الحاجة، ممن يُتوقع منهم صدور ما يستفزّ العاقل!

---

(١) «الأدب المفرد» ح(٢٣٨) للبخاري.

(٢) رواه أبو داود ح(٤٩١٨)، وحسّن الحافظُ ابن حجره سندَه في «بلوغ المرام» ح(١٥٤٩).

ومن المهم - ونحن في ميدان «المرآتية» - أن يحرص الناصحُ على لزوم أرفع درجاتِ الأدب، وحُسْنِ اللفظ عند التعبير عن المراد، مراعياً الوقت والحالَ الأنسبَ لبذل النصح، وعلى المنصوح أن يكون واسعَ الصدرِ لتَلَقِي الخطأ، والتنبيهِ على الزلّة، وأن ينظرَ إلى هذا التنبيهِ والنصحِ على أنه خطوة إلى الأمام في سبيل التخفّف من العيوب، بل ينبغي أن يُشعِر الناصحَ بالامتنان على نصحه وتنبيهه؛ لأن هذا سيشجعه في المستقبل على الاستمرار؛ حيث رأى أنك تجاوبتَ معه، ولو رأى عكس ذلك فسيُحجم عن النصح.

ومِن توفيق الله للمنصوح أن ينظر إلى كلامِ الناصح بما نظر إليه الخليفةُ الصالح عمر بن عبد العزيز على أنها هديّة، حين قال: «رحم الله من أَهدى إليّ عيوبي»، وأنه يريد له الكمال الممكن، وسيجد للنصح لذةً أخرى، وسيتلقاها بنفسٍ رضيّة، وسيُدرك أن الأخ الحقيقيَّ هو مَن صدَقَه لا مَن صدّقه، وأن الأخ للأخ كاليد لليد، لا غنى لها عن الأخرى، لا حرمنا الله مرايا الصدقِ من إخواننا.

المجلس السابع والثمانون بعد المائة
﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

هذه القاعدة القرآنية المحكمة - في باب الأخلاق - لها صلة قوية بتربية القلب وتزكيته، كما أن لها صلةً بعلاقة الإنسان بغيره من الناس.

والشحُّ يعني المنع من البذل والعطاء مع حرصٍ شديد.

ولما كان الشحُّ غريزةً في النفس أضافه الله إلى النفس: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وهذا لا يعني أنه لا يمكن الخلاص منه، بل هو يسير على من يسره الله عليه، ولكن الخلاص التام من أنواعه كلها الحسية والمعنوية، لا يوفق له إلا المفلحون.

ومن الأمثلة التطبيقية التي توضح معنى هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها:

١ - ما وقع للأنصار حين فتحوا بيوتهم وصدورهم لإخوانهم من المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، رغم قلة ذات يد كثير منهم، فجاءت التزكية من العالم بما تكنه النفوس -: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر: ٩).

فتأمل هذه الأعمال: (يحبون، لا يجدون، يؤثرون، ولو كان بهم خصاصة) فهي أعمال كشف ربنا صدق أهلها وسلامتهم من شح نفوسهم.

٢ - ومن الأمثلة التطبيقية لهذه القاعدة: قصة مؤاخاة النبي ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف وبين سعد بن الربيع - وكان سعدٌ كثيرَ المال - فقال سعد: قد عَلِمَت الأنصارُ أني من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فأطلقها، حتى إذا حلت تزوجتها، فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك، دلني على السوق! (١)

تأمل هذا السخاء العظيم! فوالله لو كان الموقف يحكي تنازله عن جزء يسير من ماله لكان شهامةً ونُبلاً، فكيف وهو يتنازل عن شطر ماله! بل ويعرض عليه فراق إحدى زوجتيه!! أي نفوس هذه؟!

٣ - **ومن تطبيقات هذه القاعدة**: ما ذكره الله تعالى في حال خوف المرأة من نشوز زوجها وعدم رغبته فيها، فالأحسن أن يصلحا بينهما صلحاً بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها لزوجها حتى تبقى، فهذا خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿والصلحُ خيْرٌ﴾، ثم ذكر المانع بقوله: ﴿وأُحضرت الأنفسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت النفوس على عدم الرغبة في بذل ما عليها من حق، والموفق من عوفي من هذا الداء، فإنه حينئذ يسْهُل عليه الصلح مع خصومه، ومن ابتلي به، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة؛ لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر (٢).

فاللهم قِنا شحّ أنفسنا يا من بيده تزكية النفوس وهدايتها.

---

(١) البخاري ح(٣٥٧٠).

(٢) ينظر: تفسير السعدي: (٢٠٦).

المجلس الثامن والثمانون بعد المائة
(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جارَه)[١]

إن هذه القاعدة لبنة من لبنات ذلكم القصر الكبير: قصر مكارم الأخلاق الذي بناه ديننا العظيم.

وتأمل كيف صدّر هذه القاعدة العظيمة بهذا الشرط العظيم فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أي: إيماناً كاملاً تاماً، نقياً صافياً؛ فإن إيمانه بالله تعالى، الذي يأمره بالإحسان للخلق، وإيمانه باليوم الآخر وما فيه من أهوال؛ يدعوه لحفظ حق الجار.

وقوله: «فليكرم جاره» ولم يحدد نبينا ﷺ صورةً معينة من صور الكرم؛ فيدخل في ذلك كل ما يمكن أن يُكرم به: من البِشْر، وطلاقة الوجه، وبذل الندى، وكف الأذى، وتحمّل ما فرط منه، ونحو ذلك.

فالإكرام إذاً ليس مُعيَّناً، بل ما عدّه الناسُ إكراماً، ويختلف من جار إلى آخر، فجارك الفقير ربما يكون إكرامه برغيف خبز، وجارك الغني لا يكفي هذا في إكرامه، وجارك الوضيع ربما يكتفي بأدنى شيء في إكرامه، وجارك الشريف يحتاج إلى أكثر[٢].

---

(١) البخاري ح(٦٠١٩)، مسلم ح(٤٧).

(٢) ينظر: شرح الأربعين النووية للعثيمين: (ص١٧٧).

وقد جاء في بعض طرق هذا الحديث عند الإمام مسلم رحمه الله: «فليحسن إلى جاره»[1]، ويقال في هذا اللفظ ما قيل في سابقه: إن النبي ﷺ لم يحدد صورةً معينة من صور الإحسان؛ فيدخل في ذلك كل ما يمكن أن يُحسن به إلى الجار: من بذل المعروف، وقضاء الدين، وإعانته في ضوائقه، والوقوف معه في مصائبه، وتفقد حوائجه، وغير ذلك.

وتأمل - أيها المؤمن الموفق - هذا الحديث العظيم الذي يؤكد هذا المعنى الشرعي الكبير، ففي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريلُ يوصيني بالجارِ حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه»[2].

قارن هذا بأحوال بعض الجيران اليوم؛ تجد ما يؤسَف عليه: مِن بُعد عن الحفاوة بهذه الوصية النبوية الكريمة!

إن قوله ﷺ في هذه القاعدة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره» يدل على أن هذا من خصال الإيمان، والأعمال التي تقوي الإيمان.

يقول بعض أهل العلم: وجملة حق الجار على الجار: إن استقرضَك أقرضتَه، وإن استعانك أعنتَه، وإن مرض عدتَه، وإن احتاج أعطيتَه، وإن افتقر عدتَ عليه، وإن أصابه خير هنيّته، وإن أصابته مصيبةٌ عزَّيته، وإذا مات اتبعتَ جنازته، ولا تستطل عليه بالبناء فتَحجُب عنه الريحَ إلا بإذنه، ولا تؤذه بريح قِدرك إلا أن تغرف له، وإن اشتريتَ فاكهة فأَهدِ له، وإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا تُخرج بها ولدَك ليغيظ بها ولدَه[3]، وتهَنِّئه في

(١) مسلم ح(٤٧)، (٤٨).

(٢) البخاري ح(٥٦٦٩)، مسلم ح(٢٦٢٤).

(٣) روي هذا في حديث عن معاذ، قال الحافظ في الفتح(١٠/ ٤٤٦): والسياق أكثره لعمرو بن شعيب، وفي حديث بهز بن حكيم: (وإن أعوز سترته) وأسانيدهم واهية، لكن اختلاف مخارجها يشعر بأن للحديث أصلاً.

الفرحِ، وتُظهِر الشَّرِكَةَ فِي السرور معه، وتصفح عن زلاته، ولا تطلع مِنَ السَّطح إلى عَورَاتِهِ، ولا تضايقه فِي مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا تضيق طرقه إلى الدَّار، ولا تُتْبعه النَّظَرَ فِيمَا يَحْمله إلى داره، وتسْتُر ما يَنْكَشِف له من عَوْرَاتِهِ، وتقف معه إِذَا نابَتْه نَائِبَةٌ، وَلَا تغْفل عن تفقد حاجة أهله عند غَيْبَتِهِ.[1]

اللهم اجعلنا من الحافظين لحقوق جيرانهم، المتخلقين بما أمرتهم، المنتهين عما نهيتهم.

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٣).

المجلس التاسع والثمانون بعد المائة
(احذر دعوة المظلوم!)

أوصى أبو الدرداء أحد إخوانه، فقال: «**إياكَ ودعوةَ المظلوم، واعلمْ أن قليلاً يُغنيكَ خيرٌ مِن كثيرٍ يُلهِيكَ وأن البِر لا يَبلى، وأن الإثم لا يُنسَى**»[١].

رضي الله عن أبي الدرداء فلقد نَصَح وأوجز وأبلغ!

أما توقي دعوة المظلوم، فلقد سبقه بالتحذير منها إمامُه ونبيُّه محمد ﷺ حين بعث معاذاً إلى اليمن، فقال له: «**واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[٢] وجاء في رواية خارج الصحيح: «**وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه**»[٣]، فهل يعي هذه الوصية ويتفكر فيها من لا يبالون بظلم الناس، وخاصةً المستضعفين منهم! كالخدم والعمال ونحوهم؟ كان معاوية رضي الله عنه يقول: «إني لأستحيى أن أظلم مَن لا يجدُ عليّ ناصراً إلا الله»[٤]!

ثم قال أبو الدرداء لصاحبه: «**واعلمْ أن قليلاً يُغنيكَ خيرٌ مِن كثيرٍ يُلهِيكَ**»! وهذه حقيقة، إذ أكثر المتاع المتاع الدنيوي بركةً ما أعانك على طاعة الله، ونفْعِ العبادِ والإحسان إليهم، وأما ما ألهى منه عن حق الله وحقوق الخلق؛ فهو متاعٌ شيطاني، لا

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٧/ ١٦٧).
(٢) البخاري ح(١٤٩٦)، مسلم ح(١٩).
(٣) أحمد ح(٨٧٩٥) وقد حسّن الحافظ ابن حجر إسنادها في فتح الباري (٣/ ٣٦٠).
(٤) درر الحكم لأبي منصور الثعالبي (٥٥).

خير فيه، وسيعلم المفرّطون غبّ ما جمعوا يوم يُسأل الإنسان عن ماله من أين جمعه؟ وفيم أنفقه؟

ثم ختم وصيتَه لصاحبه فقال: «واعلم... أن البِر لا يَبلى، وأن الإِثم لا يُنسَى».

وهذه حقيقة، فالبر والإحسان لا يبلى ولا يذهب أثره، بل هو من جنس الكلمة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وقد ينسى المؤمن إحسانه ونفعه، لكن الله تعالى يحفظ ذلك له، ويبارك له فيه.

وفي المقابل، فالإثم - إذا لم يتب منه صاحبه - فإنه لا يبلى، ولا يمحى من الكتاب إلا إذا رحم الله تعالى وأذن يوم المحشر.

وهذا المعنى الذي ذكره أبو الدرداء ﷺ دلّت عليه آيات كثيرة، طالما بكى عندها السلف الصالح وخافوا منها، كقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] قال التابعي الجليل عون بن عبدالله معلقاً على هذه الآية: «ضج والله القوم من الصغار قبل الكبار!»[١].

ولما عرفَ أرباب القلوب الحيّة أنهم سيناقشون في الحساب، ويطالَبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار، لزموا محاسبةَ أنفسهم، وصدقُوا المراقبة[٢].

اللهم أيقظ قلوبنا، ويسّر حسابنا.

---

(١) التمهيد لابن عبد البر (٢/ ٨٤).

(٢) ينظر - للأهمية -: إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٣).

المجلس التسعون بعد المائة
(كسوف الأخلاق)

تَذكرُ بعضُ كتبِ الأدب أن الخليفةَ العباسيّ المأمون كان في مجلسه، فنادى بالخادم: يا غلام! فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا وصاح: يا غلام! فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟! كلما خرجنا من عندك تصيح: يا غلام! يا غلام! إلى كم: يا غلام؟! فنكس المأمونُ رأسه طويلا، يقول الراوي: فما شككتُ أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ فقال:

يا عبد الله! إن الرجل إذا حسُنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خدَمه، وإذا ساءت أخلاقُه حسنت أخلاقُ خدمه، وإنا لا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لنُحسِن أخلاقَ خدَمِنا.(١)

والمأمون بهذه الإجابة يريد أن يوصل رسالةً مضمونها: أنني لستُ مستعداً أن أتنازل عن مبادئي وقِيَمي لأن الطرف الآخر أساءَ أخلاقه! أو بعبارة أخرى: أعاملُ الناس بأخلاقي لا بأخلاقهم، وإلا لهويتُ إلى دَرَكٍ بعيد.

هذا النوع من الناس، الذي يُصاب بـ«كسوف أخلاقي» جزئيٍّ أو كليٍّ، لا ينفك الإنسانُ من التعامل معهم، إنْ اختياراً أو اضطراراً، وقد يَجد منهم ما يُثير الحفيظة، ويُخْرِجُ عن الطَّور، فهو هنا بحاجة لضبط نفسه، والحفاظِ على المبدأ الذي هو جزءٌ من شخصيته وسلوكه.

---

(١) المستطرف ص١٢٨.

يقول أحدُ الإخوة: كان عندي سائق، وتعاملتُ معه بما أعتقده من مبادئ وقناعات راسخة يمليها عليّ ديني أولاً، ثم ما أعلَمُه من سيرة قدوتي الأول ﷺ في التعامل مع الخدم وأمثالهم؛ فوجدتُ منه جحوداً ونكراناً للجميل بعد مدةٍ من الزمن، فلامني بعضُ الأصدقاء على إحسان الأخلاق معه، وأن هذا النوع من الناس لا يَصلح معه الفضل، بل الذي يناسبهم العدلُ والحزم، خاصةً في ظل تواصلِ السائقين والخدم وأضرابهم عبر وسائل التواصل، ونقلهم لتجاربِ بعضهم البعض في أساليب الابتزاز المختلفة لمكفوليهم، وممارسة ما يسمى بـ(ليّ الذراع)؛ ليضطر الكفيلُ للاستجابة لمطالب رفع الراتب، وغيرها من المطالب المعروفة.

وفي المقابل، وجد صاحبُنا تأييداً من بعض أصدقائه، وقالوا له: لا تتنازل عن مبادئك لأجل هذا الكسوف الأخلاقي من قِبَل هذا العامل أو السائق، ولكن عليك بالاعتدال وعدم الإفراط.

فأيُّ الفريقين أولى بالصواب؟!

إن المتأمل للسيرة النبوية الشريفة، والتي تنوعت فيها المواقفُ النبوية، مع العدوّ والصديق، والصغير والكبير، والموافِق والمخالف؛ يجد أن الهدي العام الذي سلكه ﷺ عموماً هو: امتثال ذلك التوجيه الرباني: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وأن ما سوى ذلك هو حالات استثنائية، وما خبَرُ فتح مكة إلا أكبر شاهد على ذلك.

ويمكن التأكيد على ما ذكره الصديق المؤيِّد بأنه قد لا تحْسُن المبالغة في الإكرام الذي لم يَعتدْ عليه هذا النوعُ من الناس، مما قد يَشْعرُ معه هذا الخادمُ أو السائق أنه حقٌّ واجبٌ متعيّن على الطرَف المقابل، ثم يبدأ معه برفع سقف المطالِب التي لا تُطاق، مستغلاً هذا الواقع الذي صار الحصول فيه على خادمٍ أو سائق مناسِبَين من الأمور الشاقة والمرهِقة.

وبكل حال، فلكلّ حالةٍ لبُوسُها، والعاقلُ مَن قدّر الأنسب والأوفق في الأسلوب، مع المحافظة على أدنى درجات التوزان الخُلُقي، وأن لا يَحمِلنا نَزَقُ هذا النوع مِن لؤماءِ الأخلاق أن نترك مبادِئَنا الراسخة.

المجلس الواحد والتسعون بعد المائة
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

هذه قاعدة من أعظم القواعد التي تعين على تعبيد القلب لرب العالمين، وتربيته على التسليم والانقياد.

وهذه القاعدة تدل دلالة واضحة أن الله تعالى فرض طاعته على العالم فرضًا مطلقًا لا شرط فيه ولا استثناء، وأن الله تعالى أوجب على الناس التأسي به قولًا وفعلًا مطلقًا بلا استثناء، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ولقد دأب العلماء على الاستدلال بهذه القاعدة في جميع أبواب العلم والدين:

فالمصنفون في العقائد يجعلونها أصلًا في باب التسليم والانقياد للنصوص الشرعية، وإن خفي معناها، أو عسر فهمها على المكلف.

وفي أبواب الفقه: يعمد كثير من المفتين من الصحابة ومن بعدهم إلى الاستدلال بهذه القاعدة في الأمر بشيء أو النهي عنه، ومن الأمثلة على ذلك: أن أحد التابعين رأى محرمًا عليه ثيابه، فنهر المحرم، فقال: «ائتني بآية من كتاب الله بنزع ثيابي»! فقرأ عليه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

ومن تأمل واقع الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - وجدهم أصحاب القِدْح المُعَلَّى في تلقي الأوامر والنواهي بنفوسٍ مُسلِّمة، وقلوب مخبتة، ومستعدة

للتنفيذ، ولا تجد في قاموسهم تفتيشا ولا تنقيبًا: هل هذا النهي للتحريم أم للكراهة؟ ولا: هل هذا الأمر للوجوب أم للاستحباب؟ بل ينفذون ويفعلون ما يقتضيه النص، فأخذوا هذا الدين بقوة، فصار أثرهم في الناس عظيمًا وكبيرًا.

ولما كثر عند الناس - في القرون المتأخرة - السؤال والتنقيب: هل هذا الأمر واجب أم مستحب؟ وهل هذا مكروه أم محرم؟ صار أخذ كثير منهم لأوامر الله ونواهيه ضعيفًا، فصار أثر التعبد لله هزيلًا، والانقياد عسيرًا.

ونحن هنا لا ننكر انقسام الأوامر إلى واجب ومستحب، ولا انقسام النواهي إلى محرم ومكروه، ولا يُنكر أن الإنسان قد يحتاج إلى تفصيل الحال - عند وقوع المخالفة - ليتبين حكم الله، وما يجب عليه من كفارة ونحو ذلك، لكن الذي يؤسف عليه: أن كثيراً من الذين يسألون عن هذا التقسيم، ليس مرادهم طلب العلم وتحرير المسائل، بل التملص، والتنصل من الامتثال، وإلى هؤلاء يتوجه الحديث في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

إن مَنْ ربّى نفسه على ترك كل ما يُنهى عنه، وفعل كل ما يستطيعه من الأوامر، من غير تنقيب عن حال هذا النهي أو ذاك الأمر، بل يبادر تعبداً لله تعالى بتعظيم الأمر والنهي، فإنه سيجد لذة عظيمة في قلبه، إنها لذة العيش في كنف العبودية، وظِلِّ الاستكانة والاستجابة والخضوع لله رب العالمين.

نسأل الله أن يرزقنا كمال الانقياد، وصدق الامتثال.

المجلس الثاني والتسعون بعد المائة
(اعملوا فكلٌّ ميسّر لما خُلق له)[١]

إنها قاعدة نبوية تخاطب وجدان كل مسلم، وتقول له: لا توقُّفَ في الحياة، ليس هناك في عالم الزمن محطات وقوف؛ لأن قطار الأعمار ليس في يد أحد من البشر!

فالعملَ العملَ، والجدَّ الجدَّ؛ فالطريق الذي يوصل إلى الآخرة لا تجد فيه متوقفاً، بل لا ترى فيه إلا متقدماً سابقاً، أو متأخراً متعثراً، قال الله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

إنها قاعدة عظيمة تتضمن أصلاً كبيراً من أصول الإيمان الستة، وهو: الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومُرّه، أوله وآخره، وهذا لا يتم إلا بأن يعترف العبدُ أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه عَلِم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ.

فإن قلتَ: كيف أفهم ما تقرره في قضية القدَر، وهذه القاعدةُ تقرر أن كلاً منا ميسّر لما خُلق له؟!

فالجواب: أن أفعالنا وأقوالنا تقع بقدرتنا ومشيئتنا اللتين سيحاسبنا الله عليهما، وأعطانا - سبحانه - قدرات ومواهب، نقضي بها ما قُدّر لنا قضاؤه، فعلينا

---

(١) البخاري ح(٤٩٤٥)، مسلم ح(٢٦٤٧).

الكشف عن هذه القدرات والطاقات، وألا نتكلّف ما لا يناسبنا فـ: «**كلٌ ميسّر لما خُلق له**».

ومن جهة أخرى: فإن هذه القاعدة النبوية المحكمة تشير إلى معنى آخر؛ وهو أن من وَجَّه وجهه وقصده لربه حبَّب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين؛ فتمت عليه نعمُ الله من كل وجه.

ومن وجّه وجهه لغير الله، وتولى عدوه الشيطان؛ لم ييسره لهذه الأمور، بل وَلاَّه الله ما تولى، وخذله، ووكله إلى نفسه، وليس له على ربه حجة؛ فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى فلا يلومن إلا نفسه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا﴾ [الكهف: ٢٩].

إن هذه القاعدة النبوية الجليلة: تُلفت انتباه الآباء والمربين لأمر هو في غاية الأهمية، عليهم مراعاته لإنجاح عملية تربيتهم، هذا الأمر هو: **محاولة الكشف عن ميول المتربي، ومعرفة جوانب الإبداع عنده، فإذا عرفها المربي** سعى في تطويرها له، وصرف لها الوقت الأكبر؛ والاهتمام الأبلغ.

أخي الموفق! إذا قرأت قول نبيك ﷺ: «**اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له**» اعمل ولا تيأس، ولا تقل: أنا مكتوب في الأشقياء فلمَ العمل! فهل جاءك مرسوم إلهي أنك في الأشقياء؟ هل اطلعت على اسمك في اللوح المحفوظ فإذا هو في زمرة الأشقياء؟ هل سمعت وأنت في بطن أمك المَلَكَ الموكّل بنفخ الروح فيك يُؤمر بأن تُكتَب شقياً؟!

فكن متفائلاً بالنجاح، محسناً الظن بربك، وتقدم إليه بما تستطيع من الطاعات، وجاهد نفسك على ترك المحرمات؛ فلا مُكرِه لك عليها سوى نفسك والشيطان،

فاستعن بالله عليهما وعلى كل عدوٍ ولا تعجز، فإن الله تعالى: ﴿يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، بل: ﴿وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم يسرنا لليسرى، وجنبنا العسرى، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، لا حول ولا قوة إلا بك.

المجلس الثالث والتسعون بعد المائة

(فنّ العتاب)

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: «**معاتبةُ الأخِ خيرٌ لك مِن فَقدِه، ومَن لك بأخيك كُلِّه؟! أعطِ أخاك ولِنْ له، ولا تُطِع فيه حاسداً**»(١).

يا لَهُ من درسٍ عميق في ضبط العلاقات الأخوية التي تفصَّمتْ عُراها بسببِ كثرةِ العتاب! وتنويع اللوم بأساليبَ كثيرة!

بالله.. تأمل هذه الجملة، وأَعدْها مرةً أخرى: «معاتبة الأخ خيرٌ لك مِن فَقدِه، ومَن لك بأخيك كلِّه؟! أَعْطِ أخاك ولِنْ له»!

من الجميل قبل أن تبدأ قصةُ العتاب للإخوة والأصدقاء - وحتى لا نخسرهم - أن نجيب عن هذه الأسئلة الأربعة: متى أعاتب؟ ومِن أعاتب؟ وكيف؟ وماذا بعد العتاب؟

أما متى؟ فالعتابُ ينبغي أن يكونَ في أضيقِ الدوائر، وأن يكون بقدرٍ معقولٍ حتى لا يَحصل عكسُ مقصوده، كما قال علي رضي الله عنه: «لا تُكثِر العتابَ؛ فإن العتابَ يُورِثُ الضغينَةَ والبغضة، وكثرتُه مِن سوء الأدب»(٢).

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٥).

(٢) روضة العقلاء (١٨٢).

وأما مَنْ أعاتِب؟ فالحديث في عتاب الصديق الذي عقدْتَ بينك وبينه وشائجَ المودة، ويَعُزُّ عليك ما يقع منه من خطأ، وكذلك العتاب لشخصٍ لك به صلةٌ - كخادم وزوج أو قريب - أما عامة المعارف فليس من العقل ولا الحكمة توجيه اللوم لهم، بل تغافَل عنهم.

أما كيف أعاتب؟ فما أجملَ التلطفَ في العتاب، واللينَ في العبارة!

ولعلك تتعجب مِن حديث أنس ﷺ الذي قال فيه: خدمتُ النبيَّ ﷺ عشر سنين، فما قال لي: **أف**، ولا: لم صنعتَ؟ ولا: أَلا صنعتَ؟[1]

فهذا خادمٌ، وصغيرُ السن جداً حين بدأ خدمة النبي ﷺ، حيث كان عمره عشر سنوات، وكلاهما - صغر السن والخدمة - مَظِنة الخطأ المتكرر، ومع هذا فلا يَسمع منه أنسٌ طيلةَ السنوات العشر حتى كلمة (أُفٍّ)! صلوات ربي وسلامه عليه.

ومن حق الأخ أن تَغفر هفوتَه، وتَستُر زلَّتَه؛ فمن رام بريئاً من الهفوات، خالياً من الزلات؛ رام محالاً!

وماذا بعد العتاب؟ وهو سؤالٌ مهم يَجب تأمُّله قبل إلقاء اللوم والمعتبة، فإن بقاءَ الصديقِ الصدوق، كثيرِ الفضائل - على علةٍ فيه - خيرٌ من خسارته بسبب عتاب قد لا يحتمِله، أو يفهمه على غير وجهه، وقد قيل: تناس مساوئ الإخوان يَدُمْ لك وُدُّهم، **وبالجملة**: فغنيمة الأصدقاء الصالحين لا تتوقف عند الحياة، بل هي ممتدة إلى يوم الدين: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فالله الله بحفظ الود، والتغاضي عن الزلة، فالتغافل من شِيَم الكرام.

---

(١) البخاري ح(٦٠٣٨).

المجلس الرابع والتسعون بعد المائة
(شوكة قادت إلى الجنة)

الجنة هي مبتغى كلِّ مؤمن، وغايةُ كل مسلم، ولا غرو! فبدخولها تنزاح الهموم، وتتبدّد المخاوف.

وحينما يتحدث أحدُهم عن الجنّة، فلا يكاد يتراءى للمستمع إلا تلك الصور العظيمة الجليلة من الأعمال والتضحيات الكبار.. فتتراءى له تلك الأقدامُ المنتصبة في هجعة الليل، وهي تتغنى بآيات الكتاب، وتناجي الرب الكريم، وتلوح له تلك الشفاه اليابسة، والبطونُ الضامرة مِن أثَر الصوم في حرّ الهواجر، ويتخيل صورَ تلك النفوس التي أُزهقت، والرقابَ التي طارت في سبيل الله، وتتجلى له صورةُ ذلك العالِم الذي طوّف البلاد، وجاب البلدان تحصيلاً للعلم، وجمعاً له، وتصنيفاً ودعوةً وتعليماً للناس! ولعمر الله إنها لأعمال جليلة، يوفّق الله لها من شاء من العباد.

وكون هذه من مهور الجنة لمن صدَق حقٌ لا ريب فيه، فإن الكريم الوهاب تبارك اسمُه وجلّ ثناؤه جعل لدخولها أسباباً أخرى يسيرة على من يسّرها اللهُ عليه، وبعضُها يكاد يتحقق له بشكل يومي.

لنتأمل في هذا الحديث الذي رواه مسلم، أنه ﷺ قال: «مرّ رجلٌ بغصنِ شجرةٍ على ظهر طريق، فقال: والله لأنحيَّن هذا عن المسلمين لا يؤذيهم؛ فأُدخِل الجنة»[١].

(١) صحيح مسلم ح(١٩١٤).

وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «إن رجلا كان فيمن كان قبلكم، أتاه الملَك ليقبض روحه، فقيل له: هل عملتَ من خير؟ قال: ما أعلم، قيل له: انظر، قال: ما أعلم شيئًا غير أني كنتُ أبايع الناسَ في الدنيا وأجازيهم، فأُنظِر الموسر، وأتجاوز عن المعسر؛ فأدخله الله الجنة»(١)، وأمثال هذه النصوص كثير.

في واقعنا تجدّدت سبلٌ كثيرة لنفع الخلق، ورفع الأذى عنهم من خلال التقنية الحديثة، والتي سهّلت الوصول إلى الناس وبسرعة مذهلة، يمكن للمرء أن يسهم فيها نشراً وحثّاً.

أعرف أحدَ الشباب - يعمل في قطاع المقاولات - وفي مدينة بعيدة عن العواصم، حُبّبَ إليه دعوةُ الجاليات، وامتلأ قلبُه حدباً وشفقة على هذه الملايين التي تأتي لبلادنا ولا يرجعون بدعوةٍ لأغلى ما نملك وهو الإسلام! فواجهتْه عقبةٌ، وهي: أنه ليس عنده علمٌ شرعي يؤهّله لذلك! لكنه استطاع تجاوزها بتسخير ما يملك من قدرة جيدة على التواصل مع المؤهَّلين دعوياً ومالياً، من مكاتب دعوية، وتجار وغيرهم، فبدأ يعمل بجهد دؤوب، واستعان على تسويق مشروعه بمعرّفات بعض المشاهير في تويتر، وانطلقت حلقاتُ دعوة الجاليات في بعض القنوات ذائعة الصيت؛ فأسلم على يديه حتى الآن الآف الأشخاص مِن مختلف الجنسيات، ويخبرني أن طموحَه أن يسلم على يديه ٣٠٠,٠٠٠ ثلاثمائة ألف شخص! ويزداد عجبك أنه يدير مشروعه وهو في مدينته التي يسكنها بعيداً عن ضجيج المدن الكبرى.

هذا العمل من حيث هو عملٌ جليل، ولكن مرادي من الاستشهاد به، هو تسخير هذه الوسائل التي جعلت عملاً كهذا - مما يحتاج لملايين الريالات في العقود الماضية، صار بفضل الله ثم هذه التقنية - يدار بسهولة، وبأقل كلفة.

(١) صحيح البخاري ح(٣٤٥١)، صحيح مسلم ح(٢٩٣٤).

ومن صور هذه الأعمال الجليلة التي تدار بسهولة: تسويق أخبار المشروعات الخيرية المتعثرة عبر وسائل التواصل، فكم نفع الله بها، وكم قُضيت مشروعات بسبب تغريدة أو واتساب!

وبالجملة، فمن امتلأ قلبُه شوقاً للجنة، لم يستقلّ أي عملٍ يقوم به، ولو كان في نظر الناس صغيراً، لأنه يدرك أن أي حسنة ستضاف إلى رصيده الأخروي، مستحضراً قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

المجلس الخامس والتسعون بعد المائة

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾

هذه القاعدة القرآنية جزء من آية كريمة يقول الله تعالى فيها: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ فالله تعالى يخاطب نبيه ﷺ - وهو خطاب للأمة كلها - بأن يقيموا الصلاة طرفي النهار، وساعاتٍ من الليل، ينصب فيها قدميه لله تعالى، ثم بيّنَ الحكمة بقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي يمحونها ويكفرنها حتى كأنها لم تكن.

وإذهاب السيّئات يشمل أمرين:

إذهاب وقوعها، وحبها في النفس وكرهها، بحيث يصير انسياق النّفس إلى ترك السيّئات سَهْلًا وهيّنًا كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها.

١ - ويشمل أيضًا محو إثمها إذا وقعت، ويكون هذا من خصائص الحسنات كلّها، فضلًا من الله على عباده الصالحين[1].

إن الأمثلة التطبيقية التي توضح وتؤكد معنى هذه القاعدة المحكمة كثيرة جدًا، نذكر بعضها تنبيهًا على باقيها، وأول ما نبدأ به من الأمثلة هو ما ذكره ربنا في هذه الآية

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٧/ ٢٨٤).

الكريمة، وهو:

٢ - إقامة الصلاة طرفي النهار - وهو مبتدأه ومنتهاه -، وساعات من الليل، ولا ريب أن أول ما يدخل في هذه الصلوات الخمس، كما يدخل فيها: بقية النوافل، كالسنن الرواتب، وقيام الليل.

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تدل على أن الصلوات المفروضات والنوافل من أعظم الحسنات الماحية للسيئات، فليبشر الذين يحافظون على صلواتهم فرضها ونفلها بأنهم من أعظم الناس حظًّا من هذه القاعدة القرآنية، ويا تعاسة وخسارة من فرطوا في فريضة الصلاة!

٣ - قصة توبة القاتل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا - وهي في الصحيحين - وهي قصة مشهورة جدًّا، والشاهد منها، أنه لما انطلق من أرض السوء إلى أرض الخير: «أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاه ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرْضَين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»(١).

فإلى كل من أسرف على نفسه، وقنّطه الشيطان من رحمة ربه، لا تيأسنَّ ولا تقنط، فهذا رجل فعل ما فعل، فلما صحّت توبته، رحمه ربه ومولاه، مع أنه لم يعمل خيرًا قط من أعمال الجوارح سوى هجرته من بلد السوء إلى بلد الخير، أفلا تحرك فيك هذه القصة الرغبة في هجرة المعاصي، والإقبال على من لا سعادة ولا أنس إلا بالإقبال عليه؟!

اللهم ارزقنا حسناتٍ تذهب سيئاتنا، وتوبة تجلو أنوارها ظلمة الإساءة والعصيان.

---

(١) البخاري ح(٣٢٨٣)، ومسلم ح(٢٧٦٦).

المجلس السادس والتسعون بعد المائة
(خيرُكم؛ خيرُكم لأهله)(١)

هذه قاعدة نبوية عظيمة، تتفقد بيوت المسلمين ودُورَهم؛ لتضع عليها بصمات السعادة، وتنفخ فيها روح الحياة الطيبة، جاءت هذه القاعدة الجليلة يتصدرها المدح والتشويق للمجهول! «خيركم»! ومن هذا الذي لا يسعى لأن يكون من خيرِ الناس! إن كنت تسعى لتلك الخيرية فكيف أنت مع أهلك؟(٢)

والمراد أن حسن العشرة مع الأهل من جملة الأشياء المطلوبة في الدين، فالمتصف به من جملة الخيار من هذه الجهة، وقد يُوفّق بسبب هذه الخصلة لسائر الصالحات؛ حتى يصير خيراً على الإطلاق.(٣)

وللعلامة الشوكاني تعليقٌ قيّم على هذا يقول فيه:

«في ذلك تنبيه على أن أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالاتصاف به: هو من كان خير الناس لأهله؛ فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخَلق، والإحسان، وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر! **وكثيراً ما يقع الناس في هذه الورطة**؛ فترى

---

(١) الترمذي ح(٣٨٩٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن حبان ح(٤١٧٧، ٤١٨٦).

(٢) في مرقاة المفاتيح: (٥/ ٢١٢٥): والأهل يشمل الزوجات والأقارب، بل الأجانب أيضاً، فإنهم من أهل زمانه!

(٣) ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه: (١/ ٦٠٩).

الرجل إذا لقي أهلَه كان أسوأ الناس أخلاقاً، وأشجعهم نفساً، وأقلهم خيراً! وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكتُه، وانبسطت أخلاقُه، وجادت نفسُه، وكثر خيرُه، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق! زائغٌ عن سواء الطريق! نسأل الله السلامة»[1].

ولقد قال تعالى في أمر النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] ثم أجمل في النساء ما فرّقه من حق الزوج في كلمة واحدة فقال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال في عظيم حقهن: ﴿وأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾ [النساء: ٣٦] قيل: هي المرأة[2].

أيها الزوج الكريم: **كيف تكون من خير الناس مع أهلك؟**

هنا أمور نسردها سرداً؛ لعل من راعاها في عشرته مع أهله أن يكون من خير الناس:

- المعاشرة بالمعروف، أي: بحسب الأعراف التي لا تخالف شرعاً.

- التغاضي والتغافل في كثير من الأحيان، وعدم تعقب الأمور صغيرها وكبيرها.

- أن تغار عليهم في دينهم وعرضهم غيرة خالية من سوء الظن، وألاعيب الشك.

- أن تُعلِّمهم ما تَعلَم من أمور دينهم، وتستفتي العلماء عن ما لا تعلم.

- أن لا تكلفهم فوق طاقتهم.

- التوسيع بالنفقة عليهم، بما لا إسراف فيه ولا عبث.

---

(١) نيل الأوطار: (٦/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

(٢) قوت القلوب: (٢/ ٤٢٠).

- أن تتزين لزوجك وتتطيب كما تحب ذلك منها، ولقد كان رسول الله يبدأ بيته بالسواك.

ولا يغب عن بالك أيها الزوج الموفق: أن الكمال البشري عزيز ونادر، ومتى كملتَ أنت أيها الرجل من كل وجه، وخلُصت من كل عيب، وتحررت من كل نقص؛ فعند ذلك طالب زوجتك بالكمال!

اللهم أصلح أحوالنا وأحوال المسلمين، واجعلنا مع أهلنا كما تحب وترضا، واهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال، وجنبنا سيئها؛ إنك سميع الدعاء.

المجلس السابع والتسعون بعد المائة
(إنما أنت أيام)

يقول أبو الدرداء ﷺ: «**ابنَ آدم! إنما أنت أيام؛ فإذا ذهبَ يومٌ ذهبَ بعضُك، ابنَ آدم! إنك لن تزالَ في هدْمِ عُمرِك منذ يومِ ولدتْك أمُّك**»(١).

هذه حقيقة الزمن.. وهذه حقيقة السنوات التي نقطعها في هذه الحياة.. ولكأنما العُمر بيتٌ وبناءٌ كبير، فإذا ذهب يومٌ أو ساعةٌ سقطتْ منه لبنة.. فتَقَدُّم السِّنِّ هو من جهةٍ زيادة، ومن جهة أخرى نقص! لأن حقيقته أنه يقرّبك إلى أجلك.

والناس في هذا الموضوع بين غالٍ وجافٍ! فطَلَبُ طول العمر لا يُحمَد ولا يُذم لِذاتِه، بل لمتعلقه وقصد الداعي به!

ودونك هذه المناجاة الجميلة التي تعبّر عن هذا المعنى بدقة، والتي بثّها ابن الجوزي في كتابه النافع: «صيد الخاطر» حيث يقول رحمه الله:

«دعوتُ يوماً فقلت: **اللهم بلِّغني آمالي مِن العلم والعمل، وأطل عمري لأبلغ ما أُحِب من ذلك**، فعارضني وسواس من إبليس فقال: ثم ماذا؟ أليس الموت؟ فما الذي طوّل الحياة؟ فقلت له: يا أبله! لو فهمتَ ما تحت سؤالي علمتَ أنه ليس بعبث! أليس في كل يوم يزيد علمي ومعرفتي؛ فتكثر ثمار غرسي؛ فأشكر يوم حصادي؟!

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٧/ ١٧١).

أفيَسرني أَن مت منذ عشرين سنة؟ **لا والله!** لأني ما كنتُ أعرف الله تعالى عُشْر معرفتي به اليوم! وكل ذلك ثمرة الحياة التي اجتنيت فيها أدلةَ الوحدانية، وارتقيتُ عن حضيض التقليد إلى يَفاع[١] البصيرة، واطَّلعتُ على علومٍ زاد بها قدْري، وتجوهرت بها نفسي، ثم زاد غرسي لآخرتي... ففي الصحيح: «**لا يزيد المؤمنَ عمرُه إلا خيراً**»[٢]،... فيا ليتني قدرتُ على عُمْر نوح! فإن العلم كثير، وكلما حصل منه حاصل رَفع ونَفع»[٣].

وقال رحمه الله في موضع آخر؛ مبيناً متى يُذَم طلب طول الأمل: «ومِن الاغترار طولُ الأمل، وما مِن آفةٍ أعظمَ منه، فإنه لولا طولُ الأملِ ما وقع إهمالٌ أصلاً، وإنما تُقدَّم المعاصي وتُؤخَّر التوبة لطول الأمل، وتُبادَر الشهوات وتُنسَى الإنابة **لطول الأمل**»[٤].

---

(١) اليفاع: ما علا من الأرض. ومنه يقال: أيفع الغلام: إذا علا شبابه، فهو يافع، ولا يقال موفع. مقاييس اللغة (٦/ ١٥٧).
(٢) مسلم ح(٢٦٨٢).
(٣) صيد الخاطر (١٢٤)، فانظر يا طالب العلم هذه الهمة، وهل نفسك تحدثك كما حدثت ابن الجوزي نفسه بهذا؟!
(٤) صيد الخاطر (١/ ٢٠٦).

المجلس

١٩٨

المجلس الثامن والتسعون بعد المائة
(أمثال مُحبِطة)

تحتل الأمثالُ مكانةً عاليةً في الموروث الثقافي لكل أمةٍ وبلد، وكثيرٌ منها يحملُ خلاصةَ تجاربِ قائليها، وعصارةَ فكرهم، وفي بعضها وجهٌ من وجوه الحكمة، بل بعضُها يحمل تأريخاً لقصة سارَ بسببها ذلك المثل.

ولشدة تأثير هذه الأمثال على ثقافة كثير من الناس؛ صار بعضُهم يردّدها وكأنها نصوصٌ محكمة، لا يأتيها الباطل مِن بين يديها ولا من خلفها! وأصبح الوالدُ والمعلمُ والشاعرُ والمتحدّثُ في المجالس يستخدمها - في بعض الأحيان - كدليلٍ قاطع لحسم الخلاف حول قضيةٍ معيّنة!

والأمرُ المؤلم في هذا الموضوع ما يقع من التسليم بمعاني بعضِ تلك الأمثال، والاستسلام لمضامينها السلبية، وانتقال هذا التأثر بفهمها إلى الواقع؛ فتقعدُ بصاحبها عن معالي الأمور، وتَجاوزِ العقباتِ التي تمرّ به، ومن ذلك:

فمن الأمثال الدارجة - وخصوصاً في الأوساط العلمية -: «ما تَركَ الأوَّلُ للآخِر»!

وأكتفي في نقد هذا المثل بقول ابن عبد البَر عن هذه الكلمة: إنها مِن أضر الكلمات بالعلم وبالعلماء والمتعلِّمين[1]، وصواب العبارة عند أرباب الهِمم: كم تَركَ الأوّلُ للآخِر!

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٦).

فالجملة الأولى تحمل رسالةً سلبية بقتل الإبداع، وأن مَن سبَقَنا لم يَترك لنا مجالاً لأنْ نُبدِع، أو نجدِّد، أو نُضيف شيئاً، بخلاف الجملة الثانية؛ فهي تَفتح البابَ على مصراعيه لمن يريد الإضافةَ والتجديد، وتَقديمَ النافعِ المفيد.

ومن تلك الأمثال السائرة - وهو مثلٌ شعْبي ـ: «يوم شاب دخلَ الكُتّاب»، أي: يوم تقدّم به السنّ بدأ يتعلّم!

وهذا المثل يحمِل رسالةً سلبية لهذا المتعلّم الذي تعلّم على كبَرِ سِنّه، وكأنه يُقال له: ما فائدةُ تعلّمِك في هذا السن؟ ومِن أقرب ما يفنّد مدلول هذا المثل: عموم الأدلة الدالة على طلب العلم وتحصيله؛ ولهذا لما ساق البخاريُّ قولَ عمر رضي الله عنه: «تفقّهوا قبل أن تُسَودوا» علّق عليه البخاري قائلاً: «وبعد أن تُسَودوا، وقد تعلّم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم»[1]، ولأنْ يموت الإنسانُ متعلماً خيرٌ له من أن يموت راضيًا بجهله.

وبكل حالٍ، فليس المقصود هنا حصرُ الأمثلة التي من هذا النوع، بل التنبيه على الأثر السلبي لترديد بعض الأمثلة دون تأمل في آثارها، وأن يُدقِّق الإنسانُ في هذه الجُمَل، ولا يلتفت للمثبّط منها والمحبِط، وليكن لسان حاله: «استعن بالله ولا تعجز».

(١) صحيح البخاري (١/ ٢٥).

المجلس التاسع والتسعون بعد المائة
﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وثيقة الصلة في العلاقة مع الله، ومع عباده.

وقد جاء ذكرها ضمن سياق آيات الحج، قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وهذه القاعدة الجليلة تربي في المؤمن معاني إيمانيةٍ وتربوية كثيرة - وهو في سيره إلى الله والدار الآخرة -، ومن هذه المعاني:

أولًا: في هذه الآية حَضٌّ على إخلاص العمل لله تعالى، وإن لم يطلع عليه أحد، بل إن الموفق من عباد الله من يحرص كل الحرص على إخفاء العمل عن الخلق ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

ثانيًا: من المعاني التي تربيه هذه القاعدة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ﴾ في نفوس أهلها: راحة النفسُ، واطمئنانُ القلب، ذلك أن المُحْسن إلى الخلق، المخلصُ في ذلك لا ينتظر التقدير والثناء من الخلق، بل يجد سهولةً في الصبر على نكران بعض الناس للجميل الذي أسداه، أو المعروف الذي صنعه! فإنه إذا يفعل الخير ويوقن بأن ربّه يعلمه علمًا يثيب عليه؛ هان عليه ما يجده من جحود ونكران، فضلًا عن التقصير

في حقه، ولسان حاله - كما أخبر الله عن أهل الجنة -: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

ومع ما تقدم ذكره، فإني أهدي لإخواني - الذين منّ الله عليهم بالإحسان إلى الخلق وابتلوا بجفائهم وعدم تقدير معروفهم - هذا النص النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية، حيث يقول في كلام طويل له حول هذا المعنى، قال: «ولا يحملنك هذا على جفوةِ الناس، وتَرْكِ الإحسانِ إليهم، واحتمالِ الأذى منهم، بل أحسنْ إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: ١٧ - ١٩]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾»[١].

والمقصود: أنّ من فهم ما ترشد إليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ أقدم على فعل الخير، وسهل عليه الصبر على تقصير الخلق وجفائهم؛ لأنه لا يرجو سوى الله، نسأل الله تعالى بمنّه وكرمه أن يرزقنا فعل الخيرات، والإخلاص لله تعالى في كل ما نأتي ونذر.

(١) مجموع الفتاوى: (١/ ٣١).

المجلس المائتين
(لا تحقرنّ من المعروف شيئاً)[١]

هذه قاعدة نبوية من قواعد بناء الخير ونشر المعروف، قاعدة تدعو لأن يبقى المسلمُ عضواً فاعلاً للخير، متحركاً إلى الإحسان، مبادراً إلى الطاعة، سباقاً إلى الفضائل، وأن لا يزهد عن خيرٍ مهما صغر في عينه، ولو كانت بابتسامة في وجه أخيه، أو يلقى أخاه بوجهٍ طَلْق، فإن عجز عن هذه وتلك، فليكف شره عن الناس! فتلك صدقة، وكل معروف صدقة.

والمعروف: اسم جامع لكل ما عُرف من طاعة الله تعالى والإحسان إلى الناس، وهو من الصفات الغالبة، أي: أمرٌ معروف بين الناس، إذا رأوه لم ينكروه.[٢]

بل قال بعضُ أهل العلم: «المعروف عند العرب ما يعرفه كل ذي عقل، ولا ينكره أهل الفضل»[٣].

إن مِن كرم الله تعالى أنه يُنيل الإنسانَ الفوزَ بالجنة والنجاة من النار بالعمل اليسير، والمتأمل في السنة النبوية يجد أن النبي ﷺ قد فتح للمؤمنين آفاقاً رحبة لفعل المعروف، الذي ثمرته جنةٌ عرضها السماوات والأرض، فلا تحتقرها أخي المسلم، منها:

---

(١) مسلم ح(٢٦٢٦).
(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٤/ ١٣٣٦).
(٣) فيض القدير (٢/ ٥٥٧)، والمقولة للعسكري.

١ - ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «بينما رجل يمشي بطريق؛ وجد غصن شوك على الطريق فأخّره فشكر الله له فغفر له»(١).

٢ - وفي الصحيح أيضاً عنه ﷺ في قصة البغي التي سقت كلباً أخبر أن الله غفر لها ذلك، وأدخلها الجنة، وفي عموم الإحسان إلى البهائم، يقول عليه الصلاة والسلام: «في كل كبد رطبة أجر»(٢).

٣ - ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ قال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»(٣).

٤ - ومن النماذج التطبيقية لهذه القاعدة: قوله ﷺ: «يا نساء المسلمات لا تحقرن جارةٌ لجارتها، ولو فِرسَنَ شاة»(٤).

٥ - ومن أبواب المعروف اليسيرة التي لا يصح احتقارها: كف الأذى عن الناس باليد واللسان.

٦ - ومنها: أداء حقوق المسلم على المسلم، كـ: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وإذا استنصحك فانصح له، وإبرار القسم، ونصر المظلوم، وإفشاء السلام، وإرشاد الضال، والمشي بحقوق الآدميين الواجبة إليهم، وإنظار المعسر، وبر الوالدين، والإحسان إلى الزوجة، وحسن تربية الأولاد، وبذل النصيحة، وتعليم الجاهل، وقيادة الأعمى، وبذل الشفاعة الحسنة، والدعاء للمسلمين.

اللهم اجعلنا من أهل المعروف في الدينا، الذين هم أهل المعروف في الآخرة، واجعلنا هداة مهتدين، مفاتيح للخير مغاليق للشر، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم.

---

(١) البخاري ح(٦٢٤)، مسلم ح(١٩١٤).
(٢) البخاري ح(٢٣٦٣)، مسلم ح(٢٢٤٤).
(٣) البخاري ح(١٣٥١)، مسلم ح(١٠١٦).
(٤) البخاري ح(٢٥٦٦)، مسلم ح(١٠٣٠).

المجلس الواحد بعد المائتين
(أوصني يا أبا الدرداء!)

ما أجملَ أن نطلبَ ممن نثق بنصحهم أن يوصينا، كما طلب رجل الوصيةَ من أبي الدرداء رضي الله عنه، فقال له: «**اذكر اللهَ في السَّراءِ يذكركَ في الضراء، وإذا ذكرتَ الموتى فاجعل نفسَك كأَحدِهم، وإذا أشرفتْ نفسُك على شيءٍ من الدنيا فانظر إلى ما يَصير**»[١].

لقد تضمنت هذه الوصية الوعظية ثلاث معانٍ هي من أعظم الأدوية لمن تقطَّعت قلوبهم حسرةً، أو تحجرت قسوةً، أو ذابت كمداً على ما فاتها من لعاعة الدنيا!

وأول هذه الأدوية والوصايا: ذِكر الله تعالى.. الذي يذيب قسوة القلوب، ويعلقها بِعلاّم الغيوب، ويجعل الذاكر في كرامة المذكور، كما قال سبحانه عن نفسه في الحديث: «ومَن ذَكَرني في نفسه ذكرتُه في نفسي، ومن ذَكَرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خيرٍ منهم»[٢].

وقد نبّه أبو الدرداء إلى بركةٍ من بركات هذه العبادة، وهي: أن ذاكر الله تعالى في السراء سيجد أثر ذلك في الضراء.

وثاني هذه الوصايا: «**وإذا ذكرت الموتى فاجعل نفسك كأحدهم**» وهذه الوصية من جملة مئات الوصايا التي كان يوصي بها السلف أصحابهم؛ وكان أبو الدرداء يقول

(١) تاريخ دمشق (٤٧ / ١٦٦).
(٢) البخاري ح(٧٤٠٥)، مسلم ح(٢٦٧٥).

في بعض مواعظه: «إن من أكثر ذكر الموت قل حسده وبغيه»(١)، «وما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل»(٢)، ولهذا كان يقول سعيد بن جبير: «لو فارق ذكر الموتُ قلبي خشيتُ أن يَفسُد عليَّ قلبي»(٣).

وبالجملة فإن مَن أكثَرَ مِن ذِكر الموتِ أُكرِم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القوت، ونشاط في العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا بالكفاف، والتكاسل في العبادة.(٤)

وثالث وصايا أبي الدرداء لهذا الرجل: «**وإذا أشرفتْ نفسُك على شيءٍ من الدنيا فانظر إلى ما يَصير**»!

إي والله! إنها لسَلوة وأي سَلوة! فمن تعلَّقت نفسُه أو أشرفت على شيءٍ من حطام الدنيا حتى تأثر قلبه بذلك؛ فليبادر إلى تذكر مصير هذه الحياة، التي قال فيها خالقها سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

(١) الزهد للإمام أحمد (ص: ١١٧).
(٢) الزهد للإمام أحمد (ص: ٢١٨).
(٣) الزهد للإمام أحمد (ص: ٣٠٠).
(٤) تنبيه الغافلين (ص: ٤١).

المجلس الثاني بعد المائتين
(عندما يجوع القلب)

إذا ذُكر الجوعُ فلا يكاد ينصرف الذهنُ إلا للجوع المعروف.. لكن ثمة نوعٌ مِن الجوع أشارت له النصوصُ النبوية، والآثارُ المنقولة عن السلف رحمهم الله، يكشف مظهراً من مظاهر عنايتهم بسدّ هذا النوع من الجوع، الذي ابتُلي به أكثرُ الخلق، لكنهم لا يشعرون به.

كمّ مرّ على مسامعنا هذا الدعاءُ النبوي العظيم: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها»(١)، فتأمل «ومن نفس لا تشبع»، إنه حديثٌ عن القلب إذا جاع وتطلعت نفسُه لحطام الدنيا؛ فيجمع ويجمع حتى لا يُوقِف جمعَه هذا إلا اصطدامُه بجدار الموت!

ويلفتُ النبيُّ ﷺ النظرَ إلى هذه الحقيقة بأسلوبٍ آخر، حين أوصى تاجراً من تجّار المسلمين - وهو حكيم بن حزام - فيقول له: «يا حكيم! إن هذا المال خَضِرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى»(٢)، إنه تحذيرٌ غير مباشر من الوصول إلى تلك الحال التي تعوّذ منها ﷺ في الحديث السابق، ألا وهي: ظهور أعراضِ هذا الجوع القلبي بالاستشراف والتطلُّع للمال، فهو جوعٌ دائمٌ «يأكل ولا يشبع»!

---

(١) صحيح مسلم ح(٢٧٢٢).
(٢) صحيح البخاري ح(١٤٧٢)، صحيح مسلم ح(١٠٣٥).

ومن تأمل هذه الحال؛ عرف ورأى أعراضَ هذا الجوع على أحوالِ كثيرٍ من الناس الذين أقْفرت قلوبُهم من كنز «القناعة»، وتعطَّلت عندهم حاسةُ ذوقِ لذة «الكفاف»، فتلاشت أو أوشكت أن تتلاشى من حياتهم جماليةُ صورة «الفلاح»، تلك الثلاثُ التي جمعها النبيُّ ﷺ بقوله: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه»[1].

وثمة جوعٌ لا يُشبهه جوعٌ، ألا وهو: جوعُ القلب من لذة القرآن، وتدبُّر آياته، والأنس بمناجاة الله بكلامه، والتلذّذ بخطابه، وإلى هذا المعنى يُشير الخليفةُ الراشد أميرُ المؤمنين عثمان ﷺ بقوله: «لو صحّت قلوبُكم ما شبعتم من كلام الله»![2] فلنتأمل هذه الكلمة، ثم لنفتِّش عن مساحة الجوعِ التي تحتل قلوبَنا! ولنفكر في السبب الذي لأجله لا يستطيع الواحدُ منّا أن يُمسك المصحفَ سويعةً من زمن، ولا يشعر بالجوع والألم عندما يفوته حزبُه منه!

وفي الجملة.. فإن جوع القلوب حالٌ تَعرِض لكل أحد، لكن الشأن بالشعور بهذا الجوع والألم، الذي يدفع لسدِّ جوعتِه، كما يحرص الإنسانُ على سدِّ جوعة البدن.

(١) مسلم ح(١٠٥٤).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل، رقم (٦٨٠)، وفي سنده انقطاع.

المجلس الثالث بعد المائتين

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، وردت ضمن آية كريمة في سورة التغابن يقول الله فيها: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فما من مصيبة سواء كانت في النفس، أم المال أم الولد، أم غيرها، فكل ذلك بقضاء الله وقدره، اقتضته الحكمة وتمت به المشيئة، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بما يجب عليه من عبودية الصبر والتسليم؟ وهما أمران واجبان، فإن كمّل هذين المقامين بمقام الرضا - وهو مقام مستحب مع المصائب - كان ذلك نوراً على نور.

وتأمل كيف علّق الله تعالى هداية القلب على الإيمان؛ فالأصل في المؤمن أن يروّضه الإيمان على تلقي المصائب، والبُعْدِ عن الجزع والهلع، موقنا أن هذه الحياة لا تخلو من منغصات ومكدرات.

وهذا الختم البديع بهذه الجملة بقوله: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يزيد المؤمن طمأنينة وراحةً ليقينه بسعة علم الله، الذي لا يخفى عليه شيء مما يقع، وأنه الأعلم بما يصلح حال العبد وقلبه، وما هو خير له في العاجل والآجل، يقرأ المؤمن هذا وهو يستشعر قول النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[1].

---

(١) مسلم ح(٢٩٩٩).

وفي تعليقات السلف على هذه الآية ما يوضِّح المعنى ويرسخه أكثر، ومن ذلك:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يَهْدِ قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[1]

ويقول علقمة بن قيس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضَى»[2]

ومجيء هذه القاعدة في هذا السياق له دلالات مهمة، من أبرزها:

١ - تربية القلب على التسليم على أقدار الله المؤلمة كما سبق.

٢ - أن من أعظم ما يعين على تلقي هذه المصائب بهدوء وطمأنينة: الإيمان القوي برب العالمين، والرضا عن الله تعالى، بحيث لا يتردد المؤمن - وهو يعيش المصيبة - بأن اختيار الله خير من اختياره لنفسه، وأن العاقبة الطيبة ستكون له - ما دام مؤمنًا.

وبعد: فلماذا يتسخط بعضنا ويتوجع على حادثٍ حصل قبل سنوات؟! ولماذا يقلب أحدنا ملف زواجٍ فاشل قبل عقد من الزمن؟! أو صفقةٍ تجارية خاسرة، أو أسهم بارت تجارتها؟! وكأنه بذلك يريد أن يجدد أحزانه!!

اللهم إنا نعوذ بك من الهمّ والحزَن، ومن العجز والكسل.

---

(١) تفسير الطبري: (٢٣/ ٤٢١).

(٢) تفسير الطبري: (٢٣/ ٤٢١).

المجلس الرابع بعد المائتين
(من يستعفف يُعِفَّه الله، ومن يستغن يُغنِه الله)[١]

هذه قاعدة نبوية جليلة القدر، عظيمة النفع، تدعو المسلم إلى أن يكون - أبداً - عزيز النفس، مرتفع القدر، قوي الثقة بربه، دائم الاتصال به سبحانه وتعالى.

ولقد اشتملت هذه القاعدة العظيمة على جملتين جامعتين للخير، نافعتين للخلق:

«إحداهما: قوله: «من يستعفف يعفه الله».

والثانية: قوله: «ومن يستغن يغنه الله».

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة، وتعلقاً به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقاً، حُرّاً من رِق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسَه عن أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين؛ بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر: «ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرفٍ ولا سائلٍ فخذه، وما لا فلا تُتْبِعه نفسَك»[٢] فقَطْعُ الإشراف في القلب والسؤال باللسان؛ تعففاً وترفعاً عن مِنن الخلق، وعن تعلق القلب بهم؛ سببٌ قويٌ لحصول العفة.

---

(١) البخاري ح(١٣٦١)، مسلم ح(١٠٥٣).
(٢) البخاري ح(١٤٠٤)، مسلم ح(١٠٤٥).

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسَه على الأمر الثاني، وهو: الاستغناء بالله، والثقة بكفايته؛ فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا؛ فإن من استعف عما في أيدي الناس، وعما يناله منهم؛ أوجب له ذلك أن يقوى تعلُّقه بالله، ورجاؤه وطمعُه في فضل الله وإحسانه، ويَحسُن ظنُّه وثقتُه بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به: إن ظن خيراً فله، وإن ظن غيرَه فله، وكل واحد من الأمرين يمُد الآخرَ فيقوِّيه، فكلما قوي تعلُّقه بالله ضعف تعلُّقه بالمخلوقين، وبالعكس.

ومِن دعاء النبي ﷺ: «اللَّهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»، فجمع الخيرَ كلَّه في هذا الدعاء»[(١)].

ومعنى قوله: «**يعفه الله**» **أي**: **يجعله عفيفاً** (مِن الإعفاف)، وهو: إعطاء العفة، وهي الحفظ عن المناهي، يعني: من قنع بأدنى قوت، وترك السؤال؛ تُسَهِّل عليه القناعة، وهي كنز لا يفنى[(٢)].

والعفة لا تقتصر على التعفف في الجانب المالي! بل هي أوسع، ودلالة كلمة (العفة) في اللغة أرحب، فالعفة: الكف عما لا يحل له؛ كالزنا، والظلم، وسؤال الناس أموالهم، وغيرها من صور العفة[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله - تعليقاً على قول بعضهم: (والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب) ـ: «ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى»[(٤)].

---

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص٨٨ - ٨٩).
(٢) ينظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٦/ ٢٦٢).
(٣) ينظر: عدة الصابرين: (٤٢).
(٤) روضة المحبين ص(١٠٣).

فيا كل من أساء وأذنب واقترف؛ عجل بالتوبة، وأسرع بالإقلاع والندم؛ واستعفف يعفك الله، واستغن بما آتاك الله يغنك الله، لعله يكتب لك الخير قبل أن يفجأك الموت، وتدركك المنية.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى، اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبك عمن سواك، وقنا وأهلينا والمسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن.

المجلس الخامس بعد المائتين
(دمعة على أسوار قبرص!)

يقول جبير بن نفير رضي الله عنه: إنه لما فتحت قبرص، فُرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، ورأيتُ أبا الدرداء جالساً وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: «**ويحَكَ يا جبير! ما أهونَ الخلقَ على اللهِ إذا هم تركوا أمرَه! بينا هي أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ، لهم الملك، تركوا أمرَ اللهِ فصاروا إلى ما تَرى**»[١].

الله أكبر! وما أجملَ الموعظةَ بالموقف!

ها هو العالمُ الحكيم، صاحبُ النظر الثاقب، يلفت النظر إلى معنىً قد يَغيب في لحظةِ الفرح بانتصار المؤمنين، إنه النظر والتأمل في سنن الله في الأمم والمجتمعات، التي انطبقت على هذه الأمة التي لما تمرَّدت على سنن الله حلّت بها المثُلاتُ! وتأمل في هذه العبارة المتينة: «**بينا هي أمة قاهرة ظاهرة، لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى**»!

هل تأملت هذه الأوصاف الثلاث: «قاهرة، ظاهرة، لهم الملك»؟ وكأنه بلسان الحال يقول: يا أمة محمد! إن سقَطَ عرشُ هذه الدولة، ومكّنكم الله من أرضهم وديارهم، فاعلموا أنكم إن سلَكتُم سبيلَهم، فسَتحِقّ عليكم نفسُ السُنّة، وهذا ما حصل

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٦).

بالفعل، فلقد رجعتْ قبرص إلى النصارى ثانية، لما ضعف المسلمون، وتخلوا عن دينهم، فتغلَّبَ عليهم النصارى.

إن كلمة أبي الدرداء كلمة فقيه بسنن الله في الأمم والمجتمعات، وهو يعظ المسلمين - في غمرة فرحتهم بالنصر - لا ليكدر عليهم فرحتهم، بل حتى لا تنسيهم هذه الفرحةُ النظرَ في سننِ الله التي لا تحابي أحداً، فهي سنن تتسم بالثبات والاطراد والعموم، ولسان حاله ﵁ يقول: تدبروا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

المجلس السادس بعد المائتين
(المبدأ)

حدّثني أحدُهم أنه انخرط في لجنةٍ من اللجان، وحُدّد لها وقتٌ دوريٌّ تجتمع فيه، وكان رئيس اللجنة يحدّد الاجتماعَ بوقتٍ معيّن، فيقول صاحبي: كنتُ أحرص على الحضور في الوقت، ولكنني ضِقتُ ذرعاً بأكثر الأعضاء الذين يتأخرون إلى عشرين دقيقة عن الوقت المحدَّد! فقررتُ التأخر مثلَهم، وصارحتُ رئيسَي بذلك، فقال لي رئيس اللجنة: لا تترك مبدأك لأن غيرك لا يلتزم به! فانتفعتُ بكلمته هذه في حياتي.

هذا الموقف يتكرر في حياتنا بصور كثيرة، وعلى أصعدة مختلفة، فتجد كثيراً من الناس يضحّي بمبادئه لأن الآخرين أخَلّوا بها معه!

والمتأمل في السُنّة النبوية يجد أن هذه القضية كانت واضحةً تمام الوضوح في سيرته ﷺ، فلم يكن ليترك مبادِئه وأخلاقَه لأن خصمَه أو الطرفَ الآخر أخلّ بها أو قصّر فيها، فكم لقيَ مِن قومِه ما لقي، وعانى ما عانى، فلم يجد منهم - وهو في مقام القدرة على القصاص - إلا العفوَ والمسامحة؛ لأنها مبدأ عنده.

وفي سبيل ترسيخ الثبات على المبدأ، وعدم التنازل عنه لأنِ الشخص المقابل قصّر فيه؛ تأتي تربيةُ الله لنبيّه ﷺ بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وكان النبي ﷺ يُربي أصحابَه على ذلك قولاً وعملاً، ومن ذلك: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أصِلُهم ويَقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُسيئون إليّ، وأَحلم عنهم ويَجهلون عليّ، فقال: «لئن كنتَ كما قلت، فكأنما تسَفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك»(١).

وفي حياتنا اليومية قد يُبتلى بعضُنا بأناسٍ - كما ابتُلي ذلك الصحابيُّ الذي وجد الجفاءَ من قرابته، وكما ابتُلي صديقي الذي أشرتُ إليه - بموقفٍ لو أراد أن يعامِل بالمثل لساغ له ذلك، لكن هذا ليس من شأن النبلاء والكُمّلِ من الناس؛ لأن العاقلَ يصون مبادئَه كما يَصون سُمْعتَه وعِرضَه.

ومن النماذج المشرقة من حياة الدعاة المعاصرين، ما ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي عن نفسه، في كتابه الماتع «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة»، حيث التزم مبدأ الصدق في جميع الأحوال والظروف الصعبة التي مرّ بها، واختار لنفسه عدمَ الأخذ بالمعاريض - ولو مع الأعداء - لأنه يرى أن الداعيةَ يَسقط إذا لم يَصدُق، وأن تاجَ دعوته ورأسَ ماله فيها هو الصدق!

وما من شكٍ أن التربية على هذا المبدأ ينبغي أن تبقى أصلاً لا يتنازل عنه الإنسان، ويبقى تقديرُ الشخص للمواقف الفردية، وما ينبغي تجاهها خاضعاً للظروف المحيطة بكل موقف، والموفَّق من رُزِق الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

(١) صحيح مسلم ح(٢٥٥٨).

المجلس السابع بعد المائتين
﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، سارت مسار الأمثال، وهي أثر من آثار حكمة الله تعالى في خلقه، تعين من تدبرها على رؤية الأمور بتوازن واعتدال.

وهذه القاعدة جزء من آية كريمة في سورة البقرة وسورة الأعراف، في قصة استسقاء نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام لقومه، يقول تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

والمعنى الخاص الذي يتعلق بهذه الآية الكريمة: أن الله تعالى امتن على بني إسرائيل بأن جعل العيون التي انفجرت من ذلك الحجر اثنتي عشرة عينًا، بعدد قبائل بني إسرائيل، منعًا للزحام، وتيسيرًا عليهم؛ ليعرف كل سبط من أسباط بني إسرائيل، فلما تحققت هذه المنة اكتملت عليهم النعمة؛ بتنوع المآكل والمشارب من غير جهد ولا تعب، بل هو محض فضل الله ورزقه، وتمت عليهم النعمة بتنظيم أمرهم في الورود والصدور، فأصبحوا منظمين، لا يبغي أحد على أحد، ولا يُنقِص أحدٌ حقّ أحد.

وكما أن هذا المعنى الذي دلّت عليه هذه القاعدة فقد جاءت السنة بتقريره كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»[1].

---

(١) البخاري ح(٧١١٢)، مسلم ح(٢٦٤٨).

ولعل ما سنذكره من تطبيقات عملية، يزيد معنى هذه القاعدة وضوحاً بإذن الله، ومن ذلك:

أهمية معرفة الإنسان للمواهب والقدرات التي وهبه الله إياها، ليفيد في المجال الذي يناسبه ويتفق مع قدراته ومواهبه؛ إذ من المتقرر أن الناس ليسوا على درجة واحدة في المواهب والقدرات والطاقات، ولم يجتمع الكمال البشري إلا في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فمعرفة الإنسان لما يحسنه ويتميز به مهم جدًا في تحديد المجال الذي ينطلق فيه؛ ليبدع ولينفع أمته؛ إذ ليس القصد هو العمل فحسب، بل الإبداع والإتقان.

ومن نظر في سير الصحابة رضوان الله عليهم أدرك شيئًا من دقة تطبيقهم لمعاني هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ فمنهم العالم المتخصص، ومنهم المعروف بالسِّنان ومقارعة الفرسان، وثالث يبدع في ميادين الشعر والبيان.

وفي الساحة نماذج كثيرة خسرت الأمة طاقاتهم؛ بسبب الإخلال بما دلّت عليه هذه القاعدة: فهذا شاب مبدع في العلم، وآتاه الله فهمًا وقدرةً على الحفظ، وسلك طريقه في العلم، فيأتيه من يأتيه ليقنعه بالانخراط في العمل الخيري، وكأنه - وهو في طريق الطلب - في طريق مفضول، أو عمل مرجوح!

والعكس صحيح، فمن الشباب من يجتهد في طلب العلم، لكنه لا ينجح ولا يتقدم، ويعلم مَنْ حوله أنه ليس من أهل هذا الشأن، فليس من الحكمة في شيء أن يُطالَب هذا الرجل وأمثاله بأكثر مما بذل، فقد دلّت التجربة على أنه ليس من أحلاس العلم، فينبغي توجيهه إلى ما يحسنه من الأعمال؛ فالأمة بحاجة إلى طاقات في العمل الخيري، والإغاثي، والاجتماعي والدعوي.

وفيما أشرنا إليه في تنوع اهتمامات الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد أهمية فهم هذه القاعدة على الوجه الصحيح؛ حتى لا نخسر طاقات نحن بأمسِّ الحاجة إليها، خصوصًا في هذا الزمن الذي تنوعت فيه الاهتمامات، وتعددت فيه طرائق خدمة الإسلام، ونفع الناس، والموفَّق من عرف ما يُحسِنه، فوظَّفه لخدمة دينه وأمته، وفي الأثر: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه»، وكيف يتأتى الإتقان من شخص لا يحسن ما يعانيه ويعالجه؟!

هذه بعض هدايات الوحي: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، «اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له»، فهل نتدبرها ونستفيد منها؛ من أجل فاعلية أكثر لطاقاتنا؟

المجلس الثامن بعد المائتين
(انظروا إلى من هو أسفل منكم)

هذه قاعدة نبوية قيمة من القواعد التي يربي المسلم عليها نفسه وهو يحث الخطى في مسالك الحياة، التي يلاقي فيها من هو أفضل منه في شأن الدنيا، كما يلاقي فيها من هو أقل.

وقد جاءت هذه القاعدة ضمن قول النبي ﷺ: «**انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم**»، ثم علّل ذلك فقال: «**فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»(١).

يا لها من وصية نافعة! وكلمة شافية وافية! تدعو إلى شكر المنعم المتفضل، وتدعو إلى الاعتراف بنعمه، والتحدث بها، والاستعانة بها على طاعته، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر.

وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا الدواء العجيب، والسبب القوي لشكر نِعَم الله، وهو: أن يلحظ العبدُ في كل وقتٍ من هو دونه في العقل والنسب والمال، وأصناف النعم، فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه؛ فإنه لا يزال يرى خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثيرٌ منهم أن يصل إلى قريبٍ مما أوتيه من عافيةٍ ومالٍ ورزق، وخَلْق وخُلُق؛ فيحمد اللهَ على ذلك حمداً كثيراً.

---

(١) مسلم ح(٧٦١٩).

ينظر إلى خلقٍ كثيرٍ ممن سُلِبوا عقولهَم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالماً كثيراً ليس لهم قوت مدّخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، مَوسّع عليه رزقه.

ويرى خلقاً كثيراً قد ابتُلوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام، وهو مُعافى من ذلك، مُسَرْبل بالعافية، ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتُلوا ببلاء أفظع من ذلك: بانحراف الدين! والوقوع في قاذورات المعاصي! والله قد حفظه منها أو من كثيرٍ منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومِنّةَ الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة - نعمة القناعة وراحة القلب - كثيراً من الأغنياء.

ثم مَن ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالماً كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة؛ فيحمد الله على وجود العافية، وعلى تخفيف البلاء؛ فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وُفِّق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي ﷺ؛ لم يزل شكرُه في قوة ونمو، ولم تزل نعمُ الله عليه تترى وتتوالى، ومن عكس القضية! فارتفع نظرُه، وصار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمال والرزق وتوابع ذلك؛ فإنه لا بد أن يزدري نعمة الله، ويفقد شكرَه، ومتى فقد الشكر ترحَّلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتُحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله رباً ومدبراً، وذلك ضررٌ في الدين والدنيا، وخسرانٌ مبين.

واعلم أن من تفكَّر في كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء الله الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه، وأن جنساً من نعم الله لا يقدر العبدُ على إحصائه وتعداده - فضلاً عن جميع الأجناس، فضلاً عن شكرها - **فإنه يضطر إلى**

الاعتراف التام بالنعم، وكثرة الثناء على الله، ويستحي من ربه أن يستعين بشيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضاه، وأوجب له الحياء من ربه الذي هو من أفضل شُعَب الإيمان[1].

اللهم قنعنا بما رزقتنا، وزدنا من فضلك، وارزقنا شكر نعمك، وحسن عبادتك، اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا غاية رغبتنا، واجعل اللهم الجنة دارنا ومأوانا.

(١) بهجة قلوب الأبرار: (ص: ٥٤ - ٥٦) بتصرف يسير.

المجلس التاسع بعد المائتين
(هل وعظتَ نفسك؟)

من توفيق الله لعبده أن يحاسب نفسه، ويعظها، فإنه أعرف الخلق بما في نفسه، وبما وقع منه من خلل وزلل، وبما هتك من ستر، وبما أذنب في خلواته، وهكذا وعظ أبو الدرداء نفسه يوماً فقال رضي الله عنه:

«أخوفُ ما أخافُ أن يُقَالَ لي يوم القيامة: يا عويمر! أعَلِمتَ أم جهِلتَ؟ فإن قلتُ: علمتُ؛ لا تبقى آيةٌ آمِرةٌ أو زاجرةٌ إلا أُخِذتُ بفريضتِها، الآمرة هل ائتمرتَ؟ والزاجرةُ هل ازدجرتَ؟ وأعوذ بالله مِن علمٍ لا يَنفع، ونفْسٍ لا تَشبع، ودعاءٍ لا يُسمَع»[1].

هكذا يحاسب أهلُ الإيمان أنفسهم، ويوقفونها عند موارد النجاة، فإن من غفل عن محاسبة نفسه هنا؛ يوشك أن يَندم إذا نُشِرت أمامَه صحائفُ أعمالِه غداً.

إن الحساب اليوم - مع ما فيه مِن ثقل - أخف على النفس غداً، وما حالُ المحاسبِ نفسَه اليوم إلا كتاجرٍ يراجع حساباتِه لينظر أين تتجه تجارتُه؟ ليتجنب أسبابَ الخسارة، ويَسعى في أسباب الربح، والغافلُ عن محاسبةِ نفسِه كالتاجر الذي جيء إليه بِكشفِ الحساب المصرفي، فإذا فيه الديون التي أغرقتْه، وهو يحسب أنه يربح!

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٣).

يقول الحسن رحمه الله: «إن المؤمن قوّامٌ على نفسه، يُحاسب نفسَه لله، وإنما خفّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على قومٍ أخذوا هذا الأمرَ على غيرِ محاسبة»[1].

فخليقٌ بنا جميعاً أن يكون لنا جلساتٌ - بين الفينة والأخرى - نحاسِب فيها أنفُسَنا، وننظر فيما مضى من أعمالنا، وما الذي ينتظرنا في مستقبلنا الأخروي؟

ومما يَحسن إيرادُه هنا خاطرةٌ قيّدها ابنُ الجوزي رحمه الله في «صيده» قائلاً:

«تفكّرتُ في نفسي يوماً تَفَكُّرَ محقِّق، فحاسبتها قبل أن تُحاسَب، ووزنتُها قبل أن تُوزَن، فرأيتُ اللطف الرباني؛ فمنذ الطفولةِ وإلى الآن أرى لطفاً بعد لطفٍ، وستراً على قبيح، وعفواً عما يوجِب عقوبةً، وما أرى لذلك شكراً إلا باللسان!

ولقد تفكَّرتُ في خطايا، لو عوقبتُ ببعضها؛ لهلكتُ سريعاً، ولو كُشِف للناس بعضُها لاستحييتُ!

ولا يعتقد معتَقدٌ عند سماعِ هذا أنها مِن كبائرِ الذنوب، حتى يَظن فيَّ ما يَظن في الفُسَّاق! بل هي ذنوبٌ قبيحةٌ في حق مِثلي، وقعتْ بتأويلاتٍ فاسدةٍ، فصرتُ إذا دعوتُ أقول: اللهم! بحمدِك وسِترك عليَّ اغفر لي! ثم طالبتُ نفسي بالشكر على ذلك؛ فما وجدتُه كما ينبغي.

فأخذتُ أنوحُ على تقصيري في شكر المنعِم، وكوني أتلذَّذ بإيراد العلم من غير تحقيقِ عملٍ به، وقد كنتُ أرجو مقاماتِ الكبار، فذهب العمر وما حَصَل المقصود!!»[2] اهـ.

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٧).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٤٧٤).

المجلس العاشر بعد المائتين
(الثروة المُهدَرة)

تحدث أحد طلابنا المبتَعثين للدراسة في أمريكا - الذين أمضوا أكثر من ثلاث سنوات هناك - عن أبرز ما استفاده مِن رحلته الدراسية؟ فذكر أموراً، أهمها: الإحساس بقيمة الزمن، والحياة لهدف! حتى إنني أتضايق وأشعر بالغبن حينما أرى أصحابي الذين كنتُ معهم قبل السفر، ما زالوا يُهدرون هذه الساعات الطويلة بلا مقابل؛ من إنتاج ينفعهم وينفع بلدَهم وأمَّتهم!

فقلتُ له: ألا تعتقد أن ديننا يحث على ذلك ويُعين عليه؟ قال: بلى، لكن البيئة التي نعيش فيها تقول: لا!

من المحزن أن يكون واقعنا نحن المسلمين كذلك، والمسلمُ يقرأ في جزء عمّ فقط عشرات الآيات التي تتحدث عن الوقت، إما قسَمَاً به، أو إشارة إلى أهميته وفضله، ومع هذا فحال المسلمين عموماً في إهدار هذه الثروة يَبعث على الأسى، وتتجلى هذه المأساةُ بأبشع صورها في الإجازة الصيفية، التي يتخفف فيها ملايينُ الطلاب والمعلّمين من الارتباط بالمدارس النظامية!

إن الحديث عن «اغتنام» الوقت لا يعني عدمَ التَّوسعة على النفس في المباح، كلا! وإنما الحديث عن «ثروة مهدرة» يراها العاقل تذوب أَمامَه ككرة ثلجٍ طلعت عليها شمس حارّة!

إن غيابَ الهدف الواضح من الحياة، وضعفَ استحضارِ النصوص الشرعية التي تدفعُ بالنفس لتحرص على الوقت؛ لمن أعظم أسباب تفشي هذا الهدْر المؤلم للحياة.

كيف حديثٌ كقوله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[1]! كيف يمرُّ على مسلم ولا يحرّك فيه ساكناً تجاه هذا الوقت؟! ألا يجد في كلمة «مغبون» ما يحفزّه للغيرة على وقته؟!

لقد فَقِهَ سلفُنا الصالحُ قيمةَ الزمن، وعرفوا أهمية الحفاظ عليه؛ فعبّروا عن ذلك بكلمات كثيرة ومتنوعة[2]، ومن أحسن ما مرّ بي من تلكم الكلمات، كلمة يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله حين قال: «الفوت - ضياع الوقت - أشد من الموت؛ لأن الفوت انقطاع عن الحق، والموت انقطاع عن الخلق»[3].

إننا أمام ثقافة سيئةٍ في المجتمع، وهي التفنن في تضييع الزمن، وإن شئت فقل: في قتل الحياة، ونحرِ الوقت، ولا بد من تكاتف الجميع لتخفيف آثارها.

وأول ما يبدأ العلاج من البيت، فإن البيت الذي يربّي أفرادَه على الحفاظ على «الحياة»؛ سينشأ أكثر اهتماماً من غيره - في الغالب - بالوقت، ومحاولة استثماره.

---

(١) صحيح البخاري ح(٦٤١٢).
(٢) وقد كُتب في الكلام على الزمن وأهميته كتب كثيرة، منها: «قيمة الزمن عند العلماء» لعبد الفتاح أبو غدة، و «سوانح وتأملات في قيمة الزمن» لخلدون الأحدب.
(٣) وفيات الأعيان (٦/ ١٦٥).

المجلس الحادي عشر بعد المائتين
﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

هذه قاعدة قرآنية محكمة، لها أثرها البالغ في تصحيح سَير الإنسان إلى ربه، وضبط عباداته ومعاملاته وسلوكياته، ومعرفة ما يخفى عليه أو يُشكل من أمر دينه.

وهذه القاعدة تكررت بنصها في موضعين من كتاب الله تعالى:

الموضع الأول: في سورة النحل، **والموضع الثاني**: في سورة الأنبياء.

وكلا الآيتين جاء في سياق إرشاد الكفار - المعاندين والمكذبين - إلى سؤال من سبقهم من أهل الكتاب، وفي هذا الإرشاد إيماء واضح إلى أن أولئك المشركين المعاندين لا يعلمون، وأنهم جهال؛ وإلا لما كان في إرشادهم إلى السؤال فائدة.

وإذا تأملت في هذه القاعدة مع سياقها في الموضعين من سورة النحل والأنبياء، خرجت منها بأمور:

١ - عموم هذه القاعدة فيها مدح لأهل العلم.

٢ - أن أعلى أنواع هذا العلم: العلمُ بكتاب الله المنزل؛ فإن الله أمر من لا يعلم معاني الوحي بالرجوع إليهم في جميع الحوادث.

٣ - أن السائل والجاهل يخرج من التبعة بمجرد السؤال، وفي ضمن هذا: أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

٤ - كما أشارت هذه القاعدة إلى أن أفضل أهل الذكر: أهلُ هذا القرآن العظيم؛ فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم.

٥ - **الأمر** بالتعلم، **والسؤالُ** لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

٦ - **وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم** نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك.

لقد وقع من بعض الناس إخلال في تطبيق هذه القاعدة؛ ومن صور ذلك:

١ - أنك ترى بعض الناس حينما تعرض له مشكلة أو نازلة، واحتاج إلى السؤال عنها سأل عنها أقرب شخص يمر به، ولو لم يعلم حاله، هل هو من أهل العلم أم لا! وبعض الناس يعتمد على المظاهر، فإذا رأى من سيماه الخير ظنّ أنه من طلاب العلم أو العلماء الذين يستفتى مثلهم! وهذا غلط.

ولا أدري ماذا يصنع هؤلاء إذا مرض أحدهم؟ أيستوقفون أول مارٍّ عليهم في الشارع فيسألونه! أم يذهبون إلى أمهر الأطباء وأكثرهم حذقًا؟

ولا أدري ماذا يصنع هؤلاء إذا أصاب سيارته عطل أو تلف؟ أيسلمها لأقرب من يمر به؟ أم يبحث عن أحسن مهندس يتقن تصليح ما أصاب سيارته من تلف؟

إذا كان هذا في إصلاح دنياه، فإن توقيه في إصلاح دينه أعظم وأخطر! قال مالك بن أنس: «**إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم**».

٢ - عدم التثبت في الأخذ عن أهل الذكر حقًا؛ ذلك أن المنتسبين للعلم كثرٌ، والمتشبهين بهم أضعاف ذلك، ومن شاهد بعض من يظهرون في الفضائيات أدرك شيئًا من ذلك؛ فإن الناس - بسبب ضعف إدراكهم، وقلة تمييزهم - يظنون أن كلّ من

يتحدث عن الإسلام فهو عالمٌ، ويمكن استفتاؤه في مسائل الشرع! ولا يفرقون بين الداعية أو الخطيب، وبين العالم الذي يعرف مآخذ الأدلة، ومدارك النصوص، فظهر - تبعًا لذلك - ألوان من الفتاوى الشاذة، بل والغلط الذي لا يُحتمل ولا يُقْبَل، وكثُر اتباع الهوى، وتتبع الرخص من عامة الناس، فرقّ تدينهم، وضعفت عبوديتهم بأسباب من أهمها: فوضى الفتاوى التي تعج بها كثير من الفضائيات.

والمقصود من هذا البيان الموجز: التنبيه على ضرورة تحري الإنسان في سؤاله، وأن لا يسأل إلا من تبْرأ به الذمة، ومن هو أتقى وأعلم وأورع؛ فهؤلاء هم أهل الذكر حقًا، الذين نصت هذه القاعدة على وصفهم بهذا: ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾.

المجلس الثاني عشر بعد المائتين
(إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث)

عطايا المنان لا تنتهي، وهباته لعباده المؤمنين لا تنفد، وما في هذه القاعدة النبوية الجليلة إنما هو قطرة من فيض فضل الله الكريم جل وعلا، وهو القائل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فلكرم المؤمن على ربه، لم يُغْلَقْ عنه أبواب الحسنات حتى وهو ميت تحت أطباق الثرى!

وتمام هذه القاعدة النبوية هي قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، وعلمٌ ينتفع به، وولدٌ صالح يدعو له**»(١).

والمؤمن حين يسمع ويقرأ هذا الحديث العظيم، وهو أصل كبير، وقاعدة عظيمة في باب الأعمال؛ فإنه ينبغي له أن يبحث عن أكبر نصيبٍ له من هذه الأسهم الثلاث: الصدقة، والعلم، والذرية الصالحة، التي منّ الكريم الوهّاب ببقاء أثرها بعد فراق هذه الحياة.

والملاحظ أن هذه الأسهم بتنوعها؛ تكشف عن جانب عظيم في الإسلام، وهو الشمول والتنوع:

ففي ذكر «الصدقة الجارية» دعوة لاكتساب المال من طرقه المباحة، وثناء على الباذلين، لا كما يفهم بعض الناس مسألة الزهد بطريقة منكوسة!

---

(١) مسلم ح(١٦٣١).

وفي التعبير بـ«الجارية» إشارة إلى أهمية العناية بالمال الذي يتعدى نفعه، ولعل الأوقاف من أظهر هذه الصور، سواءُ بوقف العقارات التي لها مصرفٌ وغلّة ثابتة، أو غيرها من صور الوقف التي تعددت في عصرنا الحاضر، وقامت الحاجة إليها.

وفي ذكر «العلم» وتقييده بالنافع، حثٌ على طلب العلم الذي ينفع العباد في دينهم ودنياهم، سواءٌ كان في علم الشريعة - وهو أشرف العلوم - أم في علوم أخرى يحتاجها الناس، كالطب والهندسة ونحوها.

ومما يدخل تحت العلم النافع الذي يتركه الإنسان بعده: تخريج طلبة العلم، الذين يهيأون ليكونوا علماء المستقبل، فإن لكل من ساهم في بنائهم العلمي أجراً، وهو مشمول بهذه الغنيمة العظيمة: «أو علم ينفع به».

وفي هذه الجملة: «**أو علم ينتفع به**» تنبيه على البعد عن الاشتغال بالعلوم التي لا تنفع لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل هي مضيعةُ وقت، وربما عادت عليه بالضرر، وما أخبار العلماء الذين دخلوا في علم الكلام والفلسفة، ثم ندمهم في أواخر حياتهم، إلا نموذج لذلك.

وثالث هذه الأسهم النبوية «الولد الصالح»:

وهنا لم يعيّن، هل هو ولد الصلب؟ أم الحفيد من جهة الأبناء أو البنات، وهل هو ذكر أو أنثى؟ بل قال: (أو ولد).

وأشار الحديث إلى أعظم المنافع التي تُرجى من الولد، وهي: الدعاء.

لهذا، إذا رأيت الولد - ابناً أو بناً - يكثر من الدعاء لوالديه، فهذه علامةٌ على صلاحه.

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدةُ منافع: كالولد الصالح العالم، الذي سعى أبوه في تعليمه، وكالكُتُب التي يقفها، أو يهبها لمن ينتفع بها.

اللهم اجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وبارك لنا في أوقاتنا وأعمارنا، واجعل أعمالنا وأقوالنا في مرضاتك، وتمدنا بعد موتنا بطيب رحماتك.

المجلس الثالث عشر بعد المائتين
(انتبه لا تبغضك قلوب المؤمنين!)

يقول أبو الدرداء ﵁ في أحد مواعظه: «**لِيَحذرَ امرؤٌ أن تُبغِضَه قلوبُ المؤمنينَ مِن حيثُ لا يَشعر**» ثم قال: «**أتدري ما هذا؟ العبدُ يخلو بمعاصي اللهِ ﷻ فيُلقِي اللهُ بُغضَه في قلوبِ المؤمنين مِن حيثُ لا يَشعر**»[1].

الله أكبر! يا لها من موعظةٍ بليغة! لا أجِد ما أوضِّح ما اشتملت عليه من معانٍ بديعة أحسنَ ولا أجملَ من كلامٍ نفيسٍ لابن الجوزي حول هذه المسألة حيث يقول ﵀:

«إن للخلوة تأثيراتٍ تَبِيْنُ في الجَلوَة، كم مِن مؤمنٍ بالله ﷻ، يحترمه عند الخلوات، فيترك ما يَشتهي حذراً مِن عقابه، أو رجاءً لثوابه، أو إجلالاً له، فيكون بذلك الفعل كأنه طرَحَ عوداً هندياً على مَجمَر، فيفوح طِيبُه، فيستنشقه الخلائق، ولا يدرون أين هو؟

وعلى قدر المجاهدةِ في ترك ما يهوى؛ تقوى محبَّتُه، أو على مقدارِ زيادةِ دفع ذلك المحبوب المتروك يَزيد الطِّيْب، ويتفاوَتُ تفاوُتَ العود، فترى عيونَ الخلقِ تُعظِّم هذا الشخص، وألسنَتَهم تمدحه، ولا يعرفون لم؟ ولا يقدرون على وصفه؛ لبُعدهم عن حقيقة معرفته.. وقد تمتد هذه الأراييح - جمعُ رائحة - بعد الموت على قدرها؛ فمنهم من يُذكَر بالخير مدةً مَديدَة ثم يُنسى، ومنهم مَن يُذكر مئة سنة، ثم يَخفى ذِكرُه وقبرُه، ومنهم أعلامٌ يبقى ذِكرهم أبداً.

(١) حلية الأولياء (١/ ٢١٥).

وعلى عكس هذا، مَن هابَ الخلقَ، ولم يحترم خَلوتَه بالحق، فإنه على قَدْر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب؛ يفوح منه ريح الكراهة، فتمقتُه القلوب، فإن قلَّ مقدارُ ما جنى، قلَّ ذِكرُ الألسن له بالخير، وبقي مجردُ تعظيمِه، وإن كثر كان قصارى الأمرِ سكوتُ الناس عنه، لا يمدحونه ولا يذمونه.

ورُبَّ خالٍ بذنبٍ كان سببَ وقوعِه في هُوَّةِ شِقوةٍ في عيش الدنيا والآخرة! وكأنه قيل له: ابق بما آثرتَ! فيبقى أبداً في التخبيط.

فانظروا إخواني إلى المعاصي أَثَّرت وعثّرت، فتلمحوا ما سطرته، واعرفوا ما ذكرته، ولا تُهمِلوا خَلَواتِكم ولا سرائرَكم، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص»[1] اهـ.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة، وأن يجعلنا من أحبابه وأحباب أوليائه.

---

(١) صيد الخاطر (ص: ١٨٥).

المجلس الرابع عشر بعد المائتين
(وما أنا من المتكلفين)

مما جرى مدحُه عند عموم العقلاء مدحُ العَفْوية، وذمّ التكلّف، ما لم يكن ذلك في باب مجاهدة النفس على ترك خُلق قبيح، وسلوك سيء! فجاء القرآن، وسيرةُ النبي ﷺ يؤكدان على هذا المعنى، وهو ما لخّصه عليه الصلاة والسلام مخاطبا قومه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْـمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧] فوجده الناس - مسلمهم وكافرهم - كذلك.. في لباسه.. في منطقه.. بل في حياته كلها! وصار الفقير والجاهل لا يستوحش في مجلسه، ولا يتهيّب سؤاله، حتى إن الغريب ليدخل المسجد فيسأل: أيكم محمد؟

وفي صورةٍ من صور البُعْدِ عن أخلاقه ﷺ وهديه القويم؛ طرأت على الناس في حياتهم الاجتماعية والعلمية رسومٌ وطقوس لبسوا معها ثياب التكلّف، وتحمّلوا معها أموراً مادية ومعنوية، فأوجدت بينهم حواجزَ وهمية، جعلت العلاقة بين بعض الناس على صفيح ساخن!

وفي الواقع الاجتماعي، تثور أتربةُ هذا التكلف؛ لتُعمي العيونَ عن لذة الصفاء، وروعة العفوية، ترى ذلك في مناسبات الأعراس، أو لقاءات الأصدقاء، وتجمّعات النساء! ولا ريب أن هذا مما يقلّص مساحة الفرح والسرور بها.

وأشدّ صور هذا التكلّف بؤساً وجفافاً، حين يظهر بين الأب وأولاده، أو بين الأم وأولادها! بحجة بقاء ستار الهيبة!! وقد كان سيد المرسلين ﷺ يتطامن ببدنه الشريف ليرتحله أحفادُه ويركبوا ظهره! ويحمل بنتَ ابنته في الصلاة، ويُقبّل صبيانه.

وحين تنتقل هذه العدوى ليصيبَ فيروسُها الحياةَ الزوجية؛ فقد خرجت المودةُ والرحمةُ من الباب الآخر! ودخل عليها الشقاءُ والجفافُ الذي يجعل السعادة هشيماً تذروه الرياح!

ألا يعلم هؤلاء أن أعظم الناس جاهًا في الناس، وأعلاهم قدراً عند ربّ الناس - فيما نعلم - رسولُ الله ﷺ، كان وافر الهيبة، عظيمَ الحشمة، رفيعَ الجناب، ومع هذا يَخدم أهلَه، ويخصِف نَعلَه، ويرقع ثوبَه، وكانت زوجاته يضاحكْنَه، وربما غارت إحداهن، فلم يعنّفها، بل تعامل مع ذلك بكل حكمة ورحابة صدْر؟!

لقد خسرنا في حياتنا الاجتماعية والعلمية كثيراً من العلاقات أو كدنا؛ بسبب ركوب هذه المطية الرديئة - التكلف -، وربّما برّر أحدُنا لذلك بأمور لو عرضها على السيرة النبوية لوجدها مجافيةً لها، والواقع أن حظوظ النفس تحضر حيناً، وقد تُبْرَزُ بثوب الصيانة للعلم، وحفظ الجاه العلمي والاجتماعي، فحجبنا بذلك عن أنفسنا نسائمَ تلك الهداية القرآنية، التي لا ألذّ منها حين تهب على القلوب، وتستنشق عبيرها الأرواح، فتدركها بلا عناء: ﴿قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]!

المجلس الخامس عشر بعد المائتين
(نِعمَ المكافأة)

بعد أن ذكر الله تعالى في سورة البقرة امتنانَه على عباده بعددٍ من النِّعَم؛ كتحويل القِبلة، وبَعثة محمَّد ﷺ وغيرها، قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] وهي تربيةٌ قرآنيَّة للعباد على شُكر نعم الله الشرعيَّة؛ كتحويل القِبلة والبَعثة. والحسيَّة؛ كالأرزاق المعلومة. وإنَّ من أعلى صُوَر الشُّكر ذكرُه تعالى، حيثُ جاء التعقيبُ على آية بَعثته بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ **وذكرُه تعالى لا يقتصر على تحريك اللسان** بالذِّكر المعتاد، بل يشمل ما هو أعمُّ من ذلك، وهو تذكُّرُ عظمَته وصفاته تعالى، وما أثنى به على نفسه، وأثنى به عليه رسولُه ﷺ، وما ترتَّب على ذلك من الأوامر والنواهي. ويوضح هذا المعنى قولُه تعالى في صفة أهل الجنَّة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي: ذكروا أمرَه ونهيَه، فاستغفروا ممَّا فعلوا(١).

يا لها من كرامةٍ حين يكون جزاءُ ذِكرنا لربِّنا أن يَذكُرَنا فيمَن عنده!

فمَن نحن ليذكُرَنا الربُّ العظيم الجليل في عَليائه؟ وأيُّ فضلٍ جاد به الربُّ الرحيم علينا ونحن الذين لا نشكِّل إلا ذرَّةً محدودةً في هذه العوالِم التي تسبِّح له بُكرةً وعشيًّا؟

---

(١) انظر: الفوائد، لابن القيِّم ص ١٢٨.

وعلى أننا عبيدٌ مثقَلون بذنوبنا ومعاصينا؛ نذكُره فيذكُرنا، مع يقيننا أنَّ ذكرَه لنا أعظمُ من ذكرنا له! إنه الفضلُ الذي لا يُفيضه إلا الله الكريم، الذي لا خازنَ لخزائنه، ولا حاسبَ لعطاياه.

ووالله لو لم يكن في الذِّكر إلا هذه وحدَها لكفى بها فضلًا وشرفًا، كما يقول ابنُ القيِّم رحمه الله.

وقد ثبتَ في الصَّحيحَين، يقول الله في الحديث القُدسي: «**مَن ذَكَرَني في نفسه ذَكَرتُه في نفسي، ومَن ذكَرَني في مَلأ ذَكَرتُه في مَلأ خيرٍ منه**»[1]، إنه فضلٌ لا يصفه لفظٌ، ولا يعبِّر عن شُكره الحقِّ إلا سجودُ القلب شكرًا لله، تترجمه دموعُ الفرح بفضل الله وكرمه وجوده.

إنَّ ذكرَ الله ليس مجرَّدَ نطق باللسانِ والقلبُ غافل، بل هو انفعالُ القلب مع اللسان، والشعورُ بفضل الله وجُودِه، والتأثُّرُ بهذا الشعور تأثُّرًا يُفضي إلى الانقياد للطاعة وترك المعصية، وكأنَّ القلب يشاهد منَّةَ الله وفضله. هنا يذوق العبدُ لذَّةَ الذِّكر، وطعمَ العبوديَّة، ويسجد بعدَها سجدةً لا يشتهي أن يرفعَ رأسَه منها.

فاللهم اجعلنا من عبادك الذَّاكرين، وأوليائك الشَّاكرين، وأعِذنا من حال الغافلين والمحرومين.

---

(١) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

المجلس السادس عشر بعد المائتين
(الإغراق في الشتم)

شتم رجلٌ أبا ذر رضي الله عنه، فقال له: «**يا هذا! لا تَغرقَنَّ في شَتمِنا، ودَعْ للصلح موضعاً، فإنا لا نُكافئ مَن عصى اللهَ فينا بأكثر من أن نُطيع اللهَ فيه**»(١).

هذا الجواب الحكيم من أبي ذر رضي الله عنه يصلح أن يكون قاعدةً من قواعد الأدب والتعامل مع الناس، خاصةً ممن يصدر منهم ألوان من الجهل، والسفه، فإن من تأمل وجد أن الابتلاء بهذا النوع من الناس، هو نوع من التربية العملية على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وإلا فما يصنع العاقل مع السفهاء والجهال؟ أيجاريهم؟ أم يبادلهم الشتم بمثله؟ أم ماذا؟ ليس ثمة شيء أنفع مما ذكره أبو ذر رضي الله عنه، وليكن من قصد المؤمن - أيضاً -: الرحمةُ بهؤلاء الجهّال، الذين كسدت بضاعة ألفاظهم في سوق الأخلاق وللأسف.

وما أحوج الإخوة الذين دخلوا في مواقع التواصل الاجتماعي إلى استشعار هذا المعنى جيداً، فإن التجربة دلّت على أن سوق السفهاء وقليلي الأدب رائجة في أمثال هذه المواقع، وقد يتعرض الإنسان العادي - فضلاً عن الداعية والعالم - إلى ألوان من السفه والحماقة، لا يمكن دفعها بمثل هذا النوع من التوجيه الرائع.

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ١١).

وخليق بأمثال هؤلاء أن يتمثلوا هدي القرآن الذي أشرت إليه آنفاً، وأن يتذكروا هدي النبي ﷺ مع هذا النوع من الناس، وهدي السلف الصالح رحمهم الله، ومن ذلك: أن رجلاً شتم الشعبيَّ، فقال له الشعبيُّ: إن كنتُ ما قلتَ فغفر الله لي، وإن لم أكن كما قلت فغفر الله لك.

وما أجمل كلمةَ أبي ذر حين قال: «فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه» فالسفيه بشتمه وإقذاعه قد عصى الله في ظلم أخيه المسلم وبَهتِه، فلا أجمل من أطيع الله فيه، بتمثل الأخلاق الحسنة، بالحلم والصبر، والرحمة لهذا النوع من الناس.

كما ينبغي أن يعاملَ الإنسانُ الناسَ بأخلاقه هو لا بأخلاقهم، وإلا كان مع الوقتِ مَجمَعاً للرذائل.

المجلس السابع عشر بعد المائتين
(في بيتنا معاق)

تذكر كتب السير أن رجلاً يقال له أبو بكر الضرير حضر جنازة وبين يَدي الجنازةِ صبيان يبكون ويقولون: من لنا بعدك يا أبة؟ فلما سمعهم أبو بكر يقولون ذلك، قال: يكون لكم الذي كان لأبي بكر الضرير! ثم حدّث بقصته فقال: كان أبي من فقراء المسلمين وكان يبيع الخزف، وكانت لي أختٌ أَسنّ منّي، وكنتُ أصبت بالعمى، فانتبهتُ ليلة فسمعت أبي يقول لأمي: أنا شيخٌ كبير! وأنت أيضاً قد كبرتِ وضعفتِ! وهذه الصبيّة تَعيش بصحّة جسمها وتخدِم الناس، وهذا الصبيّ أعمى! قطعة لحم، ليت شعري! ما يكون منه؟ ثم بَكَيا وداما على ذلك وقتاً طويلاً من الليل، فأحزَنَا قلبي، فأصبحتُ ومضيتُ إلى الكُتّاب فما لبثتُ إلا يسيراً إذ جاء غلامٌ للخليفة، فقال للمعلِّم: السيدةُ تسلّم عليك، وتقول لك: قد أقبل شهرُ رمضان، وأريدُ منك صبياً دون البلوغ، حسنَ القراءة، طيبَ الصوت، يصلي بنا التراويح.

فقال: عندي مَن هذه صفتُه، وهو مكفوف البصر، ثم أمرني بالقيام معه، فأخذ الرسولُ بيدي وسِرْنا حتى وصلنا الدارَ، فاستأذنَ لي، فأذنتْ السيدةُ لي بالدخول، فدخلتُ وسلّمت، واستفتحتُ وقرأت: بسم الله الرحمن الرحيم، فبكتْ، واسترسلتُ في القراءة، فزاد بكاؤها، وقالت: ما سمعتُ قط مثل هذه التلاوة، فرقّ قلبي، فبكيتُ، فسألتني عن سبب ذلك؟ فأخبرتها بما سمعت من أبي؛ فقالت: يا بني! يكون ذلك ممّن لم يكن في حساب أبيك، ثم أمرتْ لي بألف دينار، فقالت: هذه يتّجر بها أبوك،

ويجهّز أختَك، وقد أمرتُ لك بإجراء ثلاثين ديناراً في كل شهر، إدراراً، وأمرتْ لي بكسوة وبغلة مسرّجةٍ ملجّمة، وسرج محلي، فهو سبب قولي جواباً للصبيان عند ما قالوا: من لنا بعدك يا أبه[1].

هذا الأعمى الذي مضت قصّتُه هو نموذجٌ لبعض ما يسمى بذوي الاحتياجات الخاصة التي توجد في بعض البيوت، سواء كانت هذه الإعاقة عمى، أو صمماً، أو إعاقة جسدية أو غيرها، والتي عادةً ما يصاحب ولادَتَه بإحدى هذه العاهات شعورٌ عند والديه أو أحدهما بضيق الصدر، والقلق على مستقبله، والجزع من تَبِعة هذه الإعاقة.

وأهلُ الإيمان - في مثل هذه الأحوال - يطمئنون حين يقرأون قولَه تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ويقرأون قولَه تعالى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، نعم، قد يكون هذا المعاق أقرب لنا نفعاً في الدنيا قبل الآخرة:

فأما في الدنيا: فكم فتَحت هذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعاقين وأهليهم من لذّة التعلق بالله، ومناجاته، وحسنِ الظنّ به، وانتظارِ الفرج!

وأما في الآخرة: فهذه الابتلاءاتُ لهؤلاء المعاقين وأهليهم - مع الصبر والاحتساب - سببٌ في رفعة درجاتهم عند الله تعالى، رفعةً قد لا تبلغها أعمالُهم.

والسعيدُ مَن عاش العبوديةَ لله في السراء والضراء، ورأى مواقعَ الرحمةِ في منازل الابتلاء، وأيقن أن خِيرةَ الرحيم الرحمن خيرٌ من خيرته لنفسه، ومن لم يعش ذلك، تكّدر عيشه، وتنغصتْ حياتُه.

---

(١) نكث الهميان في نكت العميان (ص: ٣٢).

المجلس الثامن عشر بعد المائتين
﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾

حينما يقلّب أحدنا محركًا من محركات البحث على الشبكة العالمية للبحث عن معلومةٍ ما، فإنه يفاجأ بكمٍ هائل من النتائج التي ظهرت، والتي تذكر متى حفظ هذا المقطع أو تلك المقالة والتغريدة باليوم والساعة بل والدقيقة!

هنا.. يُصاب بعضنُا بالدهشةِ والذهولِ من كثرة النتائج ودقّتها! وحُقَّ له ذلك!

فكيف إذا علم أن هذه النتائج إنما هي فقط منذ بدأ عمل محركات البحث هذه! وأنها لا تحفظ ولا تسجل سوى ما نُشِرَ على الشبكة العالمية! فكم غاب عنها من أعمال السنين والقرون الماضية؟ وكم خفي عليها مما لم يُنْشر في على شبكة المعلومات؟ وكم غاب عنها من أعمال القلوب التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله! هنا يقع قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] موقعه من القلب، هيبةً وإجلالًا!

أما الهيبة: فتمثر خوف كل واحدٍ منا - أيها الإخوة - من هذا الإحصاء الدقيق الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، سواء من عمل القلوب أم من عمل الجوارح!

وأما الإجلال: فإن هذا الحال يورث العبد تذكر سعة علم الله، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، فيورثه ذلك الحياء من الله، أن يراه على حالٍ لا يحبها ولا يرضاها، وأن يحاسب نفسه عند التقصير والزلل.

وقف بعض الصالحين مع نفسه محاسبًا لها، وقد بلغ الستين من العمر، فعدّ أيامه فإذا هي واحدٌ وعشرون ألف يوم وخمسُمائةِ يوم، فصرخ وقال: يا ويلتي أألقى الله بواحدٍ وعشرين ألف ذنب لو كنت لم أذنب إلا ذنبًا واحدًا في كل يوم؟ فكيف وهي ذنوب متتابعة؟!

فهكذا ينبغي أن يحاسب الإنسان نفْسَهُ على الأنفاس، وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة، ولو رمى العبدُ بكل معصيةٍ حجرًا في داره؛ لامتلأتْ دارُه في مدةٍ يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦][(١)]

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، واجعلنا ممن يعبدك كأنه يراك.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٠٦).

المجلس التاسع عشر بعد المائتين
(موعظة عند الكعبة)

وقف أبو ذر ﷺ يوماً عند الكعبة فقال: يا أيها الناس! أنا جندب الغفاري، هلموا إلى الأخِ الناصحِ الشفيقِ، فاكتنَفَه الناسُ، فقال:

أرأيتم لو أنَّ أحدَكم أراد سفراً، أليس يَتَّخِذ مِن الزاد ما يُصلِحه ويبلِّغه؟ قالوا: بلى، قال: فسفر طريق القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يُصلِحكم، قالوا: وما يصلحنا؟ قال:

«حجوا حجةً لعِظامِ الأمور، صوموا يوماً شديداً حرُّه لطولِ النشور، صلوا ركعتين في سوادِ الليل لوحشة القبور، كلمةُ خيرٍ تقولها أو كلمةُ سوءٍ تسكت عنها لوقوف يوم عظيم، تصدَّق بمالك لعلك تنجو من عسيرها - أي عسير الدنيا -، اجعل الدنيا مجلسين: مجلساً في طلب الآخرة، ومجلساً في طلب الحلال، والثالث يَضرُّك ولا ينفعك، لا تريده.

اجعل المالَ درهمين: درهماً تنفقه على عيالك من حِلِّه، ودرهماً تُقدِّمه لآخرتك، والثالث يضرك ولا ينفعك، لا تريده.

ثم نادى بأعلى صوته: يا أيها الناس! قد قتَلكم حرصٌ لا تدركونه أبداً»(١).

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٦٥).

هذه ثمانُ وصايا، يجمعها النصح والشفقة، والاستعداد للدار الخالدة الآخرة، وفيها من التوازن في أمر الدنيا والآخرة، كما هو فقه الصحابة ﷺ في هذه الأبواب، فعندهم مِن العلم ما يمنعهم من التزهيد في الدنيا تزهيداً غير منضبط، وعندهم مِن الفقه ما يجعلهم يحذّرون من الانغماس الشديد في الدنيا انغماساً يُنسي العبدَ ما خُلِق له، دليلهم في هذا تلك القاعدة القرآنية العظيمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧].

المجلس العشرون بعد المائتين
(كنوزُ ما بين الأذانين)

الأوقاتُ المهدَرةُ في حياةِ كثيرٍ منا أكثر من أن تُحصَر..والشكوى من عدم قدرةِ البعض على إكمال حزبه اليوميّ من القرآن بسببِ المشاغل صارَ قصةً شبه يومية!

والألمُ الذي يعتصر قلوبَ الأكثرين مِن عدم ذوق الصلاة، ورؤيةِ الأثر الذي ينبغي لها في القلوب؛ بات من الأحاديث التي يتهامس بها بعضُ الصالحين في مجالسهم.

وإذا أردنا أن نُشخّص سببًا من هذه الأسباب فسنجد أن تفريطَنا في تلكم الدقائق المحدودة بين الأذان والإقامة أحدُ الأسباب المهمة.

وقد تأملتُ فيما بين هذين الأذانين من الكنوز فدُهشت! وتعجبتُ من تفريطنا فيها، وأكبرتُ أولئك الذين يُسابقون المؤذنَ للدخول إلى بيت الله - وهم يصنفون على أنهم عامة ـ! وقلتُ في نفسي: يا حسرتا على علمٍ لم يدفع إلى هذه المغانم!

إن المبادِر إلى هذه الدقائق بين الأذانين، بمجرد بقائه ينتظر الصلاةَ فهو في صلاة، وملائكةُ الرحمن لا تفترُ عن الدعاء والاستغفار له، كما في الصحيحين عنهﷺ أنه قال: «وإذا دخل المسجد، كان في صلاة ما كانت تحبسه، وتصلي - يعني عليه الملائكة - ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يُحْدِث فيه»(١).

---

(١) البخاري ح(٤٧٧)، مسلم ح(٦٤٩).

والمسلم حين يتقدّم ويصلي ركعتين فقط، فهو بهذا يصلي أربع سجدات، وقد قال ﷺ: «عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة»(١).

وإذا افترضنا أن هذا المبكّر قرأ خمسةَ أوجه من القرآن فقط، فكم فيها من حرف؟ وكم في تلك الحروف من حسنات مضاعفة؟ «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»(٢).

ومن الناس من يختار الدعاء بين هذين الأذانين؛ رجاء ما ورد في الأثر: «لا يُرد الدعاء بين الأذان والإقامة»(٣).

ولك أن تتصور حال هذا المصلّي الذي لم تُقَم الصلاة إلا وقد أصابته هذه البركات: استغفار ملائكة، رفعة درجات، حطّ سيئات، آلالاف مؤلّفة من الحسنات جرّاء تلاوة الآيات! وسكون نفْسٍ بالدعاء، لك أن تتصور هذا وهو مُقبِل على صلاة الفريضة، أيُّ فرقٍ بينه وبين إنسانٍ جاء يسعى سعياً، يلتقط أنفاسَه، لا يدري ما يقرأ أو يتلوه إمامُه!

اللهم ارزقنا تدارك ما بقي من أعمارنا فيما يقرّبنا لديك، واجعلنا ممن وُفّق للعمل بما علم.

---

(١) مسلم ح(٤٨٨).

(٢) الترمذي ح(٢٩١٠).

(٣) روي هذا الحديث مرفوعا وموقوفا، وقد صححه ابن خزيمة مرفوعا، قال ابن عبد البر في «التمهيد» (٢١/ ١٣٩): «قد روي من وجوه حسان»اهـ.

المجلس الواحد والعشرون بعد المائتين
(لا تنتظر الصباح!)

لما وعظَ النبيُّ ﷺ ابن عمرَ ﵄ موعظته الشهيرة، «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»[١]، قال ابن عمر مترجماً هذا المعنى: «**إذا أمسيتَ فلا تَنتظِر الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تَنتظِر المساءَ، وخُذ مِن صِحَّتك لمرضِك، ومِن حياتِك لموتِك**».

لقد قال النبي ﷺ هذه الوصية لابن عمر وهو آخذ بمنكبه، رغبة في رسوخها، وهكذا كان، فلقد كانت حياةُ ابنُ عمر ﵄ ترجمةً عمليةً لهذه الوصية، فهو الذي رأى الخلافةَ تنتقل مِن رَجلٍ إلى رَجلٍ - وهو ينظر وهو أحق بها مِن بعض مَن أدركهم من الخلفاء - لكن مفعولَ هذه الوصية ما زالَ قوياً حتى لقي ربَّه زاهداً عابداً ورعاً، راغباً فيما عند الله، معرِضاً عن هذه الدنيا إعراضَ القادر على نيلها وحيازتها.

لقد فقِه ابنُ عمر ﵄ هذا المعنى عملياً - كما تقدم - وفقِهه علمياً؛ فخصَّ بعض تلاميذه بها، منهم مجاهد بن جبر: حيث قال له: «يا مجاهد! إذا أصبحتَ فلا تُحدِّث نفسَك بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تُحدِّث نفسَك بالصباح، وخُذ من صحَّتِك قَبل سقَمِك، ومن حياتك قبل موتِك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً»[٢].

ولا يتوهمنّ متوهمٌ أن هذه الوصية تعني التخلي عن أسبابِ الحياة الكريمة، فقد بيّن راوي الحديث ابنُ عمر ﵄ أن هذا ليس مراداً مِن قول المعصوم عليه الصلاة

---

(١) البخاري ح(٦٤١٦).
(٢) الزهد لوكيع (ص: ٢٣٣).

والسلام، وإنما مرادُه: أن يَبقى دائمَ التيقُظ والترقُّب ليوم الدين والحساب، فمن كان كذلك؛ أكثَرَ ذكرَ الموت؛ فأحسن السَّير إليه، واستعان بما وهبه الله من النِّعَم على تحسين وقوفِه هناك بين يديه.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «مِن الناس من يُثبت الدليل، ولا يَفهم المقصود الذي دل عليه الدليل! ومن هذا الجنس قوم سمعوا ذمَّ الدنيا فتزهدوا، وما فهموا المقصود، فظنُّوا أن الدنيا تُذَم لذاتها، وأن النفس تَجب عداوتها، فحملوا على أنفسهم فوقَ ما يُطاق، وعذَّبوها بكل نوع، ومنعوها حظوظها! جاهلين بقوله ﷺ: «**إن لنفسك عليك حقًّا**»، وفيهم مَن أدَّته الحالُ إلى تركِ الفرائض، ونحولِ الجسم، وضعفِ القوى! وكل ذلك لضعف الفهم المقصود، والتلمح للمراد»[1]اهـ.

والعاقل هو مَن يدرك «أنه في الدنيا ضيف، وما في يده عارية، وأن الضيف مرتحلٌ، والعارية مردودة[2]، والدنيا عرَضٌ حاضر، يأكل منها البَر والفاجر، وهي مبغَّضَة لأولياء الله، محبَّبة لأهلها، فمن شاركهم في محبوبهم أبغضوه»[3].

اللهم بصّرنا بحقيقة هذه الدار، واجعلنا من أهل الجنة في دار القرار.

(١) صيد الخاطر (ص/ ٢٢٥).
(٢) إلى هنا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه. عدة الصابرين: (ص٢٣٩).
(٣) شرح الأربعين النووية لابن دقيق العيد (ص١٠٥).

المجلس الثاني والعشرون بعد المائتين
(العافية)

يردد كثير من الناس في أذكار طرفي النهار: قوله ﷺ: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي...**»(١)، وكثير منهم سمع بقول **العباس بن عبدالمطلب** رضي الله عنه **للنبي** ﷺ: **يا رسول الله! علمني شيئًا أسأله الله** عز وجل، **قال**: «سل الله العافية»، **فمكثتُ أيامًا ثم جئت فقلت: يا رسول الله! علمني شيئا أسأله الله، فقال لي**: «يا عباس! يا عم رسول الله! سل الله، العافية في الدنيا والآخرة»(٢)، **وغيرها من النصوص، يمرون عليها مرورَ الكرام، دون تأمل لمعانيها.**

العافية كلمة عظيمة.. يعرف معناها من ذاق ضدها، أو عاش مع مريض أسهره المرض، وأطار الألم النوم من عينيه، ومنَعه من الطعام والشراب، وحرَمه من لذة اللقيا بالأحباب، والصلاة في الجماعة، وغيرها!

إن كلّ واحد منّا تمرُّ به أيامٌ يمرض فيها، أو يعود فيها مريضًا، لكن أن تكون بقرب مريضٍ يعاني ويتألم، والمرض يُقْعده ويؤلمه؛ حينها يكون نظرك لمعنى العافية مختلفًا!

ومن معاني العافية الدينية: ما تراه في شبابٍ استعجلوا التصدي لمواقف ليسوا أهلاً لها، وتصدّروا قبل أوانهم، ووقفوا مواقف هي بالكبار - الذين عركتهم التجارب،

(١) أبو داود ح(٥٠٧٤) وابن ماجه ح(٣٨٧١) وسنده صحيح.
(٢) الترمذي ح(٣٥١٤)، وقال: هذا حديث صحيح.

واشتد عُودهم في العلم - أليَق وأحرى، فما كان منهم إلا النكوص على العقب، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير! وربّما خالط تلك المواقف بعضُ حظوظ النفس، ولا يظلم ربك أحدًا.

وتُشاهدُ العافيةُ في حفظِ اللهِ لعبده من مقالات أهل البدع والضلالِ العلمي والفكري، وعصمتِه بفضله تعالى من الركون إلى ذكائه وسعة اطلاعه، وفطنته.. فكم ضلّ من ذكي اعتمد على ذكائه، وعُصِمَ من بليد توكل على ربه في هدايته!

إن العبدَ ليشعر بالخوف وهو يرى - عبر نفاذة التاريخ والواقع - أقواماً ضلوا وهم أذكياء، وزاغوا وهم علماء، فحينها يوقن أنه لا مناص من سؤال الله العافية في الدين والدنيا، كيف والعبد إن لم يعصمه مولاه؛ فَقَدَ صحتَه في لحظة، أو ذهب دينُه في غفلة من قلبه.

اللهم أسبغ علينا عافيتك في الدين والدنيا والآخرة.

المجلس الثالث والعشرون بعد المائتين
(لا أدري!)

سئل ابنُ عمر عن مسألة من مسائل المواريث فقال: «لا أدري». فقيل له: ما منعك أن تجيبه؟ فقال: «سُئل ابنُ عمر عما لا يدري فقال: لا أدري»(١).

الله أكبر! هذا والله مِن ثمرة العلم المزكِّي! أن يَقف الإنسانُ حيث انتهى علمُه، وأن لا يتردد في قول لا أدري لما لا يدري، فإن القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب وأكبرها، كما دلّ القرآن على ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأنت إذا تأملتَ في هذا الأمر وجدتَ أن المشرك إنما أشرك لأنه قال على الله بغير علم!

ويُروى عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أنه خرج على أصحابه مرةً وهو يقول: «ما أبردَها على الكبد! ما أبردها على الكبد!» فقيل له: وما ذاك؟ قال: «أن تقول للشيء لا تعلمه: الله أعلم»(٢).

واجتمع يحيى بن سعيد الأنصاري بالقاسم بن محمد بن أبي بكر - حفيد الصديق -: يا أبا محمد! إنه قبيحٌ على مثلك، عظيمٌ أن تُسأل عن شيء مِن أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم، ولا فَرَج - أو علم، ولا مخرج - فقال له القاسم:

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٨٣٥).
(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٨٣٦).

وعَمّ ذاك؟ قال: لأنك ابنُ إمامَي هدى: ابن أبي بكر، وعمر! قال القاسم: **أقبح من ذاك - عند مَن عقَلَ عن الله - أن أقول بغير علم، أو آخذ عن غير ثقة**، قال: فسكتَ فما أجابه[1].

وهذا يزيد بن هرمز - شيخ الإمام مالك - رحمهما الله تعالى يقول: «إني لأُحِب أن يكون من بقايا العالم بعده: لا أدري؛ ليَأْخُذَ به مَن بعده»[2] أي: ينبغي للعالم أن يَسمع منه تلاميذُه مثلَ هذه الكلمة: لا أدري؛ ليتربى طلابُه على ذلك.

إن مثل هذه الموعظة العملية من ابن عمر رضي الله عنهما، وما سُقتُه من بعض آثار السلف في هذه المسألة؛ لتؤكد ضرورةَ التوقي في هذا الباب، والحذر من الإفتاء بغير علم، خاصة في هذا العصر الذي صارت المعلومة فيه تنتقل إلى الآفاق في ثوانٍ معدودة.

نسأل الله أن يرزقنا الوقوف عند حدود ما نعلم، وأن يعلمنا ما ينفعنا.

---

(١) صحيح مسلم (١ / ١٦).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٨٣٥).

المجلس الرابع والعشرون بعد المائتين (في غرفة العناية المركزة)

إذا قُدِّرَ لك أن تزور غرفةَ العناية المركزة فقد ساق الله لك خيرًا كثيرًا، وواعظًا صامتًا أبلغ من عشرات المواعظ!

في كثير من الحالات يقف الأطباءُ حائرين أمام الحالات التي أمامهم، يرون جسداً تدبّ فيه الروح، وغاية ما يقدرون عليه هو المحافظة على كل ذرة صحةٍ بقيت فيه، ومراقبة الشاشات التي تُعطي المؤشرات عن القلب والتنفس وبقية الأعضاء!

حين تزور مريضًا فيها، وتتذكر قوّة بدنه، وقوة حجّته، وشبابَه وسعيه في هذه الحياة، ثم تراه ممدّداً على هذا السرير، يفرحُ زوّارُه أن يسمعوا منه كلمة، أو أي إشارة تدل على حياةٍ مستقرة؛ حين يكون ذلك تتوارد عليك جملةٌ من الأسئلة.. أين ذهبت تلك القوى الحسيّة والمعنوية؟ أين قوةُ حجّته؟ أين ذهبت القدرةُ على الكلام؟ أين العضلات المفتولة؟ والصوت الجهوري؟ والحديث المتتابع؟!

ليت شعري ما الذي يجول في صدور نُزلاء هذه الغرَف من العِبَر والوصايا لزوّارهم؟ أظنهم لو تكلّموا لقالوا: لقد رأينا مصداقَ قوله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»[1].

ولو تكلم أحدُهم لقال ما ورد في الحديث المشهور: «**اغتنم خمسا قبل خمس:**

(١) البخاري ح(٦٤١٢).

شبابَك قبل هرمك، وصحتَك قبل سقمك، وغناكَ قبل فقرك، وفراغَك قبل شغلك، وحياتَك قبل موتك»[1].

ولو أنهم رأوا شخصًا من المتقاطعين مع أقاربهم أو أصدقائهم من أجل لعاعة من الدنيا لقالوا: لقد عرفنا أن الدنيا كلَّها - بأموالها ولذاتها - لا تُساوي فراشَ السرير الذي نفترشه أو نلتحفه! فكيف نجح الشيطانُ في التفريق بينكم؟!

هذه الغرفة تُزهّد المغترين بالمكاسب المحرّمة..ولو نطقت أسِرّتها لقالت: هَبُوا أنكم تحايلتم على الربا، أو الرشوة أو السرقة من المال العام أو أي مكسب محرّم.. بالله زوروا هذه الغرفةَ لتنظروا هل تنفعكم هذه المكاسب إذا وُضعتم على هذه الأسِرّة؟

هذه الغرفة تَعِظُ المُطْلِقين لأبصارهم وأسماعهم في الحرام، وتقول: هلموا وانظروا إلى الحال التي يؤول إليها سمعُ الإنسان وبصرُه إذا أدخل هذه الغُرَف! ماذا لو لاحتْ لكم تلك الصورُ المحرّمة؟ والمسامعُ الآثمة؟ أتراكم تسمرون أعينكم؟ أو تُلقون أسماعكم لها، وتقولون: عجزنا عن مجاهدة نفوسنا؟!

وفي المقابل: فإن زيارةَ هذه الغرفة لتكشف لك عن أثر الصلة بالله حال الرخاء على أحوال بعضِ هؤلاء المرضى، فكم رأى الناسُ من آثار السكينة والطمأنينة على مرضىً يُعانُون ما يعانون من أمراض خطيرةٍ ومؤلمة، وهذا مصداق قوله ﷺ: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إليه في الرخاء يعرفك في الشدة...»** الحديث[2].

اللهم اشف مرضانا، وارحم موتانا.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى ح(١١٨٣٢)، وفيه إرسال.
(٢) رواه الترمذي ح(٢٥١٦)، وأحمد ح(٢٨٠٣) واللفظ له.

المجلس الخامس والعشرون بعد المائتين
(اللسان الطاهر)

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «**أحقُّ ما طهَّرَ العبدُ لسانَه**»(١).

وابنُ عمر يشير بذلك إلى كثرةِ ما يَعلَق من أوضارٍ وآثامٍ بسبب هذا اللسان، الذي كان يَهابُ أثرَه الصالحون من عباد الله.

كان الصديق رضي الله عنه يقول - وهو آخذ بلسانه -: «هذا أوردني الموارد»(٢) فماذا نقول نحن؟!

وكان ابنُ مسعود يُقسِم ويقول: «والذي لاَ إله إلا هو! ما على ظهر الأرض شيءٌ أحقَّ لطول سِجنٍ مِن لسان»(٣).

قال بعض السلف: مذكراً بخطورة هذه الجارحة:

«وخف - يا أخي - من لسانك أشدَّ من خوفِك من السبع الضاري القريب المتمكن مِن أخذِك، فإن قتيلَ السبع من أهلِ الإيمانِ ثوابُه الجنة، وقتيل اللسانِ عقوبتُه النار إلا أن يعفو الله.

فأغلِقْ بابَ الكلام من نفسك بغَلَقٍ وثيق، ثم لا تفتحه إلا فيما لا بد لك منه، فإذا فتحتَه فاحذر وخذ من الكلام حاجتَك التي لا بد لك منها، وأغلق البابَ، وإياك

---

(١) الزهد لابن أبي عاصم (ص: ٢٧).
(٢) الزهد لهناد بن السري (٢/ ٥٣١).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ١٦٢).

والغفلة عن ذلك، والتمادي في الحديث، وأن يَستمِدَّ بك الكلامُ فتُهلك نفسَك، وإياك والغفلةَ عنه، فإنه أعظم جوارحك عليك جناية، **وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يومَ القيامة مِن الشر ما أملاه عليك لسانُك،** وأكثَر ما تجده في صحيفتك مِن الخير ما اكتسبَه قلبُك»[1] اهـ.

وبالجملة فشأنُ اللسان خطير، والعاقلُ من حفظه من آفاته، واستعمله فيما يرفعه في الدارين.

---

(١) آداب النفوس للمحاسبي (ص: ٤٣).

المجلس السادس والعشرون بعد المائتين (في غرفة تغسيل الموتى)

حين يدخل الإنسان غرفة تغسيل الموتى، يشعر أن هذه الغرفة تباعدك من الدنيا وتدنيك من الآخرة، وتَعِظك بصمتها العجيب..بل كل ما فيها يَعِظ! أكفانها.. أعواد الجنازة فيها، أدوات تجهيز الميّت..تتوارد على ذهنك أسئلةٌ كثيرةٌ وأنت تقلِّب طرفَك في سقفها وجدرانها؛ يا تُرى كم جلس على هذه الأعواد مِن ميّت؟ مَنْ آخرُ شخصٍ غُسّل عليها؟ ومَنْ الميتُ القادم الذي ينتظر دورَه؟

حين تُغسّل هذا الميّت يلوح لك كمالٌ مِن كمالات الله، فتردِّد بلسانك وقلبك: سبحان الحيّ الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون!

وحين تغسّله، وتنظر في عناية الشرع المطهَّر بتنظيف الميّت، والعناية بتطهيره قبل دفنه، والتشديد على سَتر عورته، وتطييبه؛ تحمدُ الله على الهداية إلى هذه الشريعة المطَهَّرَةَ المطهِّرَةِ، التي تتفق مع الفطرة، وتُوجب العنايةَ بهذا الإنسان لا أقول منذ ولادته؛ بل قبل ولادته حتى يُوارَى في الثرى.

وحين تُغسّل هذا الميت تتذكر أنه كما قدِم إلى هذه الدنيا عاريًا، لا يستطيع لنفسه ضرًا ولا نفعًا؛ فهو كذلك حين يُغسّل، مهما كانت قوّته حالَ الحياة..يديره المغسّلون، ويقلّبونه ويحرّكونه، لكنه هذه المرّة جسدٌ لا روح فيه، فأين المُعتبر؟

وحين تغسّلُ الميّت، فإنك تزداد يقينًا أن الموت هو الكأسُ التي لا بدّ مِن شربها، والبابُ الذي لا مناصَ من دخوله، فليت شعري كيف سيكون القدوم على الله منه؟ هل سنقدُم عليه وقد رضيَ عنّا أم لا؟ هل نقْدُم عليه خفيفةً ظهورُنا من الذنوب والآثام؟ أم سنقْدُم وقد تحمّلنا أوزاراً سنندم عليها لحظةَ خروجنا من قبورنا، يوم يقوم الناسُ لرب العالمين، ويوم يقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

إن هذه الغرفة لتنادي المتقاطعين: تصالحوا قبل هذه اللحظة!

وتقول لأبناء الستين والسبعين..: ها قد وصلتم إلى معترك المنايا، فبماذا استعددتم لهذا المصرع؟

وتُنادي الشباب المفرّطين الذين يؤمّلون الستين والسبعين..: اعتبروا! فكم ركِب على أعواد الجنازة قبلكم من شباب! هذا بسكتةٍ، وذاك بحادث.

إن من رحمة الله بعباده أن جعل النسيانَ للمُصاب سبباً للسَّلوة، لكن الذي لا يصحّ: أن ينقلب هذا النسيانُ إلى غفلةٍ تجعل الإنسانَ يعاوِد برنامجَ التقصير والغفلة عن المصير، بل العاقل يستفيد من هذه المواقف التي تمرّ به لتكون سبباً في إصلاح آخرته، وترقيعِ ما انفتق من ثياب الصلاح التي تخرّقت بذنوبٍ بينه وبين الله، أو بين عباده.

المجلس السابع والعشرون بعد المائتين
(ذهبوا وبقيت أعمالهم)

مرّ ابن عمر مع تلميذه مجاهد بن جبر ﷺ قال: كنتُ أمشي مع ابنِ عمر، فمرَّ على خَرِبَة فقال: قلْ: يا خربة! ما فعل أهلُكِ؟ فقلت: يا خربةُ! ما فعل أهلُكِ؟ قال ابن عمر: «ذهبوا وبقيَتْ أعمالُهم» (١).

الله أكبر! هذه والله حقيقة الحياة.. يَعمُرها أهلُها ثم يرحلون عنها.. وليس الشأنُ في الرحيل ذاته، فهذه سنة إلهية، بل الشأنُ في كيف سيكون الرحيل! أهُوَ على ما يُرضي الله تعالى، أم على غير ذلك.

إنَّ طلبَ ابنِ عمر من تلميذه أن يَسأل هذا السؤال، إنما أراد به أن يوقظ في قلبِ تلميذِه هذا المعنى، الذي قد يَغيب عن الإنسانِ مع انهماكه في الحياة وانشغالها بمُتَعِها.

مثل هذه الأسئلة كانت مادةً يَعِظ بها السلفُ أنفسَهم وأصحابَهم..

وقد ذكر الحافظُ عبدالحق الإشبيلي: أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ مرَّ بالمقابر فوقف عليها، فقال:

السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحالّ المُقفِرة!

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٦).

أنتم لنا سلَفٌ، ونحن لكم تَبَع، وبكم عما قليلٍ لاحقون، اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذَكرَ المعادَ، وعمِل للحساب، وقنع بالكفاف، ورضي في جميع أحوالِه عن الله تعالى!

ثم قال: يا أهلَ القبورِ! أما الزوجات فقد نُكِحت، وأما الديار فقد سُكِنَت! وأما الأموالُ فقد قُسِمَت! **هذا خبرُ ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟**

ثم التفتَ إلى أصحابِه فقال: أما أنهم لو تكلموا القالوا: وجدنا خيرَ الزاد التقوى»(١).

اللهم ارزقنا صدق الاستعداد للمصير، وأعذنا من الغفلة والتقصير.

---

(١) العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٩٦).

المجلس الثامن والعشرون بعد المائتين
(على شفير القبر)

إذا أردتَ أن ترى مظهرًا من مظاهر الأخوّة الإسلامية فاحضر دفنَ جنازة؛ لترى جموعَ الناس تُقْبلُ من داخلِ البلد وخارجها؛ لتشارك المُصَابَ في مصيبته، وبعضُهم قد لا يَمتُّ إلى المصاب بِصِلةِ قرابةٍ أو جوارٍ أو صحبةِ عمل.

ومَن يحضر هذه الشعيرةَ يلفت نظره بعضُ الملاحظات والأخطاء التي تصدر من بعض الناس، بسبب الغفلة، أو الجهل بالحكم، يحملهم على ذلك حبُّ الخير، لذا أحببتُ التنبيه على بعض الأخطاء التي تقع من بعض الناس؛ لعله يُسهم في تقليلها وتجنّبها، فمن ذلك:

- مزاحمة أهلِ الميت وذويه على القبر، ويَكثر هذا من بعض الصغار - أصلحهم الله - والأَوْلى أن يُنَبّه الكبار، ويُعَلّمَ الصغار على احترام هذا الحق، ويتأكد إذا كان الميت امرأةً.
- التزاحم الشديد عند الدفن، وظنُّ بعضهم أن أجر اتباع الجنازة مرتهن بالمشاركة في حثو التراب، وهذا وهْم، وهو يسبب إرباكاً للمشتغلين بالدفن كما هو معلوم.

والثابت في السنة الصحيحة أن أجر القيراطين معلّق بأمرين: الصلاة عليها، ثم تشييعها، وليس فيه المشاركة في الدفن، وربما تعلّق بعضُهم بحديثٍ ورد في هذا

الباب، ولا يصح عن النبي ﷺ[1].

- الإصرار على معانقة أهل الميت، وهذا قد يُحتمل فيمن قدِم من سفر، أو لم يرَهمْ منذ زمن، لكن ما الحاجة لذلك من قِبَل جيرانه، أو مَن شاهدهم قبل موت الميت بساعات أو وقت قريب؟

- المقبرةُ أحدُ مواضع الاعتبار، والتفكر في المصير المحتوم، وهو أحد المواضع التي كان السلف - رحمة الله عليهم - يؤثِرون فيها الصمتَ إلا لحاجة، ومع هذا فإن بعضَ الناس - وهو مشتغل بدفن الميت - يرتفعُ صوته دون حاجة، مع أن جميع الاحتياجات المتعلقة بدفنه قريبة، يمكن الوصول إليها بالإشارة أو بصوتٍ منخفض.

وأسوأُ من ذلك أن تَرى بعضَ الناس يتحدث فيها بحديث الدنيا، أو يقهقه ويضحك، بل قد سمعتُ شبابا يتحدثون في الرياضة والناس منشغلون بالدفن! بل سُمِعُ من يتحدث بالجوال على شفير القبر في قضايا البيع والشراء!

ومنهم من يكدّر صفوَ التأملِ والسكون بأصواتِ نغماتِ جوّاله المزعِجَة، وبعضُها موسيقي محضة!

والسؤال: إذا لم يكن وقتُ التشييع فرصةً للتأمل والتفكر، والبعد عن ملذات الدنيا الملهية؛ فمتى نعتبر ونتذكر؟

فاللهم رحمةً من عندك، تُصلح بها قلوبَنا، وترزقنا الاعتبار، وتُحسِن بها منقلبنا إليك، وتنوّر بها على أهل القبور قبورَهم.

---

(١) إن شئت أن تنظر في علة هذا الحديث، فراجع المسألة رقم (٤٨٣) من علل الحديث لابن أبي حاتم (٢/ ٤١٧).

المجلس التاسع والعشرون بعد المائتين
(ابن عمر والعيش مع القرآن)

من مواعظ ابن عمر العملية أنه مرةً قرأ سورةَ المطففين حتى بلغ قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] فبكى وامتنع عن قراءةِ ما بعدَها[١].

ولكأني بابن عمر - وهو يتلو هذه الآية - يستشعر قيامَه مِن قبره، حافياً عارياً كما خلقه الله! فهو يدرك أنه داخل في عموم (الناس).

وليس هذا الموقف هو الموقف الوحيد لابن عمر مع التأثر بالقرآن؛ بل له مع ذلك مواقف أخرى، منها:

- ما حدّث به نافعٌ مولى ابن عمر فقال: ما قرأ ابنُ عمر هاتين الآيتين قطُّ مِن آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ...﴾ [البقرة: ٢٨٤] إلى آخر الآية ثم يقول: «إن هذا لإحصاءٌ شديد»[٢].
- وقال نافع أيضاً: «كان عبدالله بنُ عمر إذا قرأ هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦] بكى حتى يغلبه البكاء.[٣]
- وشرب عبدالله بن عمر ماءً مبرداً فبكي فاشتد بكاؤه! فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ذكرتُ آيةً في كتاب الله ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٧).
(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٨).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١١٨).

٥٤] فعرفتُ ان أهل النار لا يشتهون شيئاً شهوتهم الماء، وقد قال الله ﷻ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ [الاعراف: ٥٠][(١)].

- بل إن نافعاً يُلخِّص منهجَ ابن عمر في تلاوته لكتاب الله تعالى فيقول: كان ابن عمر يقرأ في صلاته فيمر بالآية فيها ذكر الجنة؛ فيقف ويسأل الله الجنة، ويدعو ويبكي، ويمر بالآية فيها ذكر النار؛ فيقف فيدعو ويستجير بالله ﷻ[(٢)]. وهل هذا إلا منهج أستاذِه ومعلِّمه ﷺ!

هكذا كان عيش أصحاب محمد ﷺ مع القرآن..

ألا ما أحوجنا إلى إعادةِ النظر في طريقة قراءتنا لكتاب الله! فإن الله تعالى إنما أنزلَ كتابه ليتدبره العبادُ، بل إن بركته العظمى لا تُنال إلا بذلك، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال في موضعين من كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

- فبالتدبر تُنالُ بركاتُ هذا الكتاب، وبالتدبر تَصلُح القلوب، وتستقيم النفوس، ويتحقق مرادُ الله من التلاوة، التي امتدح بها طائفةً من عباده بقوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

هذه بعضٌ من مواعظ هذا الصحابي الجليل ابن عمر ﵄، ولا زال في كنانة أبي عبدالرحمن جملةٌ من المواعظ التي سنتوقف عندها.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٢٠).

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٨).

المجلس الثلاثون بعد المائتين
(في مجلس العزاء)

التعزيةُ هي صورةٌ من صور الترابط بين أفراد المجتمع المسلم، وكم خفّفتْ من مصابٍ كان وقْعُه على المصاب كبيرًا!

وما أجمل تلك الدعوات التي يقولها المعزّي للمُعَزّى: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب»[(١)] ونحوها من العبارات التي تزيد الإنسانَ من اليقين بالصبر، والتذكير بحقيقةِ المصير.

والتعزية كغيرها.. يعتريها بعضُ المنغّصات التي تكّدِّر صفوَها، ويقضي واجبُ النصح التنبيهَ عليها، ومن ذلك:

١ - من المعلوم أن الجلوس للعزاء من المسائل المختَلَف فيها بين أهل العلم - رحمهم الله - وليس المقصد ذِكر الخلافِ فيها، بل المقصود التذكير بأنها من مسائل الاجتهاد، فلا ينبغي التثريبُ على مَن أخذ بأحدِ القولين، شريطةَ تجنّب بعض المحاذير الشرعية - فيمن اختار القول بالجلوس - كصنع أهل الميت الطعامَ للمعزّين، أو الإسراف فيما يقدّم لهم، وكأن الناسَ في عرسٍ لا عزاء!

(١) البخاري ح(١٢٨٤)، مسلم ح(٩٢٣).

٢ - التعزيةُ فرصةٌ لتقارب قلوب الأقارب، وتقليص مساحات الجفاء - إن وُجدت - فليس من المقبول أن تنقلب هذه المناسبةُ إلى خصوماتٍ أو شقاقٍ مع أهل الميّت بسبب رغبةِ هذا وذاك في تقديم العشاء أو الغداء للمعزيّن وأهل الميت.

٣ - يَحْسُنُ بالمصاب إذا لم يرَ بعضَ من يتوقع حضورَهم أو اتّصالهم مِن قريب أو صديق أو زميل عمل أن يلتمس العذرَ لهم، فيحتمل أن الخبر لم يبلغهم، أو مسافرون لأماكن بعيدة، أو مرضى لا يستطيعون الحضورَ ولا الاتصال، وكم حملت الأخبارُ مِن أعذارٍ لا تخطر على بالِ كثيرٍ منا!

٤ - وفي محيط النساء، فإن بعضَ الأخوات حين تحضَر للعزاء لا تحقِّق المقصود من العزاء - وهو المواساة والتخفيف - بل تُخالِفه، فتكون بلسانِ حالها ومقالها مهيّجةً على تجديد الأحزان، وتعميقِ المصاب، ولمن تَعرف مِن نفسها أنها من هذا النوع الذي لا يَحتمل المصابَ فيمكنها الاعتياض عن ذلك باتصالٍ، أو بنقلِ المواساة برسالةٍ بالجوال، أو بغير ذلك من الوسائل المتاحة.

٥ -قد يحصل أن بعضَ الناس لا تتيسر له التعزيةُ في وقتها المعتاد، فإذا ذهبتْ، وبرَدَت حرارتُها على قلوبِ أهل المصاب، فلا يَحسن التعزيةُ هنا بل لا تُشرع، لأن مقصدَ التعزيةِ هنا انتهى.

وختاماً.. فما أحسن ما قاله بعض السلف معزيًا رجلا مات أبوه: يا هذا، إن كانت مصيبتك في والدك أحدثتْ لك عِظةً في نفسك، فنِعم المصيبة مصيبتك؛ وإلا فمصيبتك بنفسك أعظم من مصيبتك بأبيك[(١)].

(١) التعازي لأبي الحسن المدائني (ص: ٣٦).

المجلس الواحد والثلاثون بعد المائتين
(كيف تزكو النفقة؟)

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «**إذا طابَ المكسَبُ زَكَتِ النَّفَقَةُ**»[(١)].

إن هذه الكلمة من ابن عمر قاعدة محكمة من قواعد الإنفاق، ينبغي أن يستشعرها أولئك الذين يَجمعون المالَ مِن طُرُقٍ محرّمة - كالربا، أو الرشوة، أو السرقة، أو الغصب، أو غيرها - ثم يتصدقون ببعضها ويظنون ذلك نافعاً أو مقبولاً! كلا! فالله تعالى طيِّبٌ لا يقبل إلا طيباً، ولو أنفق الإنسانُ المليارات وهي من كسب خبيث؛ فلا يقبلها الله.

- وهذه الكلمة مقتبسةٌ من نور النبوة، فإن النبي ﷺ قال: «أيها الناس، إن الله طيبٌ لا يَقبل إلا طيباً، وإن الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] ثم ذَكَر الرجلَ يُطيلُ السفرَ، أشعث أغبر، يمُد يديه إلى السماء؛ يا رب! يا رب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام! فأنى يستجاب لذلك؟!»[(٢)].

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل: (ص: ١٥٧).

(٢) مسلم ح(١٠١٥).

«وفي هذا الحديث إشارة إلى أنه لا يُقبل العملُ ولا يَزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكلَ الحرامِ يُفسِد العملَ، ويمنَع قبولَه»[(١)].

ومن ابتُلي ببعض المكاسب المحرمة؛ فعليه أن يتخلص منها وفق الطريق الشرعي، وحَسْب طريقةِ كسبه، فإن المكاسب المحرمة لا تخلو من حالين:

إما أن تكون أعيانُها محرَّمة - كالرشوة والغصب والسرقة - فهذه يَجب رَدُّها إلى من أُخِذت منه.

وإما أن تكون مكاسبُها نتجت من معاملةٍ محرمة - كالربا - فهذه يجب التخلص من هذه المكاسب المحرمة التي طرأتْ، والاقتصار على رأس المال.

ولا شك أن التخلص من الأموال كلما كثرتْ صارَ أصعب وأشد، ولكن المؤمن إذا تذكّر عقوبةَ الله في الآخرة لمن عصاه بأكل الربا، أو أكلِ حقوق الناس؛ هان عليه ما يتركه في الدنيا، فعذابُ الآخرة أشد وأعظم.

إن العنايةَ بطِيبِ المكسَبِ ونقائِه كانت قضيةً حاضرة في منهج الأسلاف رحمهم الله؛ لعلمهم اليقيني بخطورتها على القلب، وعلى صحةِ النفقة، وربما على الزوجات والأولاد، حتى قال ابن رجب رحمه الله: «أكلُ الحلال مِن أعظم خصائل السنة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم»[(٢)].

وسُئل الإمامُ أحمد رحمه الله: ما يُليِّن القلبَ؟ فقال «أكْلُ الحلال»[(٣)]، وقال الإمام أحمد رحمه الله: «بأكل الحلالِ تطمئن القلوبُ وتَلين»[(٤)].

اللهم ارزقنا طيب المكسب، وطيب المنقلب إليك يا رب العالمين.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٢٦٠).
(٢) كشف الكربة (ص: ٢٢).
(٣) الآداب الشرعية (٣/ ٢٧٧).
(٤) الآداب الشرعية (١/ ٤٤٥).

المجلس الثاني والثلاثون بعد المائتين
(الموقف الخبّابي)

في يوم من أيام مكة الملتهبة بحرارة شمسها، وسياطها التي أدمت ظهور المستضعفين من المؤمنين، جاء خباب بن الأرتّ ﵁ - وهو من قدماء الصحابة إسلاماً، ومن أشدّهم تعرّضاً للأذى - إلى النبي ﷺ، وهو متوسد بردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقي من المشركين شدّة، فقال: يا رسول الله، ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمرّ وجهه، فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشارُ على مفرق رأسه، فيُشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليُتمنَّ اللهُ هذا الأمرَ حتى يسير الراكبُ من صنعاء إلى حضرموت، ما يخاف إلا الله، والذئبَ على غنمه**»(١).

هذه النفس المشحونةُ بأنواعٍ من الألم النفسي والجسدي، تتكرر صورتها اليوم في واقعنا وبألوانٍ مختلفة، ومشاهد متنوعة، يجمعها الحدَبُ على هذا الدين، والضيقُ ذرعًا باشتداد الغربة في بعض الأزمنة والأماكن، فيأتي الجوابُ النبوي المليءُ باليقين، والمحشونِ بتفاؤلٍ يبدّد غيومَ اليأس التي علت قامةَ خباب الكبيرة، لا ليخبره ﷺ بأن أمَدَ هذا الأذى سيتوقف، بل ليُقسم له - وهو الصادق المصدوق ﷺ - بأن هذا الدين المحاصَرَ في شعاب مكّة، سينتشر انتشاراً يبلغ من أثره أن يسير الراكبُ من صنعاء إلى

---

(١) البخاري ح(٣٨٥٢).

حضرموت - وهي مناطق يتيه فيها الذكي، ويخاف فيها القوي -، لا يخشى شيئاً سوى الله الذي اختار هذا الدين الخاتم، والذئبَ على غنمه!

إنه التفاؤل في شدة اليأس، وصعوبة الأحوال المحيطة بالإنسان، إنها كلمات تقول لكل محزون وبائس: الدين دينُ الله، والله حافظُه، بل ومتكفلٌ بنشره؛ فابحث لك عن موطئ قدَمٍ في نصرته.

- إن هذا الموقف النبوي، ليؤكد حاجةَ الأمة إلى ذلك العالم الذي لا تهزّه رياحُ الأحداث، ولا تفُتّ في عضده المتغيرات التي ظاهرها الشر، بل لا يزداد إلا بصيرةً ويقينًا بصدق موعود الله، كما قال الصحابة - في غزوةٍ من أصعب الغزوات النبوية -: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

ما أحوج الأمّة إلى أولئك العلماء الربانيين، الذين إذا جاءَهم الناسُ وجدوا فيهم من اليقين والثقة ما يبدّد قلقَهم.

والخوفُ - والله - هو من تقصيرنا في نصر دينه، وإلا فالأمر كما قال ابن القيم:

والحـــق مـنـصـورٌ ومـمـتـحـن فلا
تـعـجـب فـهـذي سـنـة الـرحـمـن

اللهم املأ قلوبنا ثقة بك، وتوكلاً عليك، واجعلنا من أنصار دينك، ومن حملة شريعتك.

المجلس الثالث والثلاثون بعد المائتين
(الانقطاع إلى غير الله!)

يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «**مَن استَغنى بالله اكتفى، ومَن انقَطَع إلى غير الله يَعمَى**»[(١)].

هذه كلمةٌ جامعة، ومعبِّرة عن حقيقةِ حال القلب مع الله، ومع هذه الدنيا.

وصدق والله! فإن مَن استغنى بالله الغني؛ اكتفى، أَوَليس اللهُ هو الذي بيده مقاليدُ السماوات والأرض؟ أليس هو الذي يُعطي ويَمنع؟ ويَقبض ويَبسُط؟ ويَخفض ويَرفع؟ ويَكشف الضر؟ أَوَليست نواصي العباد بيده؟

ما بالُ بعضِ الخلق تتعلق قلوبهم بخلقٍ مثلهم؟ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، حتى يملكوه لغيرهم! ما بال بعض الناس رَبَط سعادَته ورزقه بمخلوقٍ مثله؟!

لئن كان التعلق بغير الله عَمَى، فالبصيرة - والله - بالتعلق بالله وحده.

قال الإمام أحمد لرجلٍ: «لو صحَّحْتَ ما خِفتَ أحداً»[(٢)]، والمعنى: لو صحَّحْتَ نيَّتك، وتَعلَّق قلبُك حقاً بخالِقه؛ ما خِفتَ، أي إلا الخوفَ الطبيعي.

- تذْكُر كتبُ السِّيَر أن الإمام عفان بن مسلم الصفّار - أحد شيوخ الإمام أحمد رحمهم الله - دُعِي إلى القول بخلق القرآن، فامتنع أن يُجيب، فقيل له:

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي (١/ ٨٨).
(٢) الآداب الشرعية (٢/ ٣٠).

يُحبَس عطاؤك! - وكان يُعطى في كل شهر ألفَ درهم - فقال - وانظر إلى التعلق بالله -: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾!

قَالَ: فلما رَجَع إلى دَارِه عاتبه نساؤه ومَنْ في داره! قَالَ: وكان في داره نحو أربعين إنساناً!

قال: فدق عليه داقٌّ البابَ، فدخل عليه رجلٌ **ومَعَه كيس فيه ألفُ درهم**، فقال: يا أبا عثمان! ثبَّتك اللَّهُ كما ثبتَّ الدين، وهذا في كل شهر.[1]

الله أكبر! ينقطع عنه المالُ من هنا فيجريه اللهُ مِن جهةٍ أخرى، وصدق ابن عمر: «**من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غير الله يعمى**»، وقول الله أبلغ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

(١) تاريخ بغداد ت بشار (١٤/ ٢٠١).

المجلس الرابع والثلاثون بعد المائتين
(بل هو خطأ)

تحفلُ الكثيرُ من المجالس بالحديث عن مختلف القضايا، سواء ما اتصل منها بالقضايا الشرعية أم الاجتماعية أم غيرها.

وفي بعض الأحيان يسيطر عليها ما يسمى بحديث الشارع، وكلٌ يُدلي برأيه في هذه القضايا، والأمرُ إلى هذا الحدّ مفهوم، ما لم يكن حديثاً بغير علم في قضايا الشريعة، فالنصوص الشرعية واضحة في التحذير من الخوض فيها بغير علم.

تبدأ المشكلةُ حين يتداول الحضورُ قضيةً ذات أبعادٍ كثيرة، وربما كانت معقّدة، فيطرحُ بعضُهم وِجهةَ نظَره في تلك القضية، فإذا ما خولف في رأيه ردّ مباشرةً بتخطئةِ الرأي الآخر، دون إعطائه فرصةً للتوضيح، أو إعطاء نسبة احتمال صوابٍ في رأيه، والمحصّلة النهائية لكلامه هي أن رأيي صوابٌ لا يحتمل الخطأ!

هذا المشهد يتكرر في كثير من المجالس مع عددٍ من القضايا، وهذا لا يعود لأن المسألة فيها نصٌّ تلقّاه ذلك «الصوابيّ» عن طريق الوحي! كلا، وإنما يعود لطبيعة تفكيره وأسلوبه في الحوار، والذي يكشف عن جهل أو كِبْر، واللذان ينشأُ عنهما ألوانٌ من الخطأ بل والصَّلَف في طرح الرأي، ومناقشة آراء الآخرين، وذاك المسكينُ يظنُّ أنه مَلَك ناصيةَ الحق، أو أن الناس يسكتون عن إتمام الحوار معه لأنه أفحم غيرَه بالحجج الباهرة، والبراهين الساطعة، وهو لا يدري أنه لم يناقشه أحدٌ لجهله وظلمه

لا غير، ورحم الله الإمام الشافعي يوم قال: «رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأٌ يحتمل الصواب»[1].

هذا الأسلوب في القطع لا يقتصر على القضايا التي لا نصّ فيها، بل يمتد إلى مسائل شتى، خاصةً المسائل الشرعية، والتي تأخذ نصيبَ الأسد من الحديث في كثيرٍ من مجالسنا، والعجيب أن ترى تلك الحماسة للقطعية بصواب الرأي في مسائل فيها الأدلة متكافئة، ولو تحدث عنها عالم لقدّم وأخّر في الترجيح، بل قد يكون جمهور العلماء على خلاف تلك المسألة التي تحمّس لها المتحدِّث!

إن من العقل والحكمة أن يكون الإنسانُ واسع الأفق، معتدلاً في طرحه، واضعاً مساحةً من الصواب للطرف المقابل، ما لم يكن في المسألة إجماع، أو نصٌّ صريح لا يقبل التأويل، مع الاحتفاظ بأكبر قدر من العبارات الليّنة في التعبير عن خطأِ مَن ثبتت مخالفته، خاصةً وقد عُلم صدقُه واجتهادُه في تحرّي الحق، وهذا كلّه في ذلك النوع من المسائل التي تتجاذبها الأدلّة، أما ما سوى ذلك فدائرةُ العذر فيها ينبغي أن تكون أوسع وأكثر.

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني (ص: ١٣٥).

المجلس الخامس والثلاثون بعد المائتين
(حال الصحابة مع القرآن)

يصف ابن عمر - الذي أدرك الفتوحات والتغيرات التي طرأت في واقع الأمة - حال الناس مع القرآن أيام العهد النبوي، وما الذي طرأ على هذا المنهج، فيقول ﷺ: «لقد عشنا برهةً مِن دَهرِنا وإن أحدثنا يُؤتَى الإيمانَ قبل القرآن، وتنزل السورةُ على محمد ﷺ فيتعلَّمْ حلالَها وحرامَها، وما ينبغي أن يُوقَف عنده فيها كما تَعلَّمون أنتم القرآن»، ثم قال: «لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحتِه إلى خاتمتِه ما يَدري ما آمِرُه ولا زاجُره، ولا ما ينبغي أن يُوقَف عنده منه! ينثره نَثْر الدَّقْل»[(١)].

إنها كلمة بليغة تصف الداءَ والدواءَ، وبيّنت شيئاً مِن عِلَلِ المسلمين مع كتاب الله تعالى.

وإنها لموعظة خليقَةٌ بالتأمُّل والاعتبار، فهي صادرةٌ عن مُعايشٍ لأوائل التنزيل، ومشاهدٍ بل ومدركٍ لما وقع مِن تغيّرٍ في حالِ الأمةِ مع كتاب ربها بعد وفاةِ نبيها ﷺ، وبعد انتهاء الخلافة الراشدة.

يوضّح ابنُ عمر في هذه الموعظة الطريقةَ الصحيحة لتلقي هذا القرآن، وهي: تَلقِّي الآياتِ والمعاني التي تزيدُ الإيمانَ في القلب، فإن الإيمان إذا وقَرَ في القلب - أي سكن وثبت -؛ سَهُل عليه بعدَ ذلك أن يَتلقى التكاليفَ مهما عَظُمت.

---

(١) رواه الإيمان لابن منده (١/ ٣٦٩) ح(٢٠٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٩١)، والبيهقي في «الكبرى» (٣/ ١٧١)، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه».

فإن أردتَ مثالاً يوضح المراد: فتأمل في آثار التربية النبوية للصحابة ﷺ في مكة وأوائل قدومه المدينةَ - قبل أن تكثر الشرائع والأحكام الفقيهة - فلما وقعت غزوةُ بدرٍ على غير ميعاد، بل ونفوسُ بعض الصحابة كارهةٌ للقتال، ومع هذا كلّه ظهرت آثارُ تلك التربية الإيمانية العظيمة؛ في بسالةِ الصحابة وبطولاتهم، وإظهار النصرة لله ورسوله قولاً وعملاً.

- ثم بعد ذلك تنزَّلت الشرائعُ، وأحكام الحلال والحرام؛ فتلقّتْها النفوسُ المؤمنة، التي تربَّت على الانقياد والتسليم، وهم يقولون بلسان الحال والمقال في كل موقف: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، فما الذي حدث بعدَ ذلك؟

يشخِّص ابنُ عمر المشكلةَ بقوله: «**لقد رأيتُ رجالاً يُؤتَى أحدُهم القرآن فيقرأ ما بين فاتحتِه إلى خاتمتِه ما يَدري ما آمِرُه ولا زاجِره، ولا ما ينبغي أن يُوقَف عنده منه! ينثره نَثْر الدَّقْل**».

هذه المشكلةُ - التي ذكرها ابنُ عمر - اتفق عليها عددٌ من الصحابة الذين طالت حياتهم، وأدركوا الفتوحات، وكثرة دخول الناس في الإسلام - خاصة من الأعاجم - وممن وافقه عليها: ابن مسعود، وجندب بن عبدالله، وغيرهما.

إن سلوكَ هذا المنهج النبوي في التربية سيختصر مسافاتٍ كبيرةٍ في التربية، وسيكون مِن أعظم الزاد في الدنيا ويوم المعاد.

المجلس السادس والثلاثون بعد المائتين
(العُمُرُ الإنتاجي)

كل المؤثرين الذي نفع الله بهم في هذه الحياة، سواء في علوم الشريعة أو غيرها من العلوم النافعة ديناً ودنيا، كان يومهم عبارةٌ عن أربعٍ وعشرين ساعة لا تزيد ولا تنقص، وهكذا هي ساعات أيام الذين عاشوا وخرجوا من الدنيا دون أي أثر!

تأمل معي هذه المقارنة المختصرة بين شخصين كلاهما عاش أربعين عاماً في هذه الحياة، فالأول كان الهدف عنده واضحاً من البدايات، وأدرك أنه لن يعيش مرتين، فاستثمر وقته في أعمال تلتقي مع أهدافه، وأما الآخر - الذي عاش نفس العمر - فهو شخص أمضى عمره الافتراضي، فولد عادياً وعاش عادياً ومات عاديا! مع رجاء الخير لكل من مات على الإسلام، إن سلم من حقوق العباد.

وإذا قلّبنا كتب التراجم وجدنا أمثلة رائعة للعمر الإنتاجي في حياة هؤلاء المؤثرين، الذين لم يتجاوز عمر بعضهم الخمسين بل الأربعين!

فهذا الإمام النووي رحمه الله - مؤلف كتاب رياض الصالحين وغيرها من الكتب النافعة - من أشهر النماذج التي يمكن التمثيل بها في هذا السياق، فإن كل قارئ لسيرته يلحظ البركة والقبول الذي طرحه الله في حياته وعلمه ومصنفاته، مع أنه لم يعش أكثر من خمسة وأربعين عاما! فما السبب يا ترى؟

وهذا الشيخ حافظ حكمي - وهو عالم معاصر -، توفي: وهو لم يتجاوز خمسةً وثلاثين عاماً، وقد نفع الله بمصنفاته.. والأمثلة على هذا كثيرة.

ولنا أن نتساءل عن السبب الذي تميز به هؤلاء - وأمثالهم كثير -؟

لعل من أبرز أسباب تميزهم: الصدق مع الله، وإخلاص العمل، ثم الغيرة على الوقت، التي ظهرت آثارها بشكل جليّ في بواكير العمر.

في مقتبل الإجازات الطويلة والقصيرة يكثر الحديث عن اغتنام الوقت، والوسائلُ التي يُعْمَرُ بها، ولكن الجادّين قليلون، فما السبب؟ لعل من أهم الأسباب: عدمُ وضوح الهدف، وتبديد الوقت، والتخبطُ في تحديد الأولويات، وغيرها من الأسباب التي تحدث عنها الكثيرون ممن كتب في إدارة الوقت.

والمقامُ ليس مقامَ حديث عن هذه المشكلة، بل هو تذكير لنا جميعا بأن يعيد كل واحد منهم النظر في هذا الموضوع المفصلي في حياته.. لينظر إلى الوراء، وليتأمل: متى ولد؟ وماذا أنجز؟

ونحن حين نتحدث عن هذا الموضوع، فلا نعني بالضرورة الانشغال بالعلم الشرعي فحسب - مع شرفه العظيم - كلا.. فالأمة محتاجة إلى كل علم نافع من علوم الدين والدنيا، «فكل ميسر لما خلق له»[1]، كما قال ﷺ.

المهم أن يعزم الإنسان على نفع أمته فيما يُحْسنه، ثم ينطلق مستعيناً بالله، مستنيرا بآراء أهل الخبرة والمشورة؛ فنحن جميعا نشترك - مع عظماء هذه الأمة - في قوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، فلنحاذر أن نعيش على هامش الحياة، ونموت دون أن يكون لنا أثر.

---

(١) البخاري ح (٦٦٠٥)، مسلم ح(٢٦٤٨).

المجلس السابع والثلاثون بعد المائتين
(حقيقة التقوى)

يقول ابنُ عمر رضي الله عنهما قوله: «**لا يبلغ العبدُ حقيقةَ التقوى حتى يَدَع ما حاكَ في الصَّدْر**»[١].

هذه الموعظة قبسةٌ من ميراث النبوة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، التي قرر فيها قاعدة محكمة من قواعد الدين بقوله: «**إن الحلال بيّن، وإن الحرام بيّن،** وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام... «الحديث[٢].

والمراد بالمشتبه: هو الذي يقع فيه خلافٌ معتبر بين العلماء في حِلّه وحُرمَته، أو يكون فيه شبهة معتبرة شرعاً في حِلّه وحرمته، كما يقع في بعض المكاسب التي يتعاطها الناس؛ كالمساهمة في الشركات المختلطة، ونحو ذلك من المعاملات التي يتجاذبها أصلُ تحليلٍ وأصلُ تحريم، ومثل: شربِ أو أكلِ ما اختُلف في حِلّه وحُرمته من المطعومات والمشروبات، ومثل بعض صور الأنكحة المختلف فيها.

فمن تركها «**فقد استبرأ لدينه وعِرضه**»، وهو أصلٌ كبيرٌ في طلب البراءة للدين والعِرض، الذي قد يَلحقه طعنٌ فيهما بسبب تقحّمه لموارد الشُبه! وهو الذي عناه ابن عمر في موعظته هذه.

(١) رواه البخاري، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس» (١/ ١٠).
(٢) البخاري ح(٥٢)، مسلم ح(١٥٩٩) واللفظ له.

وهذا المعنى، ورد فيه الحديث المشهور: «**دع ما يُريبُك إلى ما لا يريبك**»[1]، وهو مع ما فيه من كلام من جهة إسناده؛ إلا أنه معنى اتفق الصحابةُ عليه.

وبالجملة، فإن الدِّين عظيم، والحرص على سلامته علامةُ توفيقٍ وإيمان، والتهاون في باب الورع يوشك أن يُوقع في الحرام مع مرور الزمن، ولهذا كان ابن عمر رضي الله عنه يقول: **إني لأُحِب أن أَدَع بيني وبين الحرام سُترة من الحلال لا أخرِقها.**

وقال الحسن البصري: مازالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال؛ مخافة الحرام.

وقال سفيان بن عيينة: لا يصيب عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتى يَجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال، وحتى يَدَع الإثمَ وما تشابَه منه.[2]

ألا ما أحوجَ الأمةَ إلى أئمةٍ في الورع مع تنامي وكثرة موارد الشُبَه؛ ليقتدي بهم الناس، وليروا جميلَ أفعالهم، كما سمعوا الجميلَ مِن أقوالهم.

---

(١) رواه الترمذي ح(٢٥١٨)، والنسائي ح(٥٧١١)، وينظر في تفصيل الكلام عليه: «جامع العلوم والحكم»، للحافظ ابن رجب: (١/ ٢٧٧) ح(١١).

(٢) ينظر في هذه النقول وغيرها: كتاب «الورع» للمروذي، ص(٥٩) وما بعدها.

المجلس الثامن والثلاثون بعد المائتين
(كيف تخسر الأصدقاء؟)

«الرجل بلا صديقٍ كاليمين بلا شمال»، هكذا يصف الخليلُ بن أحمد الصداقة، وصدق:.

ويزدان الحديثُ عن هذه الصداقة بِذكر آثارها، وما ينتج عنها من مواقف الشهامة والمروءة والوفاء.. ومن الناس مَنْ لا يُقدّر هذه العلاقة قدْرها، فيحمّلها أكثرَ مما تحتمل، ويكدّرها ببعض الأمور التي لا تنبغي؛ فيخسر صديقَه لأدنى سبب، وقد سُئل بعضُ الحكماء: استفساد الصديق أهون من استصلاح العدو؟ قال: نعم، كما أن تخريقَ الثوب أهونُ من نسْجه.

والعاقل من ابتعد عن أسباب خسارة الأصدقاء، ومن أهمها:

١ - **الغفلة عن الفروق الفردية بين الناس**: فمن الناس من يكون له أكثر من صديق، وفي بعضهم من الوفاء ومكارم الأخلاق والمروءة ما ليس في الآخَر، فيريد حمْلَ بقيةِ الأصدقاء على خُلُق هذا الصديق المتميز، وهذا خطأ، والعاقلُ مَن راعى هذا الأمر، فأصابع اليد ليست واحدة.

وإذا كان الأمر كذلك، فأشدّ مما سبق أن يحملَ الإنسانُ الناسَ على طبْعه، ويريدُهم أن يوافقوا رأيَه، وإلا رماهم بقلّة التقدير وعدم الاحترام، وغلطُ هذا المسلك أظهر مِن أن يُطال الوقوفُ عنده.

٢ - **ومن ذلك: كثرةُ العتاب** على أتفه الأسباب، أو تضخيمُ بعض الأخطاء الصغيرة، وهذا شيءٌ تكرهه النفسُ وتأنف منه، وينفِرُ منه الصديق.

والعاقل من غضّ الطرفَ عن الزلّة، واحتمَلَ الخطأ، خاصةً إذا لم يتكرر، وإذا تكرر التمسَ الأسلوبَ الأمثل في التنبيه عليه، فإن مما يكدّر الصفوَ: الأسلوبُ الذي يعالج به الخطأ.

٣ - **عدم التماس الأعذار لهم** عند وجود سببٍ للعتاب، فللناس أعذارٌ قد لا يستطيعون إبداءها في كلّ حين - كما قال الإمام مالك رحمه الله. والأمثلةُ في هذا أكثر من أن تُحصَر.

٤ - **ومن أسباب خسارتهم: عدمُ الاهتمامِ بمشاعرهم** والاكتراثِ بها، فليس من الصداقة في شيءٍ أن تمرّ على صديقك أيامُ المصائب والأفراح وأنت بمنأى عنه، وكأن الأمرَ لا يعنيك! فالصديقُ إذا لم يكن له بصمةٌ على مشاعر صديقه في أوقاتٍ كهذه فمتى؟

وبالجملة..فالعاقل مَنْ عضّ على أصدقائه بالنواجذ، خصوصاً من تقلّب الدهرُ به معهم على السراء والضراء، فوجدَهم زينةً في الرخاء، وعُدّة في البلاء، وأصهارَ الروح، فإن الصديق الصالح مِن مغانم الحياة الدنيا والآخرة، ألم تسمع قولَ أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]؟ ونفعُه ممتد في الدارين: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فحافظ على الصديق ولو في الحريق - كما قال بعضهم - فشراءُ الصديقِ صعبٌ عسير، وبَيعه سهل ممكن.

المجلس التاسع والثلاثون بعد المائتين
(منهج التعامل مع الأقوال)

استوصى رجلٌ أبيّ بنَ كعب رضي الله عنه وطلب منه أن يعظه، فقال له: عظني، ولا تُكثِر عليَّ فأَنْس، فقال له أُبيّ:

«اقبَل الحقَّ ممن جاءك به وإن كان بعيداً بغيضاً، واردُد الباطلَ على مَن جاءَك به وإن كان حبيباً قريباً»، قال: «وآخِ الإخوانَ على قَدْر تقواهم»(١).

هذه الموعظة تشكِّلُ منهجاً متيناً في التعامل مع الأقوال لا القائلين، فإن عمومَ الناس يَربِطون بين الأمرين! وهذا غلط؛ لأن الحق يجب قبولُه لكونه حقاً، أما القائل فشأنه آخر.

والعكس كذلك؛ فإن من الناس مَنْ إذا أحبّ أحداً قَبِل ما يأتي به وإن كان باطلاً! وهذا غلط وخلل، فإن الباطل يُرَدُّ لأنه باطل، بغض النظر عمن أتى به.

- ومن أعظم الشواهد على هذا المعنى، ما أرشدت إليه آية سورةُ الأعراف، قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨] فتأمل كيف صدّق القرآنُ كلمتَهم في كونهم وجدوا آباءهم عليها، دون قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقد ردّها اللهُ عليهم.

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٢١).

فإذا كان ربُّ العزة قد أقرَّ هؤلاء على قولهم مع كفرهم؛ فمن دون ذلك وما دونه مِن باب أولى.

وفي البخاري، لما جاء الشيطانُ إلى أبي هريرة ﷺ في قصته الشهيرة معه، والتي ذكر له فيها فضل آية الكرسي، فلما قصّ أبو هريرة خبره على النبي ﷺ، وما ادعاه من فضل آية الكرسي، قال له النبي ﷺ: «**أما إنه قد صدَقَك وهو كَذوب**»(١).

فهذا رسول الله ﷺ يربي أمَّتَه على قبولِ الحقِّ وإن جاء من الشيطان، فكيف بغيرِه! فقال: «أَمَا إنه صدَقَك وهو كَذوب».

وعلى هذا المنهج - وهو قبول الحق ممن جاء به - سارَ أئمةُ العلم والعمل؛ لأن قبولَ الحق ممن جاء به، وردَّ الباطلِ ممن جاء به؛ هو علامةُ التجرُّد.

أتى رَجلٌ ابن مسعود ﷺ فقال له: إني مُنطلِقٌ، فزوِّدْني؟ فقال له: «اقبَل الحقَّ مِن البَغيض البعيد، وأَنكِرِ المنكرَ على الحبيب القريب»(٢).

وقد سُئل الفضيلُ بنُ عياضٍ عن التواضع، فقال: «يَخضع للحق ويَنقاد له، ويَقبَل الحقَّ مِن كل من يَسمعه منه»(٣).

---

(١) البخاري ح(٢٣١١).
(٢) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (٢/ ٤٣٣).
(٣) شعب الإيمان (١٠/ ٥١٠).

المجلس الأربعون بعد المائتين
(بين الإنسان والشجرة)

المتأمل للشجرة سيجد أن بينها وبين الإنسان قواسم مشتركة.. والإجابة عن هذه الأسئلة تكشف شيئاً من هذه الحقيقة: كم يوجد في الأرض من شجرة من جنس هذه الشجرة ومن غير جنسها؟ وما الذي جعل لها هذه القيمة عندنا؟ وهل ستكون لها مكانةٌ لو كانت دون نفعٍ أو أثر؟

هكذا هم الناس! نلاقي في حياتنا الكثيرَ والكثير، لكن لا يَبقى في الذاكرة منهم، إلا من كان له أثرٌ علينا؛ بعلمٍ أو تجربةٍ أو صحبةٍ حسنة، أو موقفٍ إنساني، أو غير ذلك من صور التفاعل الإيجابي.

لكلٍ واحدٍ من الإنسان والشجرة عُمرٌ افتراضيّ، فهو يُوجد بعد أن كان عدَماً، ثم يعيش ما كتب اللهُ له، ثم يموت!

وأكثر الأشجار أثراً ليست تلك التي عُمّرت طويلاً، أو أَخذت مساحةً أوسع في الأرض، أو استهلكت ماءً أكثر لسقيها، كلا.. بل هي تلك التي انتفع بها الناسُ أكثر، وهكذا الإنسان.. لا تقاس حياتُه بطول سنواته، أو بكثرةِ أمواله، وتعدُّد شهاداته، بل بمساحة تأثيره في هذه الحياة، ولهذا لما أرادَ النبيُّ ﷺ أن يوصل جُمْلةً من هذه المعاني؛ طرح سؤالاً على الصحابة فقال - كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما -: «**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقُها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي**» فوقع

الناسُ في شجر البوادي، قال ابنُ عمر: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييتُ، ثم قالوا: حدِّثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «**هي النخلة**»[1].

وفي المقابل..فمِن الأشجار ما يكون منظره جميلاً، لكنه يحمل في ثنايا أغصانه الشوكَ المؤذي! وهكذا حالُ بعضِ المنافقين، وأصحابِ المصالح الآنية.. قد تجد منهم جمالَ منطقٍ، أو حُسْنَ بيانٍ، أو مظهراً متميزاً، ثم ما أسرع ما يؤذيك بما يَظهر مِن مخابره السيئةِ عند أدنى ملابسةٍ معه! فاحذر، فإنك لا تجني من شوكِ هؤلاء عنباً.

وبالجملة.. فإن الأشجار كما الإنسان، ليست سواء، والعاقلُ مَن تشبّه بالشجرة حسنة المنظر، جميلة المخبر، عظيمة الأثر.. والسعيدُ من تأمَّل واعتبر.. جعلنا الله مباركين أينما كنا.

(١) متفق عليه: البخاري ح(٦١)، مسلم ح(٢٨١١).

المجلس الواحد والأربعون بعد المائتين
(بم يُغْبطُ الأحياء؟)

أوصى أبيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه رجلاً فقال له: «**وآخِ الإخوانَ على قَدْر تَقواهم، ولا تَغبَط الحيَّ إلا بما تَغبَط الميتَ**»(١).

- هذه الوصية مقتبسة من نور القرآن الكريم؛ فإن كلّ الصداقات الدنيوية ستنقلب يومَ القيامة إلى عداوة، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وأما قوله: «ولا تَغبَط الحي إلا بما تَغبَط الميت»، أي: انظر ما الذي يُغبَط به الميت؟ والجواب بلا ريب: هو العمل الصالح، فكذلك: إذا رأيتَ على أحدٍ نعمةً دنيوية، أو مالاً، أو جاهاً، أو غير ذلك مما يَغبَط به الأحياءُ؛ فتذكَّر ما الذي يُغبَط به هذا الإنسان لو مات الآن؟!

إنها تربيةٌ عمليةٌ نفسيةٌ من هذا الإمام الجليل أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في التعامل مع جواذب الدنيا، وفتنها التي تأسِر لُبَّ الأكثرين، ولا يَتفطَّن لحقيقتها إلا أولوا العلم والإيمان، كما قال سبحانه - في شأن قارون، وكيف تصدى أهلُ العلم لبيان فتنةِ غناه، الذي بهر عقول الكثيرين -: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ

(١) حلية الأولياء (٩ / ١٢١).

اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

فيا كلّ أخٍ وأختٍ فاته من الدنيا ما فاته! وتطلعتْ نفسُه لما في أيدي الأغنياء، أو تصدّع فؤادُه على ما يَراه في أيدي الأثرياء؛ تَذكّر هذه الحقيقة: «ولا تَغبَط الحيَّ إلا بما تغبط الميت»، واعلم أن الدنيا لو كانت كريمةً على الله لما زواها عن أحب الخلق إليه؛ محمدٍ ﷺ، وعن عامّة أوليائه.

وفي الوقت ذاته، فإن حِيازة الدنيا ليست مذمومةً مطلقاً - كما تقدم - وإنما تُذَم إذا ألهت عن واجب، أو أدّت إلى الوقوع في المنهيات، ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[(١)].

ومن أراد أن يقرأ درساً في الزهد الحقيقي مع توافر الدنيا مع العبد؛ فليتدبر قصةَ نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، وخاصة في سورة (ص)، ففيها دروس وعِبَر.

والمقصود أن الموفَّق مَن عرف حقيقةَ الدنيا؛ فزهد فيها الزهد الحقّ، وأخرجها مِن قلبه، واستخدمها ولم يخدمها، وجعلها مطيّة للآخرة.

---

(١) البخاري ح(٧٥٢٩)، مسلم ح(٨١٥).

المجلس الثاني والأربعون بعد المائتين
(اخلع نظارة اليأس)

أسباب الهموم والمكدّرات في هذه الحياة كثيرة، وكذلك هي أسبابُ السعادةِ كثيرة، يعجز الإنسان عن حصرها.. ومن قرأ القرآنَ وجدَه صريحاً في التحذير من اليأس والقنوط، سواء في أمر التوبة بين العبد وبين ربّه، أو في علاقةِ العبدِ مع أقدار الله المؤلمة!

- ففي التوبة قطع القرآن اليأس الذي قد يسري في قلوب بعض المذنبين فقال: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

- وفي باب المصائب المؤلمة، يحدثنا القرآن عن قصة يعقوب عليه السلام حين اشتدت به الكربةُ، فلم يقنط، بل حذّر بنيه من ذلك فقال لهم: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وفي السيرة النبوية عجبٌ عاجب! فحين كانت النفوس مشحونة في صلح الحديبية بسبب الشروط - التي كانت في ظاهرها غبناً للمسلمين - وجاء سهيل بن عمرو مندوباً عن المشركين، قال ﷺ مباشرة: «**سَهُل لكم من أمركم**»(١) سبحان الله! حتى في هذا المقام لم يدع الفأل باسم سهيل!

---

(١) البخاري ح(٢٧٣١).

ومع هذه المواقف وغيرها كثير، يأبى بعضُ الناس إلا أن يُردّد مفردات اليأس والقنوط! سواء فيما يخصه أو يخص واقع الأمة، وأننا حالةٌ استثنائية من موضوع الفأل، فهو يعيش اليأسَ في كل تصرفاته، ولا يكاد يفرح بشيء، ولا ينتظر شيئاً حسناً، بل حتى الأشياء الحسنة تنقلب في عينه إلى سيئة! ولسان حاله يتمثل قول ذاك اليائس: لو اتجّرتُ ببيع الطواقي والكوفيات، لخلق اللهُ أناساً بلا رؤوس!

إن سيطرة هذه المشاعر تُقْعد الإنسانَ عن القيام بأمورٍ نافعة كثيرة؛ لأنه حكم على نفسه بالفشل، وذبح نفسَه بسكينِ اليأس.

قارِن بين هذه النفوس الغارقة في اليأس وبين قول مُوَرّق العجلي رحمه الله: «قد دعوتُ الله بحاجة منذ أربعين سنة، فما قضاها لي، فما يئستُ منها»![(١)].

فيا كل من أوجعته سياطُ المصائب، هل ترى مَن حولك مِن السعداء؟ إنهم يعيشون ذات الوقت والزمان الذي تَعيشه.. يُكابدون ما تُكابِد، ويُعانُون ما تُعاني - بل ربما أشدّ - فلستَ وحدك! لكن الفرق بينك وبينهم: أنهم نظروا إلى الحياة بعين التفاؤل؛ فرأوا الجمالَ شائعاً في كلِّ ذراته، وأحسنوا الظنّ بالله، وأيقنوا أن خِيرتَه تعالى لهم خيرٌ من خيرتهم لأنفسهم، وأن قدَرَه فيهم أحسن من تقديرهم لأنفسهم.. وتذكّر دوماً قول الشاعر:

سيفتحُ الله باباً كنت تحسبهُ
شدة اليأسِ لم يُخلق بمفتاحِ

---

(١) الورع لابن أبي الدنيا، رقم (٤٧).

المجلس الثالث والأربعون بعد المائتين
(التجمّل بالعلم)

وعظَ سيدُ القراء، أبو المنذر أبيُّ بن كعب رضي الله عنه الناس فقال: «**تعلَّموا العلمَ واعمَلوا به، ولا تَتَعلَّمُوه لتتجمَّلوا به؛ فإنه يُوشِك - إن طال بكم زمان - أن يُتَجمَّل بالعلم كما يَتجِّمل الرَّجلُ بثوبِه**»[١].

هكذا يوصي هذا العالم بهذه الوصية، ويعظ بهذه الموعظة؛ مذكراً بالغاية التي لأجلها يُتعلّم العلم، ويراد من طلبه.

ولكأنما كان أُبيّ بن كعب ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، حين وصف حال طائفة من الناس، همّه في الطلب أن يتجمل به في المجالس، أو ليَتصدر فيها، أو ليُشار إليه، أو ليَصرِف وجوهَ الناس إليه، نعوذ بالله من ذلك.

ولأجل هذا تتابعت كلمات السلف الصالح في تقرير هذا المعنى - أعني: الإخلاص في طلب العلم، وقصد العمل به - نصحاً للأمة، ولخاصتها من طلاب العلم وشُداتِه.

يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن الناس أحسنوا القولَ كلهم، فمن وافق قولُه فعلَه فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قولُه فعلَه فإنما يوبِّخ نفسه».

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٣).

وروي عن علي ﷺ أنه قال: «يا حملة العلم! اعملوا به؛ فإنما العالم من عَلِم ثم عمل، ووافق عملُه علمَه، وسيكون أقوامٌ يحملون العلمَ لا يجاوز تراقِيَهم! تخالف سريرتُهم علانيتَهم ويخالف عملُهم علمَهم، يقعدون حِلَقاً فيباهي بعضُهم بعضاً، حتى إن الرجل ليَغضب على جليسه أن يجلس إلى غيرِه ويَدَعه! أولئك لا تصعد أعمالُهم في مجالسهم تلك إلى الله ﷻ».

وقال مالكٌ: بلغني عن القاسم بن محمد أنه قال: «أدركتُ الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل». ويروى أن سفيان الثوري رحمه الله كان ينشد متمثلا:

إذا العلم لم تعمل به كـان حجة
عليك ولم تُـعـذر بـما أنـت جاهله
فـإن كـنـتَ قـد أوتـيـتَ عـلـماً فإنما
يصدِّق قـولَ المـرء ما هو فاعلُه[1]

والمأثور عن السلف في هذا الباب أكثر من أن يُحصَر، والموفَّق من نفعه الله بقليلِ التذكرة عن طويلها.

(١) ما سبق من آثار عن السلف ينظر فيه: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٩٨).

المجلس الرابع والأربعون بعد المائتين
(مناسبات غير مؤجلة)

إذا كانت العبارةُ الشهيرةُ: «لا تؤجِّل عمل اليوم إلى الغد» حاضرةً في حياة الناجحين؛ فإنها في المناسبات والمواعيد التي لا تحتمل التأجيل أكثر حضورًا وأثَراً.

أحدُ الأصدقاء كان له موعدٌ مع وفدٍ سيستقبلهم في بيته، ففجَأه خبرُ وفاة صديقٍ له، فذهب إلى جنازته ووكّل من يستقبل الوفد، فلما عاد إلى البيت متأخّراً اعتذر منهم، وبيّن السبب وقال: الموت ليس له موعدٌ مسبَق!

وهذه الجملة الأخيرة - الموت ليس له موعد مسبَق - تُترجِم الحكمة في التعامل مع أمثال هذه المواقف، فالإنسان لا يموت إلا مرةً واحدة، وأهلُ البيت - في مصابهم - بحاجة لمن يُسلّيهم ويُصبّرهم، ويخفّف عنهم، وإذا ذهب وقتُ الصدمةِ الأولى؛ لم يكن للتعزيةِ والتسلية موقعَها المناسب.

ومثل ما قيل في مناسبة العزاء يُقال في مناسبة الزواج؛ فهي نادرة التكرر، فبالإضافة إلى المعنى الشرعي المتعلق بإجابة الدعوة بشروطها المعتبرة، ثمّةَ معنىً آخر يتعلق بكون هذه المناسبة من مناسبات العُمر، وقد يكون الحاضرُ لا يُلقي بالاً لأثر حضوره - لكثرة حضوره للمناسبات، وعنايته بها - بينما صاحب الدعوة يعني له ذلك الشيءَ الكثير.

والملاحَظ أن غالبَ الذين يؤجّلون أعمالهم يعيشون فألاً بشكلٍ ملحوظ - فيما يخصُّ قدرتهم على الإنجاز، وأنهم مسيطرون على الوقت والمهام... الخ - ثم لا يشعرون إلا والأعمال متراكمة، والإنجاز دون المطلوب بكثير، أو ربما خرج الإنجاز مشوّهًا.

والموفَّق من أنزل الأعمال والأحوال منزلتها، وبادر الفُرَص، وراعى المناسبات والأوقات، فتلك علامةُ سدادٍ ورشد، ويُدرك بها المرءُ خيراً كثيرًا، وبضدّه تفوتُ عليه من مقامات الكمال بحسب تفريطه وتقصيره.

المجلس الخامس والأربعون بعد المائتين
(المؤمن بين أربع أحوال)

يقول أُبيُّ بنُ كعب رضي الله عنه: «**المؤمن بين أربع: إن ابتُلي صَبَر، وإن أُعطي شكر، وإن قال صَدَق، وإن حَكَم عَدَل**»(١).

- أصل هذه الموعظة مِن أُبي بن كعب رضي الله عنه، جاءت في سياق تفسيره لقول الله تعالى في سورة النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

- قال رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: «مثل المؤمن قد جعل الإيمانَ والقرآنَ في صدره كمشكاة، قال: المشكاة: صدره» ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ قال: «والمصباح القرآن والإيمان الذي جعل في صدره». ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ قال: والزجاجة: قلبه،

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ قال: فمثله مما استنار فيه القرآن والإيمان كأنه كوكب دُرِّي: مضيء.

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٥٥).

﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ والشجرة المباركة: الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له.

﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قال: فمثله مثل شجرة التف بها الشجر، فهي خضراء ناعمة، لا تصيبها الشمس على أي حال كانت، لا إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك هذا المؤمن قد أُجير من أن يُصيبَه شيءٌ من الغِيَر، وقد ابتلي بها، فثبته الله فيها، فهو بين أربع خلال: **إن أُعطي شَكَر، وإن ابُتلي صبر، وإن حَكم عدل، وإن قال صَدَق**؛ فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات.

قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور: فكلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة في الجنة»(١).

نسأل الله أن يجعلنا ممن نوّر اللهُ بصائرهم وأقوالهم وأعمالهم.

المجلس السادس والأربعون بعد المائتين (المعروف الممزق)

جاء محتاجٌ إلى رجلٍ يَعْرِضُ عليه الشفاعة في تفريج كربته؛ فبكى الرجل! فتعجب صاحبُ الحاجة من بكائه! واعتذر إن كان سبّب له حرَجاً.. فقال: بل أبكي فرحاً بفضل الله تعالى أن اختارني من بين الناس لأكون موضعاً لقضاء حاجتك! يا لهذه النفوس الكبيرة! التي قلبت إحسانها فجعلت الطالبَ مُحسناً!

ووالله إنني كلما تذكرت هذا الموقفَ أشعر أنني أتنفس الفخر، وفي المقابل أشعر بالأسى والحزن العميق؛ كلما سمعتُ شخصاً - ممن يقصده الناس في حوائجهم - يمزّق معروفه، ويبدِّده بالحديثِ عنها في المجالس، ومَنْ الذي قابل معروفه ومَنْ الذي تنكّر له!.

ومن كمال عقل الإنسان، وتمام مروءته: أن يستقل كثيرَ المعروف من نفسه، وأن يستكثر قليل المعروف من غيره، وأن يكمّل معروفه بإخفائه وتعجيله، كما قيل: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا صنع إليك فانشره.

ولا أدري هل يشعر المانُّ بمعروفه، والمتحدّثُ به أنه أتعب نفسَه بلا جدوى، وأذهب أجرَه، وأوصد البابَ على نفسه؟ فإن الناس متى علموا أنه من أهلّ المنّ تجنّبوه! فمَنْ مَنَّ بمعروفه أسقط شكره.

ويذكر أن ابن سيرين سمع رجلا يقول لرجل: فعلت إليك وفعلت! فقال له: اسكت فلا خير في المعروف إذا أُحصِي![1]

ولا دواء لهذا الداء إلا أن يستشعر - مَنْ أكرمه الله بنفع الخلق - أن المنّة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً لله وحده، فاللهُ هو المانّ عليه إذْ استعمله في الإحسان، والمنةُ لله على ذلك الشخص أن سخّر له من ينفعه في دينه أو دنياه، وأن يتذكر أيضاً أن هذا عمل صالح لا يقبله الله إذا لم يكن خالصاً، فلا يطلب ممن أحسن إليه جزاء ولا شكورا، كما قال الأبرارُ - جعلنا الله منهم -: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

قال ابن تيمية رحمه الله: «ولهذا كان المحققون للإخلاص لا يطلبون من المُحْسَنِ إليه لا دعاءً ولا ثناءً ولا غير ذلك، فإنه إرادةُ جزاءٍ منه؛ فإنّ الدعاءَ نوعٌ من الجزاء على الإحسان والإساءة؛ كما جاء في الحديث: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه؛ فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه»[2]؛ ذلك ليبقى أجرهم على الله تعالى، ولا يكونوا قد اعتاضوا منه، كما كانت عائشة رضي الله عنها إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للمرسل: اسمع ما يدعون به لنا، حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا، ويبقى أجرنا على الله تعالى»[3].

اللهم آت نفوسنا تقواها، زكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص: ٢٠٤).

(٢) سنن أبي داود ح(١٦٧٢)، وصححه ابن حبان ح(٣٤٠٨)، والحاكم ح(٢٣٦٩)، والعراقي في المغني (ص: ٢٦٤).

(٣) بيان التلبيس (١/ ٥٢٧).

المجلس السابع والأربعون بعد المائتين
(الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة)

يقول أُبي بن كعب رضي الله عنه: **«عليكم بالسبيل والسنة، وإن اقتصاداً في سُنة وسبيل خيرٌ من اجتهاد في غير سنة وسبيل، فانظروا أعمالَكم، فإن كانت اقتصاداً واجتهاداً فلتكن على منهاج الأنبياء وسُنَّتهم»** (١).

صدق أُبَيٌّ رضي الله عنه! «وإن اقتصاداً في سنة وسبيل؛ خيرٌ مِن اجتهاد في غير سنة وسبيل».

ذلك أن طريق التعبد لله تعالى موقوف على الدليل الهادي، وهذا لا يكون إلا بنصٍ من كتاب أو سنّة، فوجب الاقتصار عليهما.

ولو فُتح بابُ الاجتهاد في هذه الأبواب؛ لتشتت الناسَ، ولأصبح لكلٍ منهم طريقٌ يتعبد لله به، ولاقتحم مَن شاء أن يَقتحم جنابَ الشريعة، وصار كلُّ مَن شاء أن يشرّع شرّع! ولذهبت حكمةٌ ومقصدٌ من أعظم مقاصد الشرع، وهو: جمع الناس في عبادة ربهم.

ولهذا تواردت كلمات السلف في تقرير هذا المعنى، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «اقْتِصَادٌ فِي سُنَّةٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(٢).

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٢٢٤) باختصار.

(٢) السنة للمروزي: (ص/ ٣٠).

وروي عن أبي الدرداء ﷺ قال: «اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة، إنك إن تَتَّبِع خيرٌ من أن تَبتَدِع، ولن تُخطِئ الطريقَ ما اتبعتَ الأثرَ»(١).

ولهذا كان مِن فقه الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز أنه كتب إلى الناس: «أنه لا رأي لأحدٍ مع سُنة سَنَّها رسولُ الله ﷺ»(٢).

ولو أن الذين ابتدعوا ما ابتدعوا في دين الله بزعم تقريب الدين للناس، وتحبيبهم فيه؛ راعوا هذه القاعدة لعلموا أنهم مخطئون، قد فتحوا على الأمة أبواباً من الاجتهادات الباطلة، التي زادت الأمة فرقةً وشتاتاً، حتى إن الإنسان المتأمل ليجد في مخالفة هذه الموعظة أثرَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] فكم تفرقت الأمة بسبب هذه البدع، كلٌّ يدّعي أنه مصيب، وأنه يريد تعبيد الناس لله بطريقته التي اخترعها!

ولقد شاهد الناس في بعض البلاد الإسلامية كيف صدّعت هذه البدع جدارَ جماعة المسلمين في أقدس البقاع، وهي المساجد، التي شُرعت الجماعةُ فيها لأجل جملة من المقاصد، منها: الاجتماع، فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) السنة للمروزي: (ص/ ٣٢).
(٢) السنة للمروزي: (ص/ ٣١).

المجلس الثامن والأربعون بعد المائتين
(هؤلاء أكثر الناس ذنوبا)

من مواعظ سلمان الفارسي رضي الله عنه - في التحذير من كثرة الكلام - قوله: «**أكثرُ الناس ذنوباً يومَ القيامة، أكثرُهم كلاماً في معصيةِ الله**»[(١)]، ولعل سلمان رضي الله عنه أخذ هذا المعنى مِن قوله ﷺ في وصيته لمعاذ رضي الله عنه بالحذر من لسانه: «كف عليك هذا»، فقلت: يا نبي الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمُّك يا معاذ! وهل يَكُب الناسَ في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائدُ ألسنتهم»[(٢)].

ودخل في قول سلمان رضي الله عنه: «أكثرُ الناس ذنوباً يوم القيامة، أكثرهم كلاماً في معصية الله» كل معاصي اللسان، وما أكثرها! فالغيبة، والنميمة، والكذب، والسخرية، وغيرها من آفات اللسان! ومن تأمل في الغيبة فقط؛ أدرك حقيقة هذا المعنى!

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «فكم أفسدت الغيبةُ من أعمال الصالحين! وكم أحبَطتْ من أجور العاملين! وكم جلبتْ من سخط رب العالمين! فالغيبةُ فاكهة الأرذلين، وسلاح العاجزين، مضغةٌ طالما لفظتها ألسنةُ المتقين، ونغمةٌ طالما مجّتها أسماعُ الأكرمين»[(٣)].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠).
(٢) سنن الترمذي ح(٢٦١٦) وقال حسن صحيح.
(٣) التذكرة لابن الجوزي (ص: ١٢٤).

فالله الله لنجتهد في حفظ ألسنتنا من آفاتها، خاصةً الغيبة التي أحرقت مِن الحسنات ما شاء الله أن تُحرِق!

وليحذر العبدُ من اعتيادها؛ فإن المعاصي اللسانية «إذا صارت للعبد فإنه يَعُز عليه الصبرُ عنها، ولهذا تجد الرجلَ يقوم الليل، ويصوم النهار، ويَتورّع من استناده إلى وسادةِ حريرٍ لحظةً واحدة، ويُطلِق لسانَه في الغيبة والنميمة والتفكُّه في أعراض الخلق»[1].

نعوذ بالله أن تقودنا حصائدُ ألسنتنا إلى موارد الهلاك في الدنيا والآخرة.

(١) عُدة الصابرين (ص: ٥٦).

المجلس التاسع والأربعون بعد المائتين
(ما حسَبُك؟)

ومن مواعظ سلمان رضي الله عنه أنه سُئل: ما حَسَبُك؟ فقال: «**كَرَمِي ديني، وحَسَبي التراب، ومِن التراب خُلِقت، وإلى التراب أصير، ثم أُبعَث وأصير إلى الموازين، فإن ثقُلت موازيني فما أكرم حَسَبي وما أكرمني على ربي يُدخلني الجنة، وإن خفَّت موازيني فما أَلأَم حَسَبي! وما أهونني على ربي، ويعذبني، إلا أن يَعودَ بالمغفرة والرحمة على ذنوبي**»[1].

لكأني بذلك السائل الذي سأل سلمان رضي الله عنه أراد إحراجه، أو أراد أن يستنطقه ليرى رأيَه في هذه الأحساب والأنساب التي يتفاخر بها الناسُ، فأجابه بهذا الجواب الذي يُخرِسه إن كان شامتاً، وينفعه إن كان راغباً.

وصدق سلمانُ: «**وإن خفَّت موازيني فما أَلأَم حَسَبي! وما أهونني على ربي**»!

وأيُّ شيءٍ نفَعَ أبا لهبٍ أَن كان عمَّ النبي ﷺ حين أُدخلتْ روحُه النار منذ فارقَ هذه الحياةَ، وفي الآخرة أشدّ وأدهى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ١ - ٥]؟

وماذا ضرّ زيد بن حارثة أنْ كان مَوْلاً من موالي نبينا ﷺ، ويختص بأن يكون حِبّ

---

(١) الزهد الكبير للبيهقي رقم(٧٦٣).

رسول الله ﷺ، وأن يكون الصحابيَّ الوحيد الذي ذُكر اسمُه في القرآن الكريم؟!

وكذلك يُقال في حقِّ بلال رضي الله عنه، وصدق الشاعرُ حين قال:

خَـذَلَـتْ أبـا جـهـلٍ أصـالـتُـه

وبـلالُ عـبـدٌ جـاوز الـسُّـحُـبـا

وقريبٌ مِن هذا المعنى الذي قرَّره سلمانُ رضي الله عنه أن أبا الدرداء لما كَتَب إلى سلمان الفارسي: أن هَلُمَّ إلى الأرضِ المقدسة، فكتب إليه سلمان: إن الأرضَ لا تُقدِّس أحداً: وإنما يقدِّسُ الإنسانَ عملُه.

وصدق رضي الله عنه.. إنما يقدِس الإنسانَ عملُه، وهو الذي عليه مدارُ الحساب، والنجاة أو الهلاك، فلينظر كل واحدٍ في عملِه، ولا يَركَنَنَّ إلى ما لا ينفعه يومَ يلقى اللهَ عز وجل، بل قد يَضره.

إن من المحزن أن بعض الناس لا يترك فرصةً من فرص الطعن في الأنساب أو الفخر بالأحساب - وهما من خصال الجاهلية - وازداد هذا مع وسائل التواصل الاجتماعي، فليتق الله من يجدد شعائر الجاهلية، وليتذكر أن الميزان عند الله إنما هو بالتقوى، فاللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيك.

المجلس الخمسون بعد المائتين
(حين يُنْزع الحياء!)

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه - في أحد مواعظه -: «**إن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ شراً أو هلَكَةً نزع منه الحياءَ، فلم تَلقَه إلا مقيتاً مُمَقّتاً**»[١].

هذا الكلام من سلمان رضي الله عنه عن الحياء هو من فقهه، فإن «الحياء لا يأتي إلا بخير» كما قال ﷺ[٢]، ومفهومه: أن ذهابه يعني مجيء الشر كله، بل ثبت في الصحيحين أن الحياء من خصال الإيمان التي لا يتم إيمانُ عبد الا بها؛ قال ﷺ: «الإيمان بِضعٌ وستون شعبة، والحياءُ شعبةٌ مِن الإيمان»[٣].

وحسب المؤمن ليدرك مكانة هذا الخُلُق العظيم؛ أن ينظر في آثاره حينما يتخلق العبدُ به، وأن ينظر في ويلاته إذا نُزِع من الإنسان - والعياذ بالله -! ذلك أن من **أعظم فوائده:**

أنه يحجز العبدَ عن معاصي الرب تبارك وتعالى؛ فالحييّ حينما يَهِمُّ بمعصية؛ يتذكر قولَ ربه جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ويتذكر قوله الله جل في علاه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]! ولو لم يكن للحياء من فضيلة سوى هذه لكفى! ولذا كان قليلو الحياء لا يُبالون بمعصية الله عز وجل

(١) حلية الأولياء (١/ ٢٠٤).
(٢) البخاري ح(٦١١٧)، مسلم ح(٣٧).
(٣) البخاري ح(٩)، مسلم ح(٣٥).

- وهم في ذلك درجات كثيرة - مصداقاً لقول المصطفى ﷺ: «**إن مما أدرَك الناسَ مِن كلام النبوةِ إذا لم تَستَحِ فاصنَع ما شئتَ**».

ولذلك كان مِن أقبح آثار المعاصي: ذهابُ الحياء الذي هو مادةُ حياة القلب، وهو أصلُ كلِّ خير، وذهابُه ذهاب الخير أجمعه! يقول ابن القيم رحمه الله: «فمَن لا حياءَ له ميتٌ في الدنيا، شقيٌّ في الآخرة... ومن استحى من الله عند معصيته؛ استحيا اللهُ من عقوبته يوم يلقاه، ومَن لم يستح من معصيته؛ لم يستح مِن عقوبته» اهـ[1].

ومع فضيلة هذا الخلق وأثَرِه في حياة المسلم، إلا أن من المؤسِف أن يرى المسلمُ الغيورُ مظاهرَ كثيرة، وصوراً متنوعة مِن خرْق هذا الخلق، وتحطيم أسواره! فبعضُ الناس لا يبالي **بالمجاهرة بالمعصية أمام الناس**؛ بحُجة أن هذا من الشجاعة والصراحة أن يكون المظهِر كالمخبِر! وأقبح منه أن يدَّعي أن المجاهرة وعدم الاهتمام بالناس مِن الرجولة!! مساكين هؤلاء! لقد طُمِست بصائرُهم، فرأوا الباطلَ حقاً، والحقَ باطلاً.

ومن ذلك: ما تفعله بعضُ المسلمات مِن سُفور ونزع للحجاب الشرعي، الذي أجمع العلماءُ على وجوبه، وسبحان الله! ما قيمةُ المرأةِ بلا حياء؟! وصور خَرْق الحياء في المجتمع كثيرةٌ وللأسف، والله المستعان، نسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين.

(١) الجواب الكافي: (٧٦،٧٥).

المجلس الواحد والخمسون بعد المائتين
(الحسنة والسيئة بين الإسرار والإعلان)

يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «إذا أسأتَ سيئةً في سَريرةٍ فأحسِن حسنةً في سَريرَةٍ، وإذا أسأتَ سيئةً في علانيةٍ فأحسِن حسنةً في علانيةٍ؛ لكي تكون هَذه بِهذه»[١].

ما أكثرَ ما يقع منا التقصير! فكم هو حسنٌ أن نُتبِع السيئةَ الحسنةَ؛ لعلها تمحوها، والأجمل أن يكون هذا كما قال سلمان؛ فسيئةُ السِّر تمحوها حسنةُ السِّر، وكذلك سيئةُ العلن.

وفي هذه الموعظة من الفقه: أنه ليس من العدل أن يُخطئ الإنسانُ في العلن، ولا يَعتذر من ذلك إلا سرّاً.

ولهذا كان مِن فقه الأئمةِ - رحمهم الله تعالى - أنه إذا صدرتْ فتوى عن أحدٍ منهم، واشتهرت، فإنه يُعلن تَراجُعه علناً، ومِن ذلك: تراجُع الإمامِ أحمد عن فتواه المشهورة بوقوع طلاق السكران، فإنه صرح رحمه الله بتراجعه.

وفي عصرنا الحاضر، ومع انتشارِ وسائلِ التقنية التي تَنقل القولَ في ثوانٍ معدودة؛ فيتعين على مَن له قولٌ مقبول، أو حضورٌ إعلامي - خاصة من أهل العلم - أن يُراعوا هذا المعنى المهم، وأن يكون الأصل هو التريّث في القولِ والنقلِ، فإن تبين الخطأُ كان الإنسانُ شجاعاً في الاعتراف بالخطأ، وبيانِ الصواب، وصدَق أميرُ المؤمنين

(١) صفة الصفوة (١/ ٢٠٨).

عمر ﷺ حين قال لأبي موسى الأشعري: «لا يَمنعنَّك قضاءٌ قضيتَه ثم راجعتَ فيه نفسك، فهُديتَ لرشده أن تَنقُضَه؛ فإن الحق قديم لا يَنقُضه شيءٌ، والرجوعُ إلى الحق خيرٌ مِن التمادي في الباطل»[1].

(١) شرح السنة. للبغوي (١٠/ ١١٤).

المجلس الثاني والخمسون بعد المائتين
(وصايا نفيسة)

استوصى رجلٌ سلمان الفارسي رضي الله عنه، فقال له: أوصني.

قال: «لا تَكلَّم»!

قال: ما يستطيع مَن عاشَ في الناسِ أن لا يَتكلم!

قال: «فإن تكلمتَ فتكلَّم بحقٍ أو اسكُت»!

قال: زدني.

قال: «لا تغضب».

قال: أمرْتَني ألا أغضب، وإنه ليَغشاني ما لا أملِك!

قال: «فإن غضبتَ فامْلَك لسانَك ويدَك».

قال: زدني.

قال: «لا تُلابِس الناسَ» - أي لا تخالطهم خلطة كثيرة -.

قال: ما يَستطيع مَن عاش في الناس أن لا يُلابِسهم.

قال: «فإن لابَستَهم فاصدُق الحديث، وأَدِّ الأمانةَ»[١].

(١) الصمت. لابن أبي الدنيا ص:(٢٧٦).

ما أجمل طلب الوصية من العلماء! وما أجمل الوصيةَ حين تَصدُر من العالم العاقلِ المجرِّب!

فأنت تلاحظ أن سلمان ﷺ خرجتْ نصائحُه في قالَبِ النهي المبكِّر عن بعضِ ما عَلِمَ مِن حالِ الرجلِ أنه لن يفعله ابتداءً، لينتقل بعد ذلك إلى لُبِّ الوصيةِ في الموضوعات الثلاث التي يُبتَلى بها عمومُ الناس.

فحين أوصاه بعَدمِ الكلام، واعتذرَ بصعوبةِ ذلك؛ أوصاه قائلاً: «فإن تكلمتَ فتكلَّم بحقٍ أو اسكت»! وهي تُطابِق تماماً وصيةَ النبي ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليَصمت»[(١)].

وحين أوصاه بعدم الغضب؛ فهي مطابقة للوصية النبوية: «لا تغضب»[(٢)]! فحذّره مِن تَبعةِ الغضب إن وَقَع، وأن يَحذر ذلك فقال: «فإن غضبتَ فاملِك لسانَك ويَدَك»، ذلك أن عامّة مَن يغضبون يَقع منهم بألسنَتِهم وأيديهم ما يُنفِّسون به عن غضَبِهم زعموا!

وكم مِن بيت هُدمت أركانُ حياته الأسرية بسببِ طلاقٍ أطلقه الرجل لحظةَ غَضَب!

وكم إنسانٍ خسر علاقاتٍ وصداقاتٍ بسبب كلمةٍ غيرِ موزونة أطلقها لحظةَ غضب!

وكم مِن حالاتِ قتل وقعتْ بسبب إنفاذِ جرعةِ الغضب التي تتلظى نارُها في الجوف!

وكم تَلَفيات ماليةٍ حصلت بسبب غضبةٍ ترجمها الغاضب بسوء فِعاله!

---

(١) البخاري ح(٦٠١٨)، مسلم ح(٤٧).

(٢) البخاري ح(٦١١٦).

ثم ختم سلمان وصيته للرجل بقوله: زدني. قال: «لا تلابس الناس» - أي لا تخالطهم خلطة كثيرة - قال: ما يستطيع من عاش في الناس أن لا يلابسهم، قال: «فإن لابستهم فاصدق الحديث وأدِّ الأمانة».

ومن المعلوم أن سلمان رضي الله عنه لا يريد من الرجل أن يفارق الناس كليةً، ولكنه أراد أن يوطّئ له النصيحة عند المخالطة، وهي أن يخالطهم بأشرفِ الأخلاق، وهما: الصدق والأمانة، فالصدق في الأقوال، والأمانة في رد الحقوق، فإن غالبَ أسباب تصرُّم العلاقات، ووجود الوحشة، وارتفاع الناس للقضاء في الخصومات عائد إلى الإخلال بهذين الأمرين، وما أوحش المجتمعَ إذا قلّ فيه الصادقون، وكثُر فيه الخائنون للأمانات!

المجلس الثالث والخمسون بعد المائتين
(إنْ ثقل الميزان فيا بشراك!)

تفاخر أحد القرشيين عند سلمان الفارسي بنسبه، فقال له سلمان ﷺ: أن بعض أفراد قبيلةٍ قريش تفاخر عند سلمان الفارسي ﷺ يوماً، فقال سلمان: «**لكنني خُلِقت مِن نطفةٍ قذرة، ثم أُعود جيفةً منتِنة، ثم آتي الميزان، فإن ثَقُلَ فأنا كريمٌ، وإن خَفَّ فأنا لئيم**»[(١)].

هكذا هم العلماءُ يَعِظون بأقوالهم وبمواقفهم، ولسانُ حالِ سلمان يقول:

أبي الإســـلام لا أبَ لي ســواه
إذا افــتــخــروا بــقَــيــسٍ أو تميمِ

ولا ريب أن النَّسَب الشريفَ إذا قارنته التقوى كان نوراً على نور، أما إذا تجرَّد منها فهذا إلى الذم أقرب منه إلى المدح، فالإنسان لا اختيارَ له في نَسَبه، ولهذا قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وليس في كتاب الله آيةٌ واحدةٌ يَمدح فيها أحداً بنَسبه، ولا يَذُمُّ أحداً بنَسَبه، وإنما يَمدحُ الإيمانَ والتقوى، ويذمُ بالكفرِ والفسوقِ والعصيان»[(٢)] انتهى كلامه رحمه الله.

ومما يَشهد لما قاله شيخُ الإسلام: أن اللهَ تعالى أنزلَ سورةً كاملةً في ذم أبي لهبٍ لكُفرِه وعداوتِه للنبي ﷺ، ونهى اللهُ نبيَّه ﷺ أن يَطرد المؤمنين مِن ضَعَفَةِ أصحابِه وإن

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٣).
(٢) الفتاوى الكبرى (١/ ١٦٤).

كان القصدُ من ذلك: الرغبة في كَسْب قلوبِ أكابرِ قريش، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال له في الآية الأخرى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وكلامُ سلمان الفارسي رضي الله عنه أراد به أن يُبين لهم هذا المعنى الذي تضافرت عليه النصوصُ، وأراد به أن ينقلهم إلى هناك..حيث لا أنسابَ ولا قراباتٍ تغني العبدَ إذا قَدِم على ربه مفلِساً، فقال هذه الكلمة المؤثِّرة: ثم آتي الميزان، فإن ثَقُلَ فأنا كريم، وإن خفَّ فأنا لئيم!

إي والله! إن ثقُلت موازينُنا غداً إذا لقينا ربنا فمَن أكرم مِنا؟ وإن خفّت فلا ألأم مِنا.

اللهم إنا نسألك أن تستر عيوبنا، وتثقّل موازيننا، وتيمِّن كتبنا، وتدخلنا الجنة برحمتك.

المجلس الرابع والخمسون بعد المائتين
(موعظة في لحظة انكسار)

حضر أبو أمامة الباهلي ﵁ جنازة، فأراد تذكير الناس بهذا المصير الذي لا بدّ منه، فقال: «يا أيها الناس! إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزلٍ تقتسمون فيه الحسنات والسيئات، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى المنزل الآخر، وهو هذا - يشير إلى القبر - بيتِ الوحدة، وبيتِ الظلمة، وبيتِ الدود، وبيتِ الضيق إلا ما وسع الله.

ثم تنتقلون منه إلى مواطنِ يوم القيامة، فإنكم لفي بعضِ تلك المواطن، حتى يغشى الناسَ أَمْرٌ مِن أمرِ اللهِ، فتبيض وجوهٌ وتَسودّ وجوهٌ.

ثم تنتقلون منه إلى منزلٍ آخر؛ فيَغشى الناسَ ظلمةٌ شديدة، ثم يُقسّم النور، فيُعطى المؤمنُ نوراً ويُترَك الكافرُ والمنافقُ فلا يُعطَيان شيئاً، وهو المثَل الذي ضربه اللهُ تعالى في كتابه: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]، ولا يَستضيء الكافرُ والمنافقُ بنور المؤمن، كما لا يَستضيء الأعمى ببصرِ البصير، يقول المنافق للذين آمنوا ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] وهي خدعة الله التي خدع بها المنافق، ثم تلا: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فيَرجعون إلى المكان الذي قُسِمَ فيه النور، فلا يَجدون شيئاً! فينصرفون إليهم وقد ضُرِب بينهم بسُورٍ له بابٌ باطِنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب! ينادونهم: ألم نكن معكم؟ نُصَلي بصَلاتكم،

ونغزو بمغازيكم؟» ﴿قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] تلا إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥]»[1].

فرضي الله عن أبي أمامة، ونفعنا بما سمعنا.

(١) مستدرك الحاكم (٢/ ٤٣٤)، وينظر: الأهوال؛ لابن أبي الدنيا (٧٨)، الأسماء والصفات؛ للبيهقي (٢/ ٤٣٥).

المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين
(خوف الصحابة من الزيغ)

روى محمدُ بن سيرين، أن أبا هريرة كان يقول في آخرِ عمره: «**اللهم إني أعوذُ بك** أن أَزني، **أو أعمَلَ بكبيرةٍ في الإسلام، يقول بعضُ أصحابه: يا أبا هريرة! ومثلُك يقول** هذا ويخافُه **وقد بلغتَ مِن السِّن ما بلغتَ، وانقطعتْ عنك الشهواتُ، وقد شافَهتَ** النبيَّ صلى لله عليه وسلم **وبايعتَه، وأخذتَ عنه؟! قال: ويحَك! وما يُؤَمّنني وإبليسُ حيٌّ؟!**»(١).

الله أكبر! مَن كان بالله أعلم؛ كان منه أخوف!

هذا صاحبُ رسول الله ﷺ، يحدِّث عن خوفه من الزلل في وَحَل الشهوات، مع تقدُّم سِنّه، وسابقته في العلم والعمل! لم يأخذه الغرورُ، ولا مَزيدٌ من ثقةٍ واطمئنان بسلامته من تزيين الشيطان وتسويله، وهو في هذه السن التي أدبر فيها عن الدنيا وأقبل على الآخرة، بل تعلّق بالحي القيوم، الذي بيده نواصي الخلق، وقلوب العباد.

وإذا كان هذا حاله وهو في شيخوخته؛ فماذا يقول الشبابُ الذين قد يغترُّ بعضُهم ببقيةِ صلاحٍ وخيرٍ فيه! والشهوةُ قوية، والداعي لفعلها شديد؟!

إن هذه الموعظة العملية من أبي هريرة لتُذكِّر بالموقف الذي رواه عبدُالله بنُ أحمد بنِ حنبل، حيث يقول: «حضَرتْ أبي الوفاةُ، فجلست عنده، وبيدي الخرقة -

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ح(٨٣٠).

وهو في النزع - لأَشُد لحييه، فكان يَغرق حتى نظن أنْ قد قضى - أي مات - ثم يفيق، ويقول بيده: لا بَعدُ لا بَعدُ! ففعل هذا مرة، وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له: يا أبتِ! إيش هذا الذي قد لهجتَ به في هذا الوقت؟ فقال لي: يا بُني! ما تدري؟ فقلت: لا! فقال: إبليسُ لعنه الله، قام بحِذائي عاضاً على أنامله يقول: يا أحمد! فتَّني، وأنا أقول: لا بَعدُ! حتى أموت»(١).

فلله تلك النفوسُ العالمةُ بحقيقةِ نفوسِها، وبضَعفها، وحاجتها لتثبيت الله تعالى في كل لحظة وأوان! ولله تلك القلوبُ التي أيقنت أن الهلاك كلَّ الهلاك، والخِذلانَ كلَّ الخذلانِ أن يَكِلَ الله العبد إلى نفسه.

والعاقل يَعتبر بمثل هذه المواعظ العملية، ويتساءل: إذا كان هذا حالُ هؤلاء الصحْب والأئمة الكرام، فماذا يقول من هو أقلّ منهم علماً وعملاً؟!

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ١٨٣).

المجلس السادس والخمسون بعد المائتين
(هذه هي التقوى)

سأل رجلٌ أبا هريرة ﷺ فقال: ما التقوى؟ فقال: «أخذتَ طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم قال: فكيف صنعتَ؟ قال: إذا رأيتُ الشوكَ عدَلتُ عنه أو جاوزْتُه أو قَصُرتُ عنه! قال: ذاك التقوى»(١).

ما أجمل الوعظ حين يقرِّب بالمثال الذي يُرسّخ المعنى! وما أجمل تقريرَ المعاني الكبار بمثل هذا التيسير! بدلاً من التعاريفِ المعقَّدة، والحدودِ التي تشتِّت الأذهانَ عن بلوغ الغاية من هذه المعاني...! وهكذا كان علمُ السلف الصالح رحمهم الله.

ومما يُلحَظ في موعظة أبي هريرة: تشبيهه المعاصي بالشوك، وتشبيه تجاوزها بالطاعة! ولله ما أصوبه من تشبيه! فإن للمعاصي وخزاً يؤثِّر على القلوب، كما أن للشوك وخزاً وألماً على أقدام الماشين عليه، يَشعر بهذا من كانت قلوبهم حيّة؛ تشعر بألم الذنب ووخزه.

لكن ما الحيلة فيمن ينزل في أوديةَ المعاصي ليلاً ونهاراً ولا يَشعر بوخز الشوك! إن التقوى أعظمُ مطالبِ الصالحين، وغايةُ مراد العابدين!

ولا عجب فإن القارئ لكتاب الله لا يجد عناءً في إدراك الثمرات والأجور التي وعدها اللهُ تعالى لعباده المتقين.

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد رقم(٩٦٣).

كما لا يجد عناءً في معرفة ما يناله المتقون مِن كراماتٍ وفضائلَ في الدنيا والآخرة! ألسنا نقرأ في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]؟ ألا يكفي أن الله يحبهم؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤].

المتقون هم أهل معية الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

العاقبة لهم: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

هم وفدُ الله الذين نالوا كرامتَه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٥٨].

هم الذين تبقى صداقتهم يوم تتصرم بقية العلائق: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

بل إن الله تعالى نَسَب الجنةَ إليهم! فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٣].

وأخيراً.. أهلُ كرامة الله الذين أعدَّ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلبِ بَشَر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٨].

ليس الشأن أن يَحفظ الإنسانُ مِنا تعريفاً دقيقاً للتقوى، أو اختلافَ العلماء في تعريفها - مع فائدة ذلك وأهميته - بل الأهم أن نُترجِم ذلك واقعاً مُعاشاً، فكم مِن رجلٍ عامّي، وامرأةٍ أُمّية، لا يَعرفون تعريفاً واحداً للتقوى، هم في أعلى قائمة المتقين! وكم من إنسان يَحمل مِن الشهادات ما يَحمل، لو فتّشتَ في قائمة المتقين لم تجده إلا في ذيل القائمة!! بل ربما خرج منها تماماً حينما يكفر بالله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٣].

فاللهم ارزقنا تقواك، وخشيتك في الغيب والشهادة.

المجلس السابع والخمسون بعد المائتين
(العين العوراء)

بعض الناس يمتلك عينين صحيحتين طبياً، لكنهما مريضتان معنويا، وذلك حين تضطرب رؤيته لحقائق الأشياء، ومن ذلك قول أبي هريرة ﵁ قوله: «يُبصِر أحدُكم القذاةَ في عينِ أخيه ويَنسى الجِذْل - أو الجِذع - في عين أخيه»[١].

وهذه الكلمة أراد منها أبو هريرة ﵁ تصحيح وتعديلَ الميزانِ الذي يطيش عند بعضِ الناس - أحياناً - عند تقييمه للأمور، فيبالغ في نقدِ إخوانِه، وتضخيم أخطائهم، وينسى ما يقع فيه هو مما هو مثل أو أشد مما عابَ به إخوانَه!

«وذلك مِن أقبح القبائح، وأفضَح الفضائح، فرحم الله مَن حفظ قلبَه ولسانَه، ولزِم شأنَه، وكفَّ عن عِرض أخيه، وأعرَض عما لا يَعنيه، فمَن حفِظ هذه الوصية دامتْ سلامتُه، وقلَّت ندامتُه، ولله در القائل:

أرى كلَّ إنسانٍ يَرى عيبَ غيرِه
ويَعمى عن العيبِ الذي هو فيه
فلا خيرَ فيمَن لا يَرى عيبَ نفسِه
ويَعمى عن العيب الذي بأخيه»[٢]

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ح(٥٩٢) وقد رُوي مرفوعاً، ولا يثبت. والجِذل: كالجذع وزناً ومعنى.
(٢) فيض القدير (٦/ ٤٥٦).

يقول بكرُ بنُ عبدالله المزني - أحد سادات التابعين رحمهم الله - مبيناً معنى هذه الموعظة من أبي هريرة: «احملوا إخوانَكم على ما كان فيهم كما تُحبّون أن يَحمِلوكم على ما كان فيكم، وليس كلُّ مَن رأيتَ منه سقطةً أو زلةً وَقَع مِن عينيك، فأنت أولى مَن يَرى ذلك منه، - إلى أن قال -: ولا تنظروا في ذنوبِ الناس كالأربَابِ، وانظروا في ذنوبكم كالعبيد، ولا تُعاهِد القذاةَ في عين أخيك، وتَدَع الجِذْع في عينك معترضاً، والله ما عَدَلت»[١].

ومِن لطائفِ استنباط السلف لهذا المعنى مِن القرآن؛ قول قتادة في قوله تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، قال: إذا شئتَ - والله - رأيتَه بصيراً بعيوبِ الناس وذنوبهم، غافلاً عن ذنوبه[٢].اه

وهذه الحال - أعني البصر بعيوب الناس والغفلة عن ذنوبه - إذا وصل إليها العبدُ فهي علامةُ خذلان والعياذ بالله، فليتجنبها الإنسانُ، وليَسأل اللهَ تعالى العافية منها، وعليه أن يبادر إلى خاصّة إخوانه، فيستنصحهم، ويطلب منهم تبصيرَهم إياه بأخطائه، فإن الإنسان - أحياناً - لا يكتشف ما فيه من عيوب؛ إما لأنه لا يَشعر بها أصلاً لقِدَمِها وترسُّخها فيه، أو يظن أنها ليست بعيوبٍ أصلاً.

اللهم بصّرنا بزللنا، وارزقنا الإنصاف من أنفسنا ولغيرنا.

---

(١) ترتيب الأمالي الخميسية للشجري (٢/ ٢٩٩).
(٢) تفسير الطبري (٢٣/ ٤٩٣).

المجلس الثامن والخمسون بعد المائتين
(هكذا يضيع العلم!)

ومن مواعظ أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً جاءه فقال له: إني أريد أن تعلَّم العلمَ، وأنا أخاف أن أضيِّعه ولا أعملَ به! فقال له أبو هريرة: «ما أنتَ بواجدٍ شيئاً أضيَع له مِن تَرْكه»(١).

لله دَرُّ أبي هريرة على هذا الجواب الذي خرج مِن مشكاة العلم الموروث عن معلِّم الناسِ الخير ﷺ.

ذلك أن هذه الشبهة التي عرَضتْ لهذا الرجل - وهي تَعرِض لكثيرين - وهي تركُ العلمِ خشية تضييعه، وعدم العمل، وخشية الاستكثار مِن حجج الله تعالى عليه؛ ليس دواؤها ولا علاجُها في ترك العلم، بل في تعلُّم العلم الذي يَحمل صاحبَه على المحافظةِ عليه والعمل به، وكونه سُلَّماً يَنال به العبدُ خشيةَ الله تعالى.

لكن مشكلةُ بعضِ الناس أنه يَستعجِل ثمرةَ العملِ، ويظن أنها تأتي مباشرةً! وهذا الاستعجال ليس بجيد.

قال ابنُ الجوزي رحمه الله: «وبالعلم يتقوَّمُ قصدُ العلم، كما قال يزيد بن هارون: طلبنا العلمَ لغير اللَّه، فأبى إلا أن يكون لله، ومعناه أنه دَلَّنا على الإخلاص، **ومَن طالبَ نفسَه بقطع مَا فِي طبعِه لم يُمكنه**»(٢).

(١) تاريخ دمشق (٦٧/ ٣٦٧).
(٢) تلبيس إبليس (١/ ٢٨٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«مَن طلب العلمَ أو فعلَ غيرَه مما هو خيرٌ في نفسه لما فيه مِن المحبة له، لا لله ولا لغيره من الشركاء فليس مذموماً، بل قد يُثاب بأنواعٍ من الثواب، إما بزيادةٍ فيها وفي أمثالها فيتنعَّم بذلك في الدنيا، ولو كان كل فعلٍ حسن لم يُفعل لله مذموماً؛ لما أُطعِم الكافرُ بحسناته في الدنيا؛ لأنها تكون سيئات! وقد يكون من فوائد ذلك – وثوابه في الدنيا –: أن يهديه الله إلى أن يتقرَّب بها إليه، وهذا معنى قول بعضهم: طلبنا العلمَ لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، وقول الآخر: طَلَبُهم له نيَّةٌ، يعني نَفسَ طلبِه حسنةٌ تنفعهم، وهذا قيل في العلم لأنه الدليل المرشد.

فإذا طلبه بالمحبة، وحصّله وعرَفَه بالإخلاص، فالإخلاص لا يقع إلا بالعلم، فلو كان طلبه لا يكون إلا بالإخلاص لَزم الدَّور»[1].

والمقصودُ أن مَن عرضت له مثلُ هذه الشبهة التي عَرَضت للرجل الذي سأل أبا هريرة – في شأن طلب العلم – فليداوِها بالطلب، الذي لن يزيده – إن شاء الله – إلا حرصاً على الخير، وتصحيحاً للنية، وتعلقاً به.

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٤)، نقلًا عن: الفروع (١/ ٥٢٤).

المجلس التاسع والخمسون بعد المائتين

(دواء الملال!)

من جميل الحكم التي تروى عن عمرو بن العاص ﵁ قوله: «**لا أَمَلّ ثوبي ما وَسِعني، ولا أملّ زوجتي ما أحسنتْ عِشْرتي، ولا أملّ دابّتي ما حملتْني، إن المَلال مِن سيئ الأخلاق**» (١).

هذه الكلمة مِن عمرو ﵁ تُشكّل قاعدةً مِن قواعدِ السعادة لمن تأمّلها، فإن الملاحَظ أن بعض الناس يصنع في حياته ألواناً مِن التعاسة بسبب كثرةِ ملالته، وسيطرةِ هاجس التجديد المتكرر، وغلَبَة النظرة المثالية في حياته، وفي علاقاته الاجتماعية، وفي أثاثه ومقتنياته!

فأما المقتنيات فعبّر عنها عمرو بالثوب، فهو لا يَمل مِن لُبسِه والاكتساء به ما دام يَسَعه، ولا يَشِينه.

وبعض الناس - لملالته - لا يكاد يَبقى في يده مالٌ إلا بدَّده في ثوبٍ جديد، أو أثاثٍ جديد، أو ترميماتٍ لبيته، دون حاجة تُذكَر لذلك!

وفي شأن الزواج يقول: «**ولا أَملّ زوجتي ما أحسنتْ عِشرتي**»!

إنها النظرة المعتدلة لحقيقة العلاقة الزوجية، وليست النظرة المثالية، التي تَحمل بعضَ الناس على التبرُّم من الزوجة لأدنى تقصير، أو طلبِ التعدُّد وكثرةِ الطلاق دون معنى معتبَر، وكأنه كاملٌ في أخلاقه وطِبَاعه!

(١) تاريخ دمشق (٤٦/ ١٨٣).

فعمروٌ ﷺ يرى أن العلاقة الزوجية تستقيم بالقَدْر الأدنى، الذي عبَّرت عنه تلك القاعدةُ النبوية في الحياة الزوجية التي قرَّرَها ﷺ بقوله: «لا يَفْرَكْ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِه منها خُلُقاً، رضيَ منها آخرَ»[1]؛ لأن عَمْراً - وهو الرجل الذي مُلِئ عقلاً - يُدرِك أن الحياة الزوجية - وسائر العلاقات الاجتماعية - ما لم تَقُم على اغتفارِ الزلات، واحتمالِ الهفوات؛ فلن يصبر أحدٌ على أحدٍ، ولن تَدوم علاقةٌ على وجه الأرض، لكن يبقى الوفاء، ويبقى احتمالُ الأخطاء، والسعي في تقويمها، والثناءُ على الأخلاق الحسنة، فبذلك تذهب الملالة، وتستمر الحياة.

وثالثة المعاني التي ذكرها عمروٌ ﷺ في موعظته، قوله: «**ولا أَمَلّ دابتي ما حملتني**» قارِن هذا بمن آتاه الله مالاً، فهو يغيِّر سيارَتَه في فترات قصيرة، ويتتبع الموديلات الجديدة!

وقد يقول قائل: وما الضير في ذلك؟ وقد آتاه الله مالاً؟

فالجواب: أن تعليل عَمْرٍ في آخر موعظته يوضح هذا: «**إن الملالَ مِن سيِّئ الأخلاق**» فلئن كان اليوم مقتدراً؛ فقد لا يكون غداً كذلك، ولئن تتبَّع طبعه الملول؛ فسيذهب وقتُه ومالُه في تتبُّع الكماليات.

كما أن المَلول مِن الناس لا يَصلح أن يقود، ولا أن يتسنَّم الأعمالَ الكبار، بل إن سرعةَ الملَلِ تَحرِم الإنسانَ من أنواع كثيرة من الخير، ومن أدار بصره في الواقع أدرك هذا جيداً، وبلا عناء.

(١) رواه مسلم ح(١٤٦٩).

المجلس الستون بعد المائتين
(خَيْرُ الخيرين!)

ومن ذلك ﵁ قوله: «**ليس العاقلُ الذي يعرف الخيرَ مِن الشر ولكنه الذي يعرف خيرَ الشرين، وليس الواصل الذي يَصِل من وصله! ولكنه الذي يَصِل من قَطَعه**»(١).

هذه الموعظة هي قاعدة في باب المقارنات بين الأقوال والأفعال والمواقف(٢).

وعمروٌ ﵁ **لا ينفي العقل مطلقاً عمن يميز بين الخير والشر، فهذا مما يحمد عليه** الإنسان، وإنما مراده أن أعلى درجات العقل: أن يوفّق الإنسانُ لمعرفة خير الشرين، ويضاف لذلك: خير الخيرين أيضاً، كما قال الشاعر:

إن اللبيب إذا بدا من جسمه
مرضان مختلفان داوى الأخطرا

وهذا موضعٌ من المواضع التي يتبين فيها فقهُ الإنسان، ورجاحةُ عقله؛ فإن تمييز الخير من الشر يدركه كثيرٌ من الناس، لكن التمييز بين خيرِ الخيرين وشرِّ الشرين قليل؛ لأنه يحتاج إلى مزيد علمٍ وتجربةٍ وبُعدِ نظر.

قال ابن تيمية ﵀: «**فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين، وشر الشرين، حتى**

(١) الإشراف في منازل الأشراف. لابن أبي الدنيا (ص: ٢٦٤).
(٢) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤): «وهذا ثابت في سائر الأمور».

يُقدَّم عند التزاحم خيرُ الخيرين، ويُدفَع شرُّ الشرَّين»[١].

ومن تأمل في واقع الناس؛ وجد أن أحدَ أهم أسبابِ الخلل الذي يَطرُق حياتهم الخاصة والعامة، هو من عدم تطبيق هذه القاعدة التي تضمنتها كلمةُ عمروٍ ﵁، فربما قُدّم شرُّ الشرين، وتُرك خيرُ الخيرين؛ فيحصل من الفساد والخلل ما لا يعلمه إلا الله تعالى!

ثم قال عمرو بن العاص ﵁: «**وليس الواصل الذي يَصِل من وصله! ولكنه الذي يَصِل من قَطَعه**» وهي قاعدة مقتبسة مِن مشكاة النبوة، ففي صحيح البخاري من حديث ابنِه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكن الواصلَ الذي إذا قطعتْ رحمُه وَصَلَها»[٢]، فإن الذي يَصِل على شرط الوصل؛ فهذا يشبِه التقاضي، وما أقربَه مِن حظ النفس! لكن الواصل حقاً هو الذي يعيش العبوديةَ لله تعالى بالقيام بهذه الشعيرة العظيمة: صلة الرحم.

ومَن تأمّل في سببِ انقطاع الصلة بين بعضِ الأرحام وجد أنه مشارطتُهم بلسان الحال أو بلسان المقال، والمؤمن الموفَّق هو من لم يلتفت إلى هذا، بل يَصِل ولو وَجَدَ صُدوداً وقطيعة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ففي صحيح مسلم أن رجلاً قال: يا رسول الله! إن لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُسيئون إليّ، وأَحلُم عنهم ويَجهلون عليّ، فقال: «لئن كنتَ كما قلتَ؛ فكأنما تَسفُّهم المَلَّ، ولا يزال معك مِن الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك»[٣].

---

(١) منهاج السنة النبوية (٦/ ١١٨).
(٢) البخاري ح(٥٩٩١).
(٣) مسلم ح(٢٥٥٨).

المجلس الواحد والستون بعد المائتين
(وصية من والد لولده)

أوصى عمرو بن العاص ﷺ - وهو الذي عركته التجارب - ابنه فقال: «**يا بنيّ! احفظ عني ما أُوصيكَ به، إمامُ عدْلٍ خيرٌ من مطَرٍ وابل، وإمامٌ ظلومٌ غشومٌ خيرٌ مِن فتنةٍ تَدُوم**»[1].

إن كلمةَ عمرو غايةٌ في الحكمة، فالمطر - مع أهميته - قد يعيش الإنسانُ بدونه بعضَ الوقت، ويرحل لبلدٍ أخرى مخصبَة، لكن كيف سيكون العيشُ مع فَقْد الأمن - والعياذ بالله -؟!

ومن حكمةِ الله ورحمتِه أن شرع للناس اختيار إمامٍ وحاكمٍ يقودُ الناسَ ويَسُوسُهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ:

لا يَصلح الناسُ فوضى لا سَراة لهم
ولا سَراة إذا جُهّالُهم سادوا

قال ابنُ تيمية رحمه الله: «والملِك الظالمُ لا بد أن يدفع اللهُ به مِن الشر أكثر من ظُلمِه، وقد قيل: ستون سنَة بإمامٍ ظالم؛ خيرٌ مِن ليلةٍ واحدةٍ بلا إمام»[2].

وقال رحمه الله: «ولهذا كان المشهورُ من مذهبِ أهلِ السنة أنهم لا يَرون الخروجَ على الأئمةِ وقتالهم بالسيف، وإن كان فيهم ظلمٌ؛ كما دلت على ذلك الأحاديثُ

---

(١) تاريخ دمشق (٤٦/ ١٨٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٦٨).

الصحيحةُ المستفيضةُ عن النبي ﷺ؛ لأن الفسادَ في القتالِ والفتنةِ أعظمُ من الفسادِ الحاصل بظلمِهم بدون قتالٍ ولا فتنةٍ، فلا يُدفَع أعظمُ الفسادين بالتزام أدناهما، ولعله لا يكادُ يُعرَف طائفةٌ خرجتْ على ذي سلطان؛ إلا وكان في خروجها مِن الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته»(١) انتهى كلامه:.

ومما يؤكَّد عليه - خاصةً أزمنةَ الفتن والاضطراب الذي تؤجِّجه بعضُ وسائلِ الإعلامِ ووسائل التواصلِ الاجتماعي -: الحرصُ على جمع الكلمة، وعدم نشْرِ ما يفرِّق جماعةَ المسلمين، أو يوغِرُ الصدورَ على ولاة الأمور من الحكَّام والعلماء؛ فإن عاقبةَ ذلك فسادٌ عريض، لا يعلمه الله.

ومن كمال هذه الشريعة: أنها لم تُقفِل بابَ النصح للأئمة - من العلماء والحكام - بل جعلتْه مِن الدين، كما في حديث تميم الداري رضي الله عنه: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامّتهم»(٢).

ونصيحة الأئمة حقٌّ لهم على رعيتهم، وليست مجرَّدَ إذنٍ من الشرْع، لكن لا بد أن يُسلَك فيها المسلكَ الشرعي، الذي يُحقِّق المصالحَ ويدفعُ أو يقلِّلُ المفاسدَ.

ومَن تأمَّل في أحوالِ الأمم الغابرة، والدولِ الحاضرة التي وقَعَ فيها خروجٌ على الحكام تيقَّنَ هذه الحقيقةَ التي أشار إليها الأئمةُ في كلامهم، ومنهم عمرو بن العاص.

نعوذ بالله من مُضِلات الفتن، ومِن أسباب ضياع الأمن، كما نسأله أن يُصلح أحوال المسلمين، وأن يولِّي عليهم خيارَهم، وأن يهدي ولاتَهم لتحكيم شرعِه وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) منهاج السنة النبوية (٣/ ٣٩١).
(٢) مسلم ح(٥٥)، أبو داوود ح(٤٩٤٤) واللفظ له.

المجلس الثاني والستون بعد المائتين
(خزْن اللسان)

روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: «دع ما لستَ منه في شيء، ولا تَنطِق فيما لا يَعنيك، واخزِن لسانَك كما تَخزِن نفقتَك»[(١)].

هذه الجملةُ الوعظيةُ تضمنت وصيتين عظيمتين:

الأولى: «**دع ما لستَ منه في شيء**»، وهي تشبه تلك الجملة المأثورة: «مِن حُسن إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه»[(٢)] والتي تعتبر أصلاً عظيماً من أصول الأدب[(٣)].

ومُراد عبدالله في قوله: «دع ما لستَ منه» أي: لا يعنيك شرعاً، أو عُرفاً، بحيث لا يخالف الشرع، ولا بد مِن حَمل هذه الكلمة على هذا المعنى، حتى لا يَظن أحدٌ أنه يريد بها ما ليس منها؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وما أكثر ما يَدخل الناسُ فيما ليسو منه، ولا يعنيهم في قَبيل ولا دَبير، ولا قليل ولا كثير! ومن ذلك: السؤال عن بعضِ التفاصيل التي سكتَتْ عنها الشريعة - لا نسياناً ولكن - رحمةً بالخلق، أو لأن تفصيلها لا فائدةَ منه.

ومن ذلك: ما يقع لبعضِ الناس مِن تتبع الصغيرةِ والكبيرةِ من خصوصيات الناس، فهذا لو لم تأت به الشريعة لنبذته الفطرةُ السليمة، ولنفرتْ منه النفوسُ المستقيمة،

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٨).
(٢) الترمذي ح(٢٣١٧)، ابن ماجه ح(٣٩٧٦).
(٣) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٨٨).

وهو مما يوجب العداوةَ والبغضاء، ويحمل على العدوان بين الناس، وهو في الحقيقة أحدُ صوَرِ التجسس، وتتبُّع العورات، والفضول من القول والعمل.

وأما الجملة الثانية: فهي قوله: «**ولا تَنطِق فيما لا يَعنيك، واخزن لسانك كما تخزن نفقتك**».

وهذه الجملة وثيقة الصلة بالجملة الأولى، ولكنها تستحق الإفراد؛ لكثرة ما يدخل على الناس من خللٍ بسبب اللسان.

إن هذه الموعظة تلتقي مع قوله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[1].

ومن هنا أطبَقَ السلفُ - رضي الله عنهم ورحمهم - على هذا المعنى، وكلامُهم في هذا الباب كثيرٌ جداً، بل صنَّف بعضُ الأئمة كُتُباً في أدب المنطق والصمت.

يقول عطاء بن أبي رباح رحمه الله: إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام، وكانوا يَعُدّون فضولَ الكلام ما عدا كتابِ الله أن تَقرأَه، أو تَأمُر بمعروف، أو تَنهى عن منكر، أو تَنطق بحاجتك في معيشتك الّتي لا بدّ لك منها، أتُنكِرون: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِراماً كاتِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١١] ﴿وعَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ ۝١٧ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧ - ١٨]، أما يَستحي أحدُكم أن لو نُشِرت عليه صحيفتُه التي أَمْلى صدرَ نهاره، كان أكثر ما فيها ليس مِن أمر دينه ولا دنياه؟![2].

ولو طبّقنا وصيةَ عبدالله بن عمرو بقوله: «واخزن لسانَك كما تَخزِن نَفَقتَك»؛ لم نتكلم إلا قليلاً، وفيما يعنينا، والله المستعان.

---

(١) البخاري ح(٦٠١٨)، مسلم ح(٤٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة رقم (٣٥٤٦٩).

المجلس الثالث والستون بعد المائتين
(علاج النظر المحرم)

رُوِيَت عنه بعضُ المواعظ، منها قوله: «إذا لقيتَ امرأةً فغمِّض عينيك حتى تَمْضي»(١).

قد تبدو هذه الوصيةُ في غض البصر مكرَّرة ومعتادة، لكننا - والله - بحاجة للتذكير بها، خاصة في عصرنا الذي تَفتّحت الأعينُ على صورٍ لا قِبَل للناس بها، فالصالحُ من الناس - ممن يتحاشى رؤيةَ امرأةٍ أجنبية - يُبتلى بسببِ انتشار وسائلِ نشر الصور بشيء من هذا البلاء! فكان حقاً على اللبيب العاقل أن ينتبه لهذا المنفذ الخطير الذي أودى بقلوبٍ كانت معلّقةً بالعرش فهوى بها إطلاق النظر إلى الفرش!

ولخطورة هذا النظر جاء الأمرُ بغض البصر للرجال والنساء، على خلاف المعتاد في غالبِ أوامر القرآن، التي تكتفي بتوجيه الخطاب للعموم، فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ... ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

ولما نهى النبي ﷺ عن الجلوس في الطرقات، قال الصحابة ﷺ: يا رسول الله! ما لنا بُدٌّ من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم إلا المجلِس فأعطوا الطريق حقَّه» قالوا: وما حقُّه؟، قال: «**غضُّ البصر**، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام والأمرُ

(١) الزهد. للإمام أحمد (ص: ١٧٢).

بالمعروف، والنهيُ عن المنكر»[1] فبدأ بغض البصر.

وإذا كان هذا التوجيهُ الرباني والنبوي يتكرر في تلك الحِقبَة من الزمن، التي كانت عامَّةُ النساء فيها على قَدرٍ كبيرٍ من الحشِمة والسِّتر؛ فكيف سيكون الحالُ في عصرنا، الذي تنوعت فيه الصور وأساليب الإغراء بها، واستهداف الشباب والفتيات بها؟!

لقد كثُرت الشكوى مِن قسوة القلوب، وضعُف الخشوعُ في الصلاة، ومَن تأملَ في أعظم الأسباب تأثيراً في ذلك؛ أدركَ أن إطلاقَ البصر في الحرام يأتي في مقدِّمتها.

والحديث في هذه المسألة يَطول، والمقصودُ الإشارة إلى خطورةِ التساهل في ذلك، وعدمِ الركون إلى ما في القلب مِن صلاحٍ أو تقى، فلرُبَّ نظرةٍ أوقعتْ في قلبِ صاحبها البلابل! كما يُروى عن الإمام أحمد رحمه الله.

ومِن أعظم طرق علاج هذه البلية: ما قاله الجنيد - لما سُئِل -: بما يُستعان على غض البصر؟ قال: بعلمِك أن نَظَر اللّه إليك أسبَق إلى ما تنظره.

وهذا - والله - هو أنجع الأدوية، استشعارُ مراقبةِ الله عز وجل.

ومن وُفِّق لغضِّ بصرِه أكرَمه الله بكرامات كثيرة، منها: راحةُ القلب مِن قسوته، وصفاؤه من مكدرات الخشوع، فسيجد لصَلاتِه لذة، ولتلاوته لكلام مولاه لذّة، ولمناجاته لذة؛ ولهذا ذَكَر سبحانه آيةَ النور عقيب آيات غض البصر فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ [النور: ٣٥] فالله تعالى يجزي العبدَ على عمله بما هو مِن جنس عمَلِه، فغض بصَرِه عما حرَّم يعوِّضه اللهُ عليه مِن جنسه بما هو خيرٌ منه؛ فيُطلِق نورَ بصيرته، ويَفتح عليه.

اللهم ارزقنا غض البصر عما نهيتنا عنه، والبصيرة فيما أمرتنا به.

---

(١) البخاري ح(٦٢٢٩)، مسلم ح(٢١٢١).

المجلس الرابع والستون بعد المائتين (أدق من الشعر!)

وعظَ أنسُ بن مالك ﷺ الناس، محذراً من التهاون بالذنوب، فقال: «إنكم لتعمَلون أعمالاً هي أدقُّ في أعيُنكم مِن الشَّعر، إن كنا لنَعُدّها على عهد النبي ﷺ مِن الموبقات». قال أبو عبدالله البخاري: «يعني بذلك المهلكات»[١].

وقد بوّب البخاري على هذا الأثر بقوله: «**باب ما يتقى من محقرات الذنوب**».

إن السؤال الذي يطرحه الإنسانُ وهو يقرأ هذه الموعظةَ من هذا الصحابي الجليل: مَن هو المخاطَب بهذه الكلمات؟! إنهم التابعون بلا ريب! الذين أثنى النبي ﷺ على قَرنِهم في الجملة فقال: «خير الناس قرْني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...»الحديث[٢]. وما الموبقات والمهلكات التي يُشير إليها أنسٌ ﷺ!

إنه الإيمان؛ لأنه كلما قوي الإيمانُ استعظم العبدُ معصيةَ سيده ومولاه، وكلما ضعُف الإيمانُ هانت عليه المعصية، ورآها أمراً هيّناً، فتراه يقصِّر في الواجب، ولا يُبالي بفعل المحرّم، بل ربما استصغره!

وما أجمل ذلك التشبيه النبوي لحقيقة احتقارِ الذنوب وأثرِها على العبد! الذي بيّنه أفصحُ الخلق ﷺ بقوله: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب! فإنما مثل محقَّرات الذنوب: كقومٍ نزلوا في بطن وادٍ، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزهم، وإن

---

(١) البخاري ح(٦٤٩٢).
(٢) البخاري ح(٣٦٥١)، مسلم ح(٢٥٣٣).

محقرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبُها تُهلِكه»[١].

قال ابن بطّال رحمه الله: «إنما كانوا يَعدُّون الصغائرَ مِن الموبقات لشدةِ خشيَتهم لله وإن لم تكن لهم كبائر...، والمحقَّرات إذا كثرت صارت كبائر؛ بالإصرار عليها والتمادي فيها، وقد روى ابنُ وهب، عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: إن الرجل ليعمل الحسنةَ فيَثِق بها، ويغشى المحقَّرات، فيلقى الله يوم القيامة وقد أحاطت به خطيئتُه! وإن الرجلَ ليعمل السيئةَ، فما يزال منها مشفِقًا حذرًا حتى يلقى اللهَ يومَ القيامة آمنًا»[٢] اهـ.

«ومَنْ نظر إلى الذنوب على أنها أوساخ توقاها وتجنبها ولو كانت صغاراً، فالوسخ يؤثّر ولو كان قليلاً، فإذا تراكم سوّد الثياب.

وثمةَ معنى أجلّ وأعظم، يراعيه أهلُ القلوب الحيّة، وهو تعظيم أمرِ اللهِ ونهيِهِ، واستشعارُ مراقبته، ولسانُ حالهم كما قال التابعيُّ الجليل بلال بن سعد: «لا تنظر إلى صِغر الخطيئة، ولكن انظر مَنْ عصيت»!»[٣].

وما أجمل ما قاله ابنُ الجوزي في بيان خطورة التهاون بالذنب:

«فَاللهَ اللهَ! اسمعوا ممن قد جرب! كونوا على مراقبة، وانظروا في العواقب، واعرفوا عظمة الناهي، واحذروا من نفخة تُحتَقر، وشررة تُستَصغَر، فربما أحرقت بلدًا! وهذا الذي أشرتُ إليه يسيرٌ يدل على كثير، وأنموذج يُعرِّف باقي المحقَّرات من الذنوب.

والعلمُ والمراقبةُ يُعرِّفانك ما أخللت بذِكره، ويُعلِّمانِك إن تلمَّحتَ بعين البصيرة أثرَ شؤم فِعله»[٤]اهـ.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا تعظيم أمره ونهيه، وخشيته في الغيب والشهادة.

---

(١) رواه أحمد ح(٢٢٨٠٨) وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٣٢٩).
(٢) شرح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٠٢).
(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣١٢).
(٤) صيد الخاطر (ص: ١٤٩).

المجلس الخامس والستون بعد المائتين
(نفوس كبيرة!)

شتم رجلٌ ابنَ عباسٍ، فقال له: «إنك لتشتمني وفيَّ ثلاثُ خصال:

- إني لآتي على الآية من كتاب الله ﷻ، فلوددت أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها.
- وإني لأسمع بالحاكم مِن حكام المسلمين يعدِل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً.
- وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلدَ من بلاد المسلمين فأفرح، وما لي به مِن سائمة»[1].

العلماء الربانيون يُربُّون الناسَ بمواقفهم قبل كلامهم، وبسَمْتهم وهديهم قبل حديثهم.

فهذا ابن عباس - وهو من هو - يسمع شتماً، وهو يدرك أن ردَّ الشتيمة سهلٌ، ومقابلةَ السفهِ بسفهٍ مثله لا يعجز عنه أحدٌ، ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا، بل فعل الذي يليق به دينا وعلماً وشرفا، ألا وهو التحقق بقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، بل ارتقى ابنُ عباس إلى مقامٍ أعلى، وهو قلْب الموقف ليكون درساً تربوياً، يحمل العبرة، وينضح

(١) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٢٦٦).

بالنصح، في ثلاث جُمَلٍ تمتلئ حباً للخير مِن حَبر الأمةِ للأمَّة، يقول ابنُ عباس رضي الله عنهما:

«**إنك لتشتمني وفيَّ ثلاثُ خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله عز وجل، فلوددت أنَّ جميع الناس يعلمون منها ما أعلم منها**»

الله أكبر! لقد فتح اللهُ على هذا الحَبر مِن فهم القرآن ما فتح، ووجد مِن لذة الفهم، وروعة الاستنباط؛ ما تمنى معه أن يشاركه الناسُ في فهمها، والعمل بها.

ثم قال رضي الله عنهما: «**وإني لأسمع بالحاكم مِن حكام المسلمين - يعني القاضي - يعدِل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً**».

ولا ريب أن المؤمنَ يفرح بذلك، كما أنه يَتنغَّص إن سمع بقاضٍ مقصِّر في عمله، وإن لم يَترافع إليه أبداً، وما ذاك إلا لأن صلاحَ القضاةِ علامةُ خيريةٍ في الأمة، كما أن فسادهم - والعياذ بالله - علامةُ فسادٍ في الأمة.

ثم قال رضي الله عنهما: «**وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلدَ من بلاد المسلمين فأفرح، وما لي به مِن سائمة**» أي بهائمَ تَسومُ الأرضَ وترعاها، وهذه الجملة وقعت في نفس السياق الذي يحمل حب الخير للمسلمين، وإن لم يُصبْه منه شيءٌ.

ألا ما أحوجنا أن نستفيد من موعظةِ ابن عباس هذه في واقعنا! فما أكثر ما يَسمع أحدُنا أو يَقرأ مِن أساليب التهكُّم، أو السخرية، سواء كفاحاً، أم برسالة جوال، أم عبر وسائل التواصل!

وما أجمل الرد - إن احتاج إليه المقام - كهذا الرد الذي يفيض شفقةً ونصحاً، فالنفس - عادةً - فيها مَيل للانتصار لنفسها، ومَيل للرد على السفهاء، لكن المؤمنَ يُجاهد نفسَه ما استطاع على تمثُّل هديِ النبي صلى الله عليه وسلم وهديِ أصحابه؛ في الإعراض عن الجاهلين، والصفح عنهم، والصبر على أذاهم.

المجلس السادس والستون بعد المائتين
(روعةُ الردِّ)

روى البخاري في «الأدب المفرد»، وغيرُه[(١)] أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لو قال لي فرعونُ: بارك الله فيك، لقلت: وفيك».

إنه درسٌ راقٍ في بيان المنهج في التعامل مع من نسمع منه كلمة طيبة، وإن كان من أبغض الناس وأكرههم إلى قلوبنا، فحقُّه إذا نطق بالخير أن نقابله بمثله.

وإذا كان المنهج الشرعي - في جملته - هو ابتداء الكلام الحسن للطرف الآخر، كما قال سبحانه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣][(٢)] فكيف بمن يبتدئنا بالكلام الحسن!

إن المتابع لما يُكتب ويُقال عبر صفحات التواصل الاجتماعي ليأخذه الألم كلَّ مَأخَذ مِن علوِّ لغة السب والشتم، وظهور الفحش في الكلام بين المتحاورين، لماذا؟ لأجل أن هذا طرَحَ طرحاً يخالف ما يراه ذاك! بل حتى لو ابتدأ أحدُ الطرفين بعبارة طيبة، فإن بعض الناس يظن أن مقابلتها بمثلها - مع اختلاف التوجه الفكري أو العقدي - نوعٌ من الضعف!

إن كلمة ابن عباس هذه لهي أثرٌ من آثار عقله، ورسوخه في العلم المُزكّى، الموروث عن سيد ولد آدم ﷺ! الذي خالط المشركين في مكة، وخالط اليهود

(١) ابن أبي شيبة رقم(٢٥٨٢٥)، الأدب المفرد للبخاري رقم(١١١٣)، حلية الأولياء ١/ ٣٢٢.
(٢) ينظر: كتاب «قواعد قرآنية» لكاتب هذه الأسطر، القاعدة رقم(١).

والمنافقين في المدينة، وزاره النصارى في آخر حياته، فلم يُسمع منه كلمة بذيئة، مع كثرة ما رموه به من قبيح الأوصاف التي لا تليق بعاقل؛ بَلْه نبيٍ يوحَى إليه!

بل لقد نهى زوجَه عائشةَ رضي الله عنها أن تقابل اليهود بسفههم، ذلك أنه في أحد الأيام دخل رهط من اليهود على الرسول ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتُها فقلت: وعليكم السام واللعنة! قالت: فقال رسول الله ﷺ: «**مهلاً يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» فقلت: يا رسول الله! أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «**قد قلتُ: وعليكم**»[1].

بوّب البخاري على هذا الحديث فقال: **باب الرفق في الأمر كلّه**.

فمتى يفقه أتباعُ محمدٍ ﷺ - الذين كثُر في قواميسهم السبُّ والشتمُ واللعنُ - هذا المعنى؟ ومتى نراه واقعاً معاشاً؟ ومتى نرتقي بحواراتنا؛ حتى تعلو لغةُ العقل والأدب بدلاً من الضجيج والصخب؟! فإن ارتفاع الصوت، وقبح العبارات ليس دليلاً على قوةِ الحجة، بل العكس! كما قيل: أكثر العربات ضجيجاً هي العربة الفارغة!

---

(١) البخاري ح(٦٠٢٤)، مسلم ح(٢١٦٥).

المجلس السابع والستون بعد المائتين
(عيوبك قبل عيوب غيرك)

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا أردتَ أن تَذكُر عيوبِ صاحبك، فاذكُر عيوبَ نفسِك»[(١)].

إنها موعظة تهذِّب النفس، وتكبح جماحَ النقد عندها، فإن النفوس - إلا من رحم الله - مولَعةٌ بانتقاد الآخرين، والحديثِ عن معايبهم، والغفلةِ عن عيوبهم التي هم والغون فيها، وربما كانت أعظم مما عابوا به غيرهم.

وهذا كما أنه مذمومٌ وقبيح بالإنسان؛ فهو مِن علامات الخذلان والعياذ بالله! وقد قيل: «طوبى لمن شغله عيبُه عن عيوبِ الناس».

وقد أحسن الأول حين قال:

لنفسي أبكي لستُ أبكي لغيرها
لنفسي مِن نفسي عن الناس شاغلُ

ولا يعني هذا إغلاقُ باب النصح بين الناس حتى يكتمل الناصح! فإن هذا لا يقوله أحدٌ، وإلا للزم منه تركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن المقصود أن يحذر العبدُ أن يكون مُوْلعاً بتتبع عيوب الناس، غافلاً عن عيوب نفسه، وألا يكون

(١) الزهد للإمام أحمد، رقم(١٠٤٦)، الأدب المفرد للبخاري رقم(٣٢٨).

منصِفاً، بحيث يعامل الناس بالذي يحب أن يعاملوه به، ويكره أن يعامل الناس بالذي يَكره معاملتهم به.

ومِن العِبَر في هذا الباب، قول الإمام مالك رحمه الله: أدركتُ بهذه البلدة - يعني المدينة - أقواماً لم تكن لهم عيوب، فعابوا الناسَ فصارت لهم عيوب، وأدركتُ بها أقواماً كانت لهم عيوبٌ فسكتوا عن عيوب الناس فنُسيَت عيوبُهم.[1]

ولو أن الناس طبَّقوا موعظةَ ابن عباس هذه «**إذا أردتَ أن تذكر عيوبَ صاحبك، فاذكر عيوبَ نفسك**»؛ لأحجموا عن كثيرٍ مما يتكلمون به في مجالسهم، ومنتدياتهم، ومواقعهم على الشبكة العالمية، أو القنوات الفضائية، ولاستفادوا من ذلك فائدةً أخرى، وهي: حفظُ حسناتهم من الذهاب لخصومهم، والسلامة من كبيرة الغيبة، التي أحرقت كثيراً من الحسنات، وجلبت كثيراً من السيئات، والله المستعان.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف من أنفسنا، والبصرَ بعيوبنا، والتماسَ الأعذار لإخواننا.

---

(١) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (١/ ١٠٦).

المجلس الثامن والستون بعد المائتين
(سخط الله وسخط الناس)

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في بعضِ مواعظها: «مَن أَسخطَ الناسَ برضا الله كفاه الناسَ، ومَن أرضى الناسَ بِسخَط اللهِ وَكَله اللهُ إلى الناس»(١).

هذه الموعظة رُويَت مرفوعة إلى النبي ﷺ، والصحيح أنها من قول عائشة رضي الله عنها كما أشار إليه الترمذي.

والمقصود من هذه الموعظة: أن يتحرى العبدُ مرضاة الله وإن سَخِط مَن سَخِط، خاصة لمن وَلّاه الله تعالى مكانةً أو إدارةً أو رئاسةً، فإن دواعي التماس الرضا مِن الخلق كثيرة، ولكنها لا تُغني إذا صادمت رضا الله عز وجل، وتأمل في قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦] فقد ذم اللهُ هؤلاء المنافقين الذين يحلفون بالله تعالى من أجل كسب رضا النبي ﷺ وأصحابه، مع ما استقر في نفوسهم مِن الكفر والكبر، فالتسموا رضا المخلوق في غفلةٍ عن رضا الخالق سبحانه، فلم ينفعهم ذلك.

تَعرِض للإنسان في حياته مواقفُ يتنازعها الصدق والكذب، ويتنازعها رضا مخلوقٍ وغضبُ الخالق، فهنا يأتي المحكّ، ويظهر الإيمان، وتبدو آثارُ المراقبة لله تعالى، والمقطوع به أن من التمس رضا المخلوق في سخط الخالق عاد حامدُه من

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٣٥) رقم(١٩٠).

الناس ذاماً، وحُرِم التوفيقَ ولو بعد حين، والعكسُ صحيح، وتأمل ما وقع للثلاثة الذين خُلِّفوا، والذين ذكر اللهُ قصتَهم في كتابه الكريم خالدةً أبدَ الدهر!

لقد تخلَّف عن تبوك عشراتُ الناس، أكثرُهم منافقون، لاذوا بالكذب ليَرضى عنهم النبيُّ ﷺ وأصحابُه، ولم يُبالوا برضى الله في تلك القضية، بينما ثبت كعبُ بن مالك وصاحباه، فصَدَقوا - مع مرارة الصدق التي تجرعوها خمسين ليلة - فكانت العاقبة لهم، بل صاروا أئمةً في الصدق يُقتدى بهم، حيث قال الله تعالى معقِّباً على قصتهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وهكذا كلُّ مَن صدَق مع الله صدَقَه وأنجاه، ومَن التمس رضا الخلق بسَخَطه؛ تعسرت أمورُه، وربما انقلب عليه أسيادُه، ومَنْ التمس رضاهم؛ آذوه بعد أن كانوا له مكرمين!

وبالجملة، فلنتذكر قول عائشة رضي الله عنها جيداً، حينما يَعرض لنا من عوارض الدنيا ما تتنازع فيه النفسُ وتترد بين حظِّها وبين حقِّ الله: «من أسخط الناس برضا الله كفاه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، وكله الله إلى الناس»، ومَن وَكَله الله إلى الناس - مهما كثروا وقوِيتْ شوكتُهم - وَكَله اللهُ إلى عَجزٍ وضَعف.

المجلس التاسع والستون بعد المائتين
(من خير ما تلقى الله به!)

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قولها: «أَقِلُّوا الذنوب؛ فإنكم لن تلقوا اللهَ بشيءٍ أفضلَ مِن قلةِ الذنوب»[١].

سبحان الله! ما أجمل هذه الموعظة!

إن كثيراً مِن الناس قد لا ينشط للطاعات، ولا يستطيعها، خاصة في مواسم الطاعات الفاضلة، فمِن أحسن الصدقات على النفس في هذه الحال أن يُقِلّ من الذنوب والمعاصي.

قد يَعجز بعضُ الناس عن صيام الهواجر، أو قيام الليل، أو الصدقة، أو الحج والعمرة، أو الجهاد في سبيل الله تعالى؛ لأنها أفعال تتطلب جهداً وصبراً ومصابرة، ولكن تَرْكَ المعاصي غايةُ ما فيه عدم الفعل، نعم هو يحتاج إلى مجاهدةِ النفس على ترك المعصية، لكنها أَيسرُ وأسهلُ على مَن يَسّرها الله عليه.

ولله دَر الإمام سفيان الثوري حين قيل له: يا أبا عبدالله! لو دعوتَ بدعوات؟ قال: تَرْكُ الذنوب هو الدعاء[٢].

وهو يُشير بذلك إلى أن مِن أعظمِ ما يُحقِّق إجابةَ الدعاء تركُ الذنوب، وفي المقابِل: الذنوب سببٌ للخذلان والحرمان.

---

(١) الزهد لوكيع (ص: ٥٣٥) رقم(٢٧٣).
(٢) حلية الأولياء (٦/ ٣٩٣).

أخي المسلم: إن الإقلالَ مِن الذنوب له ثمراتٌ وفوائدُ كثيرة، لو لم يكن منها - كما قال ابن القيم - إلا السلامة من الوحشة التي «يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقارنها لذةٌ أصلاً، ولو اجتمعتْ له لذاتُ الدنيا بأسرِها لم تفِ بتلك الوحشة! وهذا أمرٌ لا يُحِس به إلا مَن في قلبه حياةٌ، وما لجرحٍ بميت إيلام، فلو لم تُترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة؛ لكان العاقل حرياً بتركها.

وشكا رجلٌ إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوبُ
فدعها إذا شئتَ واستأنس

وليس على القلب أمرّ مِن وحشة الذنب على الذنب، فالله المستعان»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: في موضع آخر: «لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلا: إقامةُ المروءة، وصونُ العرض، وحفظُ الجاه، ومحبةُ الخلق، وصلاحُ المعاش، وراحةُ البدن، وقوةُ القلب، وطيبُ النفس، ونعيمُ القلب، وانشراحُ الصدر، والأمنُ من مخاوف الفُسّاق والفجار، وقلةُ الهمّ والغم والحزن، وعزُّ النفس عن احتمال الذل، وصونُ نور القلب أن تطفئه ظلمةُ المعصية، وتيسّرُ الرزق عليه من حيث لا يحتسب، وتيسيرُ ما عَسُرَ على أرباب الفسوق والمعاصي، وتسهيلُ الطاعات عليه، وتيسيرُ العلم، والثناءُ الحسن في الناس، وسرعةُ إجابة دعائه، وزوالُ الوحشة التي بينه وبين الله، وقربُ الملائكة منه، وبُعدُ شياطين الإنس والجن منه، وتنافسُ الناس على خدمتِه وقضاءِ حوائجه...»[٢] الخ كلامه رحمه الله، أي: لكفى بذلك داعياً لترك الذنوب والمعاصي.

نسأل الله أن يرزقنا عزّ الطاعة، وأن يعيذنا من ذل المعصية.

---

(١) الجواب الكافي (ص: ٥٢).
(٢) الفوائد لابن القيم (ص: ١٥١) باختصار.

فهرس الموضوعات